

UNIVERSAL
LIBRARY

OU 190001

UNIVERSAL
LIBRARY

السيف والناب

في السودان

تأليف

سلاطين بامنا

وتعريب جريدة البشارة

(مطبعة البلاغ)

تهيد

وعدنا في التهيد الذي وضعناه لكتاب « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » لمستر ويلفرد سكاون بلنت ان تصدر من بعده كتاب « السيف والنار في السودان » لسلاطين باشا . وهذان الكتابان يعدان من المستندات التاريخية التي لا بد من الاطلاع عليها لمعرفة الحوادث التي تقلت على مصر والسودان من خمسين سنة وهي الحوادث التي مازلنا نعاني نتائجها الى الان

فاليوم ها نحن نبرز كتاب « السيف والدار في السودان » وفاءً بذلك الوعد ورغبة في أن تكون له الفائدة المرجوة في خدمة تاريخ مصر الحديث

وسلاطين باشا ، مؤلف هذا الكتاب ، هو ضابط نمساوي ولد سنة ١٨٥٧ في فينا وجاء الى مصر سنة ١٨٧٨ ودخل في خدمتها فعينه غوردون باشا حاكما لدارفور سنة ١٨٨٤ ولكن لم يمض عليه في منصبه هذا قليل حتى اعتقلته جيوش المهدي فبقى أسيراً يدعى الاسلام والايان بالمهدوية الى سنة ١٨٩٥ وحينئذ فر الى الجيش المصري واشترك معه في استرداد دنقلة وأم درمان

وبقي سلاطين باشا بعد ذلك موظفياً في حكومة السودان بين سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩١٤ ثم أعلنت الحرب العالمية فترك الخدمة في السودان وعاد الى النمسا ودخل في خدمة الصليب الاحمر . ولما عقدت الهدنة سنة ١٩١٨ انتدب عضواً في بعثة الصلح في باريس

وقد نقل هذا الكتاب الى اللغة الانجليزية السري ونجت باشا الذي كان حاكماً للسودان ثم معتمداً لانجلترا في مصر . وهذه الترجمة الانجليزية هي التي اعتمدنا عليها في التعريب

الفصل الاول

تمهيد

في يولييه سنة ١٨٧٨ عند ما كنت ملازماً في الألى ولى العهد روداف عند حدود البوسنة تسلمت خطاباً من الجنرال غوردون يدعونى فيه ان اذهب الى السودان واشتغل فى خدمة الحكومة المصرية تحت إدارته

و كنت فى سنة ١٨٧٤ قد سمحت فى السودان عن طريق اسوان فذهبت الى كورسكو وبربر ووصلت الى الخرطوم فى شهر اكتوبر من تلك السنة وعرجت على جبال النوبة وبقيت مدة قصيرة فى دابن حيث كان مركز الرسالة الكاثوايكية النمسية . ومن هنا خرجت فى اكتشاف جبال جوافان نائمة وجبال كاديرو و كنت اود ان اطليل بقائى فى هذه الاصقاع ولكن حال دون ذلك قيام عرب الحوازمة . ولما لم تكن لى مهمة سوى السياحة فان الحكومة طلبت عودتى الى الابيض عاصمة كردوفان . وكان قيام هؤلاء العرب ناتجاً عن جباية الضرائب الفادحة التى فرضتها عليهم الحكومة . وقد أخذت الحكومة هذه الحركة بسرعة ولكنى لهذه الظروف لم أر من الصواب الرجوع الى النوبة وعلى ذلك قررت السفر الى دارفور

وفى ذلك الوقت كان حاكم السودان العام اسماعيل باشا أيوب مقبياً فى الفانشر عاصمة دارفور وعند ما بلغت الكاجه والقاطول وجدت ما خيب رجائى فان الحكومة نشرت منشوراً منعت فيه دخول الاجانب فى هذا القسم من السودان لانه كان حديث العهد بالخضوع للحكومة وكان يخشى على حياة الاجانب فيه . فرجعت بلا توان الى الخرطوم حيث عرفت أمين باشا (وكان فى ذلك الوقت الدكتور امين) وكان قد أتى من مصر حديثاً فى صحبة من يدعى كارل فون جرم

وكان الجنرال غوردون حاكماً عاماً لمديريات خط الاستواء وكان مقبياً فى لادو فكتبنا اليه نطلب منه أن يشير علينا بما يراه . وبعد شهرين جاءنا جوابه يدعونا الى زيارته ولكن فى هذا الوقت وافانى خطاب من أسرتنى فى فينا وهم يحثوننى على

الرجوع الى أوروبا . وكنت أعانى مرض الحمى وكان لا يزال باقيا علي سنة في الخدمة العسكرية فقررت الرجوع والنزول على رأى أفراد أسرتي

اما الدكتور امين فقد قبل دعوة غوردون وشرع في السفر الى الجنوب كما شرعت أنا في السفر نحو الشمال . وقبل الاقتراق رجوت امين ان يذكرني بالخير امام غوردون وقد فعل . وكان ابصاؤه بي لديه سبباً في ذلك الخطاب الذى ذكرت أنى تسلمته وأنا بالبوسنة بعد ذلك بثلاث سنوات

وبعيد وصول أمين منحه غوردون رتبة بك وعينه حاكماً لمدينة لادو . وعند سفر غوردون تعين حاكماً عاماً لمديريات خط الاستواء . وبقي في هذا المنصب الى سنة ١٨٨٩ حيث عين مستر ستانلى مكانه

وعدت أنا الى مصر عن طريق صحراء بيوضه ثم دقله ووادى حلفا وبلغت النمسا حوالى أواخر سنة ١٨٧٥

وقد فرحت عند ما تسلمت خطاب غوردون الذى وصل الى ونحن في حرب البوسنة واشتقت الى ان أعود الى السودان معيناً في منصب ما . ولكن لم يؤذن لى بالسفر الا في ديسمبر سنة ١٨٧٨ عند ما انتهت الحرب وعادت فرقتى الى برسبرج فأخذت في التهيؤ مرة أخرى للسفر الى افريقيا

وكان أخى هنرى في الهرسك فقضيت ثمانية أيام في فينا أودع أفراد أسرتي ثم ذهبت الى تريستا في ٢١ دسمبر سنة ١٨٧٨ وأنا أجهل تماماً انه سيمضي على ١٧ سنة أرى فيها الاهوال والفرائب قبل أن أرى بلادى ثانيا . وكان عمري اذ ذاك ٢٢ سنة .

ولما بلغت القاهرة تسلمت تلغرافاً من جيجلر باشا بالسويس وكان قد عين مديراً لمصلحة التلغرافات بالسودان وكان على وشك ان يسافر الى مصوع لكي يقتش على الخط بين هذه البلدة وبين الخرطوم . وقد دعاني الى السفر معه الى سواكن قبلت بكل سرور الانتفاع بهذه الفرصة التى تكرم فأتاحها لى . واقترقنا في سواكن فذهب هو على ظهر الباخرة الى مصوع وشرعت أنا أهيب نفسي للسفر الى بربر على الجمال . وقد عاونتى علاء الدين باشا الذى كان حاكماً في ذلك الوقت والذي كان بعد ذلك

في صحبة هكس باشا الذي قتل مع الجيش المصري بأجمعه عندما اصطدم به جيش المهدي في شيكان في نوفمبر سنة ١٨٨٣

ولما بلغت بربر وجدت في انتظارى ذهبية بأمر الجنرال غوردون فزلت اليها ووصلنا الى الخرطوم في ١٥ يناير سنة ١٨٧٩ . وقد لقيت هنا احتراماً وورعاية اذ قد خصني غوردون بدار ليست بعيدة عن القصر وانفذ الى من يدعى على افندي لكي يقوم بقضاء ما احتاج اليه . وكنت في اجتماعي بالجنرال غوردون اسمعه يتحدث عن الضباط النمسيين الذين عرفهم في طولطشة عندما كانت في بعثة الدانوب وكان يحفظ لهم في قلبه أجمل ذكرى . وأتذكر قوله لي انه من الخطأ ان تغير ملابسنا البيضاء السابقة بملابسنا الزرقاء الراهنة .

وعينى غوردون مفتشاً مالياً وطلب اليّ ان أقوم بالتفتيش في البلاد والفحص شكايات السودانيين الذين كانوا يعارضون في دفع الضرائب التي لم تكن تعتبر فادحة . واطاعة لهذه الاوامر قمت الى سنار وفازوغل عن طريق المسلمية وعرجت على جبال قوقيلي ورجرج وكشانكيرو القرية من بنى شنغول ثم رفعت تقريرى الى الجنرال غوردون وأوضحت في هذا التقرير ان الضرائب غير عادلة وان معظمها يقع على عاتق أصحاب الاملاك الصغيرة من الارض . اما كبار الملاك فكان من السهل عليهم ان يرشوا الجباة بمبالغ صغيرة فينجوا من الضرائب الا ما قل منها . وعلى هذا كان مقدار كبير من الارض لا تؤخذ عليه الضريبة بينما يقوم الفقراء بسد العجز ودفع ضرائب ثقيلة عن أملاكهم . وأبنت فضلاً عن هذا النظام السيء ان الاهالي مستاءون من الطرق الجائرة التي يتبعها جباة الضرائب وجلهم من الجنود والباشبوزق والشايحية ولم يكن هم هؤلاء الموظفين سوى الحصول على الثروة بأسرع ما يمكنهم على حساب السكان التمساء الذين كانوا يخضعون لسلطتهم الوحشية القاسية .

وكنت كثيراً ما أجد خلال أسفارى ان الاراضي التي يملكها الموظفون ومعظمهم من الأتراك والشايحية لا تنجب عليها ضرائب ما وعندما كنت أسأل عن علة ذلك كان يقال ان هذا امتياز للموظفين لما يقومون به من الخدمة للحكومة . وقد كانوا يستاءون أشد الاستياء عندما كنت أقول لهم انهم يتناولون أجراً على هذه الخدمة .

ولكنني عندما قبضت على البعض منهم أقروا جميعا بانهم متأخرون في دفع الضرائب . ووجدت في المسلمية وهي بلدة تجارية كبيرة تقع بين النيلين الأبيض والأزرق جماعة من النساء في سن الشباب وكان يملكن أغنى التحار واكثرهم اعتبارا ويؤجروهن للاغراض السافلة ناجور عالية . وكان هذا العمل من التجارات الرابحة ووقعت في حيرة لا أدري كيف أفرض الضرائب على هذه المنازل ولا أية خطة يجب اقرارها . واني أعترف بأن تجاري الماضية ومعارفي قد خذلني في هذا الموضوع . وشعرت عندئذ بعجزى التام عن القيام بأى اصلاح ولم يكن لى من الخبرة بالشئون المالية سوى القليل او العدم فلذلك وجدت من العبث ان استمر في عملي وقدمت استقالتى

وكان غردون قد سافر في هذه الاثناء الى دارفور بخصوص البحث عن الحملة التى أرسلت لمقاتلة سليمان بن الزبير باشا . ولكنه كان قبل ان يسافر قد رقي جيجلر الى رتبة باشا وعينه حاكما عاما مدة غيابه . فانهزت الفرصة وارسلت اليه مع البريد تقريرى واستقالتى وتسلمت بعد مدة قليلة تلغرافا منه يوافق فيه علي استقالتى من منصب المفتش المالى

وقد ارتحت كثيرا الى تخلصي من هذا الواجب الكريه ولم أشعر بوخز الضمير لتركى هذا المنصب لاني شعرت بعجزى التام عن معالجته اذ كان فاسدا من الرأس الى العقب وبعد ذلك بإيام تسلمت من غردون تلغرافا عيننى فيه مديرا لداره وهي تحتوى على الجزء الجنوبي الغربى لدارفور وأمرنى بان أقوم اليها في الحال لانه كان على ان أقود حملة عسكرية لمقاتلة السلطان هرون ابن السلطان السابق وكان يسعى للاستقلال ببلاده والخروج على الحكومة المصرية . وطلب منى غردون أيضا أن اوافيه حين رجوعه من سفره الى مكان بين الأبيض وطرة الحضرة على النيل الأبيض . فارسلت جمالى الى هذا المكان حيث كانت باخرة غردون فى انتظاره ونزلت أنا الى الباخرة التى سارت بنا الى طرة الحضرة حيث خرجت وركبت مدة ساعتين حتى بلغت محطة أبى جراد التلغرافية وعلمت من هناك ان غردون لا يبعد عنا سوى أربع ساعات أو خمس وانه كان فى طريقه قاصداً بلوغ النيل . فركبت ثانياً وسرت ولم يمض

عليّ بضع ساعات حتى لقيته قاعداً في ظل شجرة كبيرة وكان يبدو عليه التعب والاعياء ويشكو من تورم قدميه . وكان معي لحسن الحظ قليل من الكونياك أحضرته معي من الباخرة فانتعش منه واستعد لاستئناف السفر . وطلب مني ان ارجع معه الى الحضرة لكي نتباحث معا في مسألة دارفور ولكي يعطيني التعليمات الضرورية . وقد عرفني الي شخصين من حاشيته وهما حسن باشا حلي الجويزر الحاكم العام السابق لكردوفان ودارفور ويوسف باشا الشلالى وكان هذا آخر من انضم الى جيشي في حملته لمقاتلة سليمان زبير والنخاسين . وامتطينا الدواب ولكن غوردون حدث دابته حتى ما استطعنا أن ندركه . وبلغنا طرة الحضرة ووجدنا جمالنا التي تحمل أمتعتنا والتي كنا قد أرسلناها قبل قيامنا قد وصلت قبلنا . وأرست الباخرة في وسط النهر وعبرنا نحن الى البر في قوارب . وكنت أنا في مؤخرة القارب ويليني يوسف باشا الشلالى ولما كنت انا عطشان وكان بجانبه كوز رجوته أن يملأه من النهر ويناولنيه حتى أشرب . ورأى غوردون ذلك فابتسم والتفت الى وقال لي بالفرنسية : ألا تعرف أن يوسف باشا على الرغم من وجهه الاسود في مركز أعلى من مركزك ؟ كان يجب ألا يطلب منه أن يسقيك » فاعتذرت بالعربية الى يوسف باشا وقلت له اني طلبت منه الماء وانا غائب الذهن فأجابني بأنه مسرور لان يخدمنى

ولما وصلنا نزلت انا وغوردون فى الاسماعيلية ونزل يوسف باشا وحسن باشا فى الباخرة الثانية بردين . وأخذ غوردون يشرح لى حالة دارفور شرحاً وافياً وقال لى انه يرجو ان توفق الحملة فى الانتصار على السلطان هرون لان البلاد مضي عليها مدة طويلة من الزمن وهي فى حروب وسفك دماء وانها لذلك فى أشد الحاجة الى السلام والراحة . وأخبرنى أيضاً أن حملة جسي الموجهة ضد سليمان زبير ستنتهي قريباً وانه لن يمضي عليه زمن طويل حتى يقتل أو يهزم لانه قد فقد معظم من عنده من البازنجر او حملة الاقواس وانه من المحال أن يصمد امام الخسائر التي أوقعها به جسي . وكانت الساعة فوق العاشرة عند ما ودعنى غوردون . وكانت قد أمر باشعال النار لانه كان ينوى السفر الى الخرطوم وعندما سلمت وتنحيت قال لى :
« فلترافقك السلامة يا عزيزي سلاطين وليباركك الله . انى واثق بانك

ستعمل جهدك مهما كانت الظروف . وربما عدت انا الى انجلترا ولعلنا نتلاقى بعد »
وكانت هذه الكلمات آخر ما سمعت منه ولكن من كان يمكنه ان يتصور ذلك
القدر الذي كان مدخراً لكل منا ؟ وشكرته أنا لتلطفه ومعاونته وعندما بلغنا
الشاطئ انتظرت هناك حتى تقوم الباخرة ثم ما هي الا دقائق حتى سمعت ذلك الصغير
الحاد ورفعت المرساة وتحركت الباخرة وولت ومعها غوردون وقد ذهب بعيداً
عنى الى الابد

وفي صباح اليوم التالى ركبت الجواد الذى أعطانيه غوردون وقد حملني أربع
سنوات بعد ذلك فذهبت الى ابوجراد ومنها سافرت الى ابو شوقه وخصي ثم الى
الايض حيث يوجد الدكتور زوربخين المفتش الصحى وكان على وشك أن يسافر الى
دارفور فاتفقنا على السفر معاً الى داره ثم استأجرنا الجمال بمساعدة على بك شريف
حاكم كوردفان وبينما نحن على وشك الرحيل اذا به يناولنى رسالة تلغرافية تنبئ
بسقوط سليمان زبير في داره في ١٥ يولييه سنة ١٨٧٩ كما كان قد تبدأ غوردون عند
ماقال لى انه لا بد خاضع أو مهزوم

وهنا يجب ان أذكر انه عند ما فتح زبير باشا دارفور تركها لعناية ابنه سليمان
وسافر هو الى القاهرة . وفي سنة ١٨٧٧ عين غوردون سليمان هذا حاكماً على بحر
الغزال ولكن فشا خلاف بينه وبين من يدعى إدريس ابتر أحد أهالى دقلة وكان
زبير باشا قد وكل اليه العناية ببعض المسائل . ولكن أسرة زبير تنتمي الى قبيلة
الجعالين الذين كان بينهم وبين الدناقلة تحاسد وتباغض . واني اعتقد ان كثيراً
من القلق في السودان يرجع الى هذه الحقيقة

فان سكان مديرية بحر الغزال خليط من قبائل الزنوج التى كانت مستقلة كل
منها عن الاخرى حتى جاءهم عرب الدناقلة وعرب الجعالين فاتحين بغية الاتجار
بالعبيد . وينسب عرب الجعالين أنفسهم الى عباس عم النبي وهم يفخرون بهذا
النسب ويباهون الدناقلة به . والدناقلة ينتمون فى زعمهم الى العبد دقل . والمأثور
ان هذا الرجل على الرغم من انه كان عبداً قد ارتفع الى ان صار حاكماً النوبة وان
كان مع ذلك يدفع خراجاً لبهيسة الاسقف القبطي للبلاد الواقعة بين سراس ودبا .

وقد أسس دنقل هذا بلدة سماها دنقلة وصار سكان هذا القسم بعد ذلك يدعون دنائلة . وغالبيتهم من أصل عربي ولكنهم لاختلاطهم بالسكان قد فقدوا مرتبتهم . وهم بالطبع يؤكدون انتسابهم للعرب ولكن الجمالين لا ينفكون يذكر ان أصلهم من العبد دنقل ويعاملونهم بالاحتقار والازدراء . ويجب على القارئ ان يذكر هذه العلاقة بين الجمالين والدناقلة لانه يتوقف على فهمها فهم كثير من حوادث السودان التي وقعت بعد ذلك .

وانتهى الخلاف بين سليمان زبير وادريس الى شجار . فشكا ادريس سليمان في الخرطوم وطلب معاونة الحكومة وحصل على جيش بقيادة جسي باشا ثم تلا ذلك تلك الحملات التي انتهت بسقوط سليمان في بحر الغزال . وكان جسي قد وعده بالبقاء على حياته ولكن الدناقلة دسوا له فأعدم . وكان له شريك يدعي راج لم يسلم معه خوفاً من انتقام الدناقلة . فأخذ كوكبة من الجنود وسار بهم في الشمال الغربي فأخذ يجازف ويقتحم الاهوال حتى بلغ قطراً قريباً من بحيرة تشاد فاستولى عليه وصار ذا خطر عظيم في حطوط القارة السوداء .

وهناك مسألة أخرى يجب على ذكرها بخصوص الخلاقات بين القبائل لما لها من الأثر في حوادث السودان التي وقعت بعد ذلك والتي يحسن لذلك شرحها مع بعض التفصيل

لما زار غوردون دارفور زيارته الثانية عرف وتحقق من ان تجار الابيض السودانيين يبيعون الاسلحة والبارود للثائر سليمان وكانوا بالطبع يعطفون عليه لما ينالون منه من الرخ . وكانت هذه الذخائر الحربية ترسل بواسطة الجلابية او صغار التجار بين الابيض وبين بحر الغزال وكان هؤلاء يربحون منها ربحاً عظيماً . مثال ذلك ان ثمن البندقية ذات الانبوتين كان من ستة عبيد الى ثمانية . وكان ثمن صندوق الخراطيش عبداً او عبيدين . وقد حاول الموظفون في الابيض وقف هذه التجارة ولكن الصعوبات كانت عظيمة . وكانت قبائل العرب الرحل تسكن المراكز الواقعة بين كردوفان وبحر الغزال . وكان بين هؤلاء العرب قبائل الرزيقات والحوازمة والحمر والمصيرية . وكان من السهل على التجار الجلابية ان يخرجوا قوافل

صغيرة وان يجتازوا ويختبثوا في الغابات الكثيرة التي لم يكن يسكنها أحد . واذا اتفق ان موظفا مصريا التقى بهم فانه كان يمكن التغلب عايه برشوة صغيرة . وكان غوردون يعرف كل هذا ولذلك أمر بوقف التجارة بكل أنواعها بين بحر الغزال والايبض . وأمر كذلك التجار بترك المراكز الواقعة جنوب الايبض والطوبشة وطريق داره وحصر تجارتهم في الجزء الشمالى والغربي مادامت الحرب دائرة في بحر الغزال . ولكن على الرغم من الدقة التي اتبعت في تنفيذ هذه الاوامر كان الربح الناتج عن التجارة مع سليمان أكبر وأقوى اغواء من أن تقفه هذه الاوامر حتى كان التجار لا يعبأون باكتشاف أمرهم . ولم يكن في يد الحكومة ما يمكنها من أن تقف هذه التجارة التي رادت بدلا من أن تنقص بعد ذبوع هذه الاوامر . فعمد غوردون لهذا السبب الى وسائل حاسمة وأمر المشايخ والعرب بان يقبضوا على التجار الجلابة . ويرسلوهم بالقوة الى داره وطوبشة وأم شنجه والايبض وألقى عليهم تبعة وجود الجلابة في بلادهم بعد تاريخ معين

وانهز العرب الحريصون هذه الفرصة وأخذوا ينيهون الجلابة بل التجار الوادعين الذين عاشوا بينهم زمنا طويلا والذين لم يكن لهم أقل دخل في تجارة المهربات الحربية . فجمعوا القمح والزوان بلا تمييز وربحوا بذلك ربحا عظيما . فما هو ان ذاعت أوامر غوردون حتى حمل العرب على التجار حملة عامة فلم يأخذوا منهم تجارتهم فقط بل أخذوا كل ما يملكونه حتى جردوهم من كل شيء . وساقوهم كالبهائم وهم تقريباً عراة يعدون بالملئات الى طوبشة وداره وأم شنجه . وكان هذا عقابا عظيما لهم على مساعدتهم أعداء الحكومة

وكان كثير من هؤلاء التجار قد أقاموا بين العرب سنوات وكان لهم زوجات وأولاد وسريات وأملاك كبيرة وقعت كلها في أيدي العرب . والحق ان هذا الانتقام من هؤلاء التجار الذين كانوا يتجرون بالمهربات الحربية وبالعبيد كان هائلا وان كانوا هم يستحقونه علي مبدأ السن بالسن والعين بالعين . وكانت نتائج هذه العمل بعيدة المدى . وذلك لان معظم هؤلاء الجلابة كانوا من الجمالين الذين ذكرناهم

فانفرست بينهم من ذلك الوقت وبين العرب الذين أذلّوهم وأباحوا تجارتهم عداوة
لا تزال مستمرة للآن والدلائل تدل على أنها في ازدياد لا في تناقص
ولو اعتبرنا المروءة والانسانية لقلنا ان هذا الاعتداء على الجلالة يستحق
المناقشة من حيث عدالته . ولكن عند تدقيق الفحص نجد ان الظروف لم تكن تسمح
بمعالجة هذا الظرف الاستثنائي بالوسائل السياسية أو بروح العطف الانساني فانه لم
يجد في الحالة وقتئذ سوى اتخاذ اجراءات شديدة فعالة . والعرب أنفسهم يقولون :
« نار الغابة تلزمه الحريقة » يعنون بذلك انه اذا شبت النار في الغابة لم يكن سبيل
النجاة منها إلا باحراق جزء من الغابة بحيث اذا وصلت النار الكبرى لا تجد ما
تأكله فينجو الانسان منها بوقوفه في المكان الذي احرقه هو نفسه . وهذا المثل يقبل
التطبيق على الحالة التي ذكرناها

ولما كان لهؤلاء التجار الجلالة (وجلهم من الجعاليين والشايحية والداقله)
أقارب في وادي النيل وكان لهم أصدقاء يشتركون معهم في النخاسة وسائر التجارة
أوجدت أوامر غوردون سخطاً بينهم إذ لم يكادوا يفهمون العلة في ضرورة اتخاذ
هذه الاجراءات الشديدة

الفصل الثاني

اقامتي في دارفور وتاريخها السابق

غادرنا الابيض أنا والدكتور زربوخين المفتش الصحي الذي كنت قد قابلته
في القاهرة وكانت مغادرتنا للابيض في يوليو سنة ١٨٧٩ فأخذنا طريقنا الى الفوجة
آخر محطة تلغرافية وهنا تسلمت رسالة تلغرافية من غوردون يقول لي فيها انه مسافر
الى الحبشة في مهمة مع الملك يوحنا .

ولما بلغنا ام شنجه وجدناها مزدحمة بالجلالة الذين طردوا من الجنوب وكانت
حالتهم تبعث على الشفقة . ومن الغريب انه شاعت عنى اشاعة مقتضاها ان غوردون
خالي ولعل سبب ذلك زرقة عيني واني كنت حليقاً وكان الجلالة ينظرون إليّ بعين

الخوف لهذا السبب وكانوا يعدون غوردون أصل بلائهم الحاضر. وأخذوا يغفروني بالعرائض لمعاونتهم فأخبرتهم بأن أم شنجه ليست داخلة ضمن نطاق أعمالى ولذلك لا يمكننى مساعدتهم. وقلت أيضاً انه لو كان في مقدورى مساعدتهم من مالى الخاص لما فعلت

وقد خالفت هذه القاعدة فى حالة واحدة ولكن قبل أن أقص هذه الحادثة يجب أن أقول إنه لا ينبغي الحكم على عملى من وجهة الآداب المسيحية فقط بل أنا أقر بأنى خرجت عن حدود الشريعة الإسلامية ولكن عندما يقرأ القارىء القصة بأجمعها سيوافقنى على جميع ما عملته ويشترك معى فى العواطف التى بعثتنى على هذا العمل

فقد زارنى فى أحد الايام طائفة من التجار وطلبوا منى ان أتوسط فى مسألة شاب عمره ١٩ سنة وأصله من الخرطوم. وقصوا على أن هذا الشاب قبل مغادوته الخرطوم كان قد خطب ابنة عم له جميلة ولكنها فقيرة وتواعدا على الزواج بعد أن يسافر الشاب فى تجارة ويجمع بعض المال. فلما وصل الى ام شنجه عرف عجوزاً غنية افتتنت به أشد الافتتان. ولم يخبرني هؤلاء التجار عن الشاب هل هو طمع فى أموالها أو لا. ولكن المسألة انتهت بأن تزوجته هذه العجوز ووجد هو نفسه أنه أصبح ثرياً فلم يكن له رغبة فى الرجوع الى الخرطوم وتطليق امرأته. وبلغت أخباره ابنة عمه فى الخرطوم فاستولى عليها ذهول. وطلب إلى أن أحل هذه المسألة. فماذا أفعل

فاستدعيت الشاب وكان جميلاً وجماله فوق المألوف فتحنيت به فى ناحية وأخذت أكلمه بكل جد ووقار وأظهرت له سوء عمله فى الزوج بعجوز أجنبية عنه وكيف ان خطيبته تبكى حتى كاد يذهب بصرها وهى وان كانت فقيرة ولكنه يجب شرفاً أن يرعى مودتها ووعددها. فتردد مدة طويلة ولكنه أخيراً رضى بأن يذهب الى القاضي ويطلق هذه العجوز. وكنت قد استدعيت القاضي وأخبرته أنه اذا طلق الشاب زوجته يجب عليه أن يخبر المرأة بهذا الطلاق بكل رفق ولطف لاني لا أرغب فى ضوضاء، واستوثقت من أقارب الشاب بأنه بعد طلاقه يجب ان يسافر

الى الخرطوم ثم أوصيت موظف الحكومة في ام شنجه بان ينفي هذا الشاب بعد يومين من طلاقه ويأمر بعدم بقاءه في البلدة بعد هذين اليومين . وأوعزت له بان يقول ماشاء أمام العجوز ويلقى على تبعة الخلاف بشرط أن يجتهد في أن تعطي الشاب مبلغاً من المال يقوم بحاجته مدة سفره الى الخرطوم . ولم أكن أتصور وأنا أعمل هذا العمل الزوبعة الهائلة التي أثرتها على رأسى . ففي الساعة الرابعة بعد الظهر وأنا منسطح على العنجريـب في عشتى سمعت صوت امرأة غاضبة ترغب في ان ترانى فحدثت من تكون هذه المرأة واستعددت للقائها وأمرت بدخولها . وما هو أن صارت في العشة حتي رأت الدكتور زربوخين الذي كان معى وقتئذ فصاحت فيه وهي هائجة مجنونة : « لن أقبل الطلاق . هو زوجى وأنا زوجته . تزوجنى على اصول الشريعة وأنا أرفض الطلاق » فدهش الدكتور زربوخين وتتم كلمات مكسورة باللغة العربية وأخبرها بانه لا يعرف شيئاً عن هذه المسألة وان التبعة تقع على انا وحدى . ولم أملك من النظر والتأمل في هذه المرأة الغريبة . فقد كانت ضخمة قوية عنيدة وكانت من الغضب بحيث لم تراع أدب اللياقة الذى تراعيه الشرقيات في مخاطبة الرجال . فقد انفتل برقعها لشدة هياجها وبدا رأسها مغطى بمنديل حريرى عديد الالوان وقم بعضه على كتفها . وكان وجهها يضرب الى الصفرة وقد كسته الاساريرو في كل من خديها ثلاثة خطوط من الوشم بين الواحد والاخر نحو نصف بوصة . وكان معلقاً بأنفها قطعة من المرجان الاحمر ويتدلى من أذنيها قرطان كبيران من الذهب أما شعرها فكان حلقات صغيرة عديدة قد شحطت لتقدمها في السن . وظننت وانا انظر اليها انى لم أر قط امرأة أكثر دمامة منها . وانا في هذه التأملات واذا بنعيمها الذى تحول الى تسألنى السؤال نفسه الذى سأله للدكتور المرعوب . فتركها حتي هدأت قليلاً ثم قلت :

« انى أدرك تماماً ما تقولين ولكن لا بد من الخضوع لما لا مفر منه فان زوجك سيتركك وأنت لا يمكنك أن تتركى البلدة معه . وتقولين انك لا ترغبين في الطلاق ولكن تذكري ان الشريعة تحل للرجل الطلاق »
فصاحت بي : « لو لم تتوسط لما طلقنى . لعنة الله على يوم جئتنا فيه »

قلت : « أرجوك ان لا تقولى ذلك فأنت امرأة غنية وأظن انك لن تجدى صعوبة في الحصول على زوج أكبر سنا من زوجك الذى طلقك »
فصرخت : « لا اريد احداً غيره »

قلت بحدة : « اسكتى . أقارب زوجك السابق يريدون أن يتركك ويسافروا وقالوا انه لا يربطه بك الا أموالك . والآن مهما قلت فانه سيغادرك غداً . ألسن تخجلين من الزوج شاب صغير قد كان يمكن أن يكون أحد أحفادك وأنت عجوز »
فجئت جنونها عند ما فهمت بهذه العبارة ولم تستطع ضبط نفسها فمزقت برقعها ورفعت يديها لا أدري ما ذا كانت تريد أن تفعله لو لم يدخل القواص ويجلبها عن الغرفة بالقوة وهو يحذرها من انفضيحة التى مجلبها على نفسها بأعمالها هذه . وفى اليوم التالى سافر الزوج وهي فى غم شديد .

وبعد سنوات لقيت هذا الزوج وكان قد تزوج ابنة عمه فشكر لى صنيعى وتخلصى له من مخالب تلك العجوز . وكان فى ذلك الوقت أبا سعيداً له أولاد عدة .
وليس لى حاجة بأن أقول بأنى نمت تلك الليلة مرتاحاً لهذا الصنيع الذى لم يكافئ شيئاً

وبعد ذلك بيومين برحنا أم شنحه وبتنا فى جبل الحلة فاستقبلنا هناك حسن بك أم كادوك شيخ قبيلة برنى وكان علي ولاء كبير للحكومة وقد منحه غودرون رتبة بك . وكان رجلاً كهلاً مميناً جداً عريض المنكبين ووجهه مستدير دائم الابتسام وقد يمكن ان نسميه « فولسطاف السودان » جرياً على شكسبير الذى سمى أكبر شخص مضحك فى دراماته « فولسطاف » فانا بعد سنوات عند ما اقبلت الاحوال وصار السادة عبيداً صرنا أنا وهو ياورين عند الخليفة وكان مزاجه البهيج هذا كثيراً ما يخفف عنا أعباء حياتنا التى كنا لا نتحملها أحياناً . وكان أخوه اسماعيل على النقيض منه رجلاً طويلاً نحيفاً يميل الى الجد . ولم يكن يتفق هذان الاخوان فى شيء الا فى مسألة واحدة هي حب المريسة (الجعة السودانية) والتهلاك على شربها . وكان لكل منهما انا . يدعى انه ليل نوضع فيه هذه المريسة فيتسابقان أهما يفرغ انا .ه قبل الآخر

وقد دعوانا الى العشاء معهما وشوى لنا خروف كامل على فحم الخشب يصحبه عدة من الدجاج المشوي وطبق من العصيدة التي تؤكل في كل وجبة في السودان . وكان أيضاً على المائدة عدة آنية من المريسة . وقد طاب لنا الطعام فأكلنا وتركنا المريسة لهما وشربنا نحن شيئاً مما عندنا من النبيذ الاحمر . وقد شرب حسن واسماعيل كلاهما من النبيذ والمريسة ما شاءا وكان أثر الخمر في الاول عند ما صدمته حمياها أن جعلته يتدفق في الحديث أما الثاني فقد انعقد لسانه وصمت . وكان حسن يروي لنا بعض ما يعرفه عن غوردون وقد اكتب وحزن عند ما عرف بسفره للحبشة

وقال لي بلهجة الحزن : « قد لا يرجع غوردون من الحبشة وقد يسافر الى بلاده فلا نراه ثانياً » ومن الغريب أن قوله هذ كان فيها شيء من الصحة . ثم ترك الغرفة وعاد بعد برهة ومعه سرج وسيف وهو يقول : « انظر . هذا هو آخر ما أعطانيه غوردون لما رافقته الى الفاشر . ما أكرمه وأرافه » وعرض علينا اسماعيل ستره مطرزة بالذهب أهداها اليه غوردون . وقال حسن : « كان غوردون لا يعرف الكبير . في أحد الايام ونحن في الطريق الى الفاشر . صاد أحد الخدم طائراً فلما حططنا رحلنا في الظهر وضع الطباخ قليلاً من الماء على النار حتى اذا غلي غمر فيه الطائر لكي ينزع ريشه . وراه غوردون يفعل ذلك فذهب اليه وأخذ يساعده في نزع الريش فاندفعت أنا اليه ورجوته ان يكف عن ذلك وأنا أقوم بدلا منه بهذا العمل ولكنه قال لي : « وهل تظنني أخجل من العمل ؟ اني قادر على أن أخدم نفسي واست في حاجة لأن يقوم بخدمتي في المطبخ رجل حائز لرتبة بك مثلك »

ولم يكف حسن عن مسامرتنا حتى ساعة متأخرة من الليل وقد حكي لنا عن تجاربه لما فتح الزبير دارفور ثم ما تلا ذلك من الثورة الى حالتها الحاضرة وكان كثيراً ما يعود الى ذكر غوردون . ومما قاله : « كنت مرة مسافراً مع غوردون فمضت وجاء غوردون يعودني في خيمتي . وبينما هو يتحدثني قلت له اني كنت منغمساً في الشراب وان وعكتي الحاضرة لم تحدث لي إلا لا تقطاعي عنه منذ أيام . وكان قولي هذا هو الصيغة الغير المباشرة التي أردت منها أن يعطيني غوردون شيئاً من الشراب . ولكن ساء فألى فان غوردون وبخني وعنقني وقال لي : « أنت مسلم وديانتك تحرم

تناول الخمر . اني في غاية الدهشة . أقلع عن هذه العادة فكل منا يجب ان يطيع أوامر دينه » فقلت له : « لقد اعتدت الشرب طول حياتي فاذا انقطعت عنه الآن فاني أمرض ولكنني سأعتدل في المستقبل » فبانت أمارات الرضى على وجه غوردون وهز يدي مسلماً وودعني وخرج وفي صباح اليوم التالي أرسل لي ثلاث زجاجات من الكونياك وأوصاني بالاعتدال في شربه

وكان أخو حسن صامتا لا ينبس بكلمة وكان مرتقيا بعلأ كوبا وراء آخر من المريسة ويشربه بمجد ووقار ونظام كأنه نظام بساعة ولما انتهى من الشراب وقف في روية وتؤدة ومسح شاربيه وقال بلهجة الحزن : « نعم . نعم . الكونياك شراب طيب وهو ليس خمرا بل دواء وغوردون رجل عظيم بار ولن نراه ثانيا »

وذهبنا الى الفراش في ساعة متأخرة وأمرنا قبل نومنا ان نعد الدواب للقيام في الفجر فلم نتم الا وقتا قصيرا . ولما استيقظنا وأردنا الركوب انا والدكتور زربوخين نظرنا حوالينا نبحث عن أهل البيت لكي نودعهم قبل سيرنا . ونحن في ذلك واذا بإسماعيل يعدو إلينا ورأسه يميل من أثر الشراب السابق وقال لنا : « أيها السادة اننا سمعنا على الدوام بان في بلادكم عدلا وانا واثق بان الضيف هناك لا يسىء الى رب البيت . وأمس عند ما أمرتم الدواب التي تحمل أمتعتكم بالسفر سرق رجالكم السجادة التي وضعها لكم لتقعوا عليها »

فبحثت وتأكدت بان احد رجالى قد سرق هذه السجادة الثمينة وأرسلت وراء الجمال قواصا لكي يدرك هذا اللص ويحضره وقعدت انتظر . وبعد مدة جاء القواص ومعه السجادة ووراءه عسكري زنجي من الحرس الثمانية الذين كانوا في صحبتنا . ولما استجوبنا هذا العسكري قال انه حملها خطأ ولكني لنا كدى من جريمته أمرت بجلده وارساله سجيناً الى ام شنجيه . وقد تعكر مزاجي لهذه الحادثة لانى كنت أعرف ان الناس هنا يحكمون على الاسياد بما يرون من الخدم وكنت واثقا بانى اذا لم أعاقب هذا الخائن فان مثل هذه السرقات ستكرر في المستقبل

واعتذرنا الى حسن وأخيه ثم شرعنا فى السفر الى الفاشر التي بلغناها بعد خمسة أيام ومررنا في طريقنا على بروش وارجود

وقد كانت الفاشر طول مدة القرن الماضى عاصمة دارفور وهى مبنية على قارتين أو رايتين واحدة في الشمال وأخرى في الجنوب يفصلهما واد عرضه نحو ٤٠٠ ياردة يدعى وادى تندلى . وفي الغرب قلعة علي تل حولها حائط من الطوب النبيء عرضه ثلاثة أقدام وحول الحائط خندق عمقه ١٥ قدما . وكان في الاركان أربعة أبراج وبها مدافع تطلق قنابلها من فتحات صغيرة

وكان هذا الحائط يحوى على مباني الحكومة ومساكن الضباط وثكنة الجنود وكان الخيالة غير النظاميين يسكنون خارجا . وكان سكان القلعة يستقون الماء من آبار في الوادى تبعد عنهم بنحو خمسين ياردة

وكان مسدجاله بك وهو رجل ايطالى حاكما على الفاشر وقد تلقانا بالبشر وخصص لنا أمكنة في مباني الحكومة وكنا قد أصبنا بحمى من مسيرنا في الامطار فقرر رأينا على ان نرتاح بضعة أيام

وبعد ان استرحنا استأنفنا السفر أنا والدكتور زربوخين الى داره ورافقنا على سبيل التشجيع مسدجاله بك وأخبرنا ان زوجته ستحضر الى الخرطوم وانه قد طلب أجازة لكي يسافر ويستقبلها فيها ثم يحضر واياها الى الفاشر فاقترحت عليه أن ينتظر حتى تنتهى مسألة السلطان هرون ثم يحضر وزوجته بعد ذلك ولكنه أجابنى بانه ليس هناك أقل خوف وان في البلاد جيوشا كافية لقمع أي حركة . ولكنى كنت سمعت بان نفوذ هرون عظيم وان هناك خوقا على جنود الحكومة من ضغطه عليهم . ولما كنت حديث العهد بالحىء الى السودان وقليل الخبرة باحواله لم أقدر على أن أعطى رأيا باتا في الموضوع فودعته هو وسعيد بك جمعه الحكمدار وسرنا الى داره عن طريق كريت ورأس الفيل وشعبرية

وكان لزربوخين هيئة تدل على انه اكبر منى سنا وكانت له لحية طويلة سوداء . وكان يضع على عينيه نظارة سوداء اما أنا فكانت هيئتي تدل على اني أقل عمرا من الحقيقة فلم يكن شاربى قد نبت الا قليلا وكانت لي سحنة الصبيان فكنا لا نسير في أى مكان حتى يظنه الناس انه هو الحاكم والطبيب أو الصيدلى . ولما قاربنا غاية سفرنا كان الدكتور زربوخين مريضا بالحىء ولذلك تأخر بدابته عنى ومشى وثبدا حتى وصلت

الى شعيرية قبله . وشعيرية هذه على سفر يوم من داره . وكان أهل القرية يستعدون لاستقبالنا فكنسوا المنازل ووضعوا الحصير ووضع القاضي والشيخ سجادة لكي يستريح الحاكم القادم . وبرك جلي ونزلت عنه ولما سألوني عن شخصي قلت اتى أحد حرس الحاكم وأخبرت من معي من الحرس ألا يقولوا شيئاً . وأخذ القرويون يسألوني عن الحاكم الجديد فقلت لهم : « أظنه سيجتهد بأن يعمل ما في جهده وأنه يميل للعدل والتسامح »

فقال واحد منهم : « ولكن هل هو شجاع طيب القلب » وكان هذا السؤال تصعب الاجابة عليه . فقلت : « يبدو عايه كأنه لا يخاف ولكني لم أسمع شيئاً عن شجاعته وله هيئة الرجال وأظن انه طيب القلب ولكنه بطبيعة الحال لا يمكنه أن يرضى كل أحد »

فقال آخر . « لو كان لنا حاكم مثل غوردون باشا لرضي كل واحد وأمنت البلاد بانه لم يتوقف قط عن الانعام على الناس والطافهم وما جاءه فقير قط وعاد خائباً ولم أسمعه يتكلم بقسوة الا مرة واحدة وذلك حين كان سليمان زير في داره فانه التفت الى القاضي وقال ان بين السودانيين من لا يستحق أن يعامل بالرأفة به فقال القاضي . « أجل سمعته يقول ذلك ولكنه كان يشير بقوله هذا الى الجلالة وتجار النيل الذين كانوا يشتركون مع الزير وابنه في جميع التجارات غير الشرعية التي كانوا يتكسبون منها »

وقال شيخ القرية واسمه مسلم ولد كباشي . « غوردون بطل . فقد كنت انا اشتغل معه في القتال مع عرب ميمه والخواير في سهل فافه في يوم شديد الحر . وتقدم العدو وأجلانا عن الخط الاول وكانت الحراب تقع علينا كثيفة من كل جانب ورأيت حربة تقع على قيد شعرة من غوردون فما بالي ولم نزل النصر الالئباته هو واحتياطيه المؤلف من مائة رجل . ولما كانت المعركة على أشدها أخرج سجارة وأشعلها . اني مارأيت شيئاً قط في حياتي مثل هذا . وفي اليوم التالي عند ما شرع في توزيع الغنائم لم يغب عن ذهنه احد ولم يحفظ لنفسه شيئاً وكان رفيقاً بالنساء والاطفال ولم يأذن بسبيهم كما هي عادتنا في الحرب بل كان يطعمهم ويكسومهم على

نفقته أو كان يردهم الى منازلهم عند انتهاء الحرب . وفي أحد الايام سبينا عدة نساء بدون علمه وحجزناهن ولو علم بفعلتنا لرأينا منه الويل «

وبعد سكوت سألت عن الاحوال في داره وصفات الموظفين لاني كنت سمعت انهم لا يوثق بهم وانهم لا ينظرون بعين الرضا الى مجيئي .

وهنا وصل الدكتور زربوخين وسائر القافلة فوقف الشيخ والقاضي واعيان القرية في نصف دائرة لاستقباله . اما انا فقد تنحيت جانبا واختفيت . واخذت انصت لما يقول مسلم ولد كباشي الذي بدأ يحكي الوالى الجديد ويصف له فرحه بقدمه وكان زربوخين لا يعرف من العربية الا القليل فارتبك أشد الارتباك لهذه التحية

وقال لهم : « الحقيقة انني لست الحاكم . انا مفتش الصحة ولا بد ان الحاكم قد وصل قبلى ولكن بالنسبة لان الرجال الذين معه قليلون ربما لم يحسبه احد لذلك انه هو الحاكم » فتقدمت انا عندئذ وشكرت للقرويين وانا اضحك لطفهم وحسن استقبالهم واكدت لهم باني سأعمل جهدى لكي ارضيهم واني منتظر منهم ان يعاونوني على انفاذ الاوامر . واخذوا بالطبع يعتذرون الى عن خطئهم ولكنني وضحت لهم انه ليس هناك ما يدعو الى هذا الاعتذار وقلت لهم اني ارغب في ان تكون علاقتي بهم متينة حميمة واني ارجو ان تكون هذه رغبتهم ايضا . ومن هذا الوقت صار مسلم ولد كباشي من اعز اصدقائي وبقي كذلك في اوقات الفرح والحزن على السواء حتى برحت البلاد

وقد هاجت هذه الحادثة الصغيرة شهوتنا للطعام وقعدنا وتناولنا طعاما فاخراً من الضأن المشوى ولما انتهينا امتطينا الدواب واسترحنا في الليل تحت شجرة على مسير ساعتين من داره . وعند شروق الشمس ارسلت رسولا لكي يخبر بقدمنا ولما صرنا في ارباض المدينة خرجت الحامية واصطفت واستقبلتنا استقبالا عسكريا واطلقت سبع قنابل اكراما لنا وكان معها حسن حلمي الحكمدار وزوجال بك نائب الحاكم والقاضي وبعض اعيان التجار وذهبنا جميعا الى القلعة حيث دار الحكومة وقضينا نصف ساعة في التفتيش ثم ذهبنا الى مسكني وامرت بتهيئة بعض الغرف للدكتور زربوخين في مسكني لاني اردت ان ينزل عندي ضيفا بضعة ايام

وما كدنا تنتهي من العشاء حتى سمعت ضوضاء بين الخدم الذين كانوا يدافعون رجلين من الدخول إلينا . وكان هذان الرجلان رسولين بحملان خطابا من احمد قاطنج وجبر الله وهما الرئيسان للحامية غير النظامية في بير جوى وهي على مسيرة ثلاثة ايام في الجنوب الغربي من داره ، وقد قالا في الخطاب انهما علما ان السلطان هرون سيغير عليهما وانهما بالنسبة اقله عدد الحامية قد قررا اخلاء مكانهما ما لم تأتاهم امداد من الحكومة وقالا ايضا انهما اذا تركا مركزهما فان جميع القرى ستنتهب ولم يكن ثم متسع من الوقت لتأجيل فامرت حسن افندى رفيق بان يعد مائتي جندي نظامي وعشرين فارسا للقيام في الحال معي الي جوى

وما انتصف الليل حتى كان قد اعد كل شيء ، وودعت الدكتور رروخين وقلت له اني اؤمل ان اراه بعد اربعة ايام او خمسة وخرجت متوجها نحو الجنوب الغربي وكنت شابا قويا في اشتياق الى الحرب واني اذكر الآن مقدار فرحي الشديد للقاء السلطان هرون ومناجزته . ولم يخطر بآلي شيء عن المشاق وانما كل ما كنت مشاقتا اليه اني كنت ارجو في ان ابين لجنودي اني قادر على قيادتهم . وفي الصباح حططنا رحالنا وكان جميع الجنود زنوجا حتى ضباطهم . أما الجنود الراكبة فكانوا من الاتراك والمصريين وخطبتهم جميعا وقلت لهم اني الآن غريب عنهم ولكن عليهم ان يعرفوا اني مسنعد لان اشارتهم مشاقهم في كل وقت واني ارجو ان يكونوا ممتثلين حماسا وان تسرع للقاء . اعدو . وكانت خطبتي بسيطة ولكن كان لها وقع في نفوس الجنود وعند ما انتهيت منها رفعوا اسلحتهم في الهواء فوق رؤوسهم على الطريقة السودانية وصاحوا بانهم لن ينشوا عن الظفر او الموت

وفي الظهر حططنا قرب قرية فاخذت اراقب رحالي واحصهم وكانوا كلهم على أهبة ومعهم ذخيرة كافية . وكان مع كل جندي زمزمية من حلد اهر او الغزال واسمهم سن (وجمعها سنين) ولكن لم يكن معهم طعام . ولما سألت عن سبب ذلك قيل لي : « أينما ذهبنا في دارفور نجد الطعام » فذهبت الى شيخ القرية وطالبت منه تقديم كمية من الدخن . وكانوا ينقعون الدخن في الماء ثم يعصرونه ويمزجونه بالتمر الهندي ثم يأكلونه . أما العصارة فكانوا يشربونها وكانت لمراراتها تطفئ الظما . والغالب

ان الاوربيين لا يستطيعون هضم هذا الطعام ولكنه مغذ جدا والجنود السودانيون لا يأكلون تقريبا شيئا غيره وهم سائرون الى القتال . وقد اعتدت تناوله بالتدريج ولكنني وجدت انه اذا لم يكن الانسان في صحة تامة فانه يعقبه سوء هضم شديد . واحضر لنا شيخ القرية الدخن ومعه عصيدة وزعت على الرجال . وبينما هم يأكلون دعوت الضباط لان يأخذوا شطرا من اللحم المحفوظ بالعلب الذي كان معي فاخذوه واستطابوه قائلين انه افضل من الدخن والعصيدة وبعد ذلك طلبت من الكاتب ان يكتب لشيخ القرية صكا بمقدار ما تسلمناه منه من الدخن لكي يحط ثمنه من مقدار ما يدفعه لجابي الضرائب . ولكن هذا الرجل رفض قائلا ان اطعام الجنود ليس فقط من واجباته بل ان اصول الضيافة والكرم تقتضيه . فقلت له اني أعرف ان أهالي دارفور أسخياء ولكنني أجد ان طعام ٢٠٠ نفس يعدو حدود السخاء . وانه لذلك يجب عليه ان يتسلم ثمن طعامه . فرضي أخيرا واطمأن الي حديثي وقال انه لو سار الجنود على هذا المبدأ أسر السكان ولكن لسوء الحظ قد اعتاد الجنود اقتحام المنازل وأخذ ما فيها حتى ان الاهالي صاروا يخشونهم وعند ما ينزلون قراهم يجتهدون في اخفاء ما عندهم . فشكرت للشيخ قوله هذا ووعدته بانني ساصالح هذه الحالة .

وعند غرب الشمس وصلنا الى بير جوى وكان بها حامية غير نظامية عددها ١٢٠ رجلا يقودهم احمد قاطنج وجبر الله . وقد اخبراني بأنهما بعثا جواسيسهما لكي يعرفوا حركات السلطان هرون وانهما لا يظنان انه قد نزل بعد من جبل مرة الى الوادي . وكنت في غاية الاعياء وقد تملكني النعاس فذهبت الى فراشي لأنام ولكن اطراد قرع الطبول اكراما لي وضربان رأسى منعاني من النوم وفي الصباح شعرت اني مريض . ولما جامني احمد ورأى ما انا فيه قال لي : « يمكننا معالجة هذا بأيسر سبيل . عندي رجل يقف ضربان الرأس في الحال وهو افضل من الدكتور الذي في داره والحقيقة انه ليس في داره دكتور وانما هو صيدلى يقال له دكتور على سبيل التأدب والتجمل »

فقلت « ولكن كيف يمكنه ان يعالجني »

فقال : « هذا شيء بسيط . يضع يديه على رأسك ثم يقول شيئاً فقبراً بل تعود أحسن مما كنت قبل ان تمرض »

فقلت : « اذن ادعه الآن »

وكنت شاباً وجاهلاً في تلك الايام وخطر ببالي ان احد هؤلاء العرب ربما قد زار اوروبا وعرف شيئاً عن العلاج المغنطيسي وانه قد أرصد حياته لفائدة الناس وشفائهم . واني اعترف بانني شعرت بشيء من القلق لما قاله احمد لى . وبعد دقائق قليلة ادخل احمد الى غرفتي رجلاً طويلاً اسود له لحية بيضاء يظهر عليه انه من سكان بورنو وقال لى : « هذا هو الطبيب الذى سيشفيك من ضربات الرأس »

ولم يتردد الطبيب لحظة بل وضع يده على رأسي وضغط صدغي بإبهامه وسبابته ثم نتم جملة كلمات لم افهمها وبصق في وجهي . فهبت واقفا لهذه الفظاعة وضربته ضربة القته على الارض . وكان احمد واقفاً بجانبى متكئاً على عكازته فرجاني الا انظر للسألة هذه النظرة وقال لى : « ليس بصفته قلة أدب . بل هو جزء من العلاج وستستفيد منه » ولكن الطبيب المسكين الذى زايسته ثقته بنفسه وقف بعيداً عني وقال « وجع الرأس من الشيطان ويلزمى ان أطرده . وفي القرآن آيات تدل على امكان طرده بالنفث وبذلك يقف عمله السيئ . في رأسك »

ولم أملك من الضحك على الرغم من مضايقتي وقلت : « وانا اذن على عفريت وعلى كل حال أرجو ان يكون عفريتاً صغيراً وان تكون قد نجحت في طرده » ولم اسمح له باعادة الرقية وأعطيته ريالاً وامرته بالخروج . فخرج وهو يدعو لرأسي بالشفاء . ولكن بقي على الرغم من هذا الدعاء يؤلمنى

ولم تأتنى الى هذا الوقت اخبار عن هرون فبقيت طول اليوم في فراشي وزارنى صديقاى قاطنج وجبر الله عدة مرات . وقد عرض على اولهما جواده فرفضت قبوله . اما الثاني فقد عرض على احدى خدمه وقال لى : « انها صغيرة جميلة وقد تربت تربية حسنة في منزلى . وهى تعرف الطبخ واعمال البيت وتفهم فى الامراض » فرفضت ايضاً قبولها وتركنى جبر الله وهو مكسور الخاطر لانى لم اقبل هديته .

والكني كنت مضطراً الى هذا الرفض لاني بعد ان جربت رقية الطبيب لم اكن شديد الرغبة في ان أسلم نفسي لمراحم آنسة سودانية مهما كانت براعتها
وفي صباح اليوم التالي استيقظت وقد عادت الى عافيتي ولما لقيني احمد وأخبرته بأنني تعافيت قال لي فوراً : « انا كنت متحققاً من انك ستشفى لان عيسى (الطبيب) لم يضع يده على احد الا شفاه »

ومضى يوم آخر بدون ان يأتينا خبر عن هرون . وفي اليوم التالي رجع الينا حوالى الظهر أحد رسل جبر الله وقال لنا ان هرون قد جمع رجاله ولكنه لم ينزل بعد من التلال التي اتخذها مقراً له وقت الصيف . وفي اليوم الرابع (من وصولنا ليرجوى) جاءنا رسول آخر وقال ان هرون لما بلغه اني تركت داره وجئت الى بيرجوى لمقاتلته سرح رجاله الذين ذهبوا الى جبل مرة

فلما سقط في يدي وذهب أمل في القتال عدت الى داره وكان الدكتور زربوخين قد برحها وترك لي خطاباً يقول لي فيه انه يرجو لي النجاح . ووجدت أيضاً الكاتب الذي صحبني منذ ان كنت مفتشاً مالياً وجاء معي الى داره قد جن مدة غيابه ووضعوه في منزل بجوار منزلي فلما ذهبت اليه لكي أراه وقف وعانقني وهو يصيح : « الحمد لله . لم يفعل السلطان هرون شيئاً لك . زوجل بك رجل خائن احتس منه . لقد أمرت بايقاد النار في القاطرة لكي يحملك القطار الى اوروبا حيث تتمكن من رؤية أهلك وسأذهب معك . ولكن يجب الحذر من زوجل بك فانه وغد سافل »

وكان ظاهراً انه قد فقد عقله ولكن المجانين احياناً يقولون الحق . فأخذت في تهدئته حتى رقد وسمع صغير القاطرة وأوهته اني معه في القطار ثم تركته لعناية الخدم وخرجت . وبعد خمسة ايام مات هذا المسكين وأظن ان سبب موته انفجار عرق في دماغه

وشرعت أنا في تدبير امور مديرية داره وبعد شهر تسلمت خطاباً من مسدجاليه بك يقول لي فيه (وكان مكتوباً بالفرنسية) انه قد عزم على أن ينتهي من هرون ولذلك هو يأمرني بان أخرج سراً عن طريق منواشي وقبة بقسم من الجنود

النظامية واتجه نحو جبل مرة واغبر على نيورنه حيث مقام السلطان هرون . وقال لي انه قد أرسل قوة من الفاشر عن طريق طرة وقوة اخرى من قلقل عن طريق ابي حرر وسيلتقي الجميع في مكان واحد ويعملون معاً في مقاتلة هرون

فاذعنت الامر وغادرت داره ومعى ٢٢٠ جندياً نظامياً و ٦٠ من البازنجر وسرنا حتى بلغنا نيورنه حيث السلطان هرون في جبل مرة فوجدناه قد جلا عنها وفي صباح اليوم التالى خرجت بفصيلة من الجنود أبحث عن هرون ولكننا لم نذهب بعيداً حتى سمعنا عيارات نارية تطلق بسرعة من ناحية نيورنه فركضت جوادى راجعاً فوحدت الجنود الذين تركتهم قد اشتبكوا في قتال مع قوة اخرى معادية فأدركت حالا انها احدى القوات التى أرسلت لمساعدتى من الفاشر ولكنها لم تصل في الوقت المعين لها . فلما وصلت الى نيورنه ووجدت قوة مرابطة تحتلها اطلقت عابها النار وهي تحسبها انها تابعة لجيش السلطان هرون . وقد تكلفت مشقة كبيرة في وقف اطلاق النيران التى قتل بسببها سبعة وجرح أحد عشر ومر عيار في ملابسي وأصيب جوادى بعيارين

وبقينا في نيورنه عشرة ايام ولما لم يكن في مقدورنا ان نحصل على اخبار صحيحة عن هرون قررت العودة . وكنا نحن في عودتنا نمر على عدة قرى فنفاجتها لان أهلها لم يكونوا ينتظرون مجيئنا من الغرب . وكان السلطان هرون قد جند معظم الرجال . اما الباقون فقد فروا الى اللال . ولكن رجالى تمكنوا من القبض على نحو ثلاثين امرأة سرن معنا مدة قصيرة . وقد فوجي . اهالى احدى القرى بنا فلم يتمكنوا من الهرب ولما رأيت ان جميعهم من النساء امرت الجنود بالوقوف حتى أتيج لهم الفرصة للفرار ثم أدرت الجنود ايضا بان يسيروا صفا واحداً حتى لا يفرقوا في القرى ويعيشوا فيها .

ومما حدث ان اما مسكينة كانت تحاول الهرب فباغتناها ففرت تاركة وراءها طفلين على صخرة وأخذت هي تعدو كالغزال على سند الجبل . فذهبت الى حيث لطفلين فوجدتهما عاريين ليس عليهما شيء سوى عقد من المرجان حول عنقيهما وحزام من المرجان أيضاً حول وسطيهما . وكان كلاهما أسود كالغراب والارجح

أنهما كانا توأمين يبلغ عمر كل منهما ١٨ شهراً . فزلت عن الجواد وذهبت اليهما فأخذا في الصراخ وكل منهما يمسك بالآخر فحملتهما وأمرت خادمي بأن يحضر قليلاً من السكر . فسكنا في الحال وصارا يتسلمان خلال الدموع ويقرضان السكر الذي كن في الارجح أحلى ما ذاقاه مدة حياتهما الصغيرة الماضية . وكان عندي مناديل حمراء أحملها على الدوام معي لكي أقدمها هدايا فلففت كلا منهما في منديل ووضعتهما على الصخرة كما كانا وسرت بعيداً عنهما . ونظرت اليهما بعد مدة فرأيت إنساناً هو أمهما يزحف على الصخر اليهما . فلما بلغتتهما عانقتهما ودهدهتهما بعد ان كانت قد يثنت من حياتهما . وأخذت هذين الولدين في لباسهما الجديد وعلى شفتهما أثر السكر الحلو

وبعد أيام ونحن لم نبليغ بعد داره جاءتني الاخبار بأنه في مدة غيابي عن هذه البلدة أغار عليها هرون وانتهبها وفر ثانياً الى التلال ومعه الغنائم والسبايا العديدة . فأخذت أدلاً ، من القرى المجاورة وخرحت أتعبه ولما ان صرنا على مسافة سفر يومين في الجنوب الشرقي من الفاشر لقيت حنوده الذين لم يتوقعوا مجيئنا

وقد وفقت للاقتراب منهم بدون ان يروني ثم حملنا عليهم حتى مزقناهم شر ممزق واستولينا على .مقادر كبيرة من الاسلحة وأفرحنا عن السبايا الاواني كن في حوزتهم . وقتل جواد هرون ولكن هرون نفسه مع بضعة من اتباعه تمكنوا من الهرب وبعد أيام قليلة انهزموا امام جيوش قلقل التي كان يقودها نور انجره وقتل هرون وبقتله عاد السلام الى البلاد وانتهت الثورة

ولما عدت الى داره واقاني خطاب من حسي باشا من بحر الغزال يقول فيه ان الدكتور فلكن والقسيس واسون مبعوث الرسالة الكنسية الانجليزية في طريقهما من أوغندا الى الخرطوم عن طريق داره ومعهما وفد من الملك متيساً الى جلالة ملك إنجلترا . ورجاني حسي ان أقدم لهما جميع المساعدات التي في مقدوري وقال انهما قد شرعا في السفر الى داره في اليوم الذي كتب فيه هذا الخطاب . وقد وصلا الى داره بعد ذلك بأيام قليلة وتمتعت بصحبتهما مدة وجودهما عندي

وقد أخبراني عن أشياء مهمة أما أنا فقد حكيت لهما عن آخر الانباء الاوربية وهي وان كانت قد مضى عليها أشهر قد كانت مع ذلك جديدة عندهما

وفي الصباح سمعت ان رجال وفد الملك متيسا لما رأوا الجمال أول مرة خافوا منها وفروا . فقلت للدكتور فلنكن : « بما انك ستضطر الى اتمام سفرك على ظهر الجمال فمن الصواب ان تعتاد ركوب الجمال أنت ومن معك . فاحضر رجال الوفد حتى ندرهم على ركوبها »

فذهب وأرسلت أنا في احضار جمل من أحد التجار . وكان جبلا سمينا ضخما وحضر رجال الوفد وآخرون غيرهم فما رأوا الجمل حتى طار صوابهم وفروا هائمين . ولم يقفهم عن الاستمرار في العدو سوى ثباتنا أنا والدكتور فلنكن وأوضح لهم الدكتور فلنكن ان الجمل حيوان وديع صبور وانهم سيستأنفون السفر الى مصر عليه وليس فيه ما يدعو الى الخوف ولكنهم مع ذلك لم يتقدموا إلا على حذر ووقفوا على مسافة منه لا يجسرون على لمسه وكان تعجبهم عظيما عند ما رأوا القواص يمتطيه ويسير به وينبخره . وأخيراً تطوع أشجعهم لان يركبه وساعدناه على تسنمه وقام به الجمل وهو خائف ولكنه أخذ ينظر الى رفقاته من مكانه العالي وبوضح لهم سهولة ركوب الجمال وملاذه . والظاهر انه دعاهم الى ركوبه فقد برك الجمل وتكأ كأوا عليه جملة وأرادوا جميعاً الركوب وحاول بعضهم ان يركب عنقه وتعلق آخرون بذنبه وتعلق نحو ستة منهم برجله ودهش الجمل لأول وهلة لهذا الازدحام حوله ثم تنبه وأخذ يضرب برأسه يمينا وشمالا حتى نفص جميع هؤلاء . « الوجنديين » عنه وهب واقفاً وهم مبعثرون حوله . واظنتي لم أضحك في حياتي قدر ماضحت في هذه الفرصة . فقد ظن رعايا الملك متيسا (الوجنديون) ان الجمل جبل يتحمل أي عبء ويقوي على النهوض به ولبثوا مدة ذاهلين خائفين لا يقوون على الاقتراب منه ثانيا . ولكن أخذوا بالتدريج يتعلمون ركوبه فبدأ واحد ثم آخر يقترب منه ويركبه حتى انه عند ما جاء ميعاد سفرهم كانوا جميعا يعرفون كيفية قيادته وكان في منزلي عدة أولاد من الذين استخلصناهم من أيدي النخاسين ولما لم يكن للدكتور فلنكن خادم بخدمة فقد اقترحت عليه أن يأخذ معه أحد هؤلاء الاولاد

فقبل ذلك مسروراً وأعطيته صبيّاً من الغرّيت يدعى كبسون وكان ذكياً فعزم الدكتور على أن يريه في أوروبا . وبعد سنتين ونصف سنة وأنا بالفاشر جاءني خطاب مكتوب بالانجليزية من كبسون هذا يشكرني فيه لاني اذنت له بالسفر مع الدكتور فلنكن الى « بلاد كل من فيها طيب القلب رؤوف » ويقول انه قد تنصر وانه أسعد الاولاد وأرسل مع الخطاب صورته في ملابس افرنجية .

وجاء ميعاد سفر صديقي وكنا في اشتياق اليه فركب الجميع جملهم وقاموا الى الخرطوم عن طريق طويشة

وبعد مدة جاءني خطاب من مسدجاليه بك يقول فيه انه مسافر الى الخرطوم لكي يحضر زوجته ولكنه ما كاد يصل الى الخرطوم حتى نشب خلاف بينه وبين ولاية الامور هناك فاستقال وعين بدلا منه مديراً على دارفور على بك شريف الذي كان قبلاً مديراً على كردفان

وقريبا من ختام سنة ١٨٧٩ أو في أوائل سنة ١٨٨٠ تسلمت خطاباً مكتوباً بالفرنسية من غوردون كتبه منذ شهرين قبل وصوله الى ضبره طابور في الحبشة . وقد مزق الخطاب منذ سنين ولكني أتذكر كلماته بالحرف تقريبا وهي :

عزيزي سلاطين

لما انتهت مهمتي مع الملك يوحنا عزممت على أن ارجع في الطريق التي جئت منها . ولكني وانا بالجلابات أدركني رجال تابعون للرأس عدل وأجبروني على الرجوع وسأخذوني محروسا الى كسلة ومنها الى مصوع . وقد أحرقت جميع الاوراق التي ينحشي منها . وسيسقط في يد الملك يوحنا عند ما يعرف انه ليس رئيس بيته

صديقك — غوردون

الفصل الثالث

حكومة دارفور

كانت سنة ١٨٨٠ سنة سلام وهدوء نسبين في داره . وكانت أهم أعماله إدارية فقد زرت تقريرا جميع القرى بنفسى وعرفت جميع القبائل العربية القوية التي كانت على الدوام مشتبكة بعضها مع البعض في قتال متواصل أو موشكة على القتال وقد قتت يديها عدة مرار بالصلح

ووجدت في ختام سنة ١٨٨٠ ان لدي عدة أشياء تستحق مراجعة الحاكم العام فطلبت الاذن بالذهاب الى الخرطوم لكي أقابل رؤوف باشا الذى صار حاكما عاما بعد سفر غوردون وقد أجيب طلبى فبرحت داره في سنة ١٨٨١ وبلغت الخرطوم بعد أسبوعين

هناك وجدت زربوخين الذى رحب بي وأنزلنى بمنزله القريب من مكان الرسالة الكاثوليكية الرومانية و كان ملكا للمرحوم لطيف دويونو وهو رجل ملطى كان نخاسا شهيرا

وفي مدة اقامتى فى الخرطوم كنت احادث رؤوف باشا كثيرا عن أحوال دارفور واقترحت أنه يحسن عدلا وانصافا أن تخفض الضرائب فى الفاشر وفى كبكيه . وطلبت منه أيضا ان يأذن لى بان اجبر العرب على أن يعطوني كل عام عددا من العبيد لكي أملأ بهم الفراغ الذى يقع فى الجيش بالامراض والوفيات والحوادث . وطلبت أيضا منه أن يأذن للعرب بان يدفعوا الضرائب عبيدا بدلا من المواشى لاني أوئل بهذه الطريقة أن استرجع الى جيشنا جنود (البازنجر) الذين كانوا ملتحقين بجيش سليمان زير وصاروا الآن متفرقين فى القبائل وقات ان معرقهم بالاسلحة من أسباب الخطر الدائمة للحكومة . فوافق رؤوف على جميع طلباتي وأعطاني صك مكتوبا بذلك

ولما كنت فى الخرطوم جاءني فى يوم ما من يدعى حسن ولد سعد النور وه

دارفورى وكان أبوه قد قتل مع وزير احمد شحاته فى شقة فرجاني أن أتشفع له لكي يعود الى دارفور فقابلت رؤوف باشا وطلبت ذلك منه فرضى . ولكنه بعد أيام أرسل لي وقال انه عاد فألغى أمره وانه لا يسمح بعودة هذا الرجل الى دارفور . فقلت ان كل جنايته انه اشترك فى الثورة وقد فعل غيره ذلك وانه لا سبيل له الآن الى اىصال الاذى بالحكومة . ولكن رؤوف باشا أبى ان يوافقنى على رجوعه وشعرت أنا بالاهانة لاني كنت وعدت هذا الرجل بأنه سيرجع فقلت لرؤوف باشا انه بين اثنتين . إما رجوع الرجل واما قبول اعدائي وخرجت مغضباً فاستدعاني بعد ذلك بيومين وقال لي اني كنت مخطئاً في وعد هذا الرجل بالرجوع فأقررت بذنبى فقال لي انه سمح برجوعه وانه يعتقد اني موظف عنيد ولكنى ذو كفاية ولذلك طلب من الخديو توفيق باشا ان يعينى حاكماً لدارفور وان يمنحني لقب بك . فشكرته وأكدت له اني سأعمل جهدي لكي أحقق ثقته فيّ

ثم طلب مني رؤوف باشا ان أكتب له ضماناً أتحمّل فيه تبعة مسلك نور فى المستقبل . فكتبت هذا الضمان وأنا مسرور لاني شعرت انه بعد كل ما تحملت من المشاق لاجل رجوعه الى وطنه سيحسن سلوكه ويثبت ولاءه وامانته . ولما عدت الى منزلى أرسلت فى حضور نور وكان قد مضى عليه يومان وهو لا يدرى ما تنتهى اليه مسأله فلما أخبرته بأنه قد أذن له بالرجوع الى وطنه انكب على قدمي وأخذ يشكرني ويكثر من الدعاء لي . وشعرت بأنه رجل شريف يمكن الاعتماد عليه ولكنى كنت وقتئذ أجهل اني قد ضمنت الى صدرى ثعباناً

وانتهت اجازتي بالخرطوم بسرعة بين الاصدقاء الكثيرين . وقد وصل الينا فى أواخر يناير سنة ١٨٨١ الاسقف كومبوني والاب أوهرويدر والاب دختل وكانوا قد جاؤا من القاهرة . ووصل اليها أيضاً حسن باشا رئيس المالية وبوساني وهانسل القنصل وقد نزل أوهرويدر ودختل فى منزلى وكم كان لنا من حديث معاً عن وطننا المحبوب

وفى ٢٥ يناير سنة ١٨٨١ وصل جسي باشا الى الخرطوم وصحته فى غاية السوء . قد برح مشرى الرق وركب النيل قاصداً الى الخرطوم فحجز السد سفينته . والسد

هو تلك النباتات التي تنمو في النيل بكثرة بحيث يحتاج أحياناً الى قطعها بالفؤوس لكي يشق طريقاً للسفينة ويبقى ثلاثة أشهر وهو يعالج اجتياز السد ولقى الامر من جوع وامراض بين رجاله . ومات أكثر رجاله وصار بعضهم يأكل بعضاً للجوع ثم انجده أخيراً ملثرو في الباخرة بردين وحمله عليها الى الخرطوم حيث عنيت به الراهبات . ولكن الصدمة التي نالت جسمه كانت قد هدته فلم ينجح الدكتور زربوخين مع كل ما بذله في رد عافيته اليه . ثم قررنا جميعاً ان يرسل الى مصر وبذلنا كل مجهود لكي يشعر بالراحة والرفاهية في سفره . وكان يرغب في أن يأخذ معه خادمه الماظ وكان خصياً . ولكن رؤوف باشا خشي أن تقول الاقاويل عن ادارته في السودان بوجود هذا الخصى مع جسي باشا فرفض أن يأذن له بمرافقته . ولكن الحاحي والخاص زربوخين عليه جملاء يلين في النهاية ويسمح له بالسفر معه . وفي يوم ١١ مارس حملنا جسي الى ذهبية الحاكم العام حيث سارت به الى بربر . ومن هناك حمل الى سواكن ونزل في الباخرة التي تقلته الى السويس وكان قد تغلب عليه الضعف حتى لم يكن يقوى على الحركة . ووصل الى السويس في ٢٨ مارس ونقل الى المستشفى الفرنسي ولكنه مات بعد وصوله بيومين

ولم تكن الحال في هذه الاثناء على ما يرام في دارفور فقد كتب الى زوجال بك يقول ان عمر واد دارهو قد سار سيرة سيئة في شقة وقدمت خطابه هذا الى رؤوف باشا فأرسل اليه في الحال تلغرافاً يأمره فيه بان يسافر الى الفاشر

ولم يعد لي في الخرطوم ما يؤخرني عن السفر فعزمت على ان أقوم بأسرع ما يمكن لكي أنسلم أعمالي . ووضع رؤوف باشا باخرة تحت تصرفي فتركت الخرطوم في ٢٩ مارس ورافقني الاسقف كومبوني والاب اوهرولدر الذي وعدته بان أحمله على جمالي الى الابيض . وقد شيعنا هانسل القنصل وماركو بولي بك وزربوخين وماركيه الى طرة الحضرة حيث ودعناهم . ولم أفكر وأنا أودعهم اني لن ألاقى منهم بعد ذلك سوى واحد وان تقدر لي العودة الى عاصمة السودان في ظروف غريبة . وكنت شاباً يملأني احساسى بالمركز الجديد الذي شغلته والتبعات العظيمة التي تحملتها بحماسة وأمل في المستقبل . ولكن الاقدار كانت تخفى عنا حظاً آخر .

وبعد مسيرة خمسة ايام بلغنا الايض فبرحنا الاسقف وقام بسياسة في جبل نوبة اما الأب اوهرولدر فقد بقي فيها مدة ثم سافر في أعمال الرسالة الى دلين في جنوبي كردفان . ومكثت في الايض بضعة ايام ثم تسلمت تلفرافا لكي أقوم الى فوجه فودعت صديقي وسافرت اليها . وكان مقدرا لي الا أرى صديقي الاسقف فانه مات في الخرطوم في سنة ١٨٨١

أما الثاني أوهر ولدر فقد حكم علينا القدر بان يني كل منا بمحن عديدة قبل ان نتلاقى أسيرين عند المهدي الذي كان يوشك ان يقلب وقتئذ كل نظام او حكومة في السودان

ولما برحنا الايض أغذنا السير حتى وصلنا داره ومنها الى الفاشر حيث بلغت في ٢٠ ابريل . ووجدت الاحوال الادارية قد بلغت درجة عظيمة من الارتباك والفوضى فقضيت بضعة اشهر وانا أجهد في ايجاد شبه نظام فيها ونجحت في ذلك بعد أن جلت في انحاء المديرية وباشرت عدة أعمال بنفسى وكبر رجائي في الاصلاح

ولم أكن قد رأيت بعد الجزء الشمالى الغربى من المديرية فتعلات باخبار القتال بين عرب البادية وعرب المهرية وعولت على زيارة هذا الجزء . وفي منتصف شهر ديسمبر سنة ١٨٨١ برحت الفاشر ومعى ٢٠٠ من الجنود المشاة وبعض الخيالة غير النظاميين وكان يقودها عمر واد درهو

وبعد مغادرتنا الفاشر حططنا رحالنا للمبيت قرب ابار مدجوب وهي تقع في منتصف الطريق الى قبة فلما خيم الظلام خرجت أتمشي نحو الآبار وكانت ملابسى تشبه ملابس الجنود فلم يكن من السهل معرفة شخصى وقعدت قريبا من الآبار انظر الى النساء وهن يستقين . وجاء بعض الخيالة لكي يسقوا خيولهم وطلبوا من النساء أن يعطينهم دلاءهن . فرفضت النساء وقلن لهم : « سنملا جرارنا أولا ثم نعطيكم الدلاء . »

فقال أحد الجنود : « لكانكن تحمکن علينا بالعقاب من الله . وهذا جزاء

منح الحرية للبلاد . والله لو لم يكن سلاطين معنا لآخذنا كنّ أتّنّ وجرار كنّ ملكا لنا » فأجبنه قائلات « الله يطول عمره »

فرجعت وانا في غاية السرور لاني سمعت باذني شهادة السودانين بارتياحهم الى الاوربيين الذين نجوهم من المظالم التي كانت تتسم بها حكومة البلاد السابقة ولما برحنا كبكيه وصرنا على مسيرة نصف يوم منها أدركتنا رسل ارسلها اليها آدم عمر برسالة مكتوبة بالشفرة الفرنسية بعثها الى مركو بولى بك باسم الحاكم العام . وكانت قد أرسلت ايلا الى فوجه ثم الى كبكيه عن طريق الفاشر وهذا نصها :

« أغار درويش يدعى محمد احمد بدون مسوغ على راشد بك وجنوده قريبا من عذير . وأباده هو والجنود . الثورة خطيرة جداً . اعمل اللازم في مديريتك حتى لا ينضم الى هذا الدرويش اى واحد من الساخطين »

فكتبت الرد في الحال وهو : « وصلت الى الرسالة . وسأخذ الاجراءات اللازمة لانفاذ أوامرك »

وقد كنت سمعت قبل وصول هذه الرسالة الى بمدة ان شيخا من مشايخ الدين قد ظهر وأخذ يناوىء الحكومة ويبحث الناس على العصيان . ولكن لما لم أسمع شيئا عنه من الحكومة بصفة رسمية استنتجت ان مسأله قد سويت ولكن ابادة المدير راشد بك وجنوده صارت تبدو لي الآن في غاية الخطر . والظاهر ان الحركة قد امتدت فجأة ولكن من كان يمكنه وقتئذ التنبؤ بالنتائج الهائلة التي بلغتها فيما بعد هذه الحركة

ولم يكن من الممكن الآن ان ارجع بعد ان شرعت في السير نحو عرب البادية وعرب المهرية بدون ان أثير القلق في النفوس عن علة رجوعى في نصف الطريق . فعولت على ان أهم هذه المهمة قبل رجوعى

ومن الغريب ان عرب البادية هؤلاء مع انهم محاطون من كل جانب بالمسلمين يكادون يؤلفون القبيلة الوحيدة التي لا تزال متعلقة بعادات الوثنية القديمة في وسط افريقيا . فاذا سئل احد رؤسائهم ان يصرح بدينه قال : (لا إله إلا الله محمد

رسول الله) ولا يكتنه لا يعرف شيئا غير هذه العبارة فهو يجهل القرآن ولا يصلى مع المسلمين وكانت عرب البادية يجتمع رجالها تحت شجرة كبيرة جداً من شجر الهجلك وقد فرشت أرضها بالرمل فيتمنون على إله مجهول ما يريدون ويدعونه الى حماينهم

ولهم أعياد دينية تقع في أوقات غير معينة فيصعدون الى التلال ويقفون على القمة التي يطلونها بالجير ثم يذبحون أضحياتهم . وهم طوال الاجسام لهم هيئة شريفة ولونهم اسود شديد السواد ولكن انوفهم دقيقة وافواههم صغيرة وهم لذلك أشبه بالعرب منهم بالزنوج . ونسائهم مشهورات بشعرهن الطويل السبط وبينهن جميلات يشبهن جميلات العرب . وهم يلبسون وزرة من جلود الحيوان . ولكن النساء والطبقة العالية من الرجال يلبسون ملابس طويلة مصنوعة من قطن دارفور . وطعامهم غاية في البساطة

فهم لا يعرفون القمح ولا يزرعونه وانما يأخذون لب القرع الذي ينمو عندهم بكثرة وينقعونه في أنية مصنوعة من لحاء الشجر . ثم يقشرونه ويتركون اللب في الماء حتي تذهب عنه مرارته ثم يصفونه ويمزجونه بالبلح ثم يجففونه ويطحنونه دقيقا يخبز مع اللحم فيكون طعاما

ولهم عادات غريبة في الميراث . فاذا مات أحدهم اجتمع أقاربه وحملوه الى قبره في الجبانة التي تقع عادة خارج الحلة أو القرية التي يعيشون فيها . فاذا دفن وقفوا مستعلمين فتشارهم اشارة خاصة فيعدون الى بيت الميت متسابقين فمن بلغه قبل غيره غرز رمحه أو قوسه فيصير بذلك الوارث الوحيد لما ترك الرجل من مال ونساء ما عدا ام المتوفى وله الحق عندئذ في أن يتزوج النساء أو يسرحهن حسب حاله المالية فان عدد النساء يتوقف على غنى الرجل أو فقره

ووصلنا أخيرا الى كامو حيث أخبرني الزغاوة الكبير الشيخ صالح دقوسة بان رؤساء عرب البادية سيحضرون في الغد . واتفقت معه على أن تكون شجرة الهجلك مكان اللقاء والمفاوضة وان يكون ميعاد المفاوضة بعد ساعة من شروق الشمس ويكون هو ترجمانا بيني وبينهم . وأمرت رجالى بنصب خيامهم على بعد نصف ميل من شجرة

المجلىك ثم صفقتهم في صباح اليوم التالى استعدادا للاقاء رؤساء البادية الذين أخبرنا صالح المذكور بقدمهم ، ووقفت مع ضباطى ومع السنجق عمر واد دارهو متقدمين على الجنود بنحو مائة ياردة ومعنا الخدم وقوفا الى جانب الخيول . ثم ظهر لنا رؤساء البادية قادمين الينا ومعهم صالح وايديهم مكتوفة الى صدورهم ورؤوسهم منكسة . وقد أحضروا معهم ترجمانا فتبادلنا التحية بواسطته ثم أمرت بيسط السجاد على الارض ودعوتهم الى الجلوس عليه . أما أنا وضباطى فقد جلسنا على الكراسى ثم تناولنا شيئا من السكر والماء والملح وشرعنا فى المفاوضة

وكان رجال البادية أربعة كلهم طويل شريف الهيئة ذوملامح حسنة في سن الكهولة وكانت ملابسهم جلابيب بيضاء أحضرها لهم صالح وكانوا يحملون السيوف العربية المستقيمة وكانت أسماؤهم . جار النبي وبوش وعمر وكركره ولكنى لست متأكدا بأنهم لم يتخذوا هذه الاسماء العربية المطنطنة وقتيسا للظرف الحاضر فقط . وكان اتباعهم يبلغون من ستين الى سبعين رجلا يلبسون القمصان والجلود وقد وقفوا وراءهم على بعد منهم . وقعد صالح دقوسة قريبا من الشيوخ ومن المترجم

وتكلم جار النبي مخاطبا المترجم قائلا « كرسي سلم » فقال المترجم سلم يعني انه مستعد للترجمة ثم شرع في المفاوضة قائلا .

« نحن من قبيلة البادية وقد كان آباؤنا وأجدادنا يدفعون الخراج لسلطان دارفور كل سنتين أو ثلاث عند ما كان يرسل جياته لجمعه . وأنتم الانراك قد تغلبتم الآن على دارفور ولم تسألونا قط أن ندفع لكم خراجا . وأنت (اسلاطينه) قد صرت حاكما للبلاد كما أخبرنا بذلك صديقنا وأخونا دقوسة ونحن نقر بطاعتنا لك وقد أحضرنا معنا رمزا لهذه الطاعة عشر خيول وعشر جمال واربعين بقرة . فهل لك الآن أن تقرر قيمة الخراج المطلوب منا ؟ »

وصارت النوبة الى فى الكلام فبعد ان قلت « كرسي سلم » قلت انا أشكركم على خضوعكم وسأطلب خراجا صغيرا ولكنى جئت هنا لكي أطلب منكم أن تردوا الى المهرية جهالم التي سرقتموها وتردوا اليهم أسراهم الذين تحبسونهم الآن « قريث جار النبي هنيهة ثم قال . « منذ عهد آبائنا ونحن في ثارات مع العرب

المحيطين بنا فاذا قاتلناهم وأسرونا منهم أسرى فمن حقنا أن نطلب فداءهم وكثيرا ما قبلنا قبلا فلكك اسرى المهدية »

فسألت الشيخ حسب الله عن صحة هذه الدعوى فاجاب بالاجاب فسألته ثانيا هل كانت هذه العادة تجري مدة سلاطين دارفور فقط او انها جرت ايضا بعد دخول دارفور في حكم الحكومة المصرية »

فاجاب : « قبل أن تفتحوا البلاد ومنذ سنتين غزت المهرية بلادنا فصددناهم فارتدوا عنا »

فنظرت الى حسب الله ووجدت من عينيه ان الرجل يقول الحق فقلت « قد يكون ذلك ولكنني في ذلك الوقت لم احكم هذه البلاد . وانا أعرف انكم في تلك الايام كنتم تعملون ما كنتم تظنونونه صوابا ولست ألومكم على ما فات ولكني انا الآن الحاكم وأطلب منكم السير على رغبتني . فيجب اذن ان تردوا الاسرى ولكن بما ان المهرية قد بدأوكم بالهجوم فانا أسمح لكم بان تحتفظوا بنصف الجمال برهانا على شجاعتكم في رد غارتهم »

فخيم سكوت طويل ثم أخذ الاربعة يتفاوضون معا . وأخيراً أجاب جارايتي بقوله : « سنطيع أمرك . ولكن بما ان جمع الجمال يحتاج الى مدة طويلة لتفرقها في أنحاء البلاد فانه من الاسهل علينا ان نرد الاسرى »

فقلت : « اذن التفتوا لما أقول ونفذوا هذه الاوامر بأسرع ما يمكنكم . ردوا الجمال وأنا اعفيكم من خراج هذا العام لاني أعرف ان من الصعب ان تدفعوا الخراج وتردوا الجمال في وقت واحد . »

ورأينا ان هذه التسوية قد وافقهم حتى صاروا يكثر من الشكر والدعاء فطلبت منهم البقاء لصباح اليوم التالي وقلت ان صالح سيغني بكل حاجاتكم . ثم امتطينا خيولنا وأمرت الجنود بان يطلقوا ثلاث طلقات . وقد ذعروا عند ما صكت آذانهم لانهم لم يسمعوا اطلاق العيارات النارية قبلا . ثم أمرت صالحا بان يحضرهم لي في صباح اليوم الثاني وركضت جوادي الى مضرب خيامنا

وقضيت طول النهار وانا مشغول البال بشأن رجوعي الى الفاشر بدون ان

يؤثر رجوعى في نجاح بعثتي . ولم يكن من المتيسر لى ان أبقي حتى أرى رد الاسرى
و كنت أيضاً قلقاً بشأن قرب الماء الذى أعطاه لنا المهرية وقد وبخت حسب الله لعدم
اتقانه هذه المهمة

ولما جاءوا في صباح اليوم التالى سألتهم هل أرسلوا الرسل لجمع الاسرى والجمال
فاجابوني بالنفى فقلت لهم فى لهجة التغيظ انى لن أقدر على الانتظار لكى أرى تنفيذ
أوامرى بنفسي . فقال جار النبي : « نحن هنا يا مولاي لكى ننفذ أوامرك فيمكنك
ان تسافر حين تشاء ونحن نسلم الاسرى والجمال الى دنقوسه وحسب الله »

فقلت : « عندى اقتراح آخر . فانى لأشك فى اخلاصكم وولائكم ولكنى
أحب ان أزيد معرفتى بكم ولذلك أرى ان تصحبوني أنتم ومن تريدون ان يرافقكم الى
الفاشر وفى اثناء غيابكم تنتدبون من ترغبون فى ندبه لكى يسلم الرجال والجمال
لحسب الله الذى سيبقى هنا مع دنقوسه . وعندما تبلغنى الاخبار وانا بالفاشر بان
مندوبيكم قد فعلوا ذلك أردكم انا الى بلادكم مثقلين بالهدايا . انكم لم تزوروا الفاشر
قبلا ويلذ لكم رؤية عاصمة المديرية وقوة الحكومة وانى واثق بانكم ستوافقون على
اقتراحى هذا . وستسرون لما تشاهدونه هناك حتى انكم ستوافقون بعد ذلك دائماً
على كل ما أطلبه منكم فى المستقبل »

فقال صالح ان الاقتراح حسن ولكنه قد سبق ان رأى الفاشر ولذلك هو
لا يرغب فى زيارتها ثانيا . ورأيت من وجوه الآخرين أنهم يستحسنون الفكرة وبعد
محادثات طويلة وافقوني على السفر معى . وكانوا لعلمهم بان سفرنا يتوقف على انتداب
من يثقون به لتسليم الاسرى والجمال اخذوا يتشاورون بسرعة فى انتداب عدد منهم
لكى يقوموا بهذا العمل ولما انتهوا من ذلك زودوهم بستة رجال لخدمتهم وأخبروني
باستعدادهم للسفر . ولكنهم قبل ان يسافروا طلبوا منى ان يقسموا يمين الولاء
فوافقهم على ذلك . وكان لأخذ هذه اليمين حفلة نظامها كما يلى :

أحضروا سرج جواد ووضعوه على الارض ثم وضعوا فوقه قدرا نحتوى على
فحم خشبي متقد وعرزوا فى السرج رمحاً . ثم تقدم شيخ بعد شيخ منهم وصار يتلو
كل منهم كلمات ثم يقسم فى نهايتها اليمين التالية :

(لا تمس سافي هذا السرج وليطعنني هذا الرمح ولتأكلني هذه النار اذا انا نكشت بهذا العهد الذي أتعهد به أمامه)

وبعد هذه اليمين المخرجة لم يكن ثم ما يرييني في ولاء هؤلاء الناس اوفى شرفهم وأمرت بالشروع في السفر بعد الظهر وبرحنا كاموا برفقة رؤساء البادية وحاشيتهم وأمرت صالحا وحسب الله بان يخبراني عن تنفيذ الاتفاق وتسليم الرجال والجمال . وكنت راغبا في الوصول الى الفاشر باسرع ما يمكنني ولذلك تركت رؤساء البادية مع فرقة المشاة وأوصيت الضباط بالعناية بهم طول مدة سفرهم ثم اصطحبت عمر واد درهو وحرس الشايحية واسرعنا في السفر الى الفاشر

وكان اول ما سمعته من الاخبار عند وصولي وفاة اميلياني دانزنجر الذي كان في شقة . وقد كان قبلا مأمور القبة ولكني كنت أرسلت اليه لكي يمثل الحكومة في جنوبي دارفور وكان يشكو من مرض القلب منذ سنوات ثم قضى عليه أخيرا . ولم يفهم الموظفون الذين حوله سبب موته هذا الفجائي ولذلك اشتبهوا في انه قد مات مسموما فحملوه على جمل وأرسلوه الى داره وفحص الجثة الصيدلي المقيم هناك وقال ان الموت طبيعي ودفنت الجثة في داره وأقيمت انا نصبا من الحجر عليه تذكارا لهذا المواطن المسكين الذي لقي حتفه في هذه البلاد النائية

ثم بلغني ان في شقة قلاقل قد جرت حديثا واني محتاج لذلك للسفر الى داره والاقامة بها جملة أيام . وجاءتنا ايضا اخبار مزعجة عن الحالة في كردوفان والخرطوم ولكن كان المظنون في دوائر الحكومة ان الثورة ستقعم بالحملة العسكرية التي ارسلت لهذا الغرض وبعد أيام وصل رؤساء البادية وقد أمرت بغية التأثير فيهم جميع جنود الحامية بالخروج والعرض أمامهم وفي الليل أطلقنا جملة اسهم نارية اكراما لهم . وقد انتدبت المدير لسكي يقوم بحراستهم وراحتهم ولكني لسوء الحظ لم اتمكن من البقاء معهم طويلا . فما كادت الخيول تستريح حتى شرعت في السفر الى داره بصحبي عمر واد دارهو ومائتان من الشايحية وانتدبت السيد بك جمعة لسكي يمثل الحكومة مدة غيابي

الفصل الرابع

رواية الخليفة عن المهدي

ظهر لنا ان حركة الدروايش كانت خطيرة جدا . واقد ولد هذا الرجل محمد احمد قريبا من جزيرة ارغوا من عائلة فقيرة خاملة ولكن أفرادها كانوا يدعون أنهم من نسل النبي . ولكن هذه الدعوى لم يكن احد يأبه لها وكان يعرف محمد احمد هذا باسم الدنقلاوى وكان أبوه فقيرا عاديا وقد علمه القراءة والكتابة وهو صبي وأخذه الى الخرطوم ولكنه مات في الطريق في كبرى حيث بنى ابنه له بعد ذلك ضريحاً سماه « قبة سيدى عبدالله »

ولم يجد محمد احمد من يعتمد عليه بعد وفاة أبيه فأخذ يدرس ويشار على القراءة وكانت نفسه تنزع الى التفقه في الدين فأحبه استاذاه وأوصاه بحفظ القرآن عن ظهر قلبه . ثم سافر الى بربر وتعلم لمحمد الخير فأنتم عليه تعليمه الدينى وبقى جملة سنوات فى بربر يدرس ويقرأ وكان لتواضعه ودكائه محبوباً وفى حظوة من جميع المعلمين . ولما بلغ سن الرجولة غادر بربر الى الخرطوم فصار تلميذاً للشيخ محمد الشريف وكان رجلاً وقوراً مشهوراً وكان أبوه نور الدائم صاحب الطريقة السمانية المعروفة

وواجب شيخ الطريقة ان يكتب فقرات من الادعية والحديث فيحفظها تلاميذه عن ظهر قلب ويكررون تلاوتها حتى يتمهد بذلك لهم الطريق الى قبور الجنة التى هي غاية كل مؤمن . ولكل شيخ مذهب وهو يحمل اسم مؤسس الطريقة مثل طريقة الخاتمية والخضرية والتغانية والسمانية الخ . وتلاميذ أصحاب الطرق هؤلاء يطيعونهم ويلزمونهم

وأظهر محمد احمد تعلقه بالطريقة السمانية وتعلق بصاحبها الشيخ محمد شريف . ثم رحل الى جزيرة أبه فى النيل الابيض قريبا من كاوه وحوله جماعة من تلاميذه المخلصين المتعلقين به . وكانوا يرتزقون بزرع الارض كما كانت تأتيهم هدايا عديدة من المؤمنين الذين كانوا يمرون فى النيل صعودا أو هبوطا وكان ثم محمد احمد

مقياً في الجزيرة منذ سنوات فتزوج ابنته محمد احمد . وكان أخواه محمد وحامد يعيشان هناك وكانا يشتغلان بصنع القوارب ويعاونان أخاهما على العيش . وحفر محمد احمد لنفسه شبه صومعة في شاطئ النيل وكان يعيش هناك بعيداً عن الناس وكان يصوم عدة أيام ولا يزور رئيس الطريقة الا من وقت لا آخر لكي يثبت له اخلاصه

وحدث في أحد الايام ان محمد شريف جمع لمناسبة ختان ابنائه مشايخ الطريقة والتلاميذ واذن لهم في الغناء والرقص لان الله يغفر في مثل هذه الظروف الخاصة في الافراح ما يحدث من الخطايا والذنوب المخالفة ولكن محمد احمد لما انطبع عليه من التقى والصالح استنكر الغناء والرقص وضروب الطرب الاخرى . وأوضح لاصدقائه مخالفتها كلها للدين وانه لا يمكن أى انسان .هما كان قدره ولو كان شيخ طريقة أن يترخص فيها . وبلغت هذه الاقوال محمد شريف فأكبر من محمد احمد وعظ تلاميذه واستنكر الحجاج التي أدلى بها وطلب منه أن يبرر أقواله . وكانت نتيجة ذلك أن تقدم محمد احمد بالاعتذار وهو يتذلل امام التلاميذ والاتباع ويطلب الصفح . ولكن محمد شريف أخذ يلغنه وينسب اليه الخيانة والخروج على شيخه بعد أن أقسم بيمين الولاء له ثم سما اسمه من قائمة الاتباع المذكورين في الطريقة السمانية

فذل محمد احمد وصغر وذهب الى أحد أقاربه وطلب منه أن يصنع له « شعبة » والشعبة عبارة عن خشبة مشقوقة يوضع العنق في شقها فتضم عليه وتؤلم الانسان بذلك ألماً شديداً . ثم ذر على وجهه رماداً وعاد الى محمد شريف في هذه الهيئة يرجو الصفح ويقر بالتوبة والندم ولكن شيخ الطريقة رفض أن يخاطبه فعاد محمد احمد خائباً الى أهله في أبيه وكان يحترم مؤسسى الطريقة السمانية الشيخين نور الدائم والطيب احراماً عظيماً ولذلك كان لطرده من طريقتهما وقع عظيم في نفسه لا يكاد يحتمله

وحدث بعد ذلك أن سافر محمد شريف الى بلدة قريبة من أبيه فذهب اليه محمد احمد في الشعبة ووجهه ملطخ بالرماد يستغفر ويتوب ولكن الشيخ طرده أفظع الطرد وقال له : « اخساً عنى يا خان . اخساً أبيها الدتقلاوى الشقى الذي لا يخاف الله

والذى يخرج على معلمه ومولاه . لقد حققت قول من قال : الدنقلاوى شيطان
مجلد بمجلد انسان . انك تشير الشقاق بين الناس فاحسأ عني فاني لن
أغفر لك »

وكان راكماً يسمع هذا الكلام الجارح ثم انتصب وخرج والدموع
تهمل من عينيه ولكن هذه الدموع لم تكن دموع الندم بل دموع الغيظ والحقد
الذين كان يتلظى بهما قلبه وكان مما يزيد غيظاً قلة حيلته في غسل هذه الفضيحة
عن نفسه . فعاد الى أهله وأخبرهم أن محمد شريف قد طرده وان يقبله في الطريقة
ثانياً وانه قد عزم على أن يطلب من الشيخ القریشى أن يقبله في طريقته
وكان هذا الشيخ قد خلف الشيخ الطيب جد محمد شريف وقد أذن له في
تعليم الطريقة السمانية وإعطاء العهد عنها وكان بينه وبين محمد شريف لهذا السبب
غيرة شديدة

وجاء جواب الشيخ القریشى يقول فيه انه مستعد لقبوله . ونهياً محمد احمد هو
وتلاميذه للذهاب الى مسلمية حيث الشيخ القریشى وأخذ العهد منه . وبينما هو في
ذلك واذا برسالة من محمد شريف قد وصلتته يقول له فيها انه يأمره بالقدوم وانه قد
عزم على الصفح عنه وعلى الاذن له بان يعود الى ممارسة الطريقة . فرد عليه محمد
احمد رداً أياً قال فيه انه لا يطلب الصفح لانه لم يذنب وانه لا يجب أيضاً ان
ينقص مكانة الشيخ بان يجتمع به علناً أمام الناس وهو « دنقلاوى شقى »

واستقبله الشيخ القریشى مرحباً وانتشرت حكاية رفض محمد احمد قبول
الصفح من شيخه في جميع انحاء السودان . ولم يكن الناس قد سمعوا بمثل هذا
العمل من قبل وأخذ محمد احمد يصرح بأنه ترك مولاه القديم لانه قد خالف الدين
جهره . فعطف عليه الناس عطفاً كبيراً لهذا السبب وجعلوا يتحدثون به وكبر مقامه
في عيونهم وقد بلغت هذه الحادثة أهل درافور وصارت حديثهم وصار هو بطلا
يعجب به لرفضه الطاعة لمولاه

وحصل على اذن من الشيخ القریشى بأن يعود الى أيه حيث كان يزوره
لناس من جميع البلاد يتبركون به وصارت العامة تهرع اليه وترى فيه مظلوماً

خرج على ظالمه وابي الضيم . وكانت تأتيه الهدايا فيفرقها بين الفقراء ولا يأخذ شيئاً منها لنفسه حتى صار يلقيه الناس بلقب « الزاهد »

ثم سافر الى كردفان حيث يكثّر الفقهاء . وهم من أجهل الناس وأكثرهم خرافات . فلقى نجاحاً عظيماً بينهم . ووضع رسالة وزعها بين اتباعه المخلصين حضهم فيها على تطهير الايمان الذي فسد وانحط بفساد الحكومة وعدم احترام الموظفين أركان الدين

وبعد أشهر مات الشيخ القرشي فذهب محمد احمد واتباعه الى مسلمية حيث بنوا له ضريحاً له قبة تذكراً له .

وحدث في هذا الوقت ان جاء رجل يدعي عبد الله بن محمد التعايشي من قبيلة البقارة أي الذين يقتنون البقر وطلب من محمد احمد ان يدخل في الطريقة السمانية فقبله محمد احمد واقسم امامه يمين الولاء . وكان عبد الله هذا أكبر اخوانه الاربعة وكان أبوه يدعى محمد التقي من قسم الحبيزة من فخذ التعايشي . وكان هذا الفخذ ينتسب الى « أولاد أم صورة » وكان لعبد الله اربعة اخوة ثلاثة ذكور وهم يعقوب ويوسف وسامى وأخت تدعى فاطمة . وكانت علائق أبيهم بأسرته سيئة ولذلك عزم على مهاجرة السودان والنجح الى مكة ثم الإقامة في جوار الرسول بالمدينة . وقد وصف أولئك الذين عرفوا محمد التقي هذا بأنه كان رجلاً صالحاً متخرجاً يؤدي واجباته الدينية بدقة ويشفي الامراض بالتعاون والتأتم وكان أيضاً يعلم الناس القرآن .

وكان عبد الله ويوسف أشد أولاده عصياناً وقد لقي منهم الأمرين في تعليمهم بعض الآيات الضرورية للصلاة . اما يعقوب وسامى فكان فيهما شيء من طبع والدهما وهدوئه وقد حفظا آيات القرآن وبعض الشروح وكانا يعاونانه على تأدية واجباته الدينية

وقد اشتركت أسرة التعايشي في مقاومة الزير عند فتحه دارفور . وقد حكي الزير بأنه عند ما كان يقاتل في الشقة وقع عبد الله أسيراً وكان أوشك ان يقتله

لولا ان توسط بعض الفقهاء . وعرف له عبدالله هذه المأثرة فجاءه يوماً يقول له انه رأى في نومه رؤيا تلخص في ان الزير هو المهدي المنتظر وانه هو عبدالله احد اتباعه . قال الزير :

« فقلت له اني لست المهدي ولكني لعلى شراسة العرب وانهم أقفلوا الطرق قد جئت لفتحها واعادة التجارة الى ما كانت عليه »

ولما انتهى الصلح مع الزير عاد التقى هو وأولاده عن طريق قلعة وشقة التي بقوا فيها سنتين ثم غادروها الى دار قمر عن طريق دار حمر والايض . وكانوا قد نزلوا ضيوفا على شيخ دار قمر وبقوا عنده عدة أشهر ومات هناك ابراهيم التقى فدفنوه في شرقلة وقبل موته أوصى أكبر أبنائه عبدالله بان يحتمى ببعض المشايخ ثم يهجر هو وأسرته السودان الى مكة حيث يعيشون بقية حياتهم ولا يرجعون الى السودان وسافر عبدالله وترك اخوته طبقاً لوصية أبيه في عناية الشيخ عساكر ابو كلام وسمع في طريقه عن الشقاق بين محمد احمد وشيخ طريقة السمانية التابع لها وعزم على أن يذهب الى محمد احمد وأن يطلب منه الاذن بالاندماج في طريقته

وقد قال لي بعد ذلك الشيخ عبدالله بن السيد محمد خليفة المهدي : « كان سفرى شاقاً جداً . وكان كل ما أملكه في الدنيا حمار له دبيرة في ظهره فلم أكن أستطيع ركوبه وانما كنت أضع عليه قرني وغرارة القمح وأسطفوقهما ثوبي المصنوع من القطن وأسوقه امامي . وكنت في ذلك الوقت ألبس ثوباً فضفاضاً من القطن مثل سائر رجال قبيلتي . أظنك تتذكر هذا الثوب يا عبد القادر »

(وكان يسميني عبد القادر فاذا كان أحد آخر قاعداً وله هذا الاسم فانه كان يدعوني باسم عبد القادر صلاح الدين أي سلاطين)

وكانت ملابسي ولهجة كلامي تدلان على أني غريب وبعد ما عبرت النيل كان كلما قابلني أحد قال لي : ما ذا ترغب هنا . اذهب الى بلدك . ليس هنا شيء . تسرقه وأهل النيل يسيئون الظن بنا لان التجار الذين كانوا يذهبون الى الغرب للزير كانوا يلاقون عنتاً كبيراً من العرب وكنت عند ما أسألم : أين المهدي المعروف باسم

محمد احمد وأبن يقطن . كانوا ينظرون الى متعجبين ويقولون : وأنت ما ذا ترغب منه . انه لا ينجس شفتيه بذكر اسم قبيلتك

«ولكن لم ألق هذه المعاملة من كل الناس فان بعضهم كان يشفق علي ويداني على الطريق . وكنت مرة أجتاز قرية فأراد بعض أهلها أن يستلبوا مني حماري متعللين بأنه سرق منهم في العام الماضي وكادوا ينجحون في ذلك لولا أن توسط رجل صالح وأجازني القرية بحماري . وكنت طول الطريق عرضة للسخرية والتهزئة ولولا ان البعض كان يشفق علي ويعطيني شيئاً من الطعام لمت جوعاً . وبلغت بعد الجهد مسلمية فوجدت المهدي مشغولاً ببناء ضريح للشيخ القربشي . فما هو أن رأيته حتى ذهب عني كل ما عانيت من المشاق وقعدت راضياً أعايته وأسمع أقواله وتعاليمه . وبقيت ساعات لا أجسر على فتح في امامه ثم تشجعت وأخبرته بقصتي والحالة السيئة التي صار اليها اخواني وعزمت عليه بالله والرسول إلا ما أدخلني في طريقته . ففعل ومد الي يده قبلتها مشتاقاً وأقسمت له بالطاعة العمياء طول حياتي . وقد حافظت على هذا القسم حتى رفعه ملك الموت وسيرفعا أيضاً يوماً ما ولذلك يجب أن نستعد للفاته في كل وقت »

وكان عبد الله التعايشي كثيراً ما يحدثني بمثل هذه الاحاديث يبعث إلى في الليل لكي أسامره ، فاقعد أنا على الارض ويقعد هو على العنجريب الفاخر المفروش بمحصير السعف . وكان يثق بي ولا يخفي عني شيئاً في الاول أما بعد ذلك فصار يتشكك من جهتي

وكان يحب التملق وكنت أغلو أنا في ذلك فأفوت الحدود ولكني كنت أرغب في أن يتم حديثه فقلت له : « أجل يا مولاي لقد حفظت وعدك وكافأك الله فبعد ان كنت محتقراً مهيناً قد صرت الآن رئيس البلاد وملكها . ولقد كان يحق لأولئك الذين سبوك وأهانوك أن يشكروك ويعترفوا بفضلك فانك لم تنتقم منهم بل حلت وتمالكك فثبت بذلك انك خليفة النبي »

قال عبد الله : « لما أقسمت بين الولاء للمهدي أحضر أحد تلاميذه ويدعي

علي وقال له ولي : أنتما منذ الآن اخوان فليؤيد كل منكما الآخر وأنت يا عبد الله أطع ما يأمر بك به أخوك .

« وكان علي يجاملني وكان فقيراً مثلي وكان كلما أرسل اليه المهدي طعاماً يشاركني فيه فأصيب منه . وكنا في النهار نحمل الطوب لبناء الضريح وفي الليل ننام على فراش واحد وتم بناء القببة بعد شهر وكان الزائرون يتوافدون على المهدي بالملئات فلم يكن لديه من الوقت ما يمكنه أن يراني أو يفكر فيّ ولكنني كنت أعرف ان لي في قلبه مكانة حتى انه جعلني أحد حملة البيارق ولما غادرنا المدينة كان الناس يهرعون الينا لكي ينظروا المهدي وكانوا يسمونه في ذلك الوقت باسم محمد احمد فقط وكانوا ينصتون الى أقواله ويرغبون في بركته

« ولأزمتنا هذه الحال حتى بلغنا جزيرة ابه . وكان نعلاني قد بليا وكنت قد اضطررت الى اعطاء حماري للمقدم (وهو رئيس التلاميذ) لكي يحمل عليه رجلاً مريضاً . واما وصلنا في النهاية الى بيت المهدي وهنا أصابتنى دوسنطاريا شديدة فأخذني « أخي » علي الى عشته المصنوعة من القش ولم تكن تكاد تسع اثنين وكان يأتي بي بطعامي ويحمل اليّ الماء للوضوء .

« وذهب في مساء أحد الايام لاجتماع الماء ولكنه لم يرجع . وفي صباح اليوم التالي أبلغت انه وهو يستقي من النيل هجم عليه تمساح واقتصره . الله يرحمه . الله يغفر له »

فكررت أنا هاتين العبارتين وقلت : « ما أعظم صبرك يا مولاي . من أجل ذلك قد رفع الله مرتبتك . وهل لي يا مولاي ان أسألك هل أعارك المهدي التفاته مدة مرضك ؟ »

فقال : « كلا . فقد اراد المهدي ان ييلوني . ولم يخبره احد بمرضه الا بعد وفاة علي وجاءني بعد ذلك في مساء أحد الايام وكنت منهوكا لا اقوى على النهوض ففعل بجاني واعطاني مديدة سخنة من قرعتي وقال لي : اشرب هذا وثق بالله فانك ستشفى

« ثم غادرني وجاء بعض الاخوان فحملوني بأمره الى عشة قريبة من عشته . وكان

هو نفسه يعيش في عشة بسيطة . ومنذ اعطاني المديدة وانا آخذ في التحسن والشفاء على حد وعده لي فانه لا يكذب ولا يقول الا الصدق »

فأقول أنا هنا : « المهدي لا يكذب ولا يقول إلا الصدق وأنت خليفة وقد سرت في أثره واتبعت أوامره »

ويتم الخليفة حديثه فيقول : « فلما اقتربت منه عادت إلى صحنى بسرعة لأنى كنت أراه كل يوم وكنت أرى فيه نور عيني وأسكن إلى قربى . وكان يسألني عن عائلتي ويقول انه يحسن بهم البقاء في كردوفان في ذلك الوقت وكان آخر شيء يفوه به لي قوله :

« ثق بالله . ثم أكثر من زيارته لي وكان يأتينى كل يوم مراراً وباح لي يوماً بصره وقال لي ان الله قد بعثه مهدياً وان النبي قد أخذه الى حضرة الانبياء والرسل ولكن قبل أن يقول هو ذلك لي كنت أنا أعرف منذ رأيت وجهه انه هو المهدي المنتظر . أجل ما كان أسعد أيامنا في ذلك الوقت . لاهوم ولا متاعب . والآن ياعبد القادر لقد سهرت وتأخرت . قم واذهب الى فراشك »

فأسلم عليه وأقول وأنا خارج « أطال الله عمرك وقواك على هداية المؤمنين في الطريق السوى » .

ووجد المهدي في شخص عبد الله أداة مطاوعة تقوم بما يطلبه منها . ومما يعجب له الانسان انه لولا شجار محمد احمد مع محمد شريف لما ارتفع شأنه . فانه أصبح ذا شهرة بعيدة في جميع انحاء الجزيرة (أى القسم الواقع بين النيل الابيض والنيل الازرق) وصار يمني نفسه بالمراكز العليا التي كتبت له في صحيفة القدر . وجعل يخبر اتباعه في السر ان الوقت قد آن لتطهير الدين وانه سيقوم هو نفسه بهذا العمل فمن يرغب منهم الاشتراك معه فلي انضم اليه . وكان يسمي نفسه « عبد الله » ويومئذ من يحضره انه يعمل عن وحي من الله وقد أعلمه الخليفة بكل ما يجب معرفته عن قبائل الغرب وأخبره بأن في هذه القبائل شجاعة وأيد وانها اذا لاحت لها الفرصة للدفاع عن دين الله ورسوله فانها لن تتأخر عن اغتنامها فذهب للموت أو الظفر

ونصح الخليفة المهدي بان يقوم بسياحة في ردوفان لكي يجذب اليه القبائل وقام كلاهما الى دار قر (جمر) حيث كانت عائلة الخليفة التي انضمت اليهما . وقد أخبر المهدي أعضاء هذه العائلة بان الوقت لم يحن بعد لتركهم بينهم أما الآن فمن الأنفع أن يحضوا القبائل النازلة حولهم على الانضمام للمهدي

وبرح المهدي دار قر الى الابيض حيث زار الاعيان والمشايخ وكان يحادثهم ويستطلع آراءهم ويؤسس لترسماته المستقبلية . وكان يسر الى أولئك الذين يثق بهم كل الثقة انه أمين على رسالة تطهير الايمان الذي أفسده الموظفون . وكان السيد المكي رئيس مشايخ الابيض أمينه الذي وثق به وقد نصح له بأن الوقت الحاضر لا يلائم الثورة لان الحكومة قوية والقبائل منشقة بعضها على بعض . ولكن المهدي كان أكثر تفاؤلا واتفق كلاهما على ألا يتحرك الشيخ حتى يشرع المهدي في الحركة التي سيحكم أمرها الى حين اعلانها

ولما غادر المهدي الابيض سار الى تاج الله حيث التقى بمك آدم حاكم المركز الذي استقبله استقبالا حسنا ولكنه لم يعده بالتأييد لان القاضي نصح له بالألا بعد هذا الوعد ثم عاد الى ابيه عن طريق شرقلة

وكان محمد احمد في اثناء سياحته ينظر في أحوال البلاد ويتدبرها وقد أدرك أن الطبقات الفقيرة في الامة تكره الحكومة أشد الكره وذلك لكثرة الضرائب الفادحة المضروبة عليها كما بينت ذلك في أحد فصولي الماضية وكانت هذه الطبقات تعاني ما يوقعه بها الجبابة الغلاظ السفلة من ضروب الظلم والعسف . وكان بين هؤلاء الجبابة عدد من السودانين لم يكن تفلت منهم فرصة لأثراء أنفسهم وتوظيف أقاربهم بغية تحقيق هذا الغرض ايضا . وقد عين غوردون التاجر السوداني الثري الياس ومنحه رتبة باشا فكان لهذا التعيين أثر سيء في نفوس الاهالي . وهذا القول ينطبق على تعيين قريبه وهو تاجر يرى ايضا يدعى عبد الرحمن بن نجا . وكان كلاهما على كفاية يعرف حالة البلاد وكيفية حكم الاهالي ولكنهما كانا يشتغلان لمصلحتهما

وتتج عن تعيينهما أن انتشر روح التحاسد بين كبار السودانين الذين كانوا

يعتبرون أنفسهم أهلاً لمثل وظيفة الياس أو قريبه عبد الرحمن . ولما أرسل الياس باشا الى ملك آدم يطلب منه دفع الضرائب رفض ملك آدم هذا الطلب رفضاً باتاً مدعياً بانه من سلالة ملوكية وقال في رفضه : « اني أدفع للتجار أمان انبضائع التي اشترىها ولكني لا ادفع لاحد خراجا . وفي الوقت نفسه ارسل الى الابيض يسأل هل مات الاتراك وسائر البيض حتى صارت الحكومة تعين التجار حكماً بدلاً من ان تعين الاشراف وذوى البيوتات . وكان هذا سبب فصل الياس باشا وعبد الرحمن من وظيفتهما وتعيين الاتراك والمصريين في مكانهما

أما عن الموظفين الاوربيين فلم يكن في السودان سوى عدد قليل . وكانوا محبوبين ومحترمين لان الناس كانوا يثقون بهم ولكني لأشك في أن بعض الاستياء كان يعزى اليهم . فربما أصدروا أوامر مصدرها حسن النية ولكنها كانت تخالف عادات الاهالي وتقاليدهم . ثم اني لأشك في أن موقفنا تجاه مسألة الرقيق قد أحدث استياء عظيماً بعيد المدى . فان الدين يأذن بالرقيق وقد كانت الارض منذ عهد بعيد تفلح بالعبيد وكان العبيد يوكلون بالعناية بالماشية . ولست أشك في أن النخاسة كانت تتطلب ارتكاب فظاعات وسفك دماء . ولكن هذه الفظاعات لم يكن يبال بها أو يفكر فيها مشترون العبيد وكانوا على وجه العموم يعاملون عبيدهم معاملة غير سيئة . ولم تقتصر نحن على منع تصدير الرقيق بل كنا أيضاً نسمع شكاوى العبيد . وكنا على الدوام نحرر العبد الذي يشتكي مولاه

وانهز محمد احمد فرسة الاستياء هذه من وجوها العديدة وكان يعرف ان الدين هو العامل الوحيد في ربط هذه القبائل المتنازعة . فأعلن انه « المهدي المنتظر » فصارت له بذلك شخصية فوق شخصية أى انسان آخر وكان يأمل بذلك أن يطرد من السودان جميع الاوربيين والمصريين والاتراك . ولكنه لم يكن يعتقد ان الوقت قد حان بعد لان يعلن جهاراً هذه الدعوة . فعمد الى تأييد دعوته بزيادة الانصار واستمر على ذلك حتى صارت دعوته سرّاً مكشوفاً

وكان محمد شريف قد أخبر رؤوف باشا الحاكم العام سرّاً بنية محمد احمد ولكن نزاعه السابق معه جعل ولاية الامور لا يصدقونه واستنتجوا انه يدس لخصمه الذي

ذاعت شهرته لصلاحه وتقواه . ولكن الحكومة علمت بعد ذلك من مصدر آخر ان محمد احمد خطر على الامن العام ونوت نية صادقة على أن تنتهي منه ولهذا الغرض أرسل رؤوف باشا يطلب محمد بك ابو السعود وأمره بالمسير في الباخرة الى ابيه واحضار محمد احمد الى الخرطوم . ولكن أصدقاء المهدي وأنصار أحاطوه علما بنية الحكومة وأخبروه انه اذا حضر للخرطوم فسيقتل بها وان اعتقاله ليس الا من دس محمد شريف ، فلما وصل ابو السعود بك الى أبيه استقبله عبد الله التعايشي وشقيق محمد احمد وقاده الى حيث مقام الشيخ . فاخبره ابو السعود عن التقارير التي بلغت للحكومة عنه وهي بالطبع كاذبة وعن الاشاعات التي تشاع عنه وطلب منه لذلك أن يسافر الى الخرطوم ويكذب هذه الاشاعات التي أشيعت عنه امام الحاكم العام . فاجاب محمد احمد وقد وقف فجأة وضرب صدره بيده قائلاً . « ماذا تريد مني . وحق الله ورسوله ما انا الا سيد هذه البلاد ولن أذهب الى الخرطوم لكي ابرى نفسي »

فتراجع ابو السعود للوراء مذعوراً من هذه الالفة وأخذ يهدى روع المهدي بكلمات رقيقة . ولكن المهدي الذي كان قد رتب هذا المنظر التياتري مع عبد الله ومع شقيقه صار يتكلم بحماسة وحرارة ويحض أبو السعود على أن يؤمن بما يقوله أما ابو السعود فكان الآن مهموماً بنفسه لا يبالى الا بان يرجع الى الخرطوم ورجع بالفعل وأخبر الحاكم العام بحبوط مهمته

وادرک محمد احمد انه ليس هناك مجال لاضاعة الوقت وان مستقبله يتوقف على مجهوده فلم يتوان عن الكتابة الى جميع أنصاره في أنحاء السودان يستشيرهم على الحكومة . اما الانصار القريبون منه فقد أمرهم بان يستعدوا للجهاد

وفي هذه الاثناء لم يكن رؤوف باشا مهملًا امر المهدي . فقد عرف من حديثه مع ابي السعود ان خطورة المسألة عظيمة جداً فعزم على ارسال فصيلتين للقبض على المهدي ووعد كلا من قائدي الفصيلتين بان يرقيه الى رتبة بكباشي اذا كان هو القابض عليه قبل الآخر وأراد من ذلك ان يحشما على الاجتهاد والمنافسة . ولكن عواقب هذا العمل كانت وخيمة جداً

فان الجيش الذى كان يقوده ابو السعود نزل الباخرة «اسماعيلية» وكان بها مدعم
فبرحت الخرطوم فى اغسطس سنة ١٨٨١ وسارت الى ابيه . وكان هذا الجيش مؤلفا
من فصيلتين على كل منهما قائد . وقد اختلف هذان القائدان الواحد مع الآخر
والاثنان مع ابي السعود وعرف محمد احمد بالحملة الموجهة اليه فاستعان بقبيلتى دغيم
وكنانة فاعانتاه واستعد هو للمقاومة وأخبر من حوله بان النبي قد ظهر له وقال له
ان كل من اشترك معه فى هذا الجهاد سيعطى لقب « الشيخ عبد القادر الكيلاني »
ولقب « أمير الاولياء » وهما لقبان محترمان عند المسلمين . وعندما تفأقت الحالة
وعظم الخطر لم يتقدم للجهاد سوى عدد قليل سلموا انفسهم واموالهم للمهدى

ووصلت الباخرة الى ابيه عند غروب الشمس وعلى الرغم من أوامر ابي السعود
زلت الفصيلتان لان كل ضابط كان يرغب فى الحصول على رتبة بكباشى قبل الآخر .
اما ابو السعود الذى كان قد انغمس فى الخوف فى قلبه منذ قال محمد احمد انه مولى البلاد
فقد وقف بالباخرة فى وسط النهر ومعه مدفعه . وكان الضابطان كلاهما يجهلان المكان
وكلاهما يرغب فى الحصول على رتبة بكباشى فسارا فى طريقين مختلفين على الشواطىء
المتوحلة قاصدين عشة محمد احمد . ولكن محمد احمد كان قد ترك عشته واخذ انصاره
وتسلحوا كلهم بالسيوف والحراب والهرارات واختبأوا فى الديس . والتقت الفصيلتان
عند القرية كل منهما قد أتت من جهة مقابلة للجهة التى أتت منها الاخرى واطلقت
كتلتاهما النار على القرية الخالية من السكان فاصابت كل منهما الاخرى وحدثت
خسائر خطيرة من الطرفين . وفى وسط هذا الارتباك هب أتباع المهدى من كمينهم
وضربوا الجنود الذين كان قد فقدوا قوتهم المعنوية فتشتتوا فى كل مكان وتمكن
بعض الجنود من ان يصل الى الشاطئ ، وان يسبحوا الى الباخرة ورعب ابو السعود
واراد ان يبحر بالباخرة الى الخرطوم فى الحال ولكن الريان أشار عليه بالبقاء للصباح
لعل بعض الفارين من الجنود يتمكنون من الوصول الى الباخرة . ولكن لم يأت احد
وفى الفجر أقفلت الباخرة تسير باقصي سرعتها حاملة هذه الاخبار المحزنة

ويمكن أن ندرك نتيجة انتصار محمد احمد . فان رجاله خرجوا من المعركة سالمين
لم تنلهم خسائر قط او اذا كانوا قد أصيبوا فاصاباتهم كانت طفيفة جدا . وقد جرح

محمد احمد في ذرعه فضمد جرحه عبدالله التعايشي ونصح له الا يخبر اتباعه به . والى هنا كان عدد أتباعه لا يزال صغيرا لان الناس كانوا يعتقدون ان الحكومة ستتخذ اجراءات فعالة لاختاد حركته .

وأخذ عبدالله واخوته يحضون محمدا احمد على ان يجعل المسافة بينه وبين الحكومة بعيدة فعول بناء على حضهم ان يقوم الى جنوبي كردوفان . ولكي لا يفهم اتباعه انه ينوى الفرار من وجه الحكومة أذاع بينهم انه قد أوحى اليه ان يذهب الى جبل ماسة . والمأثور في السودان ان المهدي يخرج من جبل ماسة . وهذا الجبل في شمالي افريقيا ولكن المهدي تغلب على هذه الصعوبة بان اسم جبل ماسة على جبل غدير الكائن بكردوفان . وقبل ان يغادر ابيه عين خلفاءه الاربعة طبعا للوحى . وأولهم الذي كان يمثل ابا بكر الصديق كان عبدالله التعايشي . وثانيهم الذي يمثل عمر بن الخطاب كان علي واد حلو من قبيلة دغيم . وثالثهم الذي يمثل عثمان بن عفان لم يعين وقتئذ وقد عرض بعد ذلك هذا المنصب على الشيخ السنوسي فرفضه . اما الرابع فكان على الكرار وكان من أقارب المهدي وكان صبيا

ورفض أصحاب القوارب اولا ثقل اتباع المهدي على النيل لانهم كانوا يخشون ان تعدم الحكومة مشتركين مع محمد احمد واتباعه وكان قد انضم اليهم فريق من قبيلتي دغيم وكنانة العربيتين . ولكن محمد احمد تغلب على معارضتهم وجعلهم ينقلونه في النهاية هو ورجاله الى الشاطىء الآخر . وسار الجميع الى دار قمر وكان محمدا احمد يدعو السكان الى الانضمام اليه ويطلب اليهم ان يذهبوا معه الى جبل ماسة . واشتدت الحماسة عندئذ بين رجاله وكانت لا تفوت فرصة يخبرون فيها السكان عن المعجزات التي يأتيها المهدي

وحدث مرة انه وقف برجاله في احد الامكنة وكان قريبا منه ضابط معه ستون جنديا وكان هذا الضابط المدعو محمد جمعه يجمع الضرائب وخطر في باله ان يهاجم المهدي ويقبض عليه ولكنه خافا من تبعه هذا العمل ارسل الى الابيض يستشير ولاية الامر ولكن قبل ان تأتيه التعليمات من الابيض كان المهدي قد جاز المكان برجاله . وبعد سنوات لقيت محمد جمعه وهو في حالة تعيسة في ام درمان وقال لي .

« لو كنت اعرف بانه سيقضى على بان امشى حافيا وان استجدى من الناس كسرة الخبز لما طلبت تعليمات من الابيض وتركت هذا الدنقلاوى الشقى يفر من يدي .
لقد كان افضل لى ان أقتل من ان اعيش هذه المعيشة التمهسة »

وأتيحت فرصة أخرى للقبض على المهدي ولكنها فانت أيضاً. فقد كان جيجل باشا قد انتدب لمهمة تحقيق اختلاس حدث باتفاق بين موظف في الابيض وبين تاجر سوداني ثرى يدعي عبد الهادي وسمع جيجل باشا بأن المهدي قريب منه وذلك حوالى آخر سبتمبر فأنفذ اليه محمد سعيد باشا ومعه أربع فصائل من الجنود للقبض عليه واحضاره للابيض . ولكن الحملة ، إما عن قصد أو اهمال ، أخفقت في مهمتها . فان الجنود على ما يظهر حطوا رحالهم في المكان الذي نام فيه اتباع المهدي في الليلة السابقة وبعد ان أضاعوا ثلاثة أيام بلا فائدة عادوا الى الابيض وهم موسومون بالخوف من قتال المهدي فزادت بذلك كرامة المهدي ووجاهته.

وكانت نية محمد احمد ان يقضي بعض الوقت في جبل تاج الله . وسمع مك آدم بذلك فأرسل اليه أحد أبنائه بهدايا من القمح والغنم ومعه رسالة منه ينصح له فيها بالتوغل بعيداً في الداخلية . فاستمر في سيره وبعد مشقات طويلة بلغ جبل غدير حيث كان يوجد قسم من قبيلة كنانة غير السكان الاصليين

وكان راشد بك في ذلك الوقت حاكماً على فشوده وكان يعرف حركات المهدي ولذلك عول على الغارة عليه قبل ان يتقوى بمن ينضم اليه . وكان في فشوده رجل الماني يدعي برجوف وكان في الاصل يشتغل بالفتوغرافية في الخرطوم فأرسله رؤوف باشا مفتشاً لقمع تجارة الرقيق في أعالي النيل

وتقدم الآن راشد بك ومعه برجوف وكايكو بك ملك الشلوك قاصدين غدير . وكان راشد يقلل من أهمية المهدي فلم يكن يحفل باتخاذ الحرس والاحتياطات فكمن له المهدي وأوقع به وقتل من رجاله ألف وأربعمائة ألف نفس . وكان هجوم المهدي مفاجئاً وسريعاً حتى لم يستطع راشد ارسال صاروخ في الهواء . وصمد راشد وقليل ممن معه للقتال ولكن رجال المهدي تكاثروا عليهم وقتلوه

ووقعت هذه الهزيمة في ٩ ديسمبر ومن ذلك الوقت لم يتردد محمد احمد في

المجاهرة علنا بأنه المهدي المنتظر . وكبر مقامه في أعين العرب ومع ذلك لم تكن علاقته مع أجواره على ما يحب . وقد أشار الخليفة عبد الله التعايشي الى هذه المدة وحكي لي عنها فقال :

« لما بلغنا الغدير كنا في غاية الاعياء بعد هذا السفر الشاق الطويل . وكان للمهدي فرس واحد من تلك السلالة الحبشية الرديئة أما أنا فقد سرت المسافة كلها تقريباً على قدمي . ولكن الله يهب القوة للمؤمنين الصادقين الذين يسلمون أنفسهم وما يملكون لاجل الايمان . وكان اخوتي يعقوب ويوسف وسماي قد انضموا الينا وكذلك زوجة أبي التي كانت ترضع ابني على صدرها . ولم يرض أخي هرون البقاء فأتى معنا أيضاً . وكنت على الدوام في قلق بشأن اخوتي وزوجة أبي وعائلتي وابني هذا الذي تراه عثمان شيخ الدين ولم تكن مشاق السفر تهمنا نحن الرجال فان المصائب والكوارث تأتينا من عند الله ونحن نتحملها راضين شاكرين لان الله قد اصطفانا لنعلي كلمته ونرفع دينه الذي ديس مع التراب وكنا نعلم اخواننا . ولكن (وهنا كان يبتسم) تعليم الدين لم يكن ليأتينا بالطعام لاولادنا ونسائنا وكان الناس يهرعون الينا زرافات ولكن معظمهم كان في فاقة تزيد عن فاقتنا وكانوا يأتون الينا لكي نعولهم . أما المتيسرون فكانوا يتجنبوننا . أجل ان المال لعنة ومن كان غنيا في هذه الدنيا فانه لن ينعم بنعيم الفردوس ولم نكن نحصل على معونة ما من الناس الذين كنا نجوز بلادهم وكان المهدي مع ذلك يقسم ما يحصل عليه من القليل الذي لديه بين الحجاج الذين كانوا يقصدونه . وكان قلبي يتفطر عندما أسمع بكاء الاطفال والنساء . ولكني كنت عندما أنظر الى وجه المهدي تعود إلى الطمأنينة وأثق بالله . أجل يا عبد القادر ان الصبر مفتاح الفرج . كن صبوراً والله يكافئك »

وقد نهت هزيمة راشد بك الحكومة الى خطورة الحالة وهيئت تجريدة بقيادة يوسف باشا شلالى وكان قد ظهرت مواهبه في حملة جسي باشا في بحر الغزال وكان مشهوراً بصدق عزيمته وبسالته . وهي أيضاً مدد آخر مؤلف من فرقة من الطوبجية

ومعهم بعض المتطوعين بقيادة عبد الله واد ضيف الله (شقيق احمد واد ضيف الله)
وعبد الهادي وسلطان ديمه . وأرسل هذا المدد الى كردوفان

وفي هذه الاثناء أرسل المهدي الرسل الى جميع الجهات تحمل بشأن انتصاراته
وهدايته ودعا جميع الاهالي الى الانضمام اليه في الجهاد وأطلق اسم « الانصار »
على اتباعه ووعدهم بأربعة أخماس الغنائم التي تقسم في الحرب. أما من مات منهم فقد
ضمن له نعيم الفردوس . وبذلك استثار الصفات الكامنة في نفس السوداني
وأهمها الطمع والتعصب

وكان جيش يوسف باشا شلالى يبلغ أربعة آلاف جندي يقودهم محمد بك عثمان
وحسن افندى رفيق الذي كنت قد فصلته أنا من وظيفته قبلا . أما الخيالة غير
النظامية فكانت بقيادة طه بن صدر وهو رجل شجاع . وغادرت هذه القوة
الخرطوم في ١٥ مارس سنة ١٨٨٢ وعرجت على كوه حيث حطت رحالها تنتظر
المدد الآتي من الابيض

وقد وجد عبد الله واد ضيف الله ان جمع المتطوعة ليس من المهمات السهلة .
فقد كان الشعور العام انه من الخطأ أن يقاتل رجل صالح مثل المهدي ثم لم يكن
هناك مطمع في الغنائم لان أتباع المهدي لم يكونوا أحسن حالا من الشحاذين . وزيادة
على ذلك كان الياس باشا أغنى تجار كردوفان وحاكما المعزول يكره ضيف الله
أشد الكره وقد استعمل سطوته في منع الناس من التطوع . ومع ذلك تمكن ضيف
الله من تجنيد بعض المتطوعة باتفاقه مع ولاية الامور وصارت قوته بمن فيها من
النظاميين ٢٠٠٠ قبل أن يرحل الابيض والتقى بالجيش في كوه فصار مجموع الجيش
٦٠٠٠ وذلك حوالى منتصف شهر مايو

واستراح يوسف باشا قليلا ثم تقدم نحو الغرب وضرب خيامه في ٦ يونيو في
مسات القرية من جبل غدير وهو واثق بالظفر . والحق انه لم يكن هناك حسب
ظاهر الاحوال ما يدعو مثل يوسف باشا ومحمد بك وابو صدر الى الخوف من
طائفة من العرب قد أضناها المرض والجوع والعري . ألم ينتصروا في الماضي جملة

انتصارات في النيل الأبيض وفي دوفيله ؟ ألم يفتحوا بحر الغزال وينخضعوا سلطان دارفور ؟ فماذا يمكن أن يفعل معهم هذا الفقيه الأعزل الجاهل ؟

ولكن عبد الله وإد ضيف الله لم يكن مغترا بقوته فقد حذر هؤلاء القواد من تصغير شأن المهدي . وقد وقع من ظهر جواده وهو خارج من الأبيض وهنا الوقوع يعتبر في السودان شؤما يخشى منه ولكنه كان يصرخ في الصحراء فلم يسمع له أحد . بل لم يعز أحد منهم بيناء « زريبة » من الاشواك والاعصان حول الجيش وإنما اكتفوا بالتقاط قليل من القش وصنعوا منه سياجا واهيا لم تكن منه فائدة قط . وما جاء الفجر حتى جاءت طائفة المهدي التي أضناها الجوع والعري والمرض وأوقعت بجيش يوسف باشا . وكان ذلك في ٧ يونيو . فقد جازوا السياج الواهي وباغتوا الجنود وهم نيام فاجهزوا عليهم فقتل يوسف باشا وأبو صدر وهما في قبض النوم على باب خيمتهما . ولم تمض دقائق حتى أيدت جميع الجنود تقريبا . وكان لأبي صدر امرأة سرية فلما رأت مولاها يقتل هبت الى القتلة وقتلت اثنين منهم بمسدس في يدها ولكن وقعت فوق مولاها بطعنة حربة بلغت قلبها . وصمد عبد الله وإد ضيف الله بعض الوقت ولكنه هو ورققاؤه قضى عليهم بعد مدة وجيزة من القتال

وفي البلاد غير المتحضرة عند ما يحدث شيء غريب يعزى على الدوام الى قوة الهية وكان هذا تأثير نكبة يوسف باشا في عقول السودانيين المستسلمين للخرافات . فقد مضي ستون سنة كان القطر السوداني محكوما فيها بالمصريين والأتراك

فقد كانت العادة المتبعة أن تعاقب القبائل التي لا تدفع الضرائب المطلوبة منها ولم يكن أحد يجادل في حق الحكومة في هذا العمل . أما الآن فهذا الفقيه قد ظهر وجمع حوله شراذم الرعاع الذين لم يتمرنوا على الاعمال الحربية وليس معهم عدة السلاح وأوقع بجيوش الحكومة فلم يكن هناك من يشك اذن في أنه المهدي المنتظر وكانت هزيمة يوسف باشا سببا في خضوع كردوفان كلها للمهدي فصار في امكانه الآن أن يهيئ لنفسه العدة التي كانت تنقصه . فأخذ في جمع الاموال والاسلحة والخيول وسائر الغنائم يوزعها على رؤساء القبائل التي انضمت اليه . وكانت هذه

القبائل تعتقد انه المهدي المنتظر الذي لا تحده نفسه الا باقامة الدين ولا قيمة للاموال والامتنعة في نظره

وفشت اخبار المهدي في كل ناحية وكانت هذه الاخبار اذا تنقلت بين اهالي كردوقان الذين لم يصيبوا الا قليلا من التعليم يبالغ فيها مبالغة عظيمة . وخرج من الاهالي عدد عظيم تركوا بيوتهم يؤمنون جبل غدير الذي كان يسمى الآن جبل ماسة وبعض من الاهالي تجمعوا حول رؤسائهم لمقاتلة موظفي الحكومة المشتتين في انحاء البلاد

وكانت هذه الاحوال توافق اهواء العرب الرحل فكانوا بدعوى الحرب الدينية يقتلون وينهبون الاهالي وكانوا يهتمونهم بالولاء للاتراك وفي الوقت نفسه أيضا وجدوا في هذه الحالة طمأنينة من حيث عدم دفع الضرائب لتلك الحكومة المكروهة واتصل المهدي بتجار الابيض الذين كانوا بواسطة ثروتهم ونفوذهم يحكمون البلدة بل جزءاً كبيراً من سائر البلاد . وقد أدركوا هم الحالة تماماً وكانوا يعرفون ضعف الحكومة وتوانيتها واستعد كثير منهم لمشايعة المهدي . وكان الياس باشا من أعظم المستائنين من الحكومة وكان يكره احمد بك ضيف الله صديق محمد باشا سعيد ولذلك جد واجتهد في السر في جمع الانصار للمهدي . وكان عدد كبير من صغار التجار ينتظرون تحسن الاحوال التجارية اذا سقطت الحكومة وكان هناك قليل من التجار يكرهون المهدي ولكنهم كانوا يترقبون فوزه فلم تكن لهم حيلة سوى الانضمام اليه لئلا تقع زوجاتهم وأملأهم غنيمة لرجاله عند ما يعتقد له النصر

أما مشايخ الدين فقد رأوا في هذه الحركة ما يرفع مقامهم وكانوا يفخرون بان واحداً منهم قد نجراً على أن يعلن عن نفسه انه المهدي وكانوا يترقبون الوقت حين يطرد هذا المهدي جميع الاتراك من البلاد ويبقى هو الحاكم لها . وكان هناك عدد قليل — قليل جداً — من اولئك الذين كانوا يقدرون الخطر الذي تستهدف له البلاد اذا فاز المهدي وقد فعلوا كل ما يمكنهم لتثنيه الحكومة . ولكن عدد هؤلاء كما قلنا كان قليلاً فلم يكن لهم أثر في الحركة . وأرسل الياس باشا ابنه عمر لكي يقف المهدي على الحالة ويدعوه الى الحجى

الى الايض . وكان محمد باشا سعيد ينتظر مجيئ المهدي للايض ولذلك حفر خندقا حول المدينة ظنا منه أن السكان سيصمدون للحصار وأشار عليه احمد بك ضيف الله بتحسين مباني الحكومة ففعل وبنى حولها جداراً بارتفاع الصدر . ولكنه لبخله وقع في خطأ فاحش اذ بدلا من أن يخزن الحبوب استعداداً للحصار ويشتريها بأثمان عالية رفض أن يشتريها الا بالأثمان التي تباع بها وقت السلم . ولم تمض مدة حتى بيعت الحبوب لأولئك الذين شعروا بالانقلاب في الحالة وعرضوا ثمنها أكبر مما عرضه محمد باشا سعيد

وفي هذه الاثناء كان الاهالي يقتلون في كل مكان . وكان العرب السفاكون لا يلتقون بحياة الضرائب أو شراذم الجنود أو الموظفين المتفرقين حتى يقتلوهم . وأغار عرب البادية على سكان أبي حرز وكادوا يبيدونها . وكانت ابو حرز على سفر يوم من الايض ولم يتمكن من الهرب الى الايض سوى عدد قليل من الاطفال والنساء والرجال . اما باقي السكان فاما انهم قتلوا او أخذوا أسرى وقت فرارهم في الصحراء المحرقة . وكان العرب يسقون الفتيات اذا عطشن أما النساء المسنات فكن يلاقين الاهوال . فقد كان هؤلاء العرب لكي يحصلوا على خلايلهن وأساورهن يقطعون أيديهن وأرجلهن

وبعد أيام قلائل أغار العرب على بلدة اشاف في شمال كردوفان فهبوها وقد دافع عنها نور أنجمره الذي كان هناك في ذلك الوقت وساعده سنجق محمد أغا يابو الذي كان قواص غوردون . ولكنهما اضطرا الى التقهقر . وكان يابو هذا كرديا وقد فعل العجائب في تهقره فقد جمع النساء والبنات في الوسط وأمرهن بان يغنين غناء الحرب وكان يقول ان هذا الغناء ينفي الخوف عن القلوب وكان يكر على العرب من وقت لآخر حتى نجح في استرداد جميع الفارين تقريباً ووصل سالماً الى داره وأغار العرب على داره هذه ولكنهم ارتدوا عنها أولاً . ثم عادوا وجمعوا جموعهم يقودهم الشيخ رحمة الله فطوقوا البلدة ومنعوا عنها المؤمنين

واجتمع جمع آخر من العرب في كشجيل فارس اليهم محمد باشا سعيد فصيلة من الجند فرقهم ولكن الفصيلة فقدت من أفرادها عددا كبيرا حتي ليصح ان يعد

انتصارها هزيمة . واجتمع هؤلاء العرب ثانيا في بركة وكانت بها حامية مؤلفة من ألفي رجل قتلوا . وحدثت نكبة أخرى مشابهة لهذه في الشط على النيل الأبيض حيث قتل مائتا جندي . واغار العرب أيضا على الدويم فارتدوا عنها وخسروا ألفي رجل

وفي هذه الاثناء لم تكن رسل المهدي الذين أرسلهم الى الجزيرة وائين . فان عرب جهينه والحوارنة والاجليين ساروا الى سنار يقودهم ابوروف فحاصروها ولكن جاء السنجق صالح واد الملك بقوة من الشايحية فرفع الحصار عنها

وحاصر الشريف احمد طه مدينة أبي حرز الواقعة على النيل الازرق . وكان جيجلر باشا يقوم بوظيفة الحاكم العام رؤوف باشا وقد وصل الى جوار المدينة فارسل مك يوسف من الشايحية لمهاجمة الثوار ولكنه هزم . واستحى مك يوسف من الفرار فنزل من ظهر جواده وبسط فروته على الارض وأمر احد عبيده بان يقتله . وسافر جيجلر في الحال الى الخرطوم وهيا مدداً عاد به وأغار على احمد طه وقتله وأرسل رأسه الى الخرطوم . ثم طهر جوار سنار من الثائرين بدون ان يفقد عدداً كبيراً من رجاله ولكن على الرغم من هذا النجاح الوقتي كانت الحكومة تتسلم كل يوم أخباراً مزعجة عن الكوارث التي كانت تقع بمجيوشها وبالسكان في عدة انحاء من السودان

وبكانت نتيجة ذلك ارسال عبد القادر باشا حاكماً عاماً للسودان فوصل الى الخرطوم في ١١ مايو سنة ١٨٨٢ وشرع بهمة في العمل على تحصين المدينة . وكان لعمله هذا تأثير في الاهالي الذين اتضح لهم ان الحكومة تنوى العمل بهمة . ولكنه في الوقت نفسه أوضح لهم خطورة الحال . وقد أمنت دور الحكومة مثل مخازن المؤن والذخيرة والدقرخانة من جميع الطوارئ . وسحب الحاكم العام الى الخرطوم حاميات القلابات وسهيت وجره وكان الهدوء التام يشمل هذه المراكز

وفي هذه الاثناء ادرك محمد احمد ان حضوره ضروري لكي يشعل النار الخاملة ويحبلها لهيباً آكلاً . ولذلك قبل دعوة الياس باشا للتوجه الى الأبيض وترك عمه

محمود شريف مع بعض الاتباع في جبل ماسة للعناية بزوجاته واولاده . ثم هبط الى الوادى وجمع جموعه وسار بهم الى عاصمة كردوفان الغنية

الفصل الخامس

الثورة في جنوبي دارفور

لما غادرت الفاشر قاصدا داره في أوائل سنة ١٨٨٢ كان معي ٣٥٠ جنديا راکا بقيادة عمرواد دارهو ولم يكن هذا الحرس ضروريا ولكني رأيت ان أؤثر في العرب وأريهم ان لدى الحكومة قوات كبيرة تخمد بها اية حركة تدفعهم اليها نزاعهم .

ولما بلغت داره زرت قبر اميليانى ونصبت شاهدا من الحجر عليه للذكرى . وكان زوجال بك يقوم مقامه في ادارة الاعمال وكانت الظواهر تدل على ان الحالة قلقة جداً . فقد خرج عرب الجنوب وهم الرزيفاف والحبانية والمعالية على الحكومة فقد عقدوا عدة اجتماعات أعلن فيها ان الدراويش يهرعون للانضواء الى راية المهدي الذي أرسله الله لاعلاء كلمة الدين . فامرت منصور افندى حلى بان يسافر في الحال الى شقة لكي يعيد النظام الى نصابه وكان معه ٢٥٠ جنديا نظاميا و ٢٥ جنديا راکبا

فسار عن طريق قلقة (كلاكة) وعدت أنا الى الفاشر لكي اجمع فصائل الجنود التي كانت متوزعة في انحاء البلاد لجمع الضرائب ولكي استعد بهم للطوارئ . وقبل ان أغادر داره تمحادثت طويلا ومليا مع زوجال . وقد كنت أعرف هذا الرجل معرفة تامة عند ما كنت حاكما هنا وقد علمت انه تمحادث مع عمر واد دارهو كثيرا عن أحوال المهدي وأعماله واتفق معه علي انه اذا استمر النصر معقودا بلوائه فانهما ينضمآن اليه . وكان هذان الرجلان أغنى من في المركز وكان لهما نفوذ عظيم بين الاهالي ولذلك كان انشقاقيهما علينا خطراً جداً . فرأيت ان أتجنب اليهما وان اعمل كل ما يمكن لمنع هذا الشقاق . فلما حادثت زوجال لم أشر الى مقابلاته العديدة

دارهو ولكنى حصرت كلامى فى الاشارة عليه بانه بالنسبة لقرايته للمهدى وبالنسبة لانه موظف كبير ينبغى له ان يعاون السلطة الشرعية فى البلاد

ولما ودعت الضباط والموظفين شرحت لهم وجوب انتباههم الدقيق لواجباتهم وأخبرتهم بأنى سأعود من الفاشر فى أقرب وقت . ثم تركت الجنود الراكبة فى داره وسرت الى العاصمة التى بلغتها بعد سفر ثلاثة أيام . وهنا علمت ان المحطة التلغرافية فى فوجة قد استولى عليها الثائرون ورأيت لذلك ان أمر بارسال المدد الى أم شنجه

وكان نظام البريد قد تعطل تماماً واضطرت لهذا السبب الى أن أرسل خطاباً الى الابيض والخرطوم فى داخل قوائم الرماح أو بين نعل الحذاء أو أخبطها داخل ملابس حاملها . وكنت قد طلبت من الخرطوم امدادى بالذخيرة ولكنها لم تصل إليّ لاهمال الموظفين فانها أرسلت الى الابيض متأخرة ولا تقطاع المواصلات لم يمكن إرسالها إلى

وعلمت من داره ان مادبو زعيم الرزيفات قد رفض ان يأتى . فلم أشك بعد ذلك فى ان جميع القبائل الجنوبية قد خرجت على الحكومة وانها تنوى كل النية الانضمام للمهدى فقررت أن يكون مقامى فى داره فأخذت ٢٠٠ جندي من المشاة و٧٥ من الجنود الراكبة وسرت بهم الى داره

وعند وصولى أبلغت وقوع حادثة كانت فى ذاتها تافهة ولكن نتائجها كانت خطيرة جداً . فقد سبق ان ذكرت بانى وأنا مسافر الى الخرطوم التقيت فى الطريق بالشيخ علي واد هجير من قبيلة المعالية فرافقنى الى الخرطوم . وقد أثبت ولاءه للحكومة فعينه رئيساً لقبائل المعالية الجنوبية . وقد سمع هذا الشيخ بقرب عقد اجتماع عرب الرزيفات بقيادة الشيخ بلال نيجور بغية الانضمام الى المهدى فعول الشيخ علي على ان يحضر هذا الاجتماع ويقبض على الشيخ بلال متهماً إياه بالثورة . فسار الى مكان الاجتماع مع حميه وبعض أصدقائه ورأى بعض الرجال المنتمين الى قبيلته قد حضروا أيضاً فطلب اليهم أن يخرجوا وينحازوا الى جانبه . ولكن لم يبال أحد بطلبه وحدث فى أثر ذلك مشاغبة عومل فيها هجير واصدقاؤه معاملة

قاسية عنيفة حتى اضطروا الى ان ينجوا بأنفسهم . ولكن حكاية فرارهم انتشرت على غير وجه الحقيقة بحيث انه عند ما وصل هجير الى زوجته ومعه حموه واصدقاؤه تلقتهم بقولها :

« راجلي اضليم وأبويا ربطة . سفر يومين سووهم في جبطة »
ومعنى ذلك : « زوجي ظليم (ذكر النعام) وأبي اثى نعام حتى انها قضيا سفر يومين في لحظة »

واقفتي بلال نجور أثر الهارين تصعبه المعالية فهجم على دار الشيخ هجير . وأخذ الذين حول الشيخ هجير يحثونه على الفرار الى شقة ليدخل في حماية منصور . ولكنه كان يتصور من آلام الكلمات القاذعة التي عبرته بها زوجته فرفض الفرار وقال :

« لن أفر لكي أنجو بنفسي . خير لي ان أقع بالسيوف من ان تضحك منى امرأة »
وقد وعد وأوفى وعده فانه قاتل الجموع حوله قتال الابطال حتى شقت حربة رأسه نصفين فوق وهو يتلو الصلاة حتى مات . وقتل حموه ووقع في جانبه أما زوجته التي كانت سبب كل هذا البلاء . فقد وقعت أسيرة واستعبدت ودعاني منصور حلتي لكي أذهب الى شقة لرغبته في الاتفاق مع القبائل لاني أمثل الحكومة وبهذه الصفة يكون لي تأثير اكبر فيهم . واقترح ان نبني قلعة حصينة في شقة ونضع فيها مدفعين . ولما كان الاتفاق مع العرب ضروريا فاني قررت اجابة طلبه وسافرت الى شقة ومعى ١٥٠ من الجنود النظامية و ٢٥ جنديا راكبا ومدفع

وكنت في اثناء سفرى أسمع من الاخبار ما يثبت انتشار الثورة وانتصار المهدي ولما وصلت الى قرية المادبو في دعين جاءني رسول وأخبرني هذا الخبر الغريب وهو ان منصور قد أغار على هذا الشيخ قريبا من شقة وقد معظم من معه وبات في شبه حصار في مرأى فأرسلت في الحال في طلب إمداد من داره وبقيت مدة الانتظار في دعين وأنا لا أشك في ان المادبو ينوى ان يهاجمني . وقد تحقق ظنى . وقد انضم الى الشيخ عفيفي من قبيلة الحبابية ومعه ٢٥ من الخيالة والحق ان ما أثر هذا الشيخ الموالى لجديرة بان تدون

ففي مساء أحد والشمس توشك أن تغرب خرج رجالى يجمعون الحطب فأغار علينا المادبو بنحيوله التي تراءت لنا بأنها تقصد الى زريبتنا وهي تعدو . فلما رآهم الشيخ عفيفي أسرج في الحال جواده وامتطاه وأشرع حربته وقال لى :
« عارفتى زين . أنا نور الطقش ابو جلب من آدم . أنا بدور عالموت »
ومعنى هذا « أنت تعرفني جيداً . أنا الثور الناطح . قلبى من صخر . أنا
أبحث عن الموت »

قال ذلك واندفع خارجاً من الزريبة ثم اختفى بين الاشجار وبعد لحظة عاد وحربته تقطر الدم ووراءه جواد قد استلبه . وخرج شيخان آخران اشتبكا في قتال خفيف فقعدا جواداً وغماً جواداً آخر . وبعد هنيهة سمعنا طلقات البنادق فخشيت ان يكون جيش المادبو قد وصل فطلبت الحيلة من العرب وجعلتهم يقفون موقف الدفاع فى الزريبة . ولكنى عرفت بعد ذلك بقليل ان ما وصل من جيش المادبو قوة صغيرة قد احتمت فى ادغال الاشجار فأرسلت خمسين رجلاً لطردهم من مكنهم فطردوهم وقتلوا منهم ثلاثة

وفى صباح اليوم التالى ظهر العدو وهو يتقدم نحونا بقوات كبيرة فنفخنا فى البوق وذهب كل جندى الى مكانه . وأغاروا علينا من الشمال الغربى وهم يحتمون بدغل من نارنا . وكان فى وسط زريبتنا ربوة فوضعت فوقها ديوانا كنا قد وجدناه فى إحدى عيش المادبو فجعله أحد المصريين كرسيًا فعدت عليه وأخذت أشرف منه على حركات العدو وأراقب أيضاً حركات جنودنا فى الزريبة . وتقدم العدو حتى صار على مدى اطلاق النار وصار البندق يصفر حول آذاننا . وقت أنا لكى أعطى الاوامر وما كدت أترك الكرسي حتى مزقته رصاصة فرأيت من الانسب ألا أعرض نفسي للرصاص . واقترب العدو منا كثيراً واشتدت ناره ولكن رجالنا كانوا محتمين فلم نصب إلا بأقل خسارة . ولكن اصابات الدواب كانت كثيرة بحيث خفت ان تقضى جميعها فأمرت خمسين رجلاً بالخروج بها من الجهة الجنوبية وداروا بها الى الغرب واعملوا النار فى العدو بينما كنا نحن فى الزريبة نطلق

ار عليهم ايضا فتكلف العدو من ذلك خسارة جسيمة حتى جلا من مكانه. ولكننا نل هذا النصر بدون ان ندفع ثمنه فاني اذكر اننا خسرنا ١٢ رجلا

وفي المساء استولى التعب على الرجال فناموا وكنا ننتظر قضا الليل في سوء ولكن حوالى الساعة الحادية عشرة فوحتنا باطلاق نار حامية . ولكن كان للام شديد فلم يمكن تسديد الرماية فأمرت رجالى ألا يجيبوا وقرر إطلاق النار وقف نهائيا

وطلبت الشيخ عفيفي واقترحت عليه أن يرسل بعض رجاله لكي يبحثوا عن مكان المادبو ووعدتهم بالمكافأة الحسنة اذا هم أخبرونا عن مكانهم الحقيقي . فذهبوا عادوا بعد ساعتين وأخبرونا بان المادبو مع رجاله من البازنجري في قريته. أما العرب فذهبوا في جنوب القرية وغربها . وكانت قوتهم كبيرة ولكنهم لم يتخذوا أية تسيطات للدفاع وزحف جواسيسنا الى جوارهم وسمعوا أحاديثهم وضحكهم ستهزاءهم بنا لاننا لم نجيب على اطلاق النار علينا في الليل وقالوا انه لم يمنعنا من ك الا شدة خوفنا

فاستدعيت سبعين من رجالنا وأخبرتهم أمام الضابط بأني أرغب منهم في اجابة المادبو في قريته . واننا اذا قاتلنا قوة تزيد على قوتنا في العراق فاننا في ربح نخسر خسارة جسيمة . ولكننا قد تحققنا الآن ان العرب غير متعدين فادا هاجمناهم في الليل وهم على غرة فانهم يفقدون كل ما عندهم من عناية معنوية وتتاح لنا الفرصة بذلك للعودة الى داره والحصول على مدد جديد . افق الجميع على هذه الخطة وأراد الضباط أن ينضموا الى رجال هذه الغارة لكنني رفضت ذلك

وقد تركت خلفي ضابطين واربعين من حملة الابواق وسبعين رجلا وخرجت انا في الزريعة ومعى عفيفي الذي رفض ان يفارقني وخشيت ان يخرج احد من رجالى سلامه ويفشي أمرنا فأمرت الضباط وشدت عليهم ألا يأتوا لاحد بالخروج في الزريعة وان يكونوا على يقظة تامة . وصرنا نتقدم بحذر يد لنا الجواسيس على لمريق . فلم تمض ساعة حتى وجدنا أنفسنا على مقربة من العدو . وقد ثبت لى ان

جواسيسنا قد أبافونا الصديق وكنت أنا أيضاً أعرف هذه الجهة من قبل . فقسمت قوتي قسمين . احدهما يقوده محمد اغا سليمان أحد اهالى بورنو والآخر أقوده أنا وأخذنا نزحف الى ان صرنا على بعد ٦٠٠ او ٧٠٠ ياردة من العدو وهنا أمرت حامل البوق بعمل اشارة لاطلاق النار على العدو الوداع . وعقب ذلك ارتباك رجال العدو واختلاطهم فترك رجال المادبو (البازنجر) أسلحتهم وفروا . وأجفلت الخيول لهذه الحركة الفجائية فى وسط الليل فجمعت فى كل جهة والعرب فى أثرها وبعد دقائق كانت القرية خالية وكنا نسمع جلبة الفارين الذين هربوا من شرذمة قدرها سبعون رجلاً فقط

فقد نجحنا تماماً واحتاج المادبو الى جملة أيام لكي يجمع فيها رجاله الفارين وأحرقت قرية وارتفع لهيبها الى السماء وأناز مكان المعسكر المهجور . وغنمنا عدداً كبيراً من السروج والبنادق القديمة وألقيناها كلها فى النار ولكننا أبقينا بنادق رمنجتون وعدنا الى الزريبة حيث حيانا الجنود هناك أجمل ناحية وكانوا فى أشد القلق وهم ينتظرون رجوعنا

ولم تكن قد وافتنى أخبار عن داره فقررت العودة اليها وبعد مسير ثلاثة أيام وصات الى البلدة حيث وجدت الامداد والذخيرة . ولما كان الرجال الذين رجعوا معى منهموكين فقد قررت ان استبدل بهم رجالاً من الامداد الجديدة وأذهب لآنجاد منصور حلمى . ولكنى فى الصباح دهشت إذ وجدت خطاباً يقول ان منصور فى طريقه الى داره وانه سيبلغها فى اليوم التالى . وكان هذا الخبر من أسوأ ما سمعت لان معناه مضاعفة الصعوبات فى استعادة شقة واحتلالها .

ووصل منصور فى صباح اليوم التالى ودعه قليل من العبيد الذين كانوا يتهافون من الاعياء . وعلمت انه قد ترك رجاله لما أقام العدو فى قلبه من الرعب وعاد وحده الى داره . فلم أتوان فى معاقبة هذا الضابط الجبان وقبضت عليه وأرسلت الجواسيس فى كل ناحية أبحث عن جنوده ولم أعد أفكر فى إعداد حملة لاستنقاذ شقة . وبعد عشرة ايام جاءتني الاخبار السارة بأن هؤلاء الجنود قرييون من داره . وظهر ان من يدعى على أغا جمعه تراجع بهم لما تركهم منصور الى

داره وحمام من مناوشات العدو وحمل جرحاهم وجاء معه بعض تجار شقة
الذين طلبوا حمايته

وكان سعيد بك جمعه في هذا الوقت كما على الفاشر وكنت قد كتبت اليه
مراراً لكي ينجدني بالجنود والذخائر ولكني وجدت أنه لا يود أو لا يقدر
على اجابة طلباتي وسافرت الي خشبة حيث كنت قد اتفقت مع القبائل الموالية
على لقائي هناك

الفصل السادس

حصار الابيض وسقوطها

كبرت آمال المهدي بانتصاره العديدة السابقة وكان الياس باشا يحضه على القدوم
الى الابيض فترك جبل غدير ومعه آلاف من العرب الخاسين والمعتصين وانحدر
بهم الى كعبة وهي قرية صغيرة في ارباض الابيض

وارسل من هناك الخيالة للاستكشاف ولدعوة الراغبين في الانضواء للمهدي
وأرسل أيضا الى محمد باشا سعيد يأمره بالخضوع وقرىء خطاب المهدي أمام الضباط
فاقترح محمد بك اسكندر قتل الرسل حملة هذا الخطاب وكان محمد باشا سعيد غير
موافق علي هذا الاقتراح أولا واسكنه وافق في النهاية وأعدم الرسل فوراً

ولم يرض المهدي بأي مجهود لاثارة من حوله فكان يعظ الدهماء الذين حوله
ويصف جنات النعيم التي وعد بها المؤمنون الذين يشتركون في الجهاد . وفي صبيحة
يوم الجمعة ٨ سبتمبر سار الناس وهم يغنون حماسة وليس معهم سوى السيوف والحراب
وجموعهم تهمج نحو المدينة . وكانوا قد تركوا ما غنموه من الاسلحة في حملة راشد
وشلالى . وأخذ المتحصنون في المدينة يصبون عليهم نار البنادق ولكن هذه الجموع
التي لم تكن تطمح الا الى الغنائم والاسلاب لم تكن تبالي بمن يقتل منها فكانوا
يتقدمون ويملاون الخنادق ويمجوزون الحواجز ودخل بعضهم المدينة . وفي هذه اللحظة
أمر الضابط نسيم افندي حامل البوق بان يعطي الاشارة للتقدم وأخذ الاشارة حملة

الابواق في كل مكان فنادوا بالمهجوم فخرجت الجنود الى سطوح المنازل وتعلقوا بالاسوار والحيطان وصبوا النار والرصاص فوق رؤوس رجال المهدي . ورأت هذه الجموع الرصاص ينزل عليها كالبرد فتراجعت ببطء الى الوراء . وحاولوا مرة أخرى أن يتقدموا فردتهم الجنود ثانياً وقتلهم يعدون بالآلاف وأخيراً خرجوا وتنحوا عن المدينة وانتصرت حامية الالبض انتصاراً باهراً

وقد قتل في هذا الهجوم شقيق المهدي المدعو محمد وشقيق الخليفة عبد الله المدعو يوسف وقتل أيضاً القاضي وعدد من الامراء . وكان المهدي مدة الهجوم محتسماً وراء منزل صغير . ولو كان محمد باشا سعيد سمع نصيحة احمد بك ضيف وطاردا للدراويش بعد اختلاطهم وتقهقرهم لكان نجح في القبض على المهدي وتمكن من حقن الدماء الغزيرة التي أريقت بعد ذلك

ولكن سعيد باشا قنع بهذا الانتصار الوقتي واعتقد ان المهدي قد سحق وأنه لا يجرؤ على معاودة الهجوم وان هذه الهزيمة ستحبط أغراضه وتزيل سطوته . وقد أدرك أقارب المهدي وأصدقاؤه هذه الحالة أيضاً ونصحوا له بان ينتقل الى تل جانزارة الذي يقع في الشمال الغربي من المدينة ومكث هناك يحاصر المدينة حصاراً مكشوفاً وينتظر الاسلحة والذخائر التي أرسل في طلبها من جبل غدير

وفي هذه الاثناء كانت دالين وهي مركز المرسلين المسيحيين في حالة خطيرة وكانت بها حامية مؤلفة من ٨٠ عبداً . وكان المهدي في طريقه الى الالبض وقد أرسل احد أنصاره وهو مك عمر لكي يأسر أو يقتل من بها . وكان الاب أوهر ولدر والاب بونومي قد اتفقا على الهرب الى فاشودة ولكن تديرهما حبط لجبن الضابط الذي كان يقود فصيلة الجنود . فاضطرا الى الاذعان وسرق منهما كل شيء وسيقا اسيرين الى الالبض . وحاول هنا المهدي هو والخليفة عبد الله ان يجملاهما مسلمين هما وسائر الراهبات ولكنهم رفضوا جميعاً

وفي اليوم التالي أخذهم الجنود وحولهم الدراويش يزعمون ويزيطون الى ساحة فسيحة حيث أقيم عرض كبير . ثم أوهوا جميعاً بالقتل ولكن عني عنهم في النهاية

وكل احد السوريين المدعو جرجى استامبولى بالعناية بهم وكان هذا السورى من أهالى الايض الذين انضموا الى المهدي وفي هذا الوقت ظهر نجم مذنّب في السماء ، فاعتبره السودانيون نذيرا بسقوط الحكومة وان المهدي قد ظهر على الارض

وأرسلت الحكومة تجريدة بقيادة على بك لطفى لرفع الحصار عن بارة والايض ولكن بينما كان الجنود يسرون وقد بلغ بهم العطش أغار عليهم عرب الجوامه يقودهم فقي رحمة . وكان عدد الجنود الفين ولم ينبج منهم سوى مائتين تمكنوا من الوصول الى بارة . وبعد ذلك هوجمت بارة وكانت بها حامية صغيرة فصمدت وقاومت مدة ولكنها اضطرت في نهاية سبتمبر الى التسليم

وسقطت بارة بعد حصار طويل منظم . وكانت الحامية قد أوقعت بالمحاصرين وكلفتهم خسارة جمة ولكن شبت نار في مخازن الحبوب ثم فعل الجوع والمرض أفاعيلهما ولم يكن هناك أمل في المعونة فطلبت جنود الحامية من مسرور افندي الحكمدار ونور انجره ومحمد أغا جابو ان يسلموا . فسلموا المدينة في يناير سنة ١٣٨٨ لعبد الرحمن واد النجومى الذى ساقهم الى جازاره

واحتفل المهدي بسقوط بارة فاطلق مائة مدفع . وسمعت الحامية في الايض اطلاق النار فظنت أن الحكومة أرسلت جيشاً لرفع الحصار ولكن عند ما عرف الجنود الحقيقة وان بارة قد سقطت تراخت عزائمهم وفت في أعضادهم . فقد مضت عليهم أشهر وهم يعانون فتك الجوع . فقد ارتفعت أسعار الاقوات بحيث أن ثمن الدخن كان قبل تسليم المدينة يشتر قد بلغ اربعمائة ريال للأردب . وثمان الجمل ١٥٠٠ ريال وثمان الفروج ٣٠ أو ٤٠ ريالاً وثمان البيضة ريالاً او ريالاً ونصفاً . ولست احتاج الى وصف هذه الحالة فقد أغثناني عن ذلك أخواي في الاسر الاب أوهر ولدر والاب وسنبولى اللذان وصفا فظائع هذه الايام فلن أعيد ماقلناه . انما يكفي ان اقول انه بعد حصار دام خمسة أشهر ذاق فيه المحصورون أنواع الحرمان ومات فيه عدد عظيم من الاهالى ومن الحامية جوعاً اضطّر محمد باشا سعيد الى التسليم . وكان يرغب في احراق مخازن البارود ولكن الضباط رجوه الا يفعل ذلك ضناً بحياة

زوجاتهم وأولادهم . فكتب الى المهدي يقول انه مستعد لتسليم المدينة . فاجاب المهدي بانه لاخوف عليه هو وسائر الضباط وفي صباح اليوم التالي أرسل وفدا مؤلعا من التجار برياسة محمد واد عريف الى سعيد باشا يطلب منه ومن كبار الضباط أن يحضروا لديه

وقد أحضر الوفد معه أكسية من المرقعات وهي لباس الدراويش المؤلف من رقع مختلفة لكي يلبسها سعيد باشا وضباطه . فلبسوها وركبوا جميعهم الخيول وساروا والحزن مخيم على وجوههم وغادروا تلك القلعة التي دافعوا عنها دفاع الابطال . وكان مع سعيد باشا محمد بك اسكندر الحكمدار ونسيم افندي واحمد بك ضيف الله ومحمد بك يس وعدة ضباط آخرين

واستقبلهم المهدي وهو قاعد على عنجريب قد فرش بجلد حدي وبسط يده لهم لكي يقبلوها وعفا عنهم : وقال لهم انه يعرف انهم لم يقاوموه الا لانهم كانوا مخدوعين لا يعرفون انه المهدي الذي جاء . يؤدي رسالة آلمية . وهو يعفو عنهم الآن ويطلب منهم أن يقسموا له يمين الولاء ويطيعوه في جهاده . ولما انتهى من ذلك أعطاهم ماء وبلحا وحضهم على الزهد في الدنيا والاقبال على الآخرة . ثم التفت الى سعيد باشا وقال : « لست ألوئك باعتبارك تركيا لدفاعك عن المدينة ولكنك لم تحسن في قتل الرسل لان الرسول لا يقتل »

وقبل أن يجيب سعيد باشا أسرع اسكندر بك وقال : « مولاي المهدي . ان سعيد لم يأمر بقتل الرسل ولكني انا الذي فعلت ذلك بصفتي حكامدار القلعة وذلك لاني اعتبرتهم ثائرين . واني أقر بأنني لم أحسن في عملي هذا كما قلت »

فقال المهدي : « لم أقصد بكلامي الى أن تبرر عمالك . فان الرسل قد نالوا كل ما كانوا يرغبون فيه . فانهم لما أخذوا الخطابات مني كانوا يرغبون في الاستشهاد وقد تحققت رغبتهم . وقد أنعم الله عليهم بالنعيم . ولعل الله يمنحنا ما نالوه »

وفي اثناء هذه الحادثة كان ابو النجا ورجاله قد احتلوا القلعة بتدبير سابق واحتلوا ايضا مباني الحكومة ومخزن البارود . اما الامراء فقد احتلوا مساكن الضباط . وأمر المهدي واد العريف وكان صديقا سابقا لسعيد باشا بأن يأخذه هو

والضباط الى منازلهم ولكنهم عند ما بلغوها علموا ان الامراء قد احتلوها وان املاهم قد صودرت . وبعد قليل دخل المهدي المدينة وامر بخروج الحامية من الخنادق . اما النساء والاولاد الذين كانوا ينتظرون اسعافهم فقد امروا بان يخرجوا من المدينة ويذهبوا الى معسكر المهدي والا يأخذوا شيئا معهم . وقتشت النساء تفتيشا يثير النفس اذ كن يعرين من ملابسهن وكل ما وجد معهن ارسل الى بيت المال حيث وزعت الاموال بين الامراء وسائر الاعيان . وكانت مناظر التفتيش تؤلم النفس فان جنود المهدي كانوا في طلب الذهب يجلدون الاهالي لكي يعترفوا بما عندهم

وطلب امير بيت المال احمد واد سليمان سعيد باشا لكي يسلمه ما عنده من الاموال فاحاب سعيد باشا بانه لا يملك شيئا . وكان المشهور انه رجل غني ولكنه انكر وكابر وبلغ انكاره المهدي فاستدعي واد سليمان وطلب منه ان يبحث مع خدم سعيد باشا . ثم طلب هو سعيد باشا واخذ يحادثه عن الدين وكان كثيراً ما يسأله امام المجتمعين من الناس لماذا لا يدهم على خزائنه التي يحفظ فيها امواله وكان سعيد باشا ينكر ويلح في الانكار ويقول انه لا يملك شيئا . ومضي وقت ثم جاء واد سليمان الذي كان قد نجح في ان يحمل احدى الخاديمات على ان تعترف بالمكان الذي خبأ فيه مولاها امواله واسر الى المهدي حتى لا يسمع الناس بانه وجد الاموال مخبوءة في حائط .

اما المهدي فاشار عليه بالجلوس ثم اخذ يعظ الجمع امامه عن غرور الدنيا وضرورة الزهد ثم التفت فجأة الى سعيد باشا وقال : « لقد حلفت بيمين الولا . فلم تخفي امر اموالك ؟ المال اصل البلاء فهل تنتظر ان تجمع اكثر مما جمعت ؟ »

فقال سعيد باشا : « ليس عندي مال ربحته ظلماً أو عدلاً . فافعل بي ما تشاء . » فقال المهدي : « هل تظني رجلاً مثل سائر الناس . ألا تعرف اني المهدي المنتظر . وان ابي قد كشف لي عن خزانتي التي اخفيتموها في الحائط ؟ اذهب يا احمد واد سليمان الى بيته ثم ادخل الى غرفته فتجد على الحائط الايسر قريبا من الباب مكان الاموال . فجرد الحائط من الجبس تجد اموال التركي فاحضرها اليها »

وكان سعيد باشا مدة غياب واد سليمان قاعداً مقطباً عابساً في جوار المهدي . وعرف ان مكان امواله قد افشي ولكنه كان من الكبرياء والافتة بحيث رفض ان

يصرح بأنه قد كذب وسكت عن الكلام . وبعد دقائق عاد سليمان ومعه صندوق من التناك وضعه أمام المهدي فلما فتحه وجده مملوءاً بالذهب المجموع في أكياس . وقد عدوا فيه سبعة آلاف جنيه .

ثم قال المهدي : « يا محمد سعيد . لقد كذبت ولكني سأعفو عنك . خذ يا أحمد هذا المال وقسمه بين الفقراء والمحتاجين »

فنهض محمد سعيد باشا وهو يقول : « انك تدعو الى الزهد ثم تأخذ أموالى فأفعل بها ما شئت » ثم سار خارجا

فقطب المهدي وقال بصوت خافت : « داما ينفعنا » وبعد أيام تعلل عليه بعلّة وأمر بقتله كما قتل أيضا أحمد بك ضيف الله وعلى بك شريف ويس . وهذه كانت نهاية هؤلاء الرجال الاربعة الذين دافعوا عن الايضا . والحق انهم كانوا جديرين بمحظ أحسن من هذا

الفصل السابع

المهدية في دارفور

لما وصلت الى خشية جهدت جهدي لكي أنظم قوة لمقاتلة المادبو . وكانت القبائل التي طلبتها لمعونة الحكومة قد وصلت وصار جيشي يتألف كما يأتي :

٥٥٠	جنود نظامية بينادق ومنجئون
٢٠٠	جلابة
١٣٠٠	بازنجر مسلحون
١٠٠	جنود مختلفة
٢١٥٠	المجموع (ومنه ٦٠٠ يحملون ومنجئون)

وكان يقود البازنجر شرف الدين . وكان لدينا مدفع جبلي و١٣ رجلا من

الطوبجية

وكانت القبائل الموالية تتألف من البيجو والبركة والزغاوة (في جنوب دارفور) والمصرية والتاجو والمعالية الذين كانوا يعادون الشيخ ابو سلامه . وكان عددهم كلهم نحو ٧٠٠٠ رجل يحملون الحراب و ٤٠٠ حصان

وكانت الحامية التي غادرتها في داره مؤلفة من ٤٠٠ جندي نظامي و ٧ مدافع والطوبجية اللازمين لها و ٣٠ فرساً و ٢٥٠ من البازنجر و كانوا كلهم تحت قيادة زوجال بك الذي كان يؤدي وظيفة قائمقام بدلا من اميليانى بك. وقد تركت معه من يدعى جوتفرت روث وهو سويسرى كان قد ارسل الى السودان بشأن وقف النخاسة . وكان عالما في اللغة العربية وقد أسررت اليه اني لا أثق بزوجال بك وطلبت منه ان يعرف كل ما يمكن معرفته عنه من قرابته ويقفنى على كل شىء . يعرفه عنه

وفي نهاية اكتوبر غادرت خشبة مع جميع الجيش وسرنا في اقليم الرزيفات و كان مغطى بالديس الكثيف والاحراج . وكنا معرضين بذلك للهجوم فجعلت سير الجيش بحيث لا يمكن ان نباغت بكين يبعث فينا الارتباك والاختلاط

وكان البازنجر في جناحي الجيش ومعهم الابواق لتنبيهنا عن أى خطر . وجعلت مؤخرة الجيش أقوى من الحناحين وذلك حتى اذا هوجم جناح يمكننا ان نجد الوقت الكافى لنزيده من قلب الجيش . وكان واجب المؤخرة من أشق الواجبات لانه كان عليهم أن يعنوا بالجمال التي تقع والا يغفلوا عن الفارين او الذين يتخلفون . ولذلك جعلت السير في المؤخرة مناوبة فيمنه الجيش تصير مؤخرة ثم تصير ميسرة ثم تعود بمنه وهلم جرا . وكنت أيضا اخفف الاعمال عن البازنجر والجنود النظاميين بهذه الطريقة .

و كنت أومل بهذه الطريقة ان أبلغ شقة بدون أية خسارة جدية وكان قصدى عند وصولي أن ابني قلعة هناك وأضع عليها المدفع ثم أترك الحامية هناك وأخرج بتجريدات خفيفة الى البلاد المضطربة حيث تتاح الفرصة لحملة الحراب بان يغنموا ما يمكنهم من ماشية الرزيفات

وعند وصولي الى دين وجدنا كميات من الحبوب التي اختزنها المادبو في القرية الجديدة التي بناها . فقسمتها بين الجنود واطمأنت بان عندهم من الزاد ما يكفيهم

جملة أيام . واسترحنا ثلاثة أيام وبثنا ثلاثنا لكي يدلونا على أمكنة المياه في الطريق ثم استأنفنا المسير الى شقة

و كنت محموا في هذه الايام فسلمت قيادة الجيش لشرف الدين وهو يلينى في القيادة وأمرته ألا يرحنى . وفي اليوم التالى عندما غادرنا قرية كندرى وبعد ان استرحنا قليلا تصابح الجنود فى المؤخرة بان بعض الخيالة يتقدمون للهجوم علينا ووقف فى الحال كل رجل فى مكانه وعلى الرغم من الحمى المستولية على ذهبت الى حرس المؤخرة ورأيت بعض الخيالة الذين ربما كانوا يبلغون بعض مئات ولكن الاشجار كانت تخفيهم وكان لذلك من المستحيل تقديرهم تقديراً صحيحاً فأشرت لحرس جناحى الجيش بان ينضموا الىّ ثم تقدمت ومعى خيالة الجيش وفرسان العرب وحصلت مناوشة بين الاشجار انتهت بتقهقر العدو بعد أن غنمنا منه ستة خيول . وبلغت خسارتنا سبعة خيول قتلت وقد رجلا وجرح البعض ثم طاردنا العدو مسافة وعدنا واستأنفنا السير حتى الغروب فسكرنا فى مكان يدعى أم ورقة

و كنت لا أزال أعاني الحمى فأخبرت شرف الدين بأن يتبع التدابير التى أنهيها اليه بشأن ترتيب الجيش . وفي الصباح شرعنا فى المسير حتى اذا مضى ساعتان بلغنا أرضاً نزهة رأينا فى جنوبها الشرقى بعضاً من العشش التى يبنىها عبيد الرزيفات الذين يشتغلون فى الحقول . وذهبت بمقدمة الجيش الى هذه العشش لفحصها وكان الجنود تعاونون الخيل على السير فى هذه الحمأة التى كانت تنفرز فيها أرجلها . ونحن فى ذلك واذا بنا نسمع من المؤخرة اشارة الخطر تلاها فى الحال اطلاق الرصاص فركت المقدمة فى العشش وركضت حوادمى الى الميسرة وأخذت تسعين جندياً نظامياً وذهبت الى المؤخرة ولكن كان مجيئنا متأخراً فقد اطلق البازنجر والجنود النظاميون فى المؤخرة أول طلقة وبينما هم يملأون أنابيب البنادق لاطلاق الثانية هجم عليهم العدو بجموع كثيفة فزحزحهم الى الورا فى ناحية . ورأى جنودنا فى القلب هذا الاختلاط بين العدو والولى فامتنعوا عن اطلاق النار . فأشرت لحمة الابواق بان يسيروا على جنودنا بالرقاد ثم يسددوا مرماتهم الى أفراد العدو الذين

اختلطوا بنا ويصيبوا ايضاً من يأتي بعدهم من الاعداء . وبهذه الطريقة وقفت
الهجوم وقسمت العدو قسمين واحداً الى اليمين وآخر الى اليسار . وذهب هذان
القسمان الى ميمنتنا وميسرتنا للاشتباك معهما في القتال
وكان الاختلاط الآن هائلاً لا يمكن وصفه . فان الاعداء العرب الذين دخلوا
الى قلب جيشنا كانوا لا يزالون فيه وقد أعمالوا سيوفهم في البازنجر ولم يكن مع
البازنجر ما يدافعون به لانهم كانوا لا يحملون سوى البنادق . أما الجنود
النظاميون الآخرون فلم يجدوا من الوقت ما يساعدهم على تجريد السيوف وذلك
لمفاجأة الغارة . ولكننا تمكنا في النهاية من قتل جميع العرب الذين جازوا الى قلب
جيشنا . أما حرس المينة وحرس الميسرة فقد هوجموا من الامام والخلاب فلم
يستطيعوا تحمل الصدمة وفروا في كل جهة فتلقاهم فرسان الرزيفات المحتبثون في
الغابات وقتلهم

ولم تدم المعركة أكثر من عشرين دقيقة ولكن خسارتنا في هذا الوقت القليل
كانت عظيمة جداً . ومن حسن حظنا أن العدو ألح في مطاردة الفارين من جناحي
جيشنا . وتمكنا نحن من تطهير القلب من جنود العدو ولكن ضحايانا كانت كثيرة
وكانت الخسارة بين أولئك الذين أطاعوا إشارتنا بأن يرقدوا قليلة ولكن اصابات
البازنجر الذين لم يدربوا كانت غير قليلة وقتل ايضاً عدد كبير من جمالنا

وفي وسط الاختلاط رأيت أحد الاعداء يمر بالقرب مني ويحمل معه كيساً أحمر
يحتوي على الفتائل التي نطلق بها البنادق . وكان يبدو عليه انه يظن انه غنم شيئاً
عظيماً . والحق انه كان بالنسبة اليه شيئاً عظيماً لانه لا فائدة من البنادق بدون هذه
الفتائل . وكان بجانبه خادم اسود لا يتركني فقلت له : « هاك يا كير فرصة تثبت
بها شجاعتك التي كثيراً ما وصفتها لي . خذ حصاني واذهب وراء هذا الرجل
واحضر منه الكيس الأحمر »

قفز الى الحصان وفي يده حربة وطار به وبعد دقائق قليلة عاد ومعه الكيس
الأحمر ومعه ايضاً حربة حمراء بالدم

واختفى فرسان العدو فعملنا اشارة الاجتماع ولكن لم يلب النداء سوى بضع
مئات فقسمتهم قسمين أحدهما للحرس والآخر يشغل بجمع الذخيرة من أولئك
الذين قتلوا . ووضعنا ما جمعناه على الجمال ثم سرنا الى قرية عالية يمكن منها مشاركة
السهل حولها . ثم جمعنا مقداراً من الاشواك وصنعنا بها زريبة بأسرع ما يمكننا خوفاً
من ان يفاجئنا العدو في أى وقت . وبعد ان انتهينا من ذلك فكرنا فى الجرحى
الذين حملناهم الى داخل القرية وعملنا كل ما فى استطاعتنا لتخفيف آلامهم
وكانت الجثث مبعثرة فوق الارض لا يمحسبها العدو دع عنك من قتلوا فى الغابة
والعجب انه فى هذا المكان نفسه انهزم آدم طربوش وزير السلطان حسين وقتل
فى المعركة

ثم حان حين نداء الاسماء وهو واجب محزن . ووجدنا انه قتل من ضباط
المشاة الاربعة عشر عشرة وجرح واحد . وقتل من رؤساء الجلابة الشيخ خضر
ومنجل مداني وحسن وادستارات وسليمان وادفتح وفقى احمد وحسيب وشكلوب .
ومن الطوبجية الثلاثة عشرة لم يبق سوى واحد أما اليوناني اسكندر الذى جرح فى
دين ولم يكن جرحه قد برئ بعد فقد قتل أيضاً . وجمعنا ونحن فى حزننا المونى
لكي تقدم لهم آخر تجارتنا . ووجدنا بين أكداس الجثث جثة شرف الدين مطعونا
فى قلبه ثم حفرنا فى هذه النزة قبوراً وصرنا ندفن اثنين او ثلاثة معا فى كل قبر
أما الجرحى المساكين فلم يكن فى مقدورنا أن نساعدهم كثيراً فان أولئك الذين
كانت جروحهم خفيفة كانوا يشتغلون بتضميدها بأنفسهم . أما الذين كانت جروحهم
خطرة فلم يكن عندنا لهم سوى الكلمات الطيبة

وكانت رؤية هؤلاء الجرحى مما يؤلم النفس ويجعل الانسان يشعر بعجزه التام
عن تخفيف ما يهيم . ورأيت أحد الخدم ومعه حقيبتى وكان بها بعض الاقمشة للتضميد
فأخذتها وجعلت أضمد بعض الجراحات . وأنا فى ذلك خطر يبالى انى لم أر خادى
مرجان حسن وكان معه أحد جياذى . وكان صبياً سورياً لم يكمل بعد السادسة عشرة
من عمره وكان هادئاً شجاعاً شريفاً النفس . فقلت للصبي الذى يحمل حقيبتى :
« قل لى يا عيسى أين مرجان الذى كان يسوق جوادى مبروك (و كنت قد وضعت

في جيوب سرجه مذكراتي وخرائطي (قل لي أين هو . انه صبي نشيط ولا بد انه
قد ركب الجواد وتمكن من الفرار

ولكن عيسى بدت عليه أمارات الحزن والوهن عند سؤاله هذا فمز رأسه
وشرقت عيناه بالدموع ثم سلمني قطعة من لحام الجواد فقلت له : « ما هذا »

فقال : « مولاي . لم أحب ان أزيد حزنك . لقد وجدت مرجان قريباً من
هنا راقداً على الارض وبصدره طعنة الرمح . ولما رأيته تبسم وقال : لقد عرفت انك
ستأتي لسكي تراني . ودع مولاي وقل له اني لم أجبن ولم أسلم الجواد الا بعد ان
وقعت مطعوناً في صدري وقطعوا اللجام من يدي وجروا به . قل لمولاي ان مرجان
كان أميناً . خذ السكين من جيبى فانها لمولاي . اعطها له ثم سلم عليه كثيراً »

ثم غص عيسى بريقه وسلمني السكين وهو ينشج فآلمني هذا الخبر المأسف
ووهنت قواي عند سماعه . أجل يا مرجان . ما أصغر سنك وما أشرف نفسك . وما
أفدح مصيبتى في فقدان هذا الخادم الأمين بل الصديق المخلص
وقلت لعيسى : « قل لي . كيف كانت النهاية »

فقال عيسى : « كان عطشان فحملت رأسه بين يدي ولم تمض بضعة دقائق
حتى مات فنهضت وتركته فقد كان على أن أؤدي أعماله ولم يكن ثم
وقت للبكاء .

ثم قوينا سياج الزريبة وحفرنا الخنادق وراءه ثم أمرت بدق الطبول ونفخ
الابواق وأطلقنا بضع عيارات وذلك لسكي يعرف الفارون او الجرحى الذين ارتطموا
في الوحل أننا قد وجدنا ملجأ قريباً منهم . وجاءنا عدد كبير من هؤلاء في النهار .
وفي آخر النهار نادينا الاسماء فوجدت ان عندنا ٩٠٠ رجل هم البقية المهزومة الحزينة
لجيش كان يبلغ ٨٥٠٠ رجل ولكننا مع ذلك رضينا بالنتيجة . ولم يبق من فرساننا
وخيالتنا سوى ثلاثين ولا بد ان العدو قد غنم عدداً كبيراً من الخيول وان بعضها
قد فر ورجع الى داره كل الى مسكنه ولكن الذخائر كانت كثيرة لدينا لانها تخلفت
عن قتلا

وعند الغروب عاد رجال الرزيفات فدهشوا اذ رأونا متحصنين مستعدين

لمقابلتهم وأرسل المادبو رجاله من البازنجر لمقاتلتنا ولكن بعد مناوشة قصيرة رددناهم
ثم خيم الظلام وقف القتال

وينا أنا قاعد وأتكلم مع الضباط اقرب منا الشيخ عبد الرسول ومسلم
واد كباشي وسلطان بيجو واقترحوا علينا التقهر من مركزنا الحاضر ونحن في حنح
الظلام لانه لم يبق لنا أمل في الانتصار على العدو بعد خسارتنا الفادحة . فقلت لهم :
« ترغبون في التقهر الآن ولكن ما ذا نصنع بجرحانا . هل نتركهم لرحمة العدو »

فجلاوا وصمتوا . فقلت لهم : « ليس اقترأحكم حسناً . لقد كنت أنا أحادث
الضباط في هذا الشأن الآن ورأينا ان نبقى هنا عدة أيام وليس امامنا ما نخشاه
سوى الجوع ويمكننا أن نذبح الجمال المجروحة والضعيفة ونقتوت بها الجنود ثم لا بد
أن نجد ما تقتات به أيضاً هنا والمؤكد ان العدو سيهاجنا ولكننا سنرده بسهولة
وبهذه الطريقة تعود الثقة الى رجالنا بعد ما فقدوها للخسارة الفادحة التي وقعت
بنا . اني أعرف الرزيفات فهم لن يقعدوا هادئين يترقبوننا . وانا واثق بأنه لا بد
من الاصطدام مع المادبو والشيخ جانكو وسائر رجاله من البازنجر الذين سبق ان
طردناهم الى بحر الغزال . وسيستريح الجرحى ويتعافون قليلا فأولئك الذين ليس
بهم سوى جراح طفيفة سيمشون على أقدامهم . أما من جراحهم بليغة فانتا نحملهم
على خيولنا . وأظن ان اقترأحي هذا أفضل من اقترأحكم »

وفي اثناء كلامي سمعت سلطاناً يوافق على رأيي ولم انتبه من كلامي حتى أمن
الجميع عليه واتفق رأينا على البقاء

ثم تكلمت موجهاً كلامي الى جميع الحاضرين وقلت : « هل تعرفون سبب
هزيمتنا اليوم »

فأجابوا بالنفي جميعاً فقلت : « اليكم السبب . في هذا المساء وجدت بين الجرحى
قائد المؤخرة حسن واد ستار وقد قال لي ان شرف الدين لم ينفذ تعليماتي بشأن
تبديل المؤخرة كما فعلنا في الايام السابقة فاغتاظ الجنود النظاميون لهذا السبب وتركوا
مكانهم وانضم كل منهم الى فرقته بدون اذن ولم يرسل مكالمهم رجال جدد .
وفي الوقت نفسه ترك العرب الموالون المؤخرة وانضموا الى الجناحين وعند ما هوجم

حسن واد ستارات لم يكن معه من الرجال سوى ٢٥٠ من البازنجر لا يحملون سوى البنادق القديمة . وقد دفع شرف الدين ثمن اهماله حياته ووقعت بنا الخسارة جميعا . وليس هذا وقت التلاوم فلنفكر في شيء آخر . اذهبوا الى رجالكم وشجعوهم ثم ناموا حتى تصبحوا مستعدين لما يأتي به الغد . ولكن أنت يا سيد أغافوله لا يمكنك ان تنام للجرح الذي بك ولذلك سنضع لك عنجريا قريبا من باب الزرية واذا حاول أحد أن يخرج بدون اذن فاضربه بالرصاص »

فانفضوا من حولي وصرت وحدي فطقت أفكر في موقفنا وأتدبر . ورأيت ان من المرجح ان تتمكن من التمهق الى داره وكان لدينا أكثر من ٨٠٠ بندقية . ولكن شعرت بمرارة الخسارة الماضية فقد قتل أحسن ضباطنا وخشيت ان يبلغ بنا هزيمتنا داره فيكون له أسوأ أثر في رجال الحكومة والاهالي معا . فأيقظت الكاتب وأمرته بان يكتب خطابين قصيرين أحدهما لزوجال والآخر للحكمدار محمد فرج وأخبرتهما بانه على الرغم من خسارتنا الكبيرة فان حالتنا حسنة واننا نرجو ان نرجع الى داره بعد أسبوعين

ولكن اذا وصل الى داره بعض الفارين وأخذوا يشيعون الاشاعات المقلقة عن حالتنا فيجب اعتقالهم حتى أعود . ثم كتبت أنا بضعة أسطر لجوتفريث روث أصف له الحالة وأخبره باني سأرجع الى داره قريبا مع الباقي من جيشنا وانه يجب أن يتشجع ويبعث الرجاء في نفوس من حوله . وكتبت أيضا بضعة أسطر لامي واخوتي وأودعهم لانه لم يكن من الممكن أن تتنبأ بما تنتهي اليه هذه القلاقل ورجوت جوتفريث روث أن يوصل هذه السطور في حالة قتلى الى أهلى في وطنى

وتناولت الخطابات الثلاثة وقمت الى عبد الله ام درامة شيخ العرب المصرية الذين يقطنون قريبا من داره فأيقظته وقلت له : « أين اخوك سلامة »

فقال وهو يشير الى رجل نائم في جانبه : « هاكه » ثم أيقظه

فقلت : « يمكنك بسلامة أن تخدمني الآن اجل خدمة وهي خدمة تفيدك أنت أيضا . اني أريد منك أن تأخذ هذه الخطابات التي تراها وتذهب بها الى داره وتسلمها للرجل الاوروبي المسمى روث وقد رأيته معي أيامارا . واركب جوادى

الذى كثيراً ما مدحته في هذه المهمة . وعليك أن تسافر الآن وعند ما تبلغ خط العدو المحيط بنا الآن أركض جوادك فانهم كلهم نيام فيمكنك أن تختبئ في الظلام قبل أن يعدوا خيولهم للعدو وراك . ومتى جزت خطوطهم فانت آمن وعندئذ تبلغ داره في بحر يومين وسأ كافئك باعطائك فرسي السوداء التي في الاصطبل في داره »
وينما أنا أتكلم كان سلامة يشد حزامه على وسطه وكل ما قاله لى : « أين

الخطابات »

فناولتها له فاخذها وقال : « ان شا الله وبمعونة الله سأوصل هذه الخطابات الى اصحابها . ولكنى أفضل ان اركب فرسى فانه وان لم يكن يجري بسرعة فرسك الا انه يقوى على حملي . فهو يعرفني وانا أعرفه . وفي مثل هذه المهمة يكون التعارف مفيداً »

وأخذ يسرج فرسه وكتبت انا رقعة الى روث وطلبت منه أن يسلم الفرس السوداء لحامل الخطابات وناولتها لسلامة بعد ما أخبرته بمضمونها . ثم قاد فرسه الى الباب وكان هناك سيد أغا فوله يتململ على فراشه اذ كان محروحا في ساقه اليمنى وذراعه اليسرى . فاخبرته بمهمة سلامة فامر له بفتح الباب . وامتنى سلامة فرسه وحمل في يده اليمنى رمحه وفي اليسرى جملة مطارد صغيرة يزرق بها العدو على بعد وشرع في السير

فقلت له . « مع سلامة الله » فقال . « انا واثق بالله » واتأد في سيره أولا حتى اقترب من خطوط العدو وهو يسير على حذر . ثم سمعت دبدبة سريعة ثم عياراً أو عيارين ثم خيم السكوت كأنه الموت . فقلنا جميعا . « ليكن الله معه » وعدنا الى الزريبة وقد بلغ منا الاعياء وما هو ان انظر حنا حتى نمنا

ولما استيقظت في الفجر وجدت الرجال يشتغلون في التحصين وكان كالتنبأت فان العدو عاود الهجوم . ونشط إطلاق النار من الجانبين مدة ولكن بالنسبة لمكاننا المشرف اضطر العدو الى التقهقر بعد أن اوقعنا به وكبدناه خسارة جسيمة . وقد قتل وجرح منا عدد قليل وكان من القتلى على واد حجاز وهو جعالي شجاع . ولما

كانت نيتنا البقاء هنا بضعة أيام فان رجالنا جدوا في تحصين الزريبة وأخذنا ندفن من ماتوا منا وكان الفساد قد انتشر في أجسامهم وامتلا الهواء برائحهم وقضينا في الزريبة خمسة أيام كان العدو يهاجمنا فيها مرة أو مرتين كل يوم . وقد حدث في اليوم الثالث ان كريمه نور قائد مدفعية المادبو قتل قشبت عزائم العدو وقروا في هجومهم عن ذى قبل

ولكن نهض لنا عدو آخر وهو القحط . فقد أكلنا كل شيء يؤكل فانتهت لحوم الخمال ولم يكن لدينا حبة ذرة . وقد اقتتنا أنا والضباط في المدة الاخيرة بكسرات من خبز الذرة كنا نطبخها مع ورق نبات يدعى كوال ونضرب هذا الخليط حتى يصير شبه عصيدة لا طعم لها . ولم يكن ثم مايرجينا بتخفيف وطأة العدو أو بمجئ جيش لا تقاذا فلم يكن من الممكن ان نبقى اكثر مما بقينا وكان الجوع قد أثر فينا وأضعفنا

وعلى ذلك جمعت جميع رجالنا وكان عددهم نحو ٩٠٠ رجل كلهم ماعدا قليلا من العرب مسلح بالبنادق . أما العرب فكانوا لجهلهم بالبندقية يؤثرون عليها حراهم ثم خطبتهم خطبة قصيرة قلت فيها ان دماء ضباطهم ورؤسائهم تهتف بهم ان اثاروا لنا وان نساءهم وأولادهم ينتظرونهم مشتاقين لرؤيتهم ولكن من المحال ان يصلوا اليهم مالم يتحملوا الآلام بالصبر ويواجهوا المشاق بالجلد والشجاعة ثم ختمت خطبتي بقولى ان اولئك الذين قد سكن الخوف قلوبهم قد فروا يوم المعركة واما الذين يقفون امامي الآن فقد صمدوا وعانوا المشقات وان الله سيكافئهم على جهودهم بالنصر فاجابوا بالهتاف ورفع البنادق فوق رؤوسهم وهذه اشارة للطاعة ثم صرقتهم وأمرتهم بالاستعداد للرحيل في اليوم التالى . ثم نزعنا من البندقيات القديمة التى تخلفت عن القتلى زنودها وجمعناها ثم ألقيناها في بركة اما البندقيات فقد أحرقتها . وألقينا كل مالا حاجة لنا به في الماء وقسمنا الباقي بين الجنود . فخص كل رجل ما بين ١٦ الى ١٨ دستجة من الخراطيش ولكننا أتلطنا البارود الذى يستعمل في البنادق القديمة لئلا يستفيد منه العدو . اما رصاص الخراطيش فقد وضعناه تحت رؤوس من ماتوا حديثا

فلما كان السبت وهو اليوم السابع لنكبتنا بعيد طلوع الشمس خرجنا من الزريبة
والفنا القلب وحوله مقدمة والمؤخرة والميمنة واليسرة وشرعنا في التقهقر . وكان
عندنا جملان فقط فجعلناهما يجران المدفع في القلب وأرسلت انا في كل جانب فارسين
للاستكشاف . وكان في القلب ١٦٠ جريحا فكان القادر يمشي على أقدامه ومن
لم يقدر حملناه على خيولنا القليلة ، كل فرس يحمل رجلين أو ثلاثة وكنت انا راضيا
بالسير على قدمي ولكن ألح علي الضباط في الركوب فركبت لكي اشرف على الغلاة
حول الجيش وكنا جميعا نعرف بان العدو سيهاجمنا بعد خروجنا من الزريبة فلأنا
المدفع وعولنا على ألا نبيع حياتنا رخيصة وكنا واثقين باننا اذا نجحنا في رده مرتين
أو ثلاثة فانه لن يعاود الغارة علينا وقررنا ان نسير في الجهة الشمالية الغربية لـ
الارض هناك مكشوفة ولكننا كنا نجمل مكان مياه الامطار لان ادلتنا قد فروا
أو قتلوا

وقبل ان يمضي على مسيرنا ساعة هوجمت مؤخرتنا فأدركت ان الساعة الحاسمة
قد أزفت . فأمرت بالوقوف في الحال وضممت الجناحين الى القلب . ثم اصطحبت
حرساً مؤلفاً من خمسين رجلاً وسرت نحو المؤخرة وكانت تبعد عنا نحو مائتي ياردة.
وتقلنا المدفع الى آخر القلب من جهة المؤخرة وكلفنا الجرحى بملء البنادق حتى
لا يضيع وقت الجنود المقاتلة

وقيل أن يظهر مشاة العدو كنا نسمع وقع أقدامهم فاستعدنا لهم بحيث أنهم
عند مظهرنا سددنا اليهم النار من حرس المؤخرة . فتوقفوا قليلاً ولكنهم كانوا
يستندون الى كثرة عزيمة وراهم فتشجعوا بها وهجموا وكل منهم قد شرع حربته
في يده اليمنى وحمل تحت ذراعه اليسرى عدة مطارد . وتمكنوا من الاقتراب منا
حتى أصاب بعضهم بعض رجالنا بالمطارد التي تزرق على بعد . ولكننا أعملنا فيهم
النار وكان مدفعنا يرميهم من القلب . فتقهقر رجالهم من حملة الخراب وصرنا وجهاً
لوجه مع البازنجر وأصبح القتال بالنار من الجانبين ولكن جاءتنا أمداد من القلب
فاستطعنا بهم ان نرد العدو بعد قتال عنيف دام عشرين دقيقة

وكنت عند اطلاق أول عيار قد نزلت من ظهر جوادى وهذا معناه في السودان

عدم الامل في الفرار والاصرار على واحدة من اثنتين ، الظفر او الموت . ولما انتهى القتال تحلق الجنود حولي وأخذوا يهزون يدي بالنصر الاول الذي انتصرناه على العدو

وبينا نحن نشتغل بالقتال من المؤخرة كانت ميسرتنا قد اشتبكت أيضاً وانتصرت في النهاية ولكن خسارتها كانت جسيمة وجرح أحسن قائد باق لديّ وهو زيدان أغا جرحا بليغاً . وكان نوبى المولد وظهرت كفايته في حملة دارفور اذ قاد فصيلة مؤلفة من ١٢ رجلا واستخلص بها مدفعاً من العدو وكان قد غنمه منا . ولهذا العمل كوفي . بترقيته الى رتبة ضابط والآن أراه مصاباً بعيار في رثته اليميني . فسألته عن صحته فقال لي بعد ان مد يده اليّ : « أما وقد انتصرنا فمأبى من بأس » ثم ضغط يدي وبعد دقائق مات

وقتل أيضاً من جانبنا ٢٠ وجرح عدد كبير . فدفنا القتلى بعجلة اذ لم يكن لدينا من الوقت ما يسمح بالحفر العميق ولكننا غطيناهم حتى لا نغير باتنا تركنا قتلتنا بلا دفن ثم استأنفنا مسيرنا بحيلة وحذر ولكن ثقتنا في أنفسنا زادت عن ذي قبل

وفي الساعة الثالثة عاود العدو الغارة على المؤخرة ولكن الغارة كانت خفيفة فطردها المغيرين بدون ان نخسر أحدا . ثم وقفنا وأحطنا الجيش بزريبة منتظرين من العدو غارة أخرى . ولكننا دهشنا اذ لم تلق هجمة واحدة من العدو طول الليل وفي الصباح بعد ان نفذ ماؤنا استأنفنا السير . ونحن في مسيرنا عاود العدو الغارة ولكن هجومه هذه المرة كان أضعف من هجومه في الامس فطردها بأقل عناء . واستمر سيرنا حتي الظهر بدون ان نجد ماء . فتفينا في ظل بعض الاشجار وأخذ رجالنا يبحثون عن نوع من الفجل يدعى « فايو » وهو كثير العصارة وله ثلاث ورقات صغيرة تدل عليه فكان رجالنا يقلعون من الارض ويمصونه فيطفيء عطشهم بعض الشيء . ولكن كنا مع ذلك في حاجة لازمة للماء . وبعد ان استرحنا استأنفنا المسير ثانياً فالتقينا مصادقة براع من الرزيفات يسوق غنما . فتسابق الرجال الى الغنم واحتاروها من راعيها الذي وقف مبهوتاً مروعا لا يحاول الفرار وكانت

رجالنا ينوون قتله لولا وساطتى . فأمرت بوضع الغنم فى القلب وأحضر الراعى الى يده موثقتان الى ظهره وقبل ان أستجوبه أمرت بتوزيع الغنم كل رأس خمسة رجال وما يتبقى لنا . وكان عدد الخراف يبلغ نحو مائتين . ما أجل هذه النعمة التى أنعم الله بها علينا ونحن فى جوعنا هذا !

ثم التفت الى الرجل وقلت له انى لن أقتله اذا هو هدانا الى غدير ماء . واذا أثبت أمانته فاني أكافئه وأسمح له بالذهاب الى أهله فرضى وقال ان الغدران التى حولنا صغيرة ولكن اذا تكلفنا المسير مسافة فانه يضمن لنا بلوغ « الفولة البيضاء » وهى غدير كبير نجد فيه ماء يكفيننا شهراً . وكنت غير واثق به فأمرت صف ضابط وثمانية رجال بمراقبته والا يجعلوه يبعد عنى . ثم استأنفنا المسير وفى المساء وقفنا وصنعنا زريبة بتنا فيها كالعادة ومررنا ببضعة غدران ولكن ماءها لم يكن يكفيننا وكنا نقاسى الشدائد من العطش فما جاء الفجر حتى قمنا واستأنفنا للمسير بعد ليلة قضيناها فى الارق من شدة العطش

وعند الظهر أشار الدليل الى بضعة أشجار قال ان الغدير تحتها . فوقفنا فى الحال وملأنا المدفع والبندقيات واستعدنا للمقاومة . فقد ترجح لدى ابن العدو سيقدر عطشنا فينتظرنا تحت الأشجار ويفاجئنا بالنار . فأمرت الرجال بأن يراعوا النظام بكل دقة أو لا يستسلموا للفوضى . ولكن ما كاد يظهر الماء حتى هرع اليه الرجال يترامون عليه بلا نظام

وكانت قبيلة المياثرة الآن فارست التعلبات الى عمر واد دارهو لكي يقوم بمائتى جندى نظامي ومائتين من الخيالة الى بلاد الميا . وقررت فى الوقت نفسه ان أقاتل الخواير الذين كانوا قد اتحدوا مع الميا . وذهب دارهو اليهم وأدى مهمته بنجاح اذ هزم الميا فى فاقة وفى وودة . وقت انا بمائة وخمسين جندى نظامي وخمسين من الفرسان وسرت فى طريق شعيرية وبيرام الوادى حيث كان الخواير ينتظروننى للهجوم على . ولكن بعد قتال قصير هزموا وتشتتوا وغنمنا منهم عدداً كبيراً من الخراف والثيران

ولما انتهيت من القتال بعثت الى دارهو لكي ينضم الى فى بيرام الوادى بمن تبقى

من رجاله . وبعد أيام قلائل أدركنا وأخبرنا بكل أعماله وانتصارات المهدي في كردوفان التي أفلقتني قلقاً عظيماً

وكنت في الليلة التي أرسلت فيها إلى دارهو التعليمات لكي ينضم إلى قد جاءني رجل يدعي عبد الرحمن واد شريف وألح في مقابلي وكان هذا الرجل ناجراً معروفاً في داره . وقد سبق أن زار الخرطوم وبدأ كلامه معي بقوله أنه بالنسبة لعاملتي الحسنة له فانه رأى من واجبه أن يخبرني عن تسليم الأبيض وذلك حتى أتمكن من اتخاذ الاحتياطات اللازمة في مثل هذا الحادث . وكان هذا الخبر صدمة قوية فشكرته وطلق هو يصف لي كيفية سقوط البلدة . فقد كان حاضراً فيها وقت التسليم ثم سافر إلى أهله في داره وسمع وهو في طوبشة عن وجودي في بيرام الوادي فأسرع في إدراكه حتى يبلغني أمر هذا السقوط

ورأيت أنه من غير المفيد أن تبقى المسألة سرّاً فاستدعيت دارهو وسليمان بسيوني وأخذنا نتحدث معاً في هذا الموضوع . وكان واضحاً لكل منا أن هذا الخبر سيكون مشجعاً لأولئك الذين يكرهون الحكومة وصار من الضروري لذلك أن نذهب إلى داره

ولما كنا قد عاقبنا الميا والخواير فقد رأينا أن نرسل حملة إلى طوبشة وكنت في اليوم التالي إلى سعيد بك جمعة بان يجلو عن أم شنجه ويأخذ معه الحامية وجميع الأهالي الذين يرغبون في تركها ويأخذهم جميعاً إلى الفاشر . وكنت كتبت له أنه بالنسبة لسقوط الأبيض فان العرب الآن سيوجهون نظرهم إلى أم شنجه وهم اذا حاصروها صار من المحال تخليصها منهم وانه يجب بالنسبة للظروف الراهنة ان يجمع لجيوش في الفاشر . وأمرته باقامة حرس في فيفا وووده حتى تبقى الطريق مأمونة بين الفاشر وبين داره . ثم أمرت عمر واد دارهو بان يقوم هو وجيشه في الحال إلى الفاشر بان يوزع الغنائم التي غنمها من الميا بين جنوده وحامية الفاشر . أما ما غنمه من بن الخواير فيعطي للجيوش المقيمة في داره . وفي نفس اليوم انفصلنا فذهبت انا إلى داره وذهب دارهو إلى الفاشر

وانتشر خبر سقوط الابيض في كل مكان وظهر أثر ذلك في القبائل العربية
فصاروا يجتمعون ويقررون الثورة على الحكومة

ولما وصلت الى داره أمرت بشراء كل ما يمكن من الذرة وكان مدخراً لدينا
كمية كبيرة منها ولكني رأيت من الانفع ادخاراً أكثر مما عندنا . وأرسل الى الشيخ
عفيف يقول ان قبيلته قد ثارت وانضمت الى الرزيفات واسكنه هو لا يريد ان ينكث
بعهده ولذلك قد ترك أسرته وعشيرته وقصد الى بن طريق حلبة وانه أرسل أخاه
على برسالة الى بشاري بك واد بكير رئيس قبيلة بني حلبة حيث أقسم له بان يمر في
بلاده آمناً وانه لذلك يأمل الوصول الى في بضعة أيام

وبينا انا في انتظاره واذا باخبار سيئة تقول انه قتل . وقد فقدت فيه أكثر
العرب ولا الى . وتبين بعد ذلك ان بني حلبة الذين أمرهم رئيس قبيلتهم بان يجيزوه
أرادوا أن يأخذوا منه أغنامه وثيرانه فرفض فقاتلوه فاظهر بأساً عظيماً ولكن كمن له
بعض العرب وراء الاشجار واغتالوه بحراهم بينما كان يطارد العرب الذين هزمهم
مرتين .

ورجع الى محمد واد عاصي الذي كنت أرسلته مع خالد واد امام الى كردوفان
واخبرني بالحالة هنالك . وقد بشرني بان الحكومة في الخرطوم تهيب جيشاً للاستيلاء
ثانية على كردوفان ولكن لا بد من مضي وقت طويل قبل ان تهيا التجريدة وتشرع
في السفر

فأخبرته باذاعة هذه الاخبار في كل مكان ثم سأله عن علاقة زوجال بالمهدى .
فأجابني بأنه على الرغم من ابحائه لم يتحقق على وجه التأكد هل تجري بينهما
مكاتبات ولكنه لا يشك في أن المهدي يرسل رسله الى زوجال فيخبرونه شفويّاً
بما يرغب . وهؤلاء الرسل هم التجار الجائلون . وقد وافقني على رأيي من بأن زوجال
لمركزه وتربيته يعرف بواعث هذه الثورة ولذلك ليس من المرجح أن يشترك
مع الثائرين

ولا شك في أن تسليم الابيض قد أضعف مركزنا وكان علينا أن نعمل
بحذر وحيلة مادامت مديرية كردوفان كلها قد صارت في يد المهدي . وكنت

أرجح ان أخبار واد عاصى عن استعداد الحكومة فى الخرطوم لارسال حملة للمهدى سيجعل المهدى يحتفظ بقواته ويجمع جيشه فى مكان واحد للمقاومة وعلى ذلك ليس من المحتمل أن يوجه جيشه إلينا . ورأيت أن أرصد كل وقتى للقبائل العربية التى هاجها سقوط الابيض ومنشورات التعصب وكان يخشى منها أن تنادى فى هياجها وترتكب أى شطط . ولم يكن من المنتظر أن يتم تهية التجريدة الخاصة بكردوفان قبل الشتاء فكان علينا أن نثبت وتقاوم بأية وسيلة حتى هذا الفصل

وعلى الرغم من اقامة مرا كز حرية فى قافا وفى وده فان عرب الخواير تجمعوا فى أم الاوادي وانضم اليهم بعض رجال الميا الذين غاظمهم انقطاع المواصلات الى بلادهم وحسهم سقوط الابيض وكانوا يثيرون الهياج والقتل فى جميع البلاد بين داره والفاشر ولم تقو حامية قافا على مهاجمتهم . فعزمت لذلك على غزوهم لكي أربهم أن سقوط الابيض لم يثبطنا وانتفيت ٢٥٠ جنديا قديما مدربا على الحروب ثم دربتهم بضعة أيام على قتال السنجة وأخفيت يوم شروعى فى السفر عن كل أحد

ثم أخذت جميع الخيول وكانت تبلغ نحو السبعين وأشرت على واد عاصى بأن يقفنا على اخبار داره ثم خرجنا وأسرعنا فى المسير فلم يمض يومان حتى بلغنا جوار ير أم الوادي حيث قد اجتمع عرب الميا والخواير . ولم يكن معنا سوى أسلحتنا وذخيرتنا ولم نحمل ميرة لان نيتنا كانت الهجوم ثم الرجوع . وفى اللحظة التى ظهر فيها العدو أمرت رجالى بثبيت السنجة . وقاتلنا البازنجر وبعد عشرين دقيقة نجحنا فى تفريقهم ودخل بعض عرب الميا فى صفوفنا فقتلوا كلهم بحراب البنادق (السنجة) ثم أمرت الفرسان بان يطاردوهم وأمرت الجنود النظاميين بان يسيروا وراء الفرسان ليهشوا عن مكان البطيخ لان الفارين سيقصدونه بالطبع لكي يقصعوا عطشهم وقد نفذت هذه الاوامر وقطعنا البطيخ وقبضنا على عدد من النساء والاطفال . وتفرق الرجال فى كل مكان يبعثون عن الماء ومات كثير منهم عطشا . وفى اليوم التالى أحرقنا خيام العدو وأخذنا النساء والاطفال الى ير أم الوادي التى اعزمتنا الهجوم عليها الآن . ودافع العدو دفاع اليأس عنها وخسرنا ١٦ رجلا قتلوا و ٢٠

جرحوا . وادركت من هذه الخسارة ان الجنود النظاميين عندى قد قتلوا جداً فى حين ان العدو يزداد حتى بعد هزيمته

ولما كنت الاوربى الوحيد فى بلاد غربية وكان السكان حولى يدسون لى ويكرهوتى فاني كنت ألقا الى وسائل عديدة لكي أعرف المؤامرات والترسيات التى تدبر حولى . وكنت احياناً بواسطة النقود او الهدايا التى أرسلها سرأ أعرف ما سيحدث لى قبل حدوثه واحتاط له

وكنت بواسطة الخدم استغل البغايا اللواتى كن يصنعن المريسة أى الجمعية الوطنية وكان يشربها عندهن رجال الطبقات الدنيا . وكان الخدم يخبروتى بان رجالنا وهم يتعيبون هذه الخمر ويسكرون يتكلمون عن ثورة المهدي الذى لم يكونوا يعطفون عليه . ولكنهم كانوا يقولون ان الحكومة قد عينت فى المرا كز العليا ناساً من النصارى لمحاربة المهدي ولذلك فالنتيجة يجب ان تكون سيئة . ومما قالوه انهم وان كانوا يحبوتى الا انهم يعززون ما أصابنا من الخسارة وما قاسيناه من الآلام الى انى مسيحي . وكنت متحققاً بان هذه الآراء ليست من ثمار ذهن الزوج الذين لا يبالون بالدين وانما هى من ذهن أولئك الجنود الذين يكرهوتى ويشتهون إزالة سلطتى وبث روح العصيان بين رجالى

وعند قيامى من بير أم الوادى جاءتنى أخبار سيئة أيضاً . فقد أخبرنى الخدم بان بعض الجنود الذين يذهبون الى حانة البغى التى كنت ارشوها لى تخبرنا بكل ما يدور فى حانتها قد ائتمروا على ترك الجيش . وعلمت بعد البحث ان الداعين الى ترك الجيش هم بعض من رجال قبيلة الفور وصفوف ضباطهم فانهم على قولهم قد سئموا هذا القتال وقد تحققوا أن أيام الاتراك قد باتت معدودة فى السودان وانهم ينوون ترك جيشنا والذهاب الى جبل مرة للانضمام الى سلطان دودبنجه خليفة سلطان هرون . ولما كان أكثر رجالى من قبيلة الفور فاني شعرت بخطورة الحالة وأرسلت فى الحال الى البكباشي محمد أفندى فرج وأخبرته بما سمعت . فدهش وأكد لى أنه لم يسمع شيئاً قط عن هذا الموضوع وانه لن يهمل فى الاستقصاء ومعرفة الجناة ومعاقبتهم . فأمرته بان يلتزم التكتيم وألا يفعل شيئاً يلقى بينهم الشك والتوجس .

وأرسلت وهو معي الى خادمي وأعطيت له صرة بها نقود وأمرته بان يذهب بها الى البقي ويعطيها لها ويطلب منها ان تدعو هؤلاء الرجال الى منزلها وتسقيهم على حسابها ما شاءوا . وفي الوقت نفسه طلبت منها ان تخفي الخادم بحيث يسمع ما يدور من الحديث بين الجنود وأخبرتها بأنها اذا نفذت هذه الاوامر فاني أكافئها مكافأة سنية . وعاد خادمي بعد قليل وأخبرني بان كل شيء قد رتب على ما نهوى

وفي اليوم التالي أرسلت للبكباشي وأعطيته أسماء ستة من الزعماء وأمرته بالقبض عليهم وزيادة على ذلك أعطيته أيضاً التفاصيل الخاصة بفرارهم من الجيش وتاريخ ذلك وبعد نصف ساعة عاد ومعه الستة المقبوض عليهم وهم مقيدون من خلف وكانوا كلهم من الفور . وكان وراءهم عدد من القواصين والنظار فطردتهم ثم سألت هؤلاء الستة امام ضابطهم عن سبب خروجهم على الحكومة . فأنكروا انكاراً باتاً وجود هذه النية عندهم وأنهم براء من كل ما نسب اليهم . فقلت لهم : « ولكنني أعرف انكم عقدتم جملة اجتماعات في منزل خديجة . وقد أتحت لكم كل فرصة لكي تتعقلوا ولكنكم أبيتم الا الطغيان فأمرس كنتم عندها تشربون المريسة واتفقتم على ان تنفذوا تدبيركم اليوم . وكان غرضكم ان تضموا اليكم الجنود وتخرجوا باسلحتكم من الباب الغربي للقلعة وبعد ذلك تذهبون الى السلطان عبدالله وكنتم تنوون انفاذ خطتكم بالقوة . ألم تقل أنت يا محمد انه لديك مشا رجل يطيعونك ويعملون ما تشير به عليهم ؟ ألا ترون اني أعرف كل شيء ؟ فما فائدة الانكار ؟ »

وسمعوا كلامي وهم سكوت وعرفوا انهم قد أفشى تدبيرهم فاعترفوا بكل صراحة وطلبوا الصفح والمغفرة . فقلت لهم : « ليس هذا في يدي الآن . اذهبوا الى ضابطكم واعترفوا له بكل شيء امام سائر الضباط والفصل بعد ذلك للقانون »

ثم أمرت الضابط بتأليف محكمة عسكرية وأن يجعل جميع صفوف الضباط يشهدون المحاكمة ولكنني أفهمته بأن يجعل المحاكمة مقصورة على المقبوض عليهم وذلك حتى لا يفر سائر الجنود المشتركين في المؤامرة . وفي عصر اليوم نفسه تسلمت محضر التحقيق والاعترافات ولكن لم يكن قد حكم بعد عليهم . فرددت الاوراق وطلبت النطق بالحكم فجاءني ضابطهم وأخبرني بأن المحكمة حكمت بضربهم بالرصاص

ولكنها تطلب تخفيف الحكم ولكنني شعرت بضرورة التثكيل بهم حتى يتعظ بهم غيرهم فأيدت الحكم وأنا في أشد الألم والجزع وطلبت تنفيذه في الحال

ثم أخرجنا المحكوم عليهم وحفرنا ست حفر ووقفنا كلا منهم على حفرة خارج الزريبة وركع كل منهم ركعتين ثم ضربوا بالرصاص ولم يبدوا أقل خوف . وخطبت الجنود الحاضرين عن خطر المؤامرات وأن كل من يحدث نفسه بالثورة والفتنة سيعاقب مثل هذا العقاب وقلت لهم اني أومل ان تكون هذه المأساة الاولى والاخيرة من نوعها وأن تكون علاقتنا في المستقبل علاقة الصداقة

وكنت حزينا مغيظا لهذا الحادث فقد تذكرت العدد الكبير الذي فقدناه في المعارك الماضية والآآن اضطر أنا الى اتخاذ أقسى الاحتياطات لحفظ النظام . وكان الدساسون حولى يعملون جهدهم لاضعاف سلطتى وهم يجهلون أنهم لو نجحوا في ذلك لما تحسنت حالهم والحقيقة انه جاءهم زمن بعد ذلك كانوا يتحسرون فيه على عصيانهم أوامر ذلك الاوروبى الذي يكرهونه الآن

وأرسلت في ذلك المساء الى طلب محمد افندى فرج وسأله عن ما جريات النهار وماذا كان وقع ضرب الجنود بالرصاص في سائر الجيش . وأضفت الى ذلك انه يجب ان يعرف الجنود عدالة الحكم وان الجانبين يستحقونه واننا استعملنا الرأفة مع سائر من اشتركوا في المؤامرة ثم قلت : والآآن يا فرج افندى انى أرغب فى ان تكون صريحا مخلصا لى . وأنا أعرف انك تميل الى وتطيعنى ولولا ذلك لما طلبت ان أخاطبك وحدك هنا . فاخبرنى الآآن كيف ينظر الى الجنود والضباط؟ وهل يحبوننى أو يكرهوننى ؟ ولست بالطبع أقصد اولئك الذين يبحثون عن مصالحهم الشخصية» فقال فرج افندى : « ان رجالنا لم يعودوا هذه الصرامة فى الاحكام ولكنهم مع ذلك متعلقون بك لانك مواظب على دفع المرتبات فى مواعيدها وهذا شئ لم يألوه قبل . ثم هم يعرفون لك صنيعك فى توزيع الغنائم بينهم . ولكننا حسرنا هذا العام خسارات فادحة ولذلك سم رجالنا القتال »

فقلت : « ولكننا مضطرون الى القتال . فنحن لا نخرج للفتح او للمجد الحربى وأنا شخصا أؤثر الراحة والدعة »

فقال فرج افدى : « اني أفهم هذا بالطبع ولكن هذه الخسائر التي كان يمكن تجنبها قد أثرت في الجنود . فقد فقد أحدهم أبا وآخر أخاه وآخرون فقدوا بعض قرابتهم او بعض أصدقائهم . واذا استمر هذا فان القتال يشق عليهم »

فقلت : « وأنا أيضا أدرك ذلك وان كنت لم أفقد أبا او أخا فاني فقدت أصدقا . ثم اني أخاطر بحياتي العزيزة كما يخاطر الجنود بحياتهم . فانا على الدوام معهم وجسمي عرضة للرصاص او للحراب مثل أجسامهم »

فقال : « انهم يعرفون ذلك تمام المعرفة و يجب عليك ان تشكرهم لاطاعتهم رجلا أجنبيا يخاطرون بحياتهم معه »

فقلت : « حقا اني أجنبي أوروبي . وليس هذا سرا مكتوما ولا أنا أتعب منه فهل رجالنا مستأون من ذلك ؟ أصدقني »

وكان محمد فرج من أحسن الضباط تربية . وقد درس في عدة مدارس في القاهرة ولكنه دخل الجيش جنديا بسيطا . وكان يعرف في غيره الميزات التي يمتاز بها وكان على الدوام مستعدا لان يتعلم من أولئك الذين حصلوا على تربية أعلى من تربيتهم . ولم يكن متعصبا او متدينا ولكنه كان حاد المزاج كثير التذمر . وكان تدمره وحدته جماع ما عنده من الصفات السيئة وقد قادته الى ارتكاب بعض الجرائم فنفى من أجلها الى السودان

فلما طلبت منه ان يصدقني رفع رأسه ونظر الي وقال : « ترغب مني في ان أخبرك الحقيقة . فها كها . انهم لا يعترضون عليك لانك أوروبي بل لانك غير مسلم » والآن عرفت منه ما أردت معرفته . فقلت له : « ولم يعترضون على دياتي ؟ لقد مضيت السنين الطوال في دارفور وهم يعرفون اني مسيحي فما اعترض أحد علي » فقال : « تلك أيام أخرى تختلف عن أيامنا الآن . فان هذا الوغد المدعو المهدي قد تستر بالدين وله أنصار يحضون الناس على اتباعه لكي يبلغوا أغراضهم السافلة وقد انتشر بين جنودنا رأي لا أعرف من أول من أذاعه مقتضاه ان هذه الحرب دينية وانك لن تربح معركة فيها وان الهزائم ستتوالى عليك حتى تقتل في النهاية . وانت تعرف ان الجنود الجبهة يصدقون هذه الاقوال وهم يعلنون هزائمهم

بأنك مسيحي . ورجالنا لا يدركون ان خسائرننا ناشئة عن تفوق العدو علينا في عدد الرجال واننا ما دمنا لا نؤمل في مجيىء امداد فانتنا سنستمر على الهزيمة »

فقلت له : « هبنى صرت مسلما فهل رجالنا يصدقون اسلامي ويؤمنون في النصر وهل هذا يزيد ثقتهم فيى ؟؟ »

فقال لى : « يصدقونك بلا شك او على الاقل كثرتهم تصدقك . ألم تتحين كل فرصة لاطهار احترامك لديانتنا وأجبرت غيرك على احترامها ؟ تأكد انهم سيثقون بك . ولكن هل تغير دينك عن عقيدة ؟ » قال هذا وهو يتنسم

فقلت له : « اسمع يا محمد افندى . انت رجل ذكي قد حصلت على تربية وتعرف ان العقيدة لا شأن لها فيما نحن فيه الآن . وفي هذه الدنيا يحتاج الانسان الى أن يعمل أعمالا تخالف عقيدته اما اضطراراً واما لسبب آخر . وحسبى ان يصدقنى الجنود ويثقوا بى ويقبلوا عن خرافاتهم السخيفة . ولست أبالى بتصديق سائر الناس وأنا أشكرك الآن شكرا جزيلا وأطلب منك الا تجعل هذا الحديث يخرج من فيك لاحد »

وتركنى محمد افندى فرج فتأملت وترويت قليلا فى الموضوع ثم استقر رأيى على ان أظهر فى اليوم التالى أمام الجيش كأثنى مسلم . وكنت على تمام المعرفة بأنى فى اتخاذى هذا الموقف سيلومنى البعض . ومع ذلك قد عازمت على امضاء نيتى لكى أقطع على الدساسين حبل دسائسهم وتتاح لى الفرصة لان احتفظ بالمديرية التى عهدتها الى الحكومة المصرية . وكنت فى شبابى لا أبالى كثيراً بالدين ولكنى كنت أعتقد انى بآثريية والعقيدة مسيحي مؤمن بالمسيحية وان كنت أميل الى التسامح والى ان يختار كل انسان طريقة الصلاح التى يشهيهها . ولم يكن ذهائى الى السودان بصفتى مرسلا مسيحياً وانما كانت المهمة التى أعرفها ومن أجلها ذهبت انى موظف فى خدمة الحكومة المصرية

وعند طلوع الشمس أمرت بعرض الجيش وانتظارى ثم ارسلت الى زوجال لكى يبعث الى القاضي احمد واد بشير وأيضاً التاجر المعروف محمد احمد . فلما حضرا حادثتهما فى الشئون العامة ثم طلبت منهما ان يحضرا العرض معى داخل القلعة . ثم

اتخذت القيادة في العرض وأمرت الجنود بان يصطفوا في هيئة مربع ثم امتطيت جوادى ودخلت داخل المربع ومعى الضباط والموظفون ثم قلت :

« أيها الجنود . لقد كابدنا المشاق العديدة معا ونزلت بنا الكوارث الفادحة . وما الكوارث الا محك الرجال . ولقد جاهدتم وقاتلتم ببسالة الابطال وليس عندى شك في انكم ستداومون على ذلك . فاننا نقاتل من أجل مولانا الخديو حاكم البلاد ومن أجل أنفسنا أيضا . ولقد اشتركت معكم في الافراح والاتراح . وعند ما كان يلوح الخطر كنت على الدوام معكم لا أخيم في اللقاء . وإني وان كنت رئيساً فخياًني ليست أغلى من حياتكم »

فصاح معظمهم : « الله يخليك »

فاستأنفت قولى « وقد سمعت ان البعض يعدني أجنبياً غير مؤمن بالاسلام . ولكنى اقول لكم إني مؤمن كما انتم مؤمنون . اشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله »

وعندما نظقت بهذه الشهادة رفع الجنود بنادقهم ثم هزوا رماحهم وصاحوا بالتهنئة وتقدم الضباط والموظفون لتهنئتي بالاسلام . ولما عاد النظام قلت اني سأصلي معهم ثم أمرت فرج افندى باعادة الصفوف ثم صرف الجنود

ولما انتهى كل شىء دعوت زوجال بك والضباط لكي يشربوا القهوة ويتناولوا الغذاء معى . وودعنى الجميع وهم يؤكدون لى فرحهم وطاعتهم وأمانتهم . ولما غادروني أمرت فرج افندى بان يشتري عشرين ثورا وان يوزعها بين رجالنا « كرامة » وان يعطي لكل ضابط ثوراً ودفعت أنا ثمن هذه الثيران

وكان الأثر الذى أحدثه على في رجالنا أكبر مما انتظرت فلم أعد أرى منهم ذلك الاكراه الذى كنت أراه منهم عندما أطلب منهم الخروج في التجريدات وان كان عدونا يزداد كل يوم في العدد والقوة

وكان التجار الذين كنت أدفع لهم تقودا لكي يرسلوا الى الاخبار قد أخبروني بان الجيوش ترسل من القاهرة الى الخرطوم وان الحكومة تهيأ بسرعة لارسال

تجريدة بقيادة ضباط أوربيين لاسترجاع كردوفان . اما الاهالى فقد انضموا جميعا بلا استثناء الى المهدي وكانوا مصممين على المقاومة

وكانت جميع القبائل في جنوبي دارفور قد ثارت ولكن الجزء الشمالى بالنسبة لمرا كزنا الحرية وبالنسبة لاتصال قبائله بمصر واستفادتهم من القوافل الصادرة عن مصر اليهم لم تكن قد بدت فيه بعد أمارة للثورة . ولم نجتمع بالطبع أية ضرائب منذ وقت طويل ولذلك كنا ندفع مرتبات جنودنا من المال الاحتياطي

وبدأت انتصارات المهدي المتوالية تظهر أثرها في زوجال بك ولاحظت تغيرا في سلوكه وان كان على الدوام براعى اظهار الولاء والطاعة . وقد وضح لى انه في قلبه يحب الفوز للمهدي ابن عمه لانه كان يعرف انه في مثل هذه الحالة سيعود فوز المهدي عليه با كبر المنافع . وكان محبوبا لدي مرءوسيه وكان بالنسبة الى أهالى السودان يعتبر حاصلا على قسط من التربية والتعليم وكان يخدم الناس ما دامت هذه الخدمة لا تمس جيبه وكان يشاع عنه انه سخي وكان ثرياً له منزل كبير ومائدة مبسطة وأظن ان سبب حب مرؤوسيه له انه كان يغتفر لهم ذنوبهم ويسمح لهم بملء جيوبهم بطرق خفية غير مشروعة . وقد توصل أ كثر قرابته بواسطة نفوذه الى الحصول على مناسب حسنة وصاروا بذلك أثرياء . وعلى ذلك رأيتني مضطراً الى ان احتاط له . فان حب الجمهور له وموافقته على آرائى واطاعته أوامري جعلتني اكره وجود شقاق صريح بينى وبينه . ومثل هذا الشقاق لو حدث كان يؤدى الى تقض سلطنى . وعلى ذلك اضطرت وقتيا الى ان أتركه وشأنه . والمثل السودانى يقول : « ابعد النار عن القطن وانت ترتاح » وكان هذا المثل ينطبق على حالتنا ولذلك لزمته

ثم طلبت فرج افندى وواد عاصى وقاضى البشير وكانوا كلهم يوالون الحكومة ويرجون بقلوبهم نجاحها فافضيت اليهم بالخطة التى اتويناها فاجمعوا على الموافقة . ولما خرجوا استدعيت زوجال بك وقلت له :

« اسمع يا زوجال . انت معى هنا ولا يشهدنا نحن الاثنين الا الله . فابن عمك المهدي قد فتح كردوفان وقد سقطت الابيض وانضم اليه جميع الاهالى . والبلاد التى بيننا وبين حكومتنا واقعة تحت يديه . وقد مال قلبك اليه عند مارأيت نجاحه

فهل نسيت كل ماصنعتك الحكومة ؟ وهل نسيت الوسام والرتبة اللذين منحتهما الخديو بوساطة حكومة السودان وهل يمكنك أن تنسي واجباتك المكلف بها بحكم منصبك «

فقال زوجال : « ان المهدي ابن عمي ولا يمكنني ان انكر ان قرابته لي تجعلني أميل اليه . ولكنني مع ذلك قد قمت في الماضي بجميع واجباتي واؤمل ان أقوم بها أيضا في المستقبل «

فقلت : « لقد قمت بواجباتك على وجه العموم ولكنك علي اتصال مع المهدي فلم تذكر ذلك غنى ؟ «

فاجابني زوجال بسرعة : « اني غير متصل به مباشرة ولكن التجار الذين يقدون علينا من كردوفان ينقلون الى رسائل شفوية منه وقد اقسمت لحلة هذه الرسائل الا اخبرك وهذا هو السبب في كتمانى أمر هذه الرسائل ولكني أؤكد لك انه ليس فيها سوي اخبار عن كردوفان وانه لم يحاول ان يجعلني انضوى الى لوائه «

فقلت له : « ليكن الامر كما قلت . فاني لا اطلب منك ان تبرر نفسك ولكن اخبرني ماذا سمعت عن تلك التجربة التي تهيؤها الحكومة لاسنرجاع كردوفان ؟ «
فقال : « سمعت أن جيشا عظيما وصل الى الخرطوم وانهم سيحاولون به فتح كردوفان «

فقلت له : « لن يحاولوا ذلك فقط بل هم سينجحون في فتح كردوفان . وانت يا زوجال رجل تفهم وتعرف اني اذا اضطرت بالظروف فانه يمكنني ان أمنع أذاك ولكنني لا أظن انه من الحكمة ان افعل ذلك الآن . دع عنك انه مما يؤلنى ان اتخذ اجراءات ضدك فقد خدمت الحكومة بولا . مدة طويلة كما انك صادقتنى مدة طويلة ولذلك فانا مستغن عنك الآن ويمكنك أن تذهب الى كردوفان . فان الجركات الدينية يكون لها لمعة ورونق على بعد فيعطف عليها الانسان ولكن عند الاحتكاك بها تظهر حقيقتها فتذهب عنها جاذبيتها وتزول منها روعتها . وسأكلفك بحمل رسائل الى الخرطوم سرأ وسيكون مضمون هذه الرسائل شرح المهمة التي أرسلاك في شأنها .

وبما أن التجريدة ستشرع في السفر الى كردوفان في الشهر الآتي فانا اطلب منك ان تبذل جهدك في منع المهدي من إرسال تجريدة الى دارفور أو تحريض الناس على الثورة . فاذا فعلت ذلك فان الفائدة تعود عليك وعليه . واذا نجحت التجريدة فانا أتحمّل كل التبعات التي تقع عليك فليس هناك ما نخشاه . ولكن اذا نجح المهدي — لا قدر الله — فهناك يقطع ما بيننا وبين الحكومة فلا يمكن تخليصنا والمرجح وقتئذ اننا نخضع للمهدي وفي هذه الحالة يتسلم البلاد وهي في حال حسنة . ولكي اضمن ولائك وقيامك بهذه المهمة خير قيام سأحتفظ بزوجاتك وأولادك هنا في القلعة وسيحسب المهدي حسابا لهذا العمل ولا يعرض اهلك للخطر »

فقال زوخال : « سأفقد تعليماتك واثبت لك اخلاصى . وهل تريد ان تكتب خطابا للمهدي ؟ »

فقلت : « كلا لا أريد ان يكون بيني وبينه أية معاملة . وأنا عارف تماما بانك ستتلو عليه حديثنا هذا . وابن عمك رجل ماهر وسيستغل ذهابك اليه بقدر امكانه ولكن مادمت تفي بوعدك لى فانى أعني كل العناية بأسرتك . ومع اننا قد استغفينا عنك اسمياً فاننا سنستمر على دفع مرتبك بالكامل . اما اذا لم تف بوعدك فان ضماننا لا يستمر واود منك ان تشرع في السفر بأسرع ما يمكنك ويكفيك ثلاثة ايام تستعد فيها »

فقال زوخال : « اني أؤثر البقاء مع أهلي ولكن بما انك تريد مني تأدية هذه المهمة كي تمتحن اخلاصى فانا أقوم بها وملء قلبي الحزن »

ثم أرسلت في طلب فرج افندى وواد عاصى والقاضى وأخبرتهم بحضور زوخال بالمهمة التي كلفته بها . فبدا عليهم شيء كثير من الانفعال والدهشة وطلبوا من زوخال ان يقسم يمينا بالولا . فاقسم بالقرآن وبالطلاق بان يلزم الاتفاق الذى بيننا

فكتبت الخطابات الى الحكومة ووصفت الحالة فى دارفور وبعد ثلاثة أيام خرج زوخال فى رحلته ومعه ثلاثة من الخدم قاصدا الابيض عن طريق طويشه . وكان معروفا فى كل مكان انه من قرابة المهدي فلم يكن لذلك بخشي أحدأ وعلمت بعد ذلك انه قوبل فى كل مكان بحفاوة واکرام

وأخذت على عاتق الآن أن أركز مدافع جديدة في زوايا القلعة وجمعت كل ما أمكنني جمعه من القمح . ولكن هذه المدة القصيرة من السكينة لم تدم طويلا فقد حرض الشيخ الطاهر الدجوى زوج ابنته بشارى بك واد بكير على الغارة على داره . وكان بشاري بك رئيس قبيلة بنى حلبة فارسلت له خطابا أهدده فيه ولكنه أغار على عرب المصرية وقتل منهم عدداً وأسر نساء وأطفالا . فعبأت ٢٥٠ من الجنود النظاميين و ١٠٠ من البازنجر وسلمت قيادتهم الى مطر أحد قرابة زوجال ولم استطع أن اجمع من الخيول سوى ٢٥ فرساً لان مرضاً غريباً انتشر بينها وبهذه القوة خرجت قاصداً داره

وبعد مسير ثلاثة أيام بلغنا أمكة حيث أغار علينا بنو حلبة بقيادة بشير بك وكان معهم صديق القديم جبر الله . ولكن لم يكن معهم من الآلات النارية الا عدد قليل ولذلك فرقناهم بسهولة . وفي اليوم التالى عاودوا الغارة على كامباسى وهى على مسيرة يوم ونصف من أمكة وهنا أيضاً اضطررناهم الى الفرار بسهولة ؟ »

وقد عزا رجالنا قلة خسائرننا الى صلاتى يوم الجمعة معهم لا الى قلة البنادق عند العدو ثم سرنا الى خشبة واخرجنا شيخها وعرضنا عليه صلحا ولكنه رفض . ثم سرنا الى جورو على مسيرة نصف يوم . وبينما نحن في الطريق كانت تتقدمنا طليعة مؤلفة من ١٢ فارسا . فاغار عليهم بشارى بك وحده واخترق صفهم وجرح أحدهم جرحا بسيطا ثم ثني جواده هو بين الطليعة وبيننا على حدود الغابة وعلى بعد ٨٠٠ ياردة تقريبا منا

ثم تقدمت نحوه ثلثمائة خطوة فعرفته ولكنى لم أرمه وأرسلت اليه خادما أعزل لكي يقول له : « ان الحاكم يقدم لك تحيته ويخبرك بانك اذا كنت ترغب فى ان تظهر سالتك لزوجتك فليست هذه هى الطريقة لاثهار ذلك . وانك اذا عدت الى مثل ما فعلت فانك لابد مقتول »

وكانت الطريق بيننا وبينه خالية إلا من بعض الاشجار هنا وهناك ورأيت الخادم يذهب اليه ويقف أمامه بضع ثوان ثم عاد الينا مسرعا وقال : « ان بشارى بك يقدم لك تحيته وهو يقول انه لا يرغب فى الحياة بل يشتهي الموت »

يا لغلة الرجل . لقد وجد ما اشتهاه

ولما بلغنا جورو صنعنا زرية وكنت متأكداً بأن بشارى بك سينهز وبغير
علينا ولذلك أمرت الجنود بأن يخرجوا من الزرية نحو ثلثمائة خطوة ووضعت الخيالة
على الجانبين وأرسلت عشرين فارساً الى الغابة لكي يغتربوا العرب بهم ويخرجوا اليهم
وما كاد هؤلاء العشرون يخرجون في مهمتهم هذه حتى رأينا عربيين راكبين قد
ركضا فرسيهما اليهم وفي يد كل منهما حربة قد أشرعها . وكان هذان الرجلان
بشارى بك وخادمه . وقل ان يبلغ رجالنا عثر فرسه ووقع وبينما كان خادمه
يساعده على النهوض والركوب أغار عليه رجالنا ورموه بمطرد في وجهه نفذ في
عينه فكبه . أما خادمه فقد أصيب بحربة نفذت في ظهره وقتلته . وركضت فرسي
انا اليه فوجدته في النزاع فان رجالنا طعنوه بعد وقوعه مرتين بالحراش . وهجم علينا
ابنه لكي يخلصه فجرح ولكنه نجا بنفسه وقد كان معه شيخان وهما شرطيه
حبيب الله والتوم قتلا كلاهما . فقبضنا على خيولهم جميعاً ثم هتفت بالجنود فحضروا
الينا فأركبت وراء كل خيال واحداً من المشاة وطلبت منهم ان يطاردوا العدو
لاعتقادي انهم لن يثبتوا للقتال بعد موت قادتهم

وركضنا خيولنا نحو ميلين فوجدنا العرب وهم في فرارهم فأمرت الجنود بالنزول
عن الخيول واطلاق النار عليهم ثم حولت الخيالة الى بنى حلبة . ولم نشفق على أحد
في هذا القتال لان رجالنا كانوا مصرين على الانتقام للشيخ عفيفي الذي قتل قريباً
من هذا المكان

وبعد ساعات قليلة تم تشتيت العدو فعدنا الى الزرية . ونحن في طريقنا وجدنا
جثة بشارى بك فطلب منى الضباط أن يقطعوا رأسه لكي يرسلوه الى داره ولكني
احتراما لابن أخته الذي طلب الصلح بالامس كففتهم عن هذا العمل وأعطيته الجثة
في كفن من القماش وحضرت انا بنفسى حفلة دفن هذا الصديق القديم الذي صار
عدونا على الرغم منه واشتحي الموت فوجدته

وفي هذا القتال قتل منا رجلان وجرح عدد آخر وكان بين هؤلاء سلامة الذي
حمل خطابي وأنا في أم ورقه الى داره وكان على الدوام في مقدمة المغيرين

ثم عدنا الى جورو . وكنت قد أصبت بدودة غينيا في كلتا ساقى فلم أكن
أستطيع البقاء على السرج لشدة ما كان بي من الألم . ولم تكن ثم فائدة من البقاء
بعد أن سمعنا بنى حلبة فعدنا الى داره

الفصل الثامن

حملة هكس باشا

بعد أن سقطت الأبيض في يد المهدي أخذ يلتفت الى زيادة قوته . وكان
أنصاره على ضفتي النيل يوافونه بكل ما يجد من الاخبار فكان يعرف أن عبد القادر
قد طلب امداداً من القاهرة . وكان يعرف أن هذه الامداد قد وصلت وان الحكومة
عازمة على استرجاع المديرية التي خرجت من يدها . وكان هذا هو سبب
الحاجة في الدعوة الى الجهاد وكان يذكر أتباعه بأن الحرب توشك أن تشب وانهم
منصورون فيها

وكان جيجار باشا قد نجح في دويم في نوفمبر سنة ١٨٨٢ كما نجح أيضاً عبد القادر
باشا في معنق في يناير سنة ١٨٨٣ وأحرز كلاهما النصر . ولكن المهدي لم يكن
يبالي بهذه الهزائم وانما كان همه منصرفاً الى تلك التجريدة التي كانت تهيئها الحكومة
في الخرطوم بقيادة ضباط اوربيين لكي ترسل الى كردوفان . ولذلك سارع الى نشر
المنشورات يدعو فيها القبائل الى ترك بلادهم والاضمام اليه . وعند ما كانت تجتمع
هذه الجموع اهدية عنده كان يعظمهم بحماسة ويحضهم على الزهد في هذه الدنيا والاهتمام
بالآخرة وكان يقول : « أنا أخرب الدنيا وأعمر الآخرة »

وكان يعد الانصار والمطيعين له بماذات النعيم التي لا يمكن عقلا ان يصفها وينذر
المخالفين بعقاب الجحيم . وكانت تزداد المنشورات في هذا المعنى في كل مكان
وكان يبعث الامراء يطلب منهم ألا يبقوا احداً في خدمتهم سوي اولئك الذين
يحتاجون اليهم في الزراعة . وأما من كانوا في غنى عنهم فعليهم ان يرسلوهم اليه
لينضوا الى لوائه

و كان الاولاد والنساء والرجال يهرعون الى الايض لكي يروا هذا الولي
ويسمعوا ولو كلمة واحدة من وعظه . وكان الجبهة يرون في وجهه ما يدل على الوحي
وانه الرسول الحق من عند الله

وكان يلبس الجبة والسروالين ويتحزم عليهما بحزام من قش ويضع على رأسه
طاوية يتعمم عليها ثم يقف خاشعاً أمام أنصاره ويحضرهم على حب الله والزهد في
هذه الدنيا . فاذا دخل بيته تغير كل هذا اذ كان يعيش في ترف ونعيم بحيث
تسترقه شهوة الطعام والنساء فينغمس فيهما انغماس سائر السودانيين . وكانت
النساء أو الفتيات اللواتي يؤسرن يحضرن أمامه فيختار أجملهن ويضمنهن الى حريمه .
أما اللواتي كن يجدن الطهي فكن يرسلن الى مطبخه

وبعد سقوط الايض أخذ يفكر في تعيين الخليفة الرابع وقر رأيه على أن يعين
محمد السنوسي وهو أكبر شيخ ديني في شمالي أفريقيا لهذا المنصب . فأرسل طاهر
واد اسحق برسالة الى السنوسي لهذا الغرض . ولكن السنوسي نظر بازدراء الى
الرسول ولم يكلف نفسه مشقة الاجابة

وشرع المهدي في تنظيم حكومته . وكانت ادارته غاية في البساطة . فأسس
أولاً بيت المال ووضع في رياسته صديقه الامين احمد واد سليمان وكان يجبي الى
بيت المال هذا جميع العشور والفقرة والزكاة المأخوذة على جميع الغنائم أو الاملاك
التي استصفيت من أصحابها والغرامات التي تفرض في السرقات وشرب الخمر
والتدخين . ولم يكن هناك نظام لارادات الحكومة ومصرفاتها . ولذلك كان احمد
واد سليمان حراً في الاعطاء والمنع لمن يشاء

وكان القضاء في يد القاضي الذي أطلق عليه المهدي اسم « قاضي الاسلام »
وكان له مساعدون . وكان أول من حصل على هذا المركز احمد واد على الذي كان
قاضياً تحت إدارتي في شقة وكان بعد الثورة في مقدمة المغيرين على الايض . وكان
المهدي وخلفاؤه يحفظون لانفسهم حق معاقبة أي مجرم وخاصة ذلك الذي يشك
في مهدوية المهدي . وكان الموت عقاب المجرم في هذه الحالة . ولما كانت هذه
العقوبات تخالف الشريعة فان المهدي منع درس الفقه وأمر بتحريق جميع هذه

الكتب ولم يكن يسمح بقراءة شيء غير القرآن . ولكنه مع ذلك لم يكن يأذن لاحد بشرحه علنا

وكانت المواصلات بين المهدي وسكان الجزيرة الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أنصاره المحاصرين لا تنقطع . وعرف منهم أخباراً عن سفر عبد القادر الى كاوه وسنار ومعه قوة كبيرة وكانت هذه المدينة قد حاصرها احمد الكاشف ولكن عبد القادر باشا هزمه في مشرع الوادي ورفع الحصار . وطارد صالح بك الثاثرين حتى جبل سخيدى والجأهم الى صحراء بين هذا الجبل وبين كاره ولم يكن بهاماً . فمات كثير منهم بالعطش . وهذا المكان لا يزال يدعى عند السودانيين « تبكي وتسقط » لذكرى الذين ماتوا عطشاً فيه

ولكن هذه الهزائم لم تضعف حب الجمهور للمهدي . وليس شك في أنها كانت تخفف عبء الموظفين وقنياً وإيكينها لم تكن تمنع مجيء اليوم المتوقع من الجميع . ولو كانت نصائح عبد القادر باشا قد سمعت لتغير حال السودان . فقد كان لا يوافق على ارسال تجريدة كبرى لتخليص كردوفان ولكنه كان ينصح بتوزيع الامداد التي تأتي من القاهرة على مراكز على النيل بحيث تكون هناك حاميات ثم يترك الثوار وشأنهم مؤقتاً . وكان عنده ما يكفي لقمع الثورة في الجزيرة بين النيلين الابيض والازرق وايضا لمنع تقدم المهديين من الغرب

ولو اتبعت هذه النصائح لكان الأرجح ان سوء ادارة المهدي تؤدي الى الخل والشقاق فيمكن الحكومة استرجاع ما فقدته بعد مدة قليلة . ولم يكن في مقدوري الاحتفاظ بدارفور اكثر مما احتفظت به وحتى لو فرضنا انه وقع في يد المهدي لكان هذا أيسر الشرين . ولكن ولاية الامور في القاهرة لم يكونوا من رأى عبد القادر باشا وكانوا يرون انه يجب ان تعاد للحكومة كرامتها وسلطانها مهما كلفها ذلك ودبروا لذلك تجريدة يقودها هكس باشا الانجليزى ومعه ضباط اوربيون فاستدعى عبد القادر باشا الى القاهرة وقام مقامه علاء الدين باشا الحاكم العام للسودان الشرقى سابقا . وعرف المهدي كل ذلك واستفاد منه

وفي هذه الاثناء وصل زوجال الى الابيض حيث احتفل باستقباله فأطلق مائة مدفع تكريماً له وأشيع في كل مكان ان دارفور قد سلمت نفسها للمهدي الظافر . واعتبر ايضاً رجوع زوجال الى دارفور ضماناً قوياً على دخول دارفور في طاعة المهدي وانها لذلك ليست في حاجة الى ارسال قوة من الجيش ووجه المهدي الآن كل عنايته الى درس الحالة في النيل

وبعد وصول هكس باشا قام في الحال الى كاوه وهزم الثائرين في مراية في ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٢ وقتل احمد المكشف

وكان عثمان دجنة أحد النخاسين في سواكن قد بعثه المهدي لكي ينشر الدعوة الى الجهاد في بلاد مختلفة وقد اثبت المهدي بعد نظره في اختيار هذا الرجل الذي ذاع اسمه بعد ذلك وكان يقدرانه اذا ثار السودان الشرقي فان الحكومة ترتبك وتؤخر تجريدة كردوفان أو لا ترسلها مطلقاً

ولست أدخل في تفاصيل الوقائع التي دارت بين هذا الامير الجسور وبين الحكومة فانها معروفة مشهورة ولا تحتاج الا للإشارة اليها هنا فقط . ويكفي ان أقول ان المهديين نجحوا في شرقي السودان ولكن نجاحهم لم يؤثر في الحكومة كما رغب المهدي بل بقيت على عزمها من تهية التجريدة لكردوفان وفي أوائل سبتمبر سنة ١٨٨٣ غادر هكس باشا الخرطوم الى الدويم علي النيل الابيض حيث انضم اليه علاء الدين باشا الذي طلب اليه ان يصحب التجريدة

واني لا أشك في أن ولاية الامور في القاهرة كانوا يجهلون الحالة في كردوفان اذ كانوا يتصورون ان ارسال مثل هذه التجريدة لكردوفان يقضي على المهدي الذي صار الآن الحاكم المطلق في المديرية الغربية وليس فيها احد سوى انصاره . فهل نسوا ان المهدي أباد القوى التي كان يقودها راشد وشلالى ولطفي وان باره والابيض وغيرها من البلاد قد خضعت له وانه أصبح يملك من البنادق اكثر مما يملكه هكس في تجريدته ؟

وهل غاب عنهم ان هذه البنادق قد صارت الى ايدي رجال ماهرين يعرفون كيفية استعمالها . وان من هؤلاء الرجال من كان يستخدم البازنجر ويصيد الفيلة والنعام

وانه قد تألفت تحت ايديهم فرق حربية ماهرة ؟ ثم ألم ينضو إلى راية المهدي آلاف من الجنود النظاميين وغير النظاميين الذين كانوا في خدمة الحكومة قبلاً؟ وهل خطر لهم ان هؤلاء الرجال كانوا ينوون ترك الانضمام الى هكس باشا عند رؤيته جيشه؟ لقد جهلت الحكومة في القاهرة كل ذلك وخاطرت بحياة الالوف لجهلها هذا . واظن انه كان بين اعضاء الحكومة من كان يعرف السودان ويعرف المثل القاتل : «الى يياخذ امي هو ابويا » والمهدي قد استولى على البلاد ويمكن ان تقول مجازاً انه تزوجها . لذلك نظر اليه السكان كما ينظرون الى مولاهم وحاكهم ولم يكونوا يبالون وقتئذ بمآناله من رعاية في الحكم السابق . ولا انكر ان هناك شواذ ولكن ملاحظاتي هنا تنطبق على الكثرة

وكانت تجريدة هكس مؤلفة من عشرة آلاف رجل تسير في هيئة مربع في وسطه ستة آلاف رجل وكان سيرها في اعشاب ونبات يزيد طولها عن قامة الانسان فلم يكن في مقدور الجنود ان يروا الى ابعد من مائتي ياردة الى ثلاثمائة وذلك في الجهات المزروعة المكشوفة حيث يقطن بعض الناس ويكشفون بعض الارض للزراعة وكان عليهم ان يكونوا مستعدين على الدوام للملاقاة عدوا اكثر منهم عدداً وعدة وتجربة بالحروب وقد اشتهر رجاله بالفوز والشجاعة والاندفاع ولم يكن في طريقهم سوى آبار قليلة وان كان بها مستنقعات عديدة

ولو انهم كانوا اخذوا الطريق الشمالى ، طريق جبروه وباره لوجدوا الارض مكشوفة امامهم والماء وفيرا في عدة اماكن . وهذا الماء اذا لم يكن يكنى الجيش فانه باستعمال الوسائل الحديثة في الاستقاء واستنباط الماء كان يكفي . وفي هذه الحالة كان يمكن الاستعانة بقبائل الكبايشى في مقاتلة المهدي وكان يمكن عندئذ الاستغناء عن عدد كبير من الرجال والحيوانات التي استعملت في النقل

وكانت الجمال في وسط الجيش تؤاف غابة كثيفة من الاعناق والرؤوس . وكان من المستحيل ان يطلق العدو عيارا واحدا دون ان يصيب أحد هذه الجمال فانه اذا اخطأ احدا من الامام لم يخطئ . الاصابة في الوسط او المؤخرة وكان يمكن ترك هذه الجمال مع الحرس في دويم او في الشط ثم ارسال فصائل

من الجيش لاعداد الطريق في الشمال او الغرب او الجنوب وانشاء مراكز حربية في البلاد التي تخضع . وبدهى ان هذا العمل كان يحتاج الى عام ولم يكن في ذلك من بأس اذ لم يكن ثم داع للعجلة . ثم يجب ان نذكر ان الخلاف بين هكس والضباط الاوروبيين كان عظيماً كما كان هناك ايضاً خلاف بين علاء الدين باشا وبين الضباط المصريين

ثم كان هذا الجيش مؤلفاً في الاغلب من جيش عرابي المنحل الذي انهزم امام الانجليز ولا شك في ان الجنرال هكس كان يعرف هذه الاشياء وقد سئل مرة في الدويم عن الموقف فقال : « انا مثل المسيح بين اليهود » ومع ذلك سار في طريقه وربما كان يعتقد انه اذا رفض السير فان شرفه يجرح

واخذت هذه الكتلة المؤلفة من البشر والحيوان تسير سيراً بطيئاً وكان السكان الذين يقطنون في طريق الجيش قد فروا . وكان العرب يظهرون فجأة ثم يختفون من وقت لآخر . وكان هكس ينظر خلال نظارته في إحدى المرات فرأى فرساناً مختبئين بين الاشجار فأمر بالوقوف وانفذ قسماً من الخيالة لكي يتقدم . وبعد دقائق عاد الخيالة وهم في ارتباك شديد بعد أن فقدوا عدداً من رجالهم وجرح عدد آخر ورووا انهم رأوا قوة كبيرة . فأنفذ هكس الجنرال فاركار ومعهم نصف اورطة لكي يذهب الى مكان المناوشة ويعاين الحالة هناك . فعاد وقال انه رأى ستة مقتولين وقد جردوا من كل شيء . ولكنه لم ير احداً من العدو وكان هناك آثار عشرة من حوافر الخيل فكان قسم الخيالة قد انهزم امام هؤلاء العشرة

وفي اليوم التالي ظهر ثلاثة من الفرسان فهجم عليهم فاركار وليس معه سوى خادمه فقتل اثنين وقاد الثالث أسيراً . وقد أخبرني عن هاتين الحادثتين بعض من بقي من التجريدة وكانوا يصفون سير الجيش وهو في هيئة المربع كأنه سلحفاة تزحف . ولم يكن من الممكن وهو في هيئة هذه ان تسرح الجمال للرعي فلم تأكل هذه الجمال سوى ما وجدته وهي محصورة في هذا المربع وكان ما وجدته قليلاً فكان ينفق منها كل يوم مئات . وكانت تأكل بطانة الرحال المحشوة بالتبن . ولما خلت الرحال من

التبن لصق الخشب بلحمها فأذاها أذى كبيرا ومع ذلك كانت هذه الجمال تجر سيقانها وتسير حاملة أثقالها وأثقال من يقع من اخواتها

ولاشك في ان فاركار والبارون شكيندورف والماجور هيرلت وغيرهم من الضباط الاوروبيين وبعض كبار الضباط المصريين كانوا يجهدون جهدهم لكي يساعدوا هكس باشا في هذه الظروف الحرجة ولكن معظم الجيش كان يجهل تماما الاخطار الموشكة ان تقع به . وكان فيزتلى المسكين يرسم صورته وكان دونوفان يكتب مذكراته ولكن ابن ذلك الذي يمكنه ارسالها الى بلادها ؟

وما هو ان عرف المهدي ان الجيش قد شرع في السير حتى اذاع المنشورات بين القبائل يدعوهم فيها الى الجهاد ويعد فيها المطيع بالمكافأة والعاصي بالعقاب . وغادر هو الابيض وضرب خيمته تحت شجرة كبيرة ينتظر قدوم الجيش المصري واقتدى به خلفاؤه وأمرأؤه فتكون من ذلك معسكر ضخم . وكانت جيوش المهدي تعرض كل يوم وتقرع الطبول وتطلق المدافع وتدريب الجنود والخيول وكلهم يستعد للمعركة الكبرى . وكان المهدي قد أرسل الامراء الحاج محمد ابو جوجه وعمر واد الياس باشا وعبد الحليم مسعد الى الدويم لكي يراقبوا تقدم الجيش ويقطعوا مواصلاته ولكنهم أمروا بالا يهاجموا الجيش بالذات . وقد علموا قبل سفرهم مقدار القوة المصرية ورجوا المهدي في ان يسمح لهم بمهاجمتها ولكنه رفض .

وقبل ان تصل القوة الى رهاد رأى جوستاف كلوتز (وهو صف ضابط الماني وكان قبلا خادما للبارون سكندروف ثم صار خادما عند مستر اودنقان) ان المهدي سيقضي عليها اذا التقى بها ففر من الجيش بنية أن يذهب الى المهدي لكي ينضم اليه . وكان يجهل البلاد فاخذ يجرى في صباح اليوم التالي وعثر عليه المهديون وكانوا يوشكون أن يقتلوه ولكنه صار يجاهد بالقليل الذي يعرفه من العربية لكي يفهم انه يرغب في مقابلة المهدي فارسل مع الحرس الى الابيض . وكان لابسا ملابس الخدم ومع ذلك توافد عليه الناس زرافات لكي يروا هذا الانجليزي الذي جاء للمهدي يرجوه في طلب الصلح . ولما أحضر الى المهدي صار هذا يسأله عن التجربة أمام الاوروبيين الحاضرين . ولم يتردد جوستاف في وصف الجيش أسوأ وصف وان صفوفه خلوا من

الشجاعة والوفاق . وارتاح المهدي الى هذه الاخبار ولكن جوستاف أخبره أيضا ان الجيش لن يسلم وانه لا بد من معركة يباد فيها عن آخره ودعا المهدي جوستاف الى الاسلام فاجاب وأسلم ثم وكل المهدي به عثمان واد الحاج خالد

ووثق المهدي من الظفر الى حد انه وضع المنشورات العديدة في طريق الجيش يدعو هكس باشا الى التسليم . وبدى ان هكس باشا وضباطه لم يجيبوه ولكن كان لهذه المنشورات بعض التأثير في أولئك الذين كانوا يخافون على حياتهم . واستعمل بعضهم هذه المنشورات لاغراض وبطريقة اغتاز منها المهدي أشد الغيظ وكان بعد ذلك يعاقب الذين نجوا من القتل بأشد العقوبات اذا علم انهم دنسوا هذه المنشورات المهمة بآية طريقة ! !

وقبل أن يرح هكس باشا الدويم كانت الحكومة قد أبلغته انه سينضم اليه ستة آلاف رجل من جبل تاج الله وبضع مئات من عرب الحبانية وكان كل يوم يتشوف لرؤية هذه القوة لكي ينشط بها جنوده الذين خارت قواهم وضعفت آمالهم . ولكن هذه القوة لم تصل اليه بل لم يصل اليه أى خبر عنها

وعند ما غادر هكس رهاد قصد الى علوية في دار غدايات أملا في ان يجد هناك ماء يستقى منه الجيش . وفي ٣ نوفمبر وصل الى كشجيل التي تقع على بعد ٣٠ ميلا في جنوبي الابيض .

وكان المهدي في هذه الاثناء قد حمس جنوده وأخبرهم ان النبي قد أوحى اليه ان عشرين ألفا من الملائكة سيقاتلون الكفار مع جنوده يوم المعركة . وفي اول نوفمبر برح الابيض قاصداً الى بركة فانضمت قواته الى جيش الامراء الذي كان قد أرسله قبلا وأخذ الجميع في مناوشة المصريين والتضييق عليهم وكان العطش والاعياء قد فعلا فيهم فعلهما . وفي ٣ نوفمبر كان ابوانجه والجهادية السود مختبئين في غابة كثيفة فصبوا نارهم على قلب المصريين حتى اضطر الجيش الى الوقوف واقامة زريبة حوله وكانت الدواب والرجال هدفاً ظاهراً لا يخطئه أى رام . فكان في كل لحظة يقع جمل او بغل او انسان قد أعياه السير . واستمر هذا التقتيل ساعات وكل فرد من الجيش يعاني الآلام من العطش ولا يستطيع السير الى أى جهة . ولم يغادر العدو

مكانه حتى الاصيل وبقي بعد ذلك يراقب الجيش كما تراقب القطرة الفار . وكانت خسائر العدو قليلة فلم يقتل منهم سوى أمير او اثنين وكان أحدهما ابن الياس باشا ولا غرابة في قتله فقد نحس وتهور حتى صار على قيد ذراع من الزريبة . وما أشد ما كان يعانيه هكس في هذا الوقت . إذ بدلا من ان يجد رجاله الماء كان العدو يحطرونهم رصاصا ومع ذلك كان الماء قريبا منهم لا يبعد ميلا واحداً . ولكن لم يكن معهم أحد يعرف هذه الجهات وهم لو كانوا يعرفونها لما انتفعوا بهذه المعرفة الآن لفوات الفرصة

وفي الليل زحف ابوانجه ورجاله ثانياً وصبوا النار طول الليل على هذه الكتلة المؤلفة من الناس والدواب . وخارت قوى المصريين فكانوا يندبون حظهم قائلين : « مصر فين ياستي زينب دلوقت وقتك » أما السود فكانوا منبطحين على بطونهم فلا ينالهم رصاص المصريين الذي كان يذهب في الهواء فوقهم وكانوا يردون على المصريين بقولهم : « دى المهدي المنتظر »

وفي صباح اليوم التالي تقدم هكس وقد خلف وراءه اكواما من القتلى وبعض المدافع التي قتل رجالها . ولكنه قبل ان يقطع ميلا هجم عليه نحو مائة الف من المتحمسين المتوحشين الذين خرخوا الجيش ودخلوا الى القلب وحدثت عندئذ مقتلة هائلة . ولم يحاول الثبات للعدو سوى بعض الضباط الاوربيين والخيالة الاتراك ولكنهم هوجموا من كل جانب فقتلوا تقريبا عن آخرهم . ثم قطع رأس البارون سكندورف ورأس الجنرال هكس وحملوا الى المهدي فطلب في الحال كلونز الذي صار اسمه الآن مصطفى وطلب اليه ان يعرفه صاحبي هذين الرأسين ولكن المهدي لم يكن في حاجة الى التعريف فان كل أحد قد عرف انهما قتلا وبعد هذا النصر المبين عاد المهدي وخلفاؤه الى بركة وقد أسكرهم هذا الفوز

وكان في ميدان القتال عدد كبير من الامراء واتباعهم قد تخلفوا لجمع الغنائم وارسلها الى بيت المال . وقد جردت الآلاف من القتلى من جميع ملابسهم . وأرسلت الي بعد ذلك بمدة مذكرات فاركار وأيضا مذكرات أودنغان فقرأت كل ما كتباه وما أعظم مقدار ما قاسيته من الحزن من هذه القراءة . فقد كتب كلاهما

شيئا كثيراً عن الخلاف والشقاق في الجيش وعن الشجار بين الجنرال هكس وبين علاء الدين باشا . وقد حمل فاركار على رئيسه حملة قاسية لا غلاطه الحرية . فقد أحس كلاهما بالنكبة قبل وقوعها ولذلك كان فاركار يلوم رئيسه لأنه مع معرفته بالحالة المعنوية السيئة للجيش خرج به للقتال . ولم يحصل الضباط الاوروبيون على أية معونة ولكن يظهر ان أحد الضباط المصريين المدعو عباس بك عاونهم بعض المعاونة . واذ كراني قرأت العبارة التالية بقلم فاركار « سألت أودنفان اليوم عن المكان الذي سنكون به بعد ثمانية أيام فأجابني بقوله : في العالم الآخر » .

وكانت مذكرات أودنفان مكتوبة بهذه اللهجة أيضاً . وكان قلقا بشأن فرار كلونز وذكر هذا الفرار كمثل على شعور سائر الجنود واذ كر قوله : « كيف تكون حالة جيش اذا كان خادم أوربي يهجره وينضم الى العدو » ويقول في مكان آخر : « ها، نذا أكتب مذكراتي وتقاريرى ولكن من هو ذاك الذي سيحملها الى وطنى » وبعد خمسة عشر يوماً عاد المهدي الى الايض ومعه الغنائم التي أودعها بيت المال . وكانت هذه الغنائم تحتوي مبلغا كبيرا من النقود غير المدافع والبنادق ومع ذلك قد نهب العرب شيئا كبيرا من هذه الغنائم على الرغم من العقوبات الوحشية التي كان يعاقبهم بها احمد واد سليمان . وقد كان من المألوف أن تقطع يد السارق اليمنى وساقه اليسرى . أما الذنوج المسكرة فقد سرقوا كمية وفرة من الذخائر خبأوها في الغابات وفي معسكرهم وأفادتهم بعد ذلك فوائد عظيمة

وكان دخول المهدي الى الايض دخول الظافر الذي يستقبل بضروب الحفاوة الوحشية . فقد كان الناس يترامون أمامه ويكادون يعبدونه . وليس شك في أن انتصاره في شيكان قد جعل السودان باجمعه طوع أمره . فكان الاهالى من النيل الى البحر الاحمر ومن وادى الى كردوفان ينظرون الى هذا الولي ويترقبون حركاته . وكان اولئك الذين آمنوا قبلا بهدايته يستمسكون بأيامهم وينشرون نفوذهم أكثر من ذي قبل . أما اولئك الذين استرابوا أولا في دعوته فقد ثابوا الى اليقين بعد هذه الانتصارات العظيمة المتوالية . واولئك الذين كانوا يعرفون في قلوبهم ان

هذه المدينة غش ومكر رأوا انه يجب عليهم أن ينضموا الى المهدي مادامت الحكومة غير قادرة على تثبيت سلطتها حتى في مديريات النيل وقد عرف في هذا الوقت عدد كبير من الاوروبيين وبعض المصريين المقيمين في المدن خطورة الموقف ولم يتوانوا في الخروج من القطر السودانى أو على الاقل في ارسال ما ينخشون عليه من أمتعتهم ومنقولاتهم الى الشمال وقد أيقنوا انه لا بقاء لهم بعد الآن في السودان الذى بسط عليه المهدي نفوذه

الفصل التاسع

سقوط دارفور

في ذلك الوقت كنت قد شفيت من مرضي (الدودة السودانية) وشعرت بانى أقوى على الخروج في تجريدة أخرى . ولكن عدد أتباعي الخاصين كان قد نقص نقصاً سيئاً وأيضاً قلت ذخيرتنا . وكان سيد بك جمعه يرسل إلى بانه غير قادر على ان يسعفتى بما أطلب من الذخائر واحتج في ذلك بان عرب الزيدية والمهرية قد بدا منهم شيء من العصيان حتى أنهم استولوا على مواشى بعض الناس المقيمين في جوار الفاشر وعند ما طلب منهم ردها رفضوا .

وكانت كل آمالى معلقة الآن بنجاح جيش هكس باشا . وكان من حسن حظى انى كنت أجهل الطريق الذى انخذه كما كنت أجهل ايضاً الحالة المعنوية السيئة التى كان فيها الجيش . وكان قد مضى على الآن نحو عام لم أتسلم فيه أية رسالة من الخرطوم وكنت قد لجأت الى الحيلة لكي أحتفظ بحماسة رجالنا فادعيت بانه جاءتنى أخبار عن انتصارات الحكومة . وقد أذعت هذه الاخبار فى شكل رسائل ملفقة قرئت علناً على الجيش وقوبلت باطلاق المدافع وهتاف الجنود . والحقيقة انى انا الذى لفقت هذه الاخبار . ومن الحق أن أقول انى تسلمت فى هذا الوقت رسالة صغيرة من علاء الدين باشا يقول فيها ان الخديو قد عيننى قائداً عاماً لجيوش دارفور وأن الحكومة قد عازمت على ارسال قوة لمعاينة الثائرين . وأرسلت نسخاً عديدة من هذه

الرسالة الى الفاشر وكبكيه وأمرت باذاعتها بين الجمهور واطلاق النار عند قراءتها . واحتفلت بمقدم حامل هذه الرسالة احتفالا كبيرا وأثقلته بالهدايا . وأعلن امامنا انه عند ما غادر الخرطوم كانت الحكومة تهيب . التجريدة التي قال عنها انها لا بد منصوره وكان الواقفون على الحالة مترددين في تصديق هذه الاقوال ولكنهم سرورا مع ذلك لهذه الاخبار

وبعد أيام قليلة عاد اليّ خالد واد امام الذي كنت أرسلته الى كردوفان ليأتيني بصحيح الاخبار وأفضى برسالة شفوية من زو جال يقول فيها ان الحكومة تهيب . تجريدة لمقاتلة المهدي . ولكن بعد أيام قبض على رجل قريبا من شقه ومعه خطاب من خالد للمادبو يطلب منه أن يستعد للقائه قريبا لكي يساعده في انمام مشروع . فلم يبق عندي شك في أن خالدا قد انضم الى زو جال وصار خادمه المخلص وللحال أمرت بالقبض على خالد واحضاره اليّ فاعترف بان زو جال قد أمره بان يأخذ زوجته الى مكان مأمون خارج عن منطقتي وان يحضر زوجتين منهن اليه في كردوفان وهذا هو سبب كتابته تلك الرسالة للمادبو

فأمرت بالقبض على أسرة زو جال وتقييد خالد ثم استصفيت أملاكهما وضممتها الى بيت المال واقمت حراساً على أملاك المقبوض عليهم الآخرين وصارت الصعوبات تتكاثر علىّ يوماً بعد يوم بل ساعة بعد ساعة . ولم أكن لأبالي كثيراً بخيانة زو جال فقد كنت دائم التوجس منه قليلا ولكنني قلقاً شديداً للاخبار السيئة التي جاءتني عن تجريدة هكس

وكان وقتي مقسما بين ذهابي وإيابي من القتال في قمع الفتن التي أخذت في الانتشار بسرعة مدهشة . ففي احد الايام أخرج لمنازلة المادبو وبعد يوم أخرج لقمع فتنة قام بها رئيس آخر ثم جاءتني في احد الايام اخبار هزيمة دارهو أمام الميا . فاقترحت على الضباط أخلاء داره وحصر قوانا للدفاع عن الفاشر ولكنهم رفضوا أضف الى كل هذا ذلك الخلاف الذي فشا بين أولئك الذين كنت أحسبهم من أخلص المخلصين لي . فان حسن واد سعد النور الذي حصلت له على العفو في الخرطوم كما يذكّر القارىء ، والذي ضمننت ولاءه للحكومة وأذنت له بالاقامة في داره

والذى أعطيته منزلاً بجانب القلعة وحين مات جواده أعطيته جواداً آخر والذى استخلصته لجلب الاخبار واثقا من ولائه وطاعته قد خاتى وتناسى كل هذه المروءات والافضال التى تكرمت بها عليه وركب الجواد الذى أعطيته له وذهب الى المهدي فصار من أخلص أتباعه

وكانت المواصلات بينى وبين الخرطوم قد انقطعت منذ مدة بعيدة فان المهديين كانوا يقظين وكانوا يقبضون على أى انسان أرسله بخطاب الى الخرطوم . وتمكنت فى إحدى المرات وأنا أقاتل بنى حلبة من ارسال خطاب للقاهرة بواسطة قافلة كانت سائرة الى أسبوط فى طريق الاربعين .

ولكن طرق تخبئة الرسائل التى اتبعناها الى الآن كانت قد عرفت فلم يعد فى الامكان استعمالها . ومن هذه الطرق وضع الرسالة بين نعل الى الحذاء او بين أديمي المزادة أو فى قصبة الرح

وكنت فى أحد الايام أنظر فى شئون القلعة فرأيت الجنود يعالجون حماراً به عرج فى ساقه الامامية . فألقيوه على الارض ثم فتحوا فى جلده على الكتف فتحة أدخلوا فيها خشبة صغيرة ثم حرزوه تمخيزات وذروا النطرون على الجروح وأخرجوا الخشبة . فخطر فى بالى أن أرسل رسالة تحت جلد حمار بهذه الطريقة الى الخرطوم وانتخبتم حماراً طيب الجرم ثم أدخلته منزلى حيث لا يرانا أحد وكررت هذه العملية ووضعت فى الفتحة التى فتحتها مذكرة صغيرة لفتتها فى مثانة جدي ولم يكن حجم هذه الرسالة يزيد عن طابع بريد ثم خطت الجرح بنخيط من الحرير ونهض الحمار بعد ذلك كأن لم يكن به شيء . وأخبرني الرجل الذى ندمته لارسال هذه الرسالة بأنه سلمها لعلاء الدين باشا فى الشط قبل ان تقوم التجريدة يوم أو يومين الى الابيض . وانه أخبر الرسول بان الرد غير ضرورى وانه سيصحبه الى الابيض حيث يرسله من هناك الى بخطاب

وكانت حالتنا من حيث المدخر من الذخائر سيئة جداً فان مجموع ما كان لدينا من الخراطيش لم يكن يزيد عن ١٢ علبة لكل بندقية فاذا غامرنا بقتال فان نصف هذه الكمية يذهب فى أول معركة . ولم يكن هناك أمل بالاسعاف فأخذت أفكر فى

أحسن طريقة للثبات بدون ان نفقد ذخيرتنا القليلة . واضطرت لذلك الى ان الجأ الى الحيلة كسباً للوقت

فوسطت بعض العرب المواليين لنا لكي يفاوضوا الثائرين ويقولوا لهم اننا مستعدون للتسليم ولكن لا يمكننا ان نسلم لهم إذ لا ثقة لنا فيهم بعد قتالنا المتواصل مدة طويلة ولذلك إذا أرسل المهدي رسوله فأننا نسلم له البلدة وحكومة المديرية

وكنيت في هذا الانتظار أنسقط الاخبار عن حملة هكس وأحسب المدة التي يجب ان تصل في نهايتها الى الايض حيث يقاتل الفريقان وتقع الواقعة الحاسمة . وكنيت أختلف الى السوق وأتحادث مع الاهالى عن الاحوال وكان كل أحد يعرف ان جيشاً عظيماً قد أنفذ الى الايض ولكن لم يكن أحد على يقين من النتيجة

وأخيراً حوالى آخر نوفمبر شاعت الاشاعات عن هزيمة الجيش وكان على هذه الاشاعات مسحة الصدق ولكننا مع ذلك تعلقنا بالشك ولكن بعد يوم او يومين جاءنا الخبر الا كيد بان الجيش المصرى قد اصطم . فانسدل علينا الغم جميعاً لهذا الخبر . وهكذا قضى علينا بعد هذه الشدائد والخطوب ان تقع في يد العدو وقد سدت دوننا أبواب النجاة . ولكن هل بقى بصيص من أمل بان الاخبار قد بولغ في رواياتها ؟

لقد كان عندنا هذا البصيص ولكنه انطفأ فجأة إذ علمنا ان زوجال قد وصل الى أم شنجه وان المهدي قد عينه « مدير عموم الغرب »

وفي ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨٣ جاءني الرسول الذي كنت أرسلته الى المهدي وكان لابساً جبة فروى لي خبر الهزيمة المنكرة التي نالت الجيش وناولني خطاباً من زوجال يطلب مني فيه التسليم ويخبرني عن هزيمة المصريين ولكي يثبت لي هذه الهزيمة أرسل اليّ بعض تقارير الضباط ومذكرات فاركار وأيضاً مذكرات أودنفان وفي المساء جاءني فرج افندي وعلى افندي الطوبجى ضابط المدفعية وأخبراني بان الضباط قد قرروا التسليم للمهدي لا لزوجال بك . وقد أوضحوا الاسباب التي ألجأتهم الى هذا القرار فان كل واحد منهم قد اقتنع تمام الاقتناع بانه لا سبيل الآن للحكومة ان تنقذهم وان الجيش في داره لا يزيد عن خمسمائة وعشرة رجال ومنهم

عدد كبير لا يصلح للقتال . وان الحالة المعنوية للجيش منحطة ولا أمل في الحصول على أى انتصار وان الذخائر لا تكفى معركة واحدة سواء كنا مدافعين او مهاجمين . وقالوا لي أيضاً انه لا يمكننى ان أسوم الجيش على القتال لان الجميع قد عزموا على التسليم . فأخبرتهما بأنى سأفكر فى هذا الموضوع وأخبرهما فى صباح اليوم التالى عن رأيي الاخير

وفى تلك الليلة لم تغمض عيناي . فجعلت أتحسر وأندب هذا الحظ الذى يقضى علينا بعد معاناة الشدائد والاهوال بان نسلم ونخضع . ثم بعد الخضوع ماذا خبأه القدر لنا ؟

وعرضت الحالة من البداية الى النهاية وأنا فى هذا السهاد . لقد مضى على أربع سنوات وأنا أجاهد لتثبيت الحكومة ومقاومة الفتن الداخلية التى قمعتها ثم مقاومة حركة المهدي التى دخلت الى أصول الادارة وفشت فيها كالسوس وأخذت تتأكلها وتسرى فيها من الغصون الى الاوراق حتى ذبلت وجفت

والخلاصة ان هذه الدعوة المهدية قد تغلغلت الى قلوب الضباط والجنود فقد كانوا قبلاً ينصبون لها العدا . ويكافحونها لانى كنت ألوح امامهم بقوة الحكومة وعودة سلطتها بنجاح حملة عكس وبالفوائد التى تعود عليهم اذا ثبتوا على الولاء . الى حين يهزم الجيش المهدي . وكنت أجهد جهدي لكي أثبت للجنود والضباط ضرورة فوز الحكومة فى النهاية ولكن جاءت هذه الهزيمة المنكرة فانقطع كل أمل . وقد كلفت الدسائس من الداخل والخارج . والقارىء يعرف مبلغ النجاح الذى نجحته فى ذلك . وكان يمكننى بواسطة الكمية القليلة من الذخائر التى لدى ان أقاتل بضع ساعات ولكن هل كان من المتيسر ان يخضع لي الضباط والجنود فى مثل هذا القتال ؟ فقد ذهبت رغبتهم فى القتال ولم يعد لى حق فى أن أجبرهم على ان يضحوا بأنفسهم فى قضية لم يعودوا يبالون بكسبها

وبعد ان عرضت الموقف من جميع جوانبه تبين لى ان التسليم ليس فقط أسلم السبل بل هو السبيل الذى لا مفر منه . وبعد ان قررت فى ذهني هذا القرار عدت الى الوجه الشخصى للمسألة . فاني باعتبارى ضابطاً كنت أمقت هذا التسليم . ولم

أكن أخشى شيئاً أو أخاف على حياتي . وكنت واثقاً بأنني إذا سئلت عن مسلكي في المستقبل يمكنني أن أبرر كل ما عملته .

ولكن لفظة التسليم نفسها كانت كريهة وكان يكرهها أكثر في نظري إني أود بي مسيحي وإني سأكون بين آلاف من السودانيين كل منهم ينظر إلى كائني دونه في المقام . صحيح إني أسلمت وتركت ديني ولكنني لم أفعل ذلك إلا لكي أهدى .
ثائرة الضباط والجنود عليّ وقد نجحت في غايتي أكثر مما توقعت ولكن هذا العمل لم يكن وفق مزاجي . ولم أكن أدعي فهم الآراء الدينية بدقة تخولني الحكم على صلاح عملي أو فسادها ولكنني كنت في قرارة قلبي مسيحياً مثل جميع المسيحيين الذين أعرفهم . وعلى ذلك لم أكن أستمر في الظهور بمظهر ادعاء الاسلام . دع عنك إني كنت أعرف ان تسليمي سيضعني في يد هذا المصلح الديني السخيف (المهدي) وإني سأضطر لذلك إلا اظهر فقط بمظهر المسلم العادي بل بمظهر المؤمن بالله - إلهي المتحس لدعوته

فهل يمكن أحداً أن يعتقد إني كنت انظر للمستقبل بعين السرور ؟ ومع ذلك يجب أن أعترف بان هذه الاعتبارات الدينية لم يكن لها في نظري وزن يعادل تلك الاعتبارات الأخرى عن تأدية واجبي . وعلى وجه العموم أقول إني شعرت بأنه قد يحتم عليّ الآن أن أسلم وأن أحقن الدماء التي لن تجدي إراقها شيئاً . ولم يكن هناك سبب يدعوني إلى الخضوع للذل والهوان وما يشبه الرق بعد التسليم . فقد خطر لي ان أتحرر ولكن نفسي ثارت علي هذا الخاطر فقد كنت في شبابي وقد مضى عليّ أربع سنوات كلها تبعات ومجازفات ولم أكن أشتهي أن تختم حياتي وأنا في هذا العمر حتى مع انتظار تلك الأيام السود القادمة وقد منّ الله عليّ برحمته وأبقاني في تلك الحروب المتوالية وهو لا بد يقيني حتى أعود فأخدم تلك الحكومة التي حاولت ان أخدمها في الماضي بولاء وأمانة

هذه هي الخواطر التي كانت تساورني عندما بدأ شعاع الفجر يقشع الظلام في تلك اللحظات التي لن أنساها في حياتي . وانتهيت بعد التفكير الطويل إلى انه لم يبق لي سوى التسليم وان أرضى بان أكون محكوماً لأولئك الذين كنت أحكمهم وان

أخضع لأولئك الذين كانوا يخضعون لى . ويجب فوق كل هذا وذاك ان اكون صبوراً . واذا مارست هذه الخلائق فى نفسى ورضتها عليها وحققت دمي بها ونلت بعد ذلك حريتى فان هذه التجارب ستفيد بلا شك الحكومة التى أخدمها . ونهضت من فراشى وأنا على هذا العزم ولبست ملابسى الرسمية لآخر مرة اذ استبدلت بها بعد ذلك جبة المهديين التى مثلت فيها دورا جديدا فى حياتى . ومع ذلك فقد كان يحقق تحت الجبة قلب كله ولاء للحكومة وكله عزم على الاستفادة من هذه التجارب اذا اذن الله بالعودة . ورأيت ان المسألة ستتلخص بينى وبين هؤلاء الاسياد الجدد فى أينما يتغلب ذكاؤه على الآخر . ولم أجبن عن هذا الكفاح المنتظر مع انى لم أكن فى حاجة الى الاعتذار والتبرير لو انى جيت اذا اعتبرت السنين الطوال التى قضيتها فى الاسر وفى الحياة المزدوجة التى اضطرت الى الظهور بها

وفى صباح اليوم التالى حضر الى الضابطان فعرضت عليهما خطاب زوجال الذى يطلب فيه منى التسليم وان أقابله فى ٢٣ ديسمبر فى حلة الشعيرية حيث يسلمنى بيده خطاب المهدي الى . ومما كتبه الى زوجال أيضا انه يضمن حياتى وحياة جميع من معى من الرجال والنساء والاولاد

ثم طلبت الكاتب وأملت عليه خطابا لزوجال أعلنت فيه خضوعى وخضوع الحامية واتفقت على مقابلته فى ٢٣ دسمبر عند حلة الشعيرية وسلمت هذا الخطاب لرسول يقوم به لايصاله الى زوجال الذى صار اسمه الآن سيد محمد بن خالد وفى أصيل الغد جمعت الضباط وأخبرتهم بانه لما كانت المقاومة غير مجدية فقد قبلت اقتراحهم عن التسليم . ولكنى سأغادر داره فى هذا المساء لكي أقابل زوجال فى حلة الشعيرية وانى سأأخذ القاضي معى أما الضباط فسأتركهم مع الحامية . ثم شكرتهم بكلمات قليلة كانت شجى فى خلقى لولائهم واستعدادهم للتضحية بانفسهم فى سبيل خدمة الحكومة وطاعتهم لى ثم ودعت كلا منهم باليد واحداً بعد آخر وودعت الموظفين المدنيين جملة وشرعت فى السفر

وكنا فى منتصف الليل حين خرجت مع القواصين من داره . وقد لاقت المشاق فى سفراتى الماضية وأنا بدارفور ولكن هذا السفر كان أشق ما احتملته .

فقد كنا جميعاً غارقين في تأملاتنا المحزنة حتي لم ينطق أحداً بكلمة . وعند الغروب استرخنا قليلاً ووضع الخدم الطعام أمامنا ولكننا لم نمسه اذ لم تكن لنا شهوة للطعام ثم استأنفنا السير ولما اقتربنا من حلة الشعيرية بعثت ياوري لكي يتقدمنا ويرى هل حضر زوجهال أم لا . وعاد الينا في الحال وأخبرنا بأنه هناك ينتظرنا منذ الامس وبعد مدة قليلة بلغنا المكان فوجدناه واقفاً وترجلت وتقدمت اليه لكي أحياه فضمني الى صدره وأكد لي صداقته ورجاني أن أقعد ثم سلمني خطاب المهدي . ولم يكن في هذا الخطاب سوى تعيين زوجهال أي سيد محمد بن خالد حاكماً على الغرب وان المهدي قد عفا عني وأوصي بمعاملتى بالا كرام الذي يليق بمنصبي وان يعامل سائر موظفي الحكومة السابقة باللطف والكرم . وبعد أن انتهيت من قراءة الخطاب قال لي زوجهال ان المهدي انما عفا عني للشهادة الطيبة التي شهدتها في حقى عنده وانه سيقدم لي كل معونة . فشكرت له عطفه . ثم قدم الى الامراء والطيب وحسن نجمي وقد كنت قابلتهم سابقاً . ثم تناولنا الطعام وأخبرني زوجهال انه ينوى السفر الى داره

وبينا كنا نتحدث وصل الينا أحد ضباطى محمد اغا سليمان فلما رأي لم يكثر لي أقل اكرات بل ذهب الى زوجهال وحياء تحية الحفاوة المبالغ فيها . فتذكرت انه كان قد اتهم مع اثنين آخرين بأنه جاسوس زوجهال

وأخذني محمد (زوجهال) وتنحى بي قليلاً وخاطبني في شأن أقاربه وأسرتة . فأخبرته بان الجميع في صحة جيدة وان أقاربه لا يزالون معتقلين . ووافقني على الاجراءات التي اتخذتها وقال انها أفادتنا نحن الاثنين . ثم قمنا وسرنا الى داره وقضينا الليلة في الخيام قريباً منها ووافانا هناك عدد كبير من الاهالى والموظفين وكلهم قد لبسوا ملابس الدراويش وحيوا الوالى الجديد

ولم تغض عيناي في تلك الليلة وكانت ليلة عيد الميلاد فتذكرت اهلى وأعياد الكنائس البهيجة التي يحتفل بها في وطني في ذلك الوقت في حين أجدني هنا وحيداً مهزوماً مضطراً الى تسليم رجالي وذخائري الى العدو . وفي تلك الساعات الهادئة التي كانت أحفل ساعات حياتي حزناً وغماً أخذت أعرض أمام ذهني كل ما جرى

لى فتحقت عندئذ ان اولئك الذين قتلوا فى ميدان الشرف كانوا أحسن
حظاً منى

وفى الغد استقبل زوجهال جميع الذين جاءوا اليه لكي يقدموا اليه طاعتهم وولاءهم
ثم احتل الدراويش القلعة فتم له بذلك احتلال المديرية وتوافد عليه الاهالى لكي
يقسموا له بين الولا. للمهدى وفى النهاية عرض الجيش وأدى هذه المهمة نفسها
واقبت هنا المادبو الذى كان قد لحق به بعد الصمد فى برنجل فشيغنى الى المنزل
وطلبت منه أن يقعد فقال :

« يبدو عليك كأنك مغتاظ منى وكأنك تعتقد انى خنتك ولكن أصغ الى .
لقد فصلنى ميليانى من وظيفتى باعتبارى رئيس المشايخ . فذهبت الى بحر العرب
حيث طلبنى المهدى ولما كنت مؤمناً مسلماً اتبعته فسمعت عظاته وتحقت من قداسة
رسالته وحضرت هزيمة يوسف شلالى وانتصار رجال المهدى عليه انتصاراً مدهشاً
فأمنت بدعوته وما زلت كذلك للآن . وقد وثقت انت بالطبع بقوتك وأيت
أن تسلم بلا قتال . وعلى ذلك تحاربنا ولكنى لم أكن أقاتلك انت شخصياً وإنما
كنت أقاتل الحكومة والله يعلم انى ما نسيت قط انك كنت تنظر الى نظرة الصداقة
فدعك من الغضب وكن أخالى »

فقلت « لم أغضب لما فعلت فانك واحد من آلاف ولو كان فى قلبى غيظ فان
كلماتك قد ازالته »

فقال المادبو « اشكرك وادعو الله أن يقويك وأن يرعاك فى المستقبل كما رعاك
فى الماضى »

فقلت له : « انى اضع ثقى فى الله . ولكنى أجد من المشتقات ان تحمل ماانا
فيه . وان كان لابد من محمله »

فقال : « كلا . كلا . انا عربى ولكن اسمع ما اقوله لك . كن مطيعاً صبوراً .
عليك بالصبر فقد قيل ان الله مع الصابرين »

والآن اخبرك انى جئت اليك لكي اطلب منك شيئاً وهو أن تقبل منى جوادى
عربونا للصداقة بينى وبينك . وأنت تعرفه وهو « صقر الدجاج »

وقبل ان اجد الوقت للاجابة غادرني وبعد دقائق قليلة عاد ومعه جواده وكان من أجمل واكرم خيول القبيلة ثم سلمني رسته . فقلت له « لست اقصد اهانتك برفض هديتك ولكنى اخبرك انه لم تعد لى به حاجة وانى لن اركب كثيرا فى المستقبل فقال : « ومن يدري . الى عمره طويل يشوف كثير . فانت ما زلت شابا وستركب كثيرا ان لم يكن هذا الجواد فجوادا آخر »

قلت . « قد يكون ما تقول هو الصواب ولكن هل تقبل منى أنت ايضا هذه الهدية ؟ »

قلت ذلك واشرت الى طول الحرب اتى كنا غنمناها منه . واخذها خادمي وسلمها له ووضعت على الطبول سيفا آخر قدمته ايضا هدية منى وقلت : « لا تزال هذه الاشياء ملكي اليوم ولذلك يمكننى أن اهديها اليك . اما فى الغد فلا أعرف من يملكها »

فقال : « انى اشكرك وانا اقبلها بكل سرور . لقد غنمها رجالك منا ولكن العرب تقول : الرجال ستراده وراده . وهذا حق . فكم من مرة قاتلت وفررت ولكنى كنت اعود فاكر وانجح »

وامر المادبو رجاله بحمل الطبول وخرج وهو مسرور وقد اتر حديثه فى وتذكرت كلامه عن الصبر وان « الى عمره طويل يشوف كثير »

وفى صباح الغد أمر الحاكم الجديد الاهالى بالخروج من منازلهم ثم قتش هذه المنازل وأرسل ما بها الى بيت المال . وكل من اشتبه فى حيازته ما لا كان يجلد بلا رحمة او تقيد قدماء ويربط الى حائط ورأسه مدلى حتى يغمي عليه . وكنت أنا قش واحاج ولكن خالد لم يكن ليثنيه كلامى

ثم أخذ خدم الموظفين من رجال ونساء وقدموا للمهدين ولكن الفتيات الوسيات احتفظ بهن للمهدى

وبعد سبعة أيام من تسليمنا أخبرني خالد ان سيد بك جمعه قد أرسل كبار الموظفين مع عمر واد دارهو لكي يعرضوا تسليم المدينة ولذلك قر رأيه على ان يسافر بنفسه الى الفاشر ولكنه عند ما اقرب من المدينة كان الاهالى قد سمعوا

بسوء معاملته لاهالى داره قهرروا عدم التسليم واضطر الدراويش لذلك الى حصار المدينة وفتح المحصورون فتوقا عديدة في القوة المحاصرة ولكن الاهالى بعد ١٥ يوما من الحصار سلموا المدينة فدخلها خالد ومثل هناك الفصول المروعة التي مثلها قبلا في داره بشكل اقسى وعذب عدداً كبيراً من الناس تعذيباً وحشياً

وكان بين المعتدين ضابط يدعي حماده افندى وقد طوب بما عنده من المال فأصر على أنه لا يملك شيئاً وكانت احدى امائه قد أخبرت عن وجود مقدار من الفضة والذهب عنده ولكنها لا تعرف مكانهما فاحضر امام خالد الذى قال له انه كلب كافر . فلم يقدر حماده افندى على ضبط نفسه ورد على خالد قائلاً انه دتقلاوى سافل . وهاج خالد لهذه الأهانة وأمر جنوده بجلد حماده افندى حتى يعترف بمكان المال . ومضت ثلاثة أيام وهو يضرب كل يوم الف سوط ولكن بلا أدنى فائدة ولو كان حجراً لما تحمل هذا الضرب كما تحمله . وكان كلما سأله الجلادون عن ماله يجيبهم قائلاً : « أجل عندي أموال ولكنها ستدفن معي »

وأمر خالد بوقف الضرب ثم سلم هذا المسكين لعرب الميما لكي يحرسوه . وقد دهش عرب الميما أنفسهم لجلد هذا الرجل الذى لم يلن عوده أمام هذا التعذيب وخشى ابراهيم نجلادوي الجلد فسمع احد الامراء يدعونه بالعبد قتل في الحال زوجته ثم أخاه ثم انتحر . وانتحر أيضاً أغا فولا مؤثراً الموت على التعذيب . فلما رأى خالد ذلك أمر بوقف الجلد واكتفى بنفى المصريين في أماكن متفرقة قرية من المدينة

وبعد سقوط الفاشر طلبنى خالد لكي الحقه فبلغتها في أوائل فبراير فاعطاني منزل سيد بك جمعة لكي أقيم فيه واذن لى فى طلب خيولى وخدمى من داره . اما أمتعة البيت فيجب تسليمها لبيت المال على سبيل الزهد في الدنيا

فنفذت كل هذه الاوامر وسلمت جميع أثاث المنزل لبيت المال ليد جابر واد الطيب ولم أحتفظ الا بالاشياء الضرورية للحاجات اليومية

وكنت قد سمعت عند وصولى عن شجاعة حماده وجلده فبحثت عنه ووجدته في حالة مروعة . فقد كانت جروحته من كتفيه الى ركبته واسعة متهرئة وكان الموكلون

بتعذيبه يدرون عليها الملح والفلل لكي يستخرجوا منه وهو في هذه الأكلام اعترافاً
بمكان أمواله

ولكن كل هذا التعذيب لم يكن ليحدوه الى الاعتراف . فذهبت وأنا يائس
الى خالد وأخبرته بحالة هذا المسكين ورجوته ان يسمح لي بنقله الى منزلي لكي
أعالجه . فقال خالد لي « انه رجل ما كراخفي أمواله وأهاتي علناً ولهذا يستحق ان
يموت موة شنيعة »

فقلت له « أرجوك بحق الصداقة القديمة ان تعفو عنه وتسلمه لي »
فقال « حسا . أفعل ذلك اذا ركعت أمامي » . والركوع في السودان علامة
الهوان العظيم فشعرت بالدم يصبغ وجهي ولو اني دعيت الى هذا العمل لكي
أنجي حياتي لما قبلت ولكني رضيت بهذه الفضيحة لكي أنجي هذا الرجل التعس
من آلامه المروعة . وترددت لحظة ثم ضبطت نفسي وركعت ووضعت يدي على
قدميه العاريتين فرفعهما وكأنه خجل مما طلب مني وانهضني وقال : « سأعفو عن
حماده لاجلك ولكن عدني بانه اذا أخبرك عن أمواله ان تبلغني »

فوعده بذلك وأرسل معي رجلا الى حماده فتهفت بالخدم وحملناه على عنجريب
ونحن نرفق به كل الرفق الى منزلي ثم غسلنا جروحه ونضجناها بالزبدة لكي تخفف
آلامه ولم يكن من الممكن ان يعيش كثيراً وقدمت له حساء فطفق يلحق أعداءه
بصوت خافت . وبقي في منزلي اربعة أيام ثم طلب مني أن أقعد بجانب فراشه وأشار
الى الخدم بالخروج . ثم همس الى كلمات لا أكاد أسمعها وقال : « لقد حان حيني .
والله يجازيك الجزاء الحسن على ما أسديته الى من رافة وشفقة . ولست أستطيع
مكافأتك ولكني أريد ان أظهر لك اعترافي بجميلك . لقد خبأت اموالي »
فصحت به : « قف هنا . هل تريد أن تخبرني عن مكان أموالك ؟ »

فقال نعم « لعلك تستفيد منها »

فقلت : كلا . لن أستفيد منها . فقد جئت بك هنا على شرط ان أخبر خالد
بالمكان الذي أخفيت فيه أموالك اذا علمت ذلك . وأنت قد تأملت وقاسيت كثيراً

وتوشك ان تفقد حياتك لاصرارك على اخفاء أموالك ومنعها من ان تقع في يد اعدائك . فدعها اذن في الارض حيث هي فستبقى صامته »
و كنت وأنا أتكلم قد اخذ حماده يدي في يده فقال :
« شكر آ لك . الله يغنيك عن اموالى . الله كريم » ثم مد ساقيه وذراعيه ورفع سبابته قليلا وقال :

« لا اله الا الله محمد رسول الله » وأغمض عينيه وأسلم روحه
وتأملت في هذه الجثة الممزقة فامتلاّت عيناي بالدموع ونساءلت : كم بقي لي من السنين أحمل فيها الاكلام حتى أرتاح هذه الراحة الاخيرة . ثم ناديت الخدم وأمرتهم باحضار رجلين صالحين لغسل الجثة وافها في قماش وذهبت انا الى خالد لكي أخبره بموته . فقال لي

« ألم يخبرك عن مكان امواله »

قلت : « كلا . فان الرجل قد تصلب فلم يفش سره » فقال : « لعنة الله عليه . ولكن بما انه مات في بيتك فادفنه وان لم يكن يستحق الدفن وكان اجدر بنا ان نلقيه كالكلب على التل »

فركته وذهبت الى منزلي حيث دفنا حماده امام المنزل بعد الصلاة المعتادة
وكان خالد غاية في الخبث والدهاء يقسو على موظفي الحكومة السابقين ويساهل الاهالى بلا داع . وكان يضع قرابته في الوظائف وكان مع اجتهاده في أخذ أموال الاهالى يتجنب كل ما من شأنه أن يحدث استياء عاما . وكان يحتفظ لنفسه بمعظم الايرادات ويرسل من وقت لآخر هدايا للمهدى والخلفاء وكانت هداياه عدة فتيات وسيات أو بعض خيول عتيقة أو بعض الجمال وذلك لكي يبقى محمود الذكر عند مولاه وولي نعمته

وكان منزله حافلا بالضيوف والولائم . وقد تزوج مريم عيسى باصي اخت سلطان دارفور مع أن عمرها كان فوق الخمسين . وكان لهذه السيدة حاشية مؤلفة من المئات من العبيد والاماء على الطريقة السودانية ولم يخطر ببال خالد انه يجب عليه أن يمارس فضيلة انكار النفس بعض الشيء كما يأمر المهدى . وكان يأمر كل

مساء أن تصف مئات الاطباق والقفع المحملة بمختلف الاطعمة لاتباعه الذين كانوا يقعدون تحت النخيل فيذكرون مدائح المهدي ولا ينسون ذكر الامير خالد من وقت لا آخر .

وحوالى هذا الوقت جاءني خطاب مطول من القاهرة بواسطة مدير دقلة حمله الينا عربي موثوق به . وفي الخطاب أمرني بحصر قوات في الفاشر وان اسلم المديرية لعبد الشكور بن عبد الرحمن شطوط وهو من سلالة سلاطين دارفور ثم على بعد ذلك أن اخرج بالجيش والذخائر الى دقلة . ولكن هذا الامير الذي ذكر لي في الخطاب كان لا يزال في دقلة غير قادر على الهجى . الى الفاشر وانا أشك فيما اذا كان وصوله يغير أو يبدل في الحالة ولم يكن من الممكن حصر قوات الفاشر بالنسبة لروح التمرد الذى فشا بين الجنود ولو كان في قدرتي أن اجمع الجنود واذهب بها الى الفاشر لما كان حينئذ ثم حاجة الى هذا الامير . فان الحكومة كانت تجد في الامانة والكفاية أكثر مما تجد فيه . واطنعت خالد على هذا الخطاب واذن لي ان اكتب خطابا لاحد الاهالى يحمله هذا العربي الذى جاء من دقلة فكتبته ولكنى لا أظن انه وصل الى من ارسلته اليه

وجاءتنا اخبار في هذا الوقت تنبئ بسقوط بحر الغزال الذى كان يتولاه لبتون بك وانفذ المهدي اليه الامير كرم الله لكي يتولى حكمته . وكان لبتون بك قد اضطر الى التسليم لان جميع اخوانه تركوه فسلم المديرية بلا قتال في ٢٨ ابريل سنة ١٨٨٤ ولو لم يهجره اعوانه لتمكن لبتون بك بواسطة قبائل الزنوج من الاحتفاظ بالمديرية ورد غارات المهدي عنها جملة سنوات

ورغب خالد في ان يرافقني سيد بك جمعه الذى كان لا يزال مقبلا في القبة وقد قبلت مرافقته على الرغم من دسائسه السابقة . وايضا طلب احد التجار اليونانيين مرافقتي فلم يعارض خالد وكان اسم هذا اليوناني ديمتري زيجاده

وحوالى منتصف شهر يونيو غادرنا الفاشر انا وزديجاده وكان معنا حرس مؤلف من عشرة رجال وبلغنا الابيض بعد سفر شاق فلقنا السيد محمود حاكم المهدي بلا حفاوة وامرنا بان نسافر في اليوم التالى الى رهاد حيث يقيم المهدي

الفصل العاشر

حصار الخرطوم وسقوطها

لما هزم المهدي هكس باشا وأباد تجريدته تحقق ان السودان كله قد صار عند قدميه . ولم تكن مسألة الاستيلاء على الخرطوم سوى مسألة وقت . وكان أول أعماله عندئذ ان أرسل قريبه خالد الى دارفور حيث كان يعرف انه لن يجد أية مقاومة . وبواسطة كرم الله استولى على بحر الغزال وكل ما حدث ان حول الموظفون ولاءهم للخديو اليه . وكان مك آدم قد خضع وجا . هو وأسرته وسكن الابيض . ودرسخت المهدي في شرقي السودان ووجدت وطناً معداً لها بين العرب الشجعان النازلين هناك . وأيدت الجيوش المصرية في سنكات وطمانيب وكانت نكبة الجنرال بيكر قد زادت ثقة العرب بأنفسهم وكان مصطفى حوال محاصر كسله

اما في الجزيرة بين النيل الابيض والنيل الازرق فان صهر المهدي واد البصير هزم الحكومة عدت مرات . وقد كانت هذه حالة البلاد عند ما وصل غوردون الى بربر في ١١ فبراير سنة ١٨٨٤

وكانت الحكومة المصرية باتفاقها مع الحكومة الانجليزية قد قر رأيهما على ارسال غوردون للسودان اعتقاداً بان معرفته البلاد تسكن الفتنة . ولكن الحقيقة ان هاتين الحكومتين وغوردون نفسه كانوا يجهلون خطورة الحالة في السودان . فهل كانت الحكومتان تظنان ان غوردون لشجاعته الشخصية واشتهاره بالرفق بالفقراء في دارفور يستطيع ان يقف تيار التعصب ؟ وهل كان نفوذ غوردون يمكنه من تهدئة عرب الجعاليين النازلين بين بربر والخرطوم وفي الجزيرة ؟

لقد كان عكس ذلك هو المنتظر فان الحاكم الذي أمر بطرد الجلاية من الجنوب في حرب الزبير كان خليقاً بان يكرهه عرب الجعاليين لا ان يحبوه . فان أمر غوردون بطرد الجلاية فقد أفقد عدداً كبيراً من الجعاليين من آبائهم او اخوتهم او اقاربهم ولم يكونوا ينسون ان غوردون هو السبب في كل ذلك

وفي ١٨ فبراير وصل غوردون الى الخرطوم فلتقاه الناس والموظفون بالبشر والحماسة وكان المتصلون به والمتفنون منه يعرفون ان الحكومة لن تترك مثل هذا الرجل وحيداً بلا معونة . وكان اول ما عمله انه اذاع منشوراً بتعيين المهدي حاكماً على كردوفان والاذن بالنخاسة والرق واقترح الدخول في مفاوضات مع المهدي وطلب منه الافراج عن الاسرى وأرسل اليه هدايا من الملابس الثمينة . ولو ان غوردون اذاع هذا المنشور ومعه قوة في الخرطوم يستطيع ان يسير بها الى كردوفان ثم له ما أراد ولكن الاخبار بلغت المهدي بأنه جاء الخرطوم وليس معه سوى عدد قليل من الحرس . ولا شك في ان المهدي تعجب من غوردون كيف يمنحه بالكلام ما حصل عليه هو بالسيف وما لا يمكن غوردون ان يسترده منه . وقد رد عليه المهدي بخطاب طلب فيه منه ان يسلم المدينة ويحقق بذلك دمه

وكان الخليفة عبد الله يد المهدي النبي . وكانت قرابة المهدي يكرهونه لهذا السبب ويكيدون له . ولكنه كان يعرف تماماً ان المهدي لا يستطيع ان يدبر الامور بدونهم . فشكا الى المهدي دسائس هؤلاء الناس وطلب منه ان يعترف في وعظه بما قام به من الخدم للمهدية . فاذا ع المهدى منشوراً لا يزال يشار اليه الآن كلما احتاج الخليفة عبد الله الى تغيير في الحكومة او سن قانون من جديد . وهذا المنشور يقضي على جميع اتباع المهدي بالطاعة للخليفة وان ينظروا اليه كأنه نائب المهدي الذي يقوم بتنفيذ مشيئته

ولما قل الماء عزم المهدي كما سبق ان ذكرنا على الرحيل بمسكركه الى رهاد وهي على مسيرة يوم من الابيض . وحوالي منتصف ابريل تم انتقال هذه الكتلة العظيمة المؤلفة من رجال ونساء وصبيان

وكان المعسكر في رهاد عبارة عن بحر طام من العشش المصنوعة من القش يمتد الى أبعد ما يصل اليه النظر وكان المهدي يقضي نهاره في الصلاة والوعظ وسائر واجباته الدينية . وكان قد عين محمد ابو جرجه واليا على الجزيرة وانفذه اليها مع عدد كبير من الاتباع وأمره بأن يرأس الثورة على الحكومة ويحاصر الخرطوم وهذا هو وصف الحالة كما وجدناها عند وصولنا انا واليوناني زيجاده وسيدبك

جمعه الى رهاد . ولما اقربنا أرسلت أحد خدمي الى الخليفة لكي يعلمه بقدمونا . ولكنه تأخر فعزمننا على الركوب اليه بانفسنا

وانخذنا الطريق المؤدى الى سوق وسمعنا صوت الاومية (الطبل) التى تؤذن بمقدم الخليفة . واتفق اني وجدت أحد اهالى دارفور فسألته عن معنى دق الطبل فقال لى « الارجح ان الخليفة عبد الله قد امر بقتل احد الناس وهذا امر للناس لكي يشهدوا القتل »

ولو كنت من الذين يؤمنون بالتفاؤل والتشاؤم لتشاءمت من هذه المقابلة حيث يقتل انسان عند اول دخولي المعسكر . ولكننا سرنا حتى بلغنا مكانا رحبا مكشوقا ورأيت خادمي ووراءه رجل آخر وكلاهما يسرع الينا . وصاح بنا هذا الرجل وقال : « قفوا حيث انتم . فان الخليفة وحرصه ، قد خرجوا للقائكم وكان يظن انكم خارج المعسكر » « ووقفنا وعاد الرجل يخبر الخليفة بوصولنا . وبعد دقائق رأينا جمعا من الفرسان وحوهم جمع آخر من المشاة المسلمين وهم يسرون على ايقاع الطبل . ووراء هذا الجمع رأينا الخليفة نفسه وكان قد وقف والى يمينه ويساره صفان من الفرسان ينتظرون أوامره . وأمرهم الخليفة بان يشرعوا فى رياضة خيولهم . وكانت هذه الرياضة عبارة عن أربعة من الفرسان يخرجون بخيولهم صفا واحداً ويمجرون شوطاً ثم يعودون أدراجهم ويكررون هذا الجري عدة مرات حتى يضطرم الاعياء الى الراحة و كانوا يركضون خيولهم الى مكاننا ورماحهم مشرعة حتى اذا بلغونا هزوا الرماح قريبا من وجوهنا وقالوا : « فى شأن الله ورسوله » ثم ركضوا خيولهم ثانيا الى مكان الخليفة

وبعد ان تكرر هذا الركض نحو نصف ساعة جاءنى احد خدم الخليفة وأخبرني بان الخليفة يرغب فى أن أركض على هذا النحو اليه ففعلت ذلك وهزرت فى وجهه الرمح وقلت : « فى شأن الله ورسوله » وعدت الى مكاني

فارسل الى يطلب منى ان اتبعه وبعد قليل بلغنا منزله . وساعده على النزول عن جواده خادم . اما سائر الفرسان فوقفوا على مسافة منه ثم اختفى وراء السياج . وبعد دقائق ارسل الينا يطلبنا فقادنا الخادم الى مكان فسيح داخله منزل من القش حيطاناً وسقفناً . وكان فيه عدد كبير من العنجريات عليها حصر من ورق النخل .

وامرنا بالعود على عنجريب ثم قدم لنا مزيج من الماء والعسل في قرعة وبعض البلح فاصبنا منهما وانتظرنا مجيء الخليفة ودخل علينا بعد مدة وجيزة فوقفنا فاخذ يدي وضما الي صدره وقال . « الحمد لله الذي جمعنا . كيف حالك في هذا السفر الشاق ؟ » فقلت : « شكر الله الذي أبقاني حتى أرى هذا اليوم . لقد ذهب عني تعبي عندما رأيت طلعتك » .

وكنت أعرف أن سبيل الحصول على مكانة ما لديه هو تمليقه . ثم أعطى يده لسيد بك ولديتمري قبلها كل منهما وسألها عن حالهما . وصرت أتفرس فيه فرأيت أن لون وجهه هو السمرة الخفيفة ووجهه عربي عليه مسحة من الرقة وكانت لا تزال آثار الجدري بادية فيه وكان أنفه منقاريا وفمه حسن عليه شاربان صغيران وعلى خده شعر خفيف يتكاثف حول الذقن . وكان ربة بين القصير والطويل وسطاً بين السمن والنحافة وكان لا بساجية مرقعة مؤلفة من رقع مربعة كل رقعة تختلف في اللون عن الأخرى وعلى رأسه طاقية قد تعم عليها بعمامة من القطن وكان اذا تكلم تبسم فتبدو أسنانه البيضاء .

ولما حيانا رغب الينا في الجلوس فجلسنا على الحصير فوق الأرض وجلس هو على عنجريب . ثم أعاد السؤال عن صحتنا وأبدى ارتياحه لبلوغنا مقام المهدي . وأشار لاحد الخدم فأحضر لنا طبقاً من العصيدة وآخر من اللحم ووضعهما أمامنا ثم نزل الينا وطلب منا ان نأكل وكان يأكل بشهوة قوية كأنه يستمري . طعامه كل الاستمرار وكان يسألنا بعض الاسئلة ونحن نأكل . وقال : « لم انتظرتم خارج المعسكر ولم تدخلوا بلا اذن وهل يحتاج الناس للاذن لكي يدخلوا بيوت أصدقائهم »

فقلت : « نحن نرجو عفوك . غاب عنا خادمننا مدة طويلة ولم يخطر ببال أحدنا أنك تخرج للقائنا . ولما اقتربنا من المعسكر سمعنا دق الطبل فسألنا عن معناه فقبل لنا ان أحد المجرمين يقتل وكنا ننوي أن نسير وراء الطبل ولكن رسولك جاءنا عندئذ »

فقال : « وهل بلغ من ظلمي انه عند ما تفرع طبولى يظن الناس ان مجرما سيقتل ؟ »

فقلت : « كلا . يامولاي . انت مشهور بالصرامة مع العدل »
فأجاب : « أجل اني صارم . وهذا ما يجب علىّ وستعرف السبب في ذلك عندما تطول مدة اقامتك معنا »

وكان بعض من يعرفونني قبلا قد استأذنوا الخليفة لكي يدخلوا ويسلموا علىّ . فأذن لهم الخليفة ودخلوا ولكنهم لم تتح لهم الفرصة للكلام معي سوى عبد الرحمن بن نجبا الذي كان في تجريدة هكس فقد قال لي بلهجة سريعة خافتة :

« خذ حذرك والزم الصمت ولا تثق باحد » فأثر كلامه فيّ ونقشته في قلبي

ثم غادرنا الخليفة وحوالي الساعة الثانية بعد الظهر أرسل اليّنا لكي نتوضأ ونذهب الى المسجد وبعد دقائق جاءنا هو وأخبرنا بان نسير وراءه . وكان يسير على قدميه لان المسجد الذي كان قريباً من عشة المهدي لم يكن يبعد عن منزل الخليفة سوى نحو ٣٠٠ ياردة ولما دخلنا وجدناه مزدحماً بالمصلين الذين اصطفوا صفّاً بعد صف ولما دخل الخليفة تنحوا له باحترام . وفرش على الارض لنا جلدة شاة وأشار هو علينا بان نقعد خلفه . وكان مقام المهدي مؤلفاً من عدة عشش كبيرة محاطة بسياج من الشوك في الجنوب الغربي للمسجد . وكان في المسجد شجرة تظل عدداً كبيراً ولكن سائر المصلين كانوا يصطلون الشمس المحرقة . وكان في المسجد في أقصى طرفه الامامي الى اليمين عشة صغيرة كان يقعد فيها المهدي بعد الصلاة لمحادثة من يرغب في رؤيتهم على حدة . وبعد الصلاة دخل الخليفة الى هذه العشة وظننا انه يريد ان يخبر المهدي بمجيئنا . وعاد اليّنا وقعد معنا وفي الحال خرج المهدي ويم نحونا . فوقف الخليفة ووقفنا جميعاً وراءه . اما الباكون فقد لزموا مكانهم ولم ينهضوا . وتقدمت انا قليلا فخياني المهدي بقوله : « السلام عليكم » فرددنا عليه بقولنا : « عليكم السلام » ثم مد يده فقبلناها عدة مرات وفعل كل من سيد بك جمعه وديمتري مثلي . ثم أشار علينا بالجلوس ثم وجه الخطاب الى قائلاً : « هل انت مسرور ؟ »

قلت : « اجل يامولاى . لقد سررت ونلت السعادة بقربي منك »

فقال : « بارك الله فيك انت واخويك (يريد ديمترى وسيد جمعه) لقد كانت تبلغنى أخبار المعارك بينك وبين اتباعي فكنت ادعو الله لهدايتك . وقد سمع الله ونبيه لدعائي . وكما خدمت مولاك السابق لاجل المال الزائل يجب ان تخدمنى الآن لان من يخدمنى يخدم الله والاسلام وينال السعادة فى هذا العالم والفرح فى العالم الثانى »

فأبدي كل منا ولاءه وكنت قد أوصيت قبلا بان أطلب مبايعته فانتهرت هذه الفرصة وطلبت ذلك . فدعانا الى ان نركع على طرف جلد الشاة ثم وضع كل منا يديه فى يديه وأقسمنا هذه اليمين :

« بسم الله الرحمن الرحيم . بايعنا الله ورسوله . وبايعناك على توحيد الله ولا نشرك بالله شيئا . لا نسرق ولا نزني ولا نأتى البهتان ولا نعصيك فى المعروف . بايعناك على ترك الدنيا والآخرة (كذا . . .) ولا نفر فى الجهاد »

ولما انتهينا من البيعة قبلنا يديه وصرنا معدودين من انصاره المخلصين ولكننا كنا أيضاً عرضة لان يقع بنا عقاب هؤلاء الانصار . وشرع المؤذن فى الاذان وكان المهدي يؤمنا فيصلى ونحن نكرر ما يقول . ولما انتهت الصلاة رفع الجميع أيديهم يدعون بالنصر للمؤمنين . ثم ابتداء المهدي فى وعظه

وكان حوله جموع عظيمة من الناس يعظم عن غروب العالم وزواله ويحضهم على الزهد والا يفكروا الا فى الدين والجهاد وكان يصف لهم ملذات النعيم التى سيلاقيها المؤمنون بمذهبه . الداعون الى دعوته . وكان بعض المتحمسين يقاطعونه بصيحات التواجد والطرب . والحق اني مقتنع بان جميع الحاضرين سوانا كانوا مؤمنين ايماناً حقاً بدعوته . وكان الخليفة قد خرج من المسجد فى مهمة ما ولكنه نبه الملازمين لى ان يطلبوا منا البقاء مع المهدي الى الغروب

وسنحت لى الفرصة عندئذ بان انظر الى المهدي وأتعرف أوصافه . كان طويلاً عريض الا كتاف خفيف السمرة متين البنية . وكان رأسه كبيراً وعينه براقتين وكانت له لحية سوداء وعلى كل من خديه ثلاثة حروز . وكان أنفه وفمه حسني الوضع

وكانت عادته الابتسام على الدوام واذا ابتسم بدت اسنانه الناصعة و كان أفلج بين
ثنيته فرجة يتفادل بها السودانيون ويسمونها فالجة . وكان هذا سبباً في حب النساء له
اذ كانوا يسمونه : « ابو فلجه » وكان يلبس جبة قصيرة قد أجيد غسلها وقد عطرت
بالمسك والصندل والورد واشتهرت عنه هذه الرائحة حتى صارت تسمى « ريحة المهدي »
وكانوا يقولون انها تماثل رائحة الفردوس ان لم تفقها

وقد قضينا الوقت كله ونحن مكاننا قعود فوق سيقاننا المطوية تحتنا حتى وجبت

صلاة المغرب

وفي هذه الاثناء كان يروح ويغدو من المسجد الى البيت عدة مرات . ولما
انتهت الصلاة استأذنت في الخروج لان الخليفة كان قد وعدني بلقائه في ذلك الوقت.
فأذن لي ونصح لي بان الزم الخليفة وأرصد نفسي لخدمته . فوعده بالطاعة وب لزوم
أمره بالحرف ثم قبلنا يده انا وديمترى وسيد بك وخرجنا

وكانت ساقاي قد تخدرتا من القعدة الطويلة حتى ما كدت أقوى على المشي
عليهما ولم يبد على سيد بك ألم لأنه معتاد هذه القعدة . اما ديمترى فسار وراءنا
وهو يتلفظ ألفاظاً خافتة باللغة الاغريقية يلعن فيها المهدي . ورافقنا ملازم الى منزل
الخليفة حيث قعدنا الى وقت العشاء

وأخبرنا الخليفة بأنه بعد ان رأنا في الصباح وفد اليه حسين خليفة مدير بربر
فثبت لدينا من ذلك سقوط بربر وكانت الاشاعات قد بلغتنا ونحن على حدود دارفور
ولكننا لم نلاق أحداً نتحقق منه هذا الخبر . ويبدو ان المدينة سقطت على يد الجعاليين
وبذلك انقطعت المواصلات بيننا وبين مصر . وكان هذا الخبر سيئاً للغاية وكنت
انتظر لقاء حسين خليفة لكي أعرف منه صدق هذا الخبر

وغادرت الخليفة لكي ينام فد كل منا ساقيه على عنجريه واستسلم للاقدار
وفي الصباح بعد فطور العصيدة والابن سمعنا قرع الطبول تؤذن بخروج الخليفة.
وأسرجت الخيول في الحال . وأشارت على الخدم باز يعدوا لنا أنا والسيد بك جمعه
جرادين امتطيهاهما وأدر كنا بهما الخليفة الذي كان قد سبقنا . وكان راكباً جواده
بقصد النزهة فقط وكان معه عشرون من المشاة وكان على يمينه رجل اسود ضخيم

من قبائل الدنكا وعلى يساره عربي طويل جداً يدعى ابا نسيكه كان يعاونه في الركوب والنزول . ولما بلغ الرحبة التي كان بها في الامس أمر الفرسان بأن يكرروا الرياضة التي قاموا بها أمس . وبعد مدة سرنا الى نهاية المعسكر حيث أرانى الخليفة آثار زربية وخنادق وأخبرني انها من عمل هكس قبل ان تباد قوته وكان قد مكث هناك ينتظر المدد من تاج الله . وكانت هذه الخنادق مصنوعة لمدافع كروب . وقد أثار هذا المنظر في نفسي ذكرى ألمية عن تلك الآلاف التي أيدت عن آخرها تقريباً وان هذه النكبة هي سبب وجودي في مكان، هذا الآن

وعند رجوعنا عرج بنا الخليفة الى منزل أخيه يعقوب الذي كانت عشته قرية من عشة الخليفة اذ لم يكن بين سياج كـل منهما سوى ممر ضيق . وتلقاني يعقوب بالبشاشة . وبدا عليه من دلائل السرور مثل ما بدا على أخيه ونصح لي بان أخدم الخليفة بامانة

ويعقوب أقصر من الخليفة عريض الاكتاف مستدير الوجه وبه آثار الجدري وله أنف يرتفع من طرفه وشاربان ولحية خفيفة . وحظه من الدمامة أكثر من حظه من الجمال ولكن طريقته في الحديث عجيبه من حيث اظهاره عطفه على محدثه . وكان يخاطبنا وهو يتسم كما يفعل الخليفة والمهدي . ولا غرابة في ذلك ما دامت أحوالهم في هذا الرواج . ويعقوب يقرأ ويكتب وقد حفظ القرآن عن ظهر قلبه . اما الخليفة فبالمقابلة الى أخيه يعتبر جاهلاً . وهو أصغر سناً من الخليفة ولكنه مستشاره الامين وصاحب الرأي الذي لا يعلى عليه . وويل لمن يرتأى رأياً يخالف يعقوب او يشبهه في انه يدس له اذ لا رجاء في حياته

واصبنا شيئاً من البلح الذي قدمه لنا ثم استأذنا في الخروج وعدنا الى رقوبه حيث قصدنا الى المسجد وقعدنا الى الغروب كما فعلنا البارحة وجاء المهدي فوعظ الناس في الزهد في الدنيا والجهاد حتى ينالوا نعم الفردوس . ونحمس المصلون وقد أسكرهم التواجد فصاحوا بمدائح المهدي . اما نحن التمساء فكنا نتألم من قعدتنا ونلعن في قلوبنا المهدي والخليفة وجميع من حولهما من السفلة المنافقين وفي اليوم التالي طلبنا الخليفة وسألنا هل نرغب في السفر الى دارفور . وكنت

أعرف ان هذا السؤال لم يوجه إلينا الا على سبيل الامتحان فاجبنا بصوت واحد
إننا نأسف أشد الأسف لفراق المهدي . ورأيت انه كان ينتظر هذا الجواب فابتسم
وامتدحنا لحسن اختيارنا

واقترح علينا الخليفة ان نترك عشتنا وأرسل ديمتري مع ملازم الى أميره وكان
يونانياً أيضاً وأمر بمنحه عشرين ريالاً . فلما غادرنا التفت الى سيد بك وقال :
« وأنت يا سيد جمعة مصري وكل انسان يحب بنى وطنه وعندنا كثير من المصريين
وكلهم ابن مجرب . ثم انت شجاع يمكن الاعتماد عليك ولذلك يجب ان ترافق أمير
المصريين حسن حسين وسيعطيك منزلاً ويقضي لك حوائجك وسأعمل أنا أيضاً
كل ما فيه راحتك »

وسر سيد بك جمعة لهذا الترتيب ثم التفت الخليفة الى وقال : « اما أنت
يا عبد القادر فقريب وليس لك أحد سوى . وأنت تعرف العرب في جنوبي دارفور
معرفة جيدة فبناء على أمر المهدي يجب ان تبقى معي ملازماً لي »

فاجبت مسرعاً : « هذه هي أمنية قلبي . وانه لحظ حسن لي ان أمكن من
خدمتك ولك يا مولاي ان تثق بطاعتي وأمانتي »
فقال : « اني أعرف ذلك . حماك الله وقوى إيمانك . ولا شك في انك ستكون
ذا منفعة كبرى للمهدي ولي »

ثم اختليت بالخليفة فاعاد علي مسمعي التعبير عن سروره بخدمتي ومرافقتي له .
ثم حذرني من الاختلاط بأقاربه الذين يحسدونه وربما أحدث اختلاطهم بي قطيعة بيني
وبينه . وأمر ببناء بضع عشش لي من القش في الزريبة المجاورة له والتي يملكها ابو
انجه (وكان غائباً في جبال النوبة) وفي أثناء ذلك أبقى بعششي واحضر الظهر والمساء
وأسمع وعظ المهدي . فشكرته شكراً جزيلاً ووعدته بالامانة والولا.

وفي اليوم التالي حضر حسين باشا خليفة وبدأ الخليفة في سؤاله وكان أول
ما سأل عنه حالة والي بربر السابق . فاجابه حسين باشا بالجواب المعتاد . ف أخذ
في سؤاله عن الحالة في وادي النيل فوصف له حسين باشا البلاد التي بين بربر وفشودة
وقال انها صارت الآن تابعة للمهدي وان المواصلات بينها وبين مصر قد انقطعت.

اما الخرطوم فان غوردون يدافع عنها ولكن عرب الجزيرة قد حاصروها . وكان بالطبع يصف الاحوال بالصيغة التي تروق الخليفة . وكان الخليفة مسرورا بهذه الاخبار وسروره يبدو عليه في اشاراته واستفهاماته . ووعد الخليفة حسين باشا بان يقدمه في صلاة الظهر للمهدى واكد له عفو عنه . وقبل ذلك الميعاد يمكنه ان يستريح معي

ورافقت الخليفة بعد ذلك الى المسجد ومعنا حسين باشا الذى قدم الى المهدى وعاد معي الى منزلى لقضاء الليلة . وتعشنا عند الخليفة كالعادة ثم قمنا الى عشتى . فلما خلا كل منا الى أخيه أعدنا التسليمات والتحيات وصرنا نندب الحالة التي وقعت فيها البلاد والتي أنزلتنا الى هذا الدرك . ثم قلت : « يا حسين باشا اني أعدك بالصمت فاخبرني عن الحالة في الخرطوم وما يفعل السكان هناك ؟ »

فقال : « واأسفاه . هي كما وصفت للخليفة . فان اذاعة المنشور باخلاء السودان قد قلبت الحالة وكانت سببا غير مباشر في سقوط بربر . ولست أشك في انها كانت ستسقط على اية حال ولكن هذا المنشور أسرع في سقوطها . ولما كان غوردون في بربر منعه من اتخاذ هذه الخطوة ولا أدري ما الذى جعله يسلكها ثانياً » ونحدثنا كثيراً عن الاحوال والحوادث التي وقعت لحسين باشا وكان رجلاً مسناً وقد تعب فنام . ولكن حديثه أطار النوم من عيني . وجعلت أفكر في غوردون وقلت في نفسي هل هذا هو غاية مجهودات غوردون لخدمة البلاد ؟ وهل تذهب ضحايا الرجال والمال بلا فائدة ؟ لقد عولت الحكومة المصرية على ترك البلاد وهي وان لم تنتفع منها في الماضي سيكون مستقبلها عظيماً . وأقل ما فيها تلك الآلاف من الجنود السود الذين يمكن ان يجندوا في الجيش . وستترك الحكومة هذه البلاد لاهلها وتبقى علاقتها بها ودية وتسحب حامياتها وذخائرها منها وترضى بقيام حكومة محلية

وكان هذا هو الغرض من ارسال غوردون أملاً في ان تقديره بين الاهالى واحترامهم له (وكان هو يكبرهما اكثر من حقيقتهما) يمكنانه من تأدية هذه المهمة . ومن الحقائق ان غوردون كان محبوباً في المناطق القرية والمناطق الاستوائية حيث

كسب حب الناس بطيبة قلبه وسخائه . وكان وقت اقامته في تلك المناطق يكثر من التجوال والسياسة وكان جسوراً عطوفاً وقبائلاً تلك الجهات تقدر هاتين الصفتين . فلا شك اذن في ان تلك القبائل كانت تحبه ولكنها صارت الآن تعبد المهدي ولذلك نسبت غوردون

وليس السودانيون اوريين . اذ هم عرب وزنوج ولا يقدرون العطف والرفقة قدرهما . وقد اذيع المنشور باخلاء السودان بين العرب واخصهم الجعاليين وكانوا يكرهون غوردون لانهم لم يذسوا بعد ما فعله مع الجلاية

ولما جاء غوردون الى الخرطوم وليس معه قوة يستند اليها عرف هؤلاء العرب انه يعتمد على نفوذه الشخصي في تحقيق أغراضه . ولكن الواقفين على الحالة كانوا يعرفون ان النفوذ الشخصي هو نقطة من بحر في حل المشكلة السودانية

فما الذي أغراه باذاعة هذا المنشور والاعلان فيه عن اخلاء الحكومة المصرية السودان . وقد نصح له حسين باشا الا يقرأه في بربر ولكن عندما وصل الى ممتعه قرأه امام جميع الناس . فهل لم تبلغ غوردون منشورات المهدي التي أرسلها عقب سقوط الابيض ؟ ألم يعرف انه كان يدعو الناس في هذه المنشورات الى اعلان الجهاد على الحكومة وان من يعصيه في هذا الامر يعتبر خائناً للدين فتصفي املاكه وتؤسر نساؤه واولاده ويصيرون عبيداً للمهدي ؟ ؟

لقد كان غوردون يرمي الى الحصول على معاونة هذه القبائل حتى يتمكن من سحب الحاميات وكان يمكنه ان يتفق معها على ذلك . ولكنه الآن أضاع هذه الفرصة اذ كيف يمكن ان تساعد هذه القبائل اذا كان هو قد اعلن اخلاء السودان ومعنى ذلك ان تترك هذه القبائل لرحمة المهدي ؟ وماذا كان يفعل المهدي بهم لو انه علم انهم عاونوا غوردون على ان يسحب الحاميات ؟ ثم هل كان يمكنهم ان يقاوموا المهدي ومعه اربعون الف جندي كل منهم يحمل بندقية وذلك غير الآلاف المتحمسين الذين يشتاقون الى الدمار والغنائم ؟

كلا . لقد كانت هذه القبائل أعقل واحصف مما حسبها غوردون . كانت تعرف

انه اذا انسحب غوردون من البلاد وتيقن المهدي انهم عاونوه فانه يستأصل شأفتهم ويسبي نسا-هم واولادهم . ولم يكونوا هم في حاجة الى هذه التضحية

واذا لم يكن في مقدور الحكومة لاسباب سياسية وغير سياسية ان تحتفظ بالسودان فان من العبث ان يرسل غوردون ويضحي به بلا فائدة . ولم تكن ثم حاجة الى رجل ذي مهارة شاذة لكي يسحب جنود الحاميات والذخائر على البواخر الى بربر بحجة رفع الحصار عن المدينة وعندئذ تسحب جميع الحاميات او معظمها . ولكن كان ينبغي السرعة في هذا العمل ثم هو لم يكن ممكنا بعد سقوط بربر . ويجب ان نذكر ان بربر لم تسقط الا في ١٩ مايو اى بعد ثلاثة اشهر من وصول غوردون الى الخرطوم . وعلى كل حال نقول ان اذاعة منشور غوردون قد عجل سير الاحوال الى حد مزعج . فان الاهالى عرفوا نية الحكومة في اخلاء السودان وصار كل منهم ينظر الى الى مصالحه الخاصة التي صارت على خلاف مع مصالح الحكومة التي قلبها مواطنهم المهدي

ولم يكن في مقدور غوردون مع صفات الشجاعة والنشاط التي يتصف بها بحق ان يقف سير الاحوال بعد ان ارتكب هذه الغلطة السياسية الكبرى

ولقد كنت أتقلب في العنجريب وانا في هذه الافكار بينما كان حسين باشا يغط في نومه . ورأيت ان الايمان بالقضاء والقدر يفيد في مثل هذه الساعة ولكني كنت مازلت اورياً لم تبلغ نفسي هذه المرحلة وان كنت قد تعلمت بعد ذلك ان أنظر الى الاشياء نظر التسليم والهدوء . وعلمتني تجاربي في السودان ان أمارس تلك الفضيلة الكبرى ، فضيلة الصبر

وانتشرت بعد ايام قلائل اشاعة بان غوردون أغار على ابي جرجه وجرحه وأن قواته التي كانت قد طوقت الخرطوم قد وقعت وهزمت . فامتلاً قلبي سروراً بهذه الاخبار وان كنت قد تظاهرت بعدم المبالاة

ووصل الى معسكرنا صالح واد الملك وكان قد سلم نفسه في فيداس ثم أرسله ابو حرجه بعد ذلك الينا . وعفا عنه الخليفة والمهدي فأثبت هذه الاخبار وأمدني ببعض معلومات عن غوردون

وفي هذا المساء استدعاني الخليفة للعشاء معه وما كدنا نشرع في تمزيق كتلة اللحم الكبيرة التي أمامنا حتى سألتني قائلاً : « هل سمعت الاخبار اليوم عن الحاج محمد ابى جرجه ؟ »

فقلت وانا أشعر بالنفاق : « كلا . لم أترك بابك طول اليوم ولم ألتق باحد » فقال الخليفة : « لقد فاجأ غوردون الحاج محمد من البر والبحر وكان البحر الازرق في الفيضان . وقد أحاط البواخر بما يمنع رصاص البنادق من الوصول الى جنده . هذا الكافر رجل ماكر ولكنه سينال عقاب الله . وقد تهقر رجال الحاج محمد وغوردون الآن في طرب النصر ولكنه مخدوع فان الله لا ينصر الا الذين يؤمنون به وسينتقم الله منه قريباً . وليس الحاج محمد ذا كفاية ولذلك سيرسل المهدي واد النجومي لكي يطوق الخرطوم »

فقلت وانا أقصد عكس ما أقول : « أرجو ألا يكون الحاج محمد قد خسر خسائر فادحة »

فقال الخليفة بحق : « لا حرب بلا خسارة ولكني لم أقف على التفاصيل بعد » وكان انتصار غوردون قد عكر مزاجه فذهبت عنه دماثته وكان يبدو عليه انه يخشي النتائج لهذا الانتصار . ولما ذهبت الى عشتى بعثت خادمي لكي يدعوا صالح واد الملك سرّاً لزيارتي . فأخبرته بان الخليفة يؤيد رواية انتصار غوردون فقال لي انه سمع أيضاً هذا الخبر من أفراد قرابته . وامتلأ قلبي بهجة وطرباً لهذا النصر ووجدت نفسي أتحدث وانا كلى رجاء بالمستقبل ولكن صالح كان يعد هذا النصر وقتياً وكان يبنى اعتقاده هذا على أسباب معقولة

وأخذ يوضح لي الحالة بقوله انه عند ما وصل الى الخرطوم بدأ تأثير المنشور عن اخلاء السودان يظهر وزادت لذلك صعوباته . وصارت قبائل الجعاليين تجتمع وقد اختارت لها الحاج علي واد سعد رئيساً وقد اجتمعت لديه قوة كبيرة ولكنه لاسباب شخصية كان يميل الى الحكومة فجعل يسوف في القتال

ورأى القناصل في الخرطوم ان الحالة تتفاقم فطلبوا من غوردون ان يرسلهم الى بربر . وقد كان مما يشك فيه ان يصلوا سالمين الي بربر ولذلك نصح لهم غوردون

بالبقاء في الخرطوم فبقوا . اما اهالى الخرطوم فقد أخذوا يتوجسون من غوردون لانهم تحققوا من المنشور ان غوردون انما جاء لكي يسحب الحامية وان كانوا قد عرفوا بعد ذلك ان غوردون انما جاء لكي يدافع عنهم أو يموت معهم

وجمع الشيخ عبيد وهو من أكبر مشايخ الطرق في السودان اتباعه في حلفا لكي يحاصر بهم الخرطوم . وأرسل غوردون بعض الجيش بقيادة حسن باشا حسين الذى كان حاكما على شقه لكي يجلوا المحاصرين عن أما كنهم ووقف غوردون على سطح قصره يراقب جنوده منه بتلسكوبه فرأى بعض ضباطه يفاوضون الثائرين في التسليم فاحضرهم في الحال وعقد لهم محكمة عسكرية ثم ضربوا بالرصاص . ولكنه على الرغم من هذه النكبة تمكن من تخلص الشايحية وكانوا موالين للحكومة فانه ندب لهم السنجق عبد الحميد واد محمد فأتقدهم وأحضرهم الى الخرطوم

وكان صالح واد الملك في فيداس قد طوقه الثائرون فرجا غوردون ان يفك الحصار عنه ولكن غوردون لم يتمكن من ذلك فاضطر الى التسليم ومعه ألف وأربعمائة من الجنود غير النظاميين وذخائرهم . وبعد هذا النصر جمع الحاج محمد أبو حرجه جميع سكان الجزيرة المحاصرة الخرطوم

وبينا كانت هذه الاحوال تجرى حول الخرطوم كان محمد الخير معلم المهدي السابق وكان قبلا يدعى محمد الذكر قد أتى الى النهر فعين المهدي تلميذه السابق أميراً على بزبر ووضع جميع القبائل في تلك المديرية تحت تصرفه . فجمع محمد الخير جميع أنصاره من الجعالين قبيلته وأمدهم بعدد كبير من البرابرة والبشارية وسائر العرب ثم طوق بهم مدينة بربر فلم يمض عليها بضعة أيام حتي سقطت

وكانت مديرية دنقلة لانزال ثابتة على ولائها للحكومة وذلك يرجع الى مكر مديرها مصطفى بك ياور . فانه عرض تسليم المدينة الى المهدي مرتين ولكن المهدي توجس شرا منه لانه تركي وارسل احد قرابته سيد محمود على لكي يشترك هو وامير الشايحية الشيخ حداى في تسليم المدينة . فلما علم مصطفى بك ياور ذلك وكان عنده في ذلك الوقت ضابط انجليزى (هو اللورد كتشنر) يشجعه على القتال

جهز جيشا ووقع بمحداى ثم سحق المهديين في كورش وقتل الاميران محمود وحداى اما فى سنار فلم تكن الحال على ما يرام . فقد حوصرت وكان المدخر بها من القمح كثيرا ولكن مواصلاتها كلت مقطوعة وحاول الحاكم نوربك ان يرد المحاصرين فنجح وارجعهم الى مسافة بعيدة

وجاءت الخطابات ترى الى المهدي رجاء ان يقدم الى النهر ولكنه لم يكن فى حاجة الى العجلة اذ كان متأكد ان السودان كله قد صار فى يديه وانه لا يمكن ان يؤخذ منه الا بجيش مصري او اجنبي كبير . وكان يعرض الجيش كل يوم جمعة ويحضر العرض بنفسه وكان جيشه مؤلفا من ثلاثة اقسام يقود كل قسم منه خليفة ولكن الخليفة عبد الله كان يسمى « رئيس الجيش » وكان قسمه يسمى الراية الزرقاء . وكان اخوه يعقوب ينوب عنه وكان الخليفة على واد حلو يقود قسم الراية الخضراء . اما الراية الحمراء او راية الاشراف فكان يقود قسمها الخليفة محمد شريف وكان للامراء الاصاغر رايات خاصة

وكان امراء الراية الزرقاء يصفون جنودهم يوم العرض بحيث تواجه الشرق وكان جنود الراية الخضراء يصفون امامهم بحيث يواجهون الغرب . ويصل بين هذين الصفين جنود الاشراف وامراءهم بحيث يواجهون الشمال . وكانت جنود المهدي قد كثر عددها فكان العرض يحتاج الى ميدان كبير جدا مفتوح من ناحية واحدة يدخل منها المهدي ومعه صحابته . ويقول آخر انه سمع اصواتا من السماء تبارك فى انصار المهدي وتعدم بالنصر . بل بعضهم يقول ويؤكد انه رأى الملائكة تبسط اجنحتها وتؤلف سحابة تقي الجيش وهج الشمس

وبعد ثلاثة ايام من وصول خبر هزيمة الحاج ابو حرجه وصل الينا فى رهاذ رجل ايطالى يدعى يوسف كوزى آتيا من الخرطوم . وكان قبلا فى بربر فلما سقطت تركه المسيو ماركة وكيل شركة ديبورج لكي يتم بعض الحسابات فى بربر وارسله محمد الخير بعد سقوط بربر الى ابو حرجه وهذا بعثه الى غوردون بخطاب ولكن غوردون رفض ان يتلقاه ورده الى خطوط العدو على الشاطئ الشرقي للنيل الازرق فلما وصل الى المهدي ارسله ثانيا الى غوردون بصحبة رجل يوناني يدعى جورجى كالاماتينو ومعه خطاب الى

غوردون يطلب فيه منه التسليم . وارسلت انا على يد هذا اليوناني بضع كلمات لكي يحملها الى غوردون سرا . واذن لليوناني بان يدخل الى الخرطوم . اما كورى فلم يؤذن له لان الضباط اتهموه بانه عندما دخل في المرة الاولى دعاهم الى التسليم ولما انتهى شهر رمضان استدعى ابو انجه ومن معه من القوات في جبل الدائر وأعلن المهدي عندئذ ان النبي قد أوصى اليه ان يقوم الى الخرطوم ويحاصرها بنفسه وأمر جميع الامراء بجمع رجالهم والتهيؤ للسفر وكل من يتخلف عن هذا الجهاد تصفى املاكه

ولكن الناس الذين لم يكن لحماستهم حد لم يكونوا في حاجة الى التحذير من التخلف فانهم كانوا يهرعون الى القتال وكل منهم طامع في الغنيمة التي تنتظر انتصار المؤمنين . وكانت نتيجة اعلان المهدي الجهاد ان هاجر الناس جملة وكانت هجرتهم لامثيل لها في تاريخ السودان

وغادرنا رهاد في ٢٢ اغسطس وكانت قوات المهدي تسير في ثلاث طرق مختلفة . فاتخذت القبائل التي تحمل على الجبال الطريق الشمالى . وكان طريقها على فرس وصلبة وطرة الحضرة اما الطريق الوسطى التي تمر على طيارة وشرقله والشط ودويم فقد اتخذها المهدي والخلفاء والامراء . اما البقارة وسائر القبائل التي لها مواش فقد اتخذت الطريق الجنوبية . وكنت انا بالطبع ملازماً للخليفة أرافقه ولكني كنت عند ما تخط رحالنا أرسل في طلب صالح واد الملك الذي كان في رفقة المهدي . وكان الخليفة لسبب لا أعرفه يكرهه وأمرني بان الزمه انا وخدمي وكلف ابن عمه عثمان واد ادم بان يعني بأمري . ومع ذلك كنت أدقق من وقت لآخر لرؤية صالح واد الملك وكان واقفاً على الدوام على الحالة في مديريات النيل

ولما كدنا نبلغ شرقله شاعت اشاعات عن رجل مسيحي مصري وصل الى الالبض وانه في طريقه الى المهدي . وكان البعض يقولون انه امبراطور فرنسا وآخرون يكذبونهم ويقولون بل هو قريب ملكة انجلترا . فلم يكن ثم شك في ان الرجل أوربي فشعرت بأشد الشوق لرؤيته

وأخبرني الخليفة في المساء بان رجلا فرنسيا وصل الى الالبض وانه بعث في

طلبه واحضاره الى المهدي . ثم قال : « هل أنت فرنسي وهل عندكم في بلادكم قبائل مختلفة كما هو الحال في السودان ؟ »

وكان الخليفة يجهل اوربا كل الجهل فجعلت أنير ذهنه عن الموضوع بقدر إمكاني .
ثم قال الخليفة : « ولكن ما يريد منا رجل فرنسي يأتي إلينا ويقطع هذه الطريق الطويلة ؟
عسى ان يكون الله قد هداه الى الصراط المستقيم »

فقلت : « لعله يبقى في صحبتك وصحبة المهدي »

فنظر اليّ الخليفة وكان لا يصدق قول وقال : « سئري »

ثم بلغنا شرقه وما كدنا نخط رجالنا حتى أرسل اليّ مولاي وقال : « يا عبد القادر
لقد وصل الفرنسي إلينا وأمرت باحضاره هنا . فانتظر واسمع ما يقوله اذ ربما
نحتاج اليك »

ثم جاءنا حسين باشا وبدا لي ان الخليفة استدعاه . وبعد مدة جاءنا ملازم وأعلن
ان الرجل الغريب واقف امام الباب فاذن له بالدخول . ورأيت رجلا طويلا حوالى
الثلاثين من عمره وكانت الشمس قد لوحت وجهه . وكان شارباه ولحيته خفيفة اللون
وقد لبس الجبة والعمامة . وحيا الخليفة بقوله : « السلام عليكم » . فلم يتحرك الخليفة من
المنجرب بل أشار عليه بالعود وبدأه بقوله : « لم جئت هنا وماذا ترغب منا ؟ »
فأجاب بلهجة غريبة غير مفهومة بأنه فرنسي جاء من فرنسا

فقال الخليفة : « تكلم بلغتك مع عبد القادر وهو يوضح لنا ما تقصد »
فتحول الغريب اليّ ونظر اليّ متوجساً وقال بالانجليزية « نهارك سعيد
يا سيدى »

فقلت : « هل تتكلم الفرنسية . انا اسمي سلاطين . الزم الجد ولا تتطوح .
وبعد ذلك يمكنك ان تخبرني على حدة ما تريده »

فتذمر الخليفة قائلاً : « ماذا تقولان ؟ اني أعرف ماذا يطلب ؟ »

فقلت له : « أخبرته بامولاي عن اسمي وطلبت منه ان يتكلم بصراحة لانك
أنت والمهدي قد وهبكم الله معرفة ما يدور في أفكر الناس »

وأسمعني حسين باشا وكان قاعداً خلفي فقال : « هذا حق . الله بطيل عمر الخليفة
ثم التفت الى وقال : « لقد أحسنت في تنبيه الغريب »
فسر الخليفة لهذا التلميح وقال : باحثه عن غرضه »

فقال الغريب بالفرنسية : « امسى اوليفيه بان . وانا رجل فرنسى . ومنذ
صباى وانا متعلق بالسودان . أحب أهله . وجميع أهل بلادي يشعرون شعورى .
ونحن فى اوربا بيننا وبين بعض الامم أحقاد . والامة الانجليزية هى احدى هذه
الامم وقد ارسخت قدمها فى مصر وأحد قوادها غوردون موجود الآن فى الخرطوم
فانا جئت لكى أقدم للمهدى مساعدتي انا وامنى »

فقال الخليفة بعد أن ترجمت له هذه الاقوال « أية مساعدة ؟ » فقال اوليفيه بان :
« مساعدتي الآن هى النصيحة . ولكن امتى ترغب فى صداقتكم وهى مستعدة
لمعاونتكم بالمال والسلاح بعد شروط »

فقال الخليفة وكأنه لم يسمع ما قاله له : « هل أنت مسلم ؟ »

فاجابه : « اجل . انا مسلم منذ زمن طويل وقد أعلنت اسلامي فى الابيض »
فقال لى الخليفة : « اقعد أنت وحسين باشا هنا مع هذا الفرنسي وسأذهب
انا الى المهدى لكى أخبره عنه وأعود »

فلما غادرنا الخليفة حيت هذا الغريب وعرفته بحسين باشا ولكن شعرت بشيء
من الكراهية له لعلنى انه قدم لمساعدة أعدائنا . ولكن مع ذلك نبهته الى أن
يحذر فى كل ما يقوله وأن يدعى ان الباعث له على المجيء هو الايمان لا الاغراض
السياسية . واغتاز حسين باشا من هذا الفرنسي حتى قال لى بالعربية : « هل تقديم
المال والسلاح لهؤلاء الناس يعد سياسة ؟ هؤلاء الناس ليس لهم غرض الا القتل ونهب
الناس واستعباد النساء والبنات . لقد كنتم تنسبوننا الى القسوة والشر وتعاقبوننا
حين كنا نشترى العبيد السود مع ان العبد الاسود لا يمتاز على الحيوان الا فى انه
يقدر على حرث الارض »

فقلت . « معلش الى عمره طويل ييشوف كثير »

وأخذنا كلنا نفكر ونتأمل كل في حاله تنتظر مجيء الخليفة . وبعد مدة عاد إلينا وأمرنا بالوضوء استعداداً للصلاة مع المهدي . فتوضأنا وذهبنا إلى مكان الصلاة ووجدنا عدداً عظيماً من الناس كلهم يبالغون ويهولون في شأن هذا الغريب الفرنسي . ولما أخذ كل منا مكانه جلس أوليفيه بان في الصف الثاني وجاء المهدي عندئذ وكانت جبته نقية معطرة وعمامته قد رتبت طياتها ترتيباً يفوق المعتاد وعيناه مكحلتين لهما بريق شديد وكان يبدو عليه أنه عني عناية كبيرة لكي يؤثر بهيئته في الناس . ولا شك في أنه شعر بالسرور والزهو لرؤيته رجلاً يأتيه من بلاد بعيدة يعرض عليه المعاونة

وقعد على سجادة وطلب أوليفيه بان وحياءاً بابتسامة ولكنه لم يصافحه ثم أذن له بالعود وسأله عن سبب مجيئه وكنت أنا المترجم بينهما وأعاد أوليفيه بان حكايته فطلب مني المهدي أن أترجم أقواله بصوت عال يسمعه جميع الحاضرين . ولما انتهيت قال هو أيضاً بصوت عال : « لقد سمعت أقوالك وفهمت مقاصدك ولكني لا أتعتمد على معونة الناس وإنما أتعتمد على الله ورسوله . فإن أمتك غير مؤمنة ولا يمكنني أن أقعد مخالفة بيني وبين أمة غير مؤمنة وبمعونة الله سنهزم أعداءنا ونظفر بهم بواسطة الانصار والملائكة الذين يبعثهم إلينا النبي »

وعلا الهتاف من آلاف المجتمعين عند سماعهم هذا الكلام . ولما عاد النظام والسكون قال المهدي : « تقول أنك تحب الاسلام وتعترف أنه حق فهل تؤمن به ؟ وهل أنت مسلم ؟ »

فقال الفرنسي : « أجل . اني مسلم . لا إله الا الله محمد رسول الله » فمد المهدي يده فقبلها ولكنه لم يطالبه بيمين الولاء . ثم جاء ميعاد الصلاة فنظمت الصفوف وقضينا الصلاة . ثم وعظنا المهدي وشرح لنا الزهد في الدنيا وكيفية النجاء وخرجنا مع الخليفة الذي أشار على بان أخذ أوليفيه بان معي إلى عشتي وانتظر أوامره

وخلا كل منا إلى الآخر فتحدثنا ملياً لا نخاف شيئاً . وكنت أكره المهمة

التي جاء من أجلها ولكن أيضا كنت اتحسر عليه لجهله فأعدت عليه التحية ورحبت به وقلت له : «والآن يا عزيزي اوليفيه بان نحن هنا وحدنا ان يزعمنا أحد فلتكلم بصراحة . ولو اني لا أوافق على مهمتك ولكن أو كذاك بأنى سأعمل كل ما فى استطاعتي للمحافظة عليك . لقد عشت انا هنا جملة سنوات بعيدا عن المدنية فاخبرني عما يحدث الآن في العالم ؟ »

فقال لي : « انى أثق بك كل الثقة . واعرف اسمك واحمد المقادير التي جمعتني بك وهناك عدة أشياء تهلك معرفتها ولكن اقصر كلامي الآن على مصر »
فقلت له : « اخبرني اذن عن ثورة عرابي باشا والمقتلة التي حدثت بسببه ومدخل الدول واحتلال الانجليز مصر »

فقال . « انا محرر في جريدة ألابنديندانس التي يرأس تحريرها روشفور الذي أظن أنك سمعت عنه . وأنت تعرف ان فرنسا وانجلترا تقيضان في السياسة واننا نضع في وجه انجلترا كل ما يمكننا من العراقيل . ولم أحضر انا ولي صفة النيابة عن امتي بل جئت بصفتي الشخصية فقط ولكن الامة تعلم بمجيئي وتوافق عليه . وقد عرف ولاية الامور الانجليز مقاصدي وقبضوا عليّ في وادي حلفا لارجاعي ولكن لما بلغت اسنا اتفقت مع العرب على أن يحملوني سرّاً الى الابيض عن طريق الكعب . وقد استقبلني المهدي مرحبا بي كما ترى ولذلك فاني ارجو الخير على يده »
فقلت : « وهل تظن انه يقبل اقتراحك »

فقال : « اذا رفض اقتراحي فاني أظن انه يعمل لايجاد علاقات حسنة بينه وبين أمتي وهذا يكفيني . وأظن انه بما اني جئت مختارا فهو لا يعارض في سفرى ثانيا الى بلادى »

فقلت : « هذا مما أشك فيه . قل لي هل لك عائلة ؟ »

فقال . « نعم . لي زوجة وولدان في باريس وهم لا يغيبون عن بالى وارجو أن اراهم قريبا . ولكنى اخبرني لم يعارض المهدي في سفرى »

فاجبته قائلا . « اني اعرف هؤلاء الناس والى الآن لا أظن ان هناك ما يدعو الى الخوف على حياتك ولكنى لا اقدر ان اقول متى وكيف يمكنك أن تسافر الى

بلادك . وأرجو أن المهدي يرفض اقتراحاتك التي أظن أنها ربما تفيده ولكنني أرجو أيضا أن تعود سالما لعائلتك التي تنتظرك بنافذ الصبر »

وكنت قد أمرت الخدم باحضار شيء نأكله وطلبت احضار جوستاف كلوتز (خادم ودنغان الذي كان قد فر من جيش هكس وانضم الى المهدي) لكي يأكل معنا . وما كدنا نشرع في تناول الطعام حتى دخل اثنان من ملازمي الخليفة وطلب من اوايفيه بان أن يتبعهما . فدهش لهذه الدعوة الفجائية وبدأ عليه الخوف وهمس الى بان اسأل عنه . ودهشت انا ايضا لان لغته العربية لم تكن مفهومة فلماذا يطلبه الخليفة وحده ؟ وكنت أقول ذلك لمصطفى « كلوتز » واذا بملازم يطلبني انا ايضا . ولما دخلت على الخليفة وجدته قاعدا وحده وأشار علي بالعودة فعدت الى جانبه

ثم قال لي بلهجة الذي يسر الى شيئا . « يا عبد القادر انت واحد منا . قل لي ماذا تظن في هذا الفرنسي »

فقلت : « أظن انه مخلص وان قصده حسن . ولكنه لا يعرفك ولا يعرف المهدي ويجهل ايضا انكما تعتمدان على معونة الله وحده ولا تحتاجان الى معونة انسانية وان هذا هو سبب انتصاراتكم المتتالية لان الله يكون علي الدوام مع المؤمنين به »

فقال الخليفة : « لقد سمعت كلام المهدي عند ما قال انه لا يرغب في أية علاقة بينه وبين غير المؤمنين وانه يمكنه ان يهزم اعداءه بدون أن يستعين بهم » فقلت : « هذا أكيد . ولا فائدة من وجود هذا الرجل هنا ويمكنه أن يعود الى وطنه ويخبر الناس هناك بالانتصارات التي يحرزها المهدي وخليفته »

فقال الخليفة : « الله يفعل ذلك بعد . اما الآن فقد أمرته أن يبقى مع زكي طومال الذي سيعني به ويقدم له حاجاته »

فقلت له بلهجة التوسل : « ولكنه يجد مشقة عظيمة في التعبير عن فكره بالعربية اذ هو لا يزال يجهلها »

فقال الخليفة : « لقد تمكن من الوصول اليها بدون مترجم ولكنني مع ذلك اسمح لك بزيارته »

ثم أخذ يتكلم عن أشياء أخرى وأخذني لرؤية الخيول التي أهداها إليه زوجال من دارفور وكنت أعرف بعضها جيداً . وبعد أن تركته ذهبت الى اوليفيه بأن فوجده قد اسند رأسه على يديه وهو في تفكير عميق . ولما رأاني هب واقفاً وقال . « لا اعرف ماذا أقول عن كل هذا . لقد امروني أن امكث هنا واحضروا لي امتعى واكلوا بي رجلاً يدعى زكي . فلم لم يتركوني امكث معك ؟ »

فقلت بلهجة العطف : « هذه هي طبيعة المهدي والخليفة شرمته في ترتيب الأشياء على ضد ما يرغب الانسان . وانت الآن تمتحن في الصبر والطاعة والايمان ولكن لا تخش شيئاً فان الخليفة يتوجس مناشراً بحن الاثنين ويجب أن نبقي منفصلين حتى لا ننتقد أعماله »

قلت لزكي طومال : « يا صديقي هذا رجل غريب فانا اوصيك به خيراً فكن معه بحق صداقتنا القديمة »

فقال : « لن يحتاج الى شيء . استطيع تقديمه اليه »
ثم قال بتؤدة : « ولكن الخليفة امرني ان امنع الناس من مخاطبته فارجوكم الا تقابله كثيراً »

فقلت : « هذه الاوامر لا تنطبق عليّ . فاني كنت منذ برهة عند مولاى الخليفة فامرني أن ازور هذا الغريب . فاكرر عليك ان تعامله معاملة حسنة »

ثم عدت الى اوليفيه بأن وحاولت ان ادخل السرور في قلبه واخبرته بأن الخليفة قد منع الناس من مخالطته وان هذا الامر في مصلحته لان اختلاطهم به قد يؤدي الى أن يدسوا له عنده ويوقعوا به . اما انا فاني ازوره كلما سنحت الفرصة وفي اليوم التالي قرع طبل الخليفة ايدانا باستئناف السير . وكانت عادتنا ان نسير من الصباح الى الظهر ولذلك كان سيرنا بطيئاً . وكنا عند ما نقف اذهب الى الفرنسي فأجده قاعداً في خيمته كالعادة . وكانت صحته جيدة ولكنه كان يشكو من سوء الطعام . وقال زكي بعد ان سمع هذه الشكوى انه أحضر اليه العصيدة فلم يذقها . فأوضعت له انه غريب لم يألف بعد الطبخ السوداني واقترحت عليه أن أجعل خادمي يهيء له طبقاً من الحساء وآخر من الرز . وسألني الخليفة في تلك الليلة

هل رأيت أوليفيه بان ؟ فأخبرته بأنى قابلته وانى وجدته صائماً لا يستطيع ان يأكل العصيدة فجعلت خادمي يهيء له طعاماً لثلاً يمرض ولذلك أرجوه أن يسمح لى بذلك . فوافق الخليفة ولكنه قال : « ولكنك أنت تأكل من طعامنا فيحسن به أن يعتاد هذا الطعام في أقرب وقت . ثم أين مصطفى » كلوتز « فاني لم أره منذ بارحنا رهاد » فقلت : « أنه عندى يساعد الخدم على العناية بالخيول والجمال »

فقال الخليفة : « اطلبه الآن » ففعلت وجاء بعد برهة صغيرة ووقف أمامنا فقال له الخليفة : « أين كنت ؟ اني لم أرك منذ أسابيع . هل نسيت اني مولاك ؟ » فقال كلوتز في لهجة التأفف : « لقد ذهبت الى عبد القادر باذنك وانت لا تعنى بي وقد تركتني وحدي »

فقال الخليفة وهو غاضب : « سأعني بك في المستقبل » ثم هتف باحد الملازمين وطلب منه أن يخبر كاتبه ابن نجبا بان يضع مصطفى في الاغلال . وخرج مصطفى وهو لا ينبس بكلمة

ثم قال الخليفة : « ان عند مصطفى وعندك ما يكفيكما من الخدم فيمكنك ان تستغنى عنه . وقد كنت اخصصت به ولكنه تركنى بدون سبب . فأمرته بان يلزم أخي يعقوب ولكنه تركه أيضاً والآن عندما ذهب اليك قام في ذهنه انه يمكنه أن يستغنى عنا جميعاً »

فقلت : « اعف عنه فان الرحيم يعفو . ائذن له بالبقاء مع أخيك فلعل هذا يصلحه »

فقال : « يجب أن يبقى مصفداً عدة ايام حتى يعرف انى مولاه وهو ليس مثلك . فانت تأتي الي كل يوم »

وشعرت كأنه يقول هذا لكي يطمئني لأنه رأى قد تألمت ثم أمر بالعشاء فاحضر وأكلت أنا بشهوة أكثر من المعتاد حتى أوهمه بانى راض . وكان قليل الكلام وقت الطعام يبدو عليه كأنه مغموم . وبعد العشاء حاول أن يقول شيئاً يزيل به أثر الكآبة ولكن لهجته كذبتة . ثم انفصلنا وعدت الى خيمتى وانا أتأمل في

الحالة . فقد كنت عازما على أن أبقى على وفاق مع الخليفة حتى تتاح لي ساعة الخلاص ولكن صلفه وغطرسته وسوء أدبه قد جعلت هذا الواجب ثقيلًا على

وبعد أن سرنا خمسة أيام بلغنا الشط حيث وجدنا الآبار مسدودة فشرعنا في فتحها وأقمنا بعض العيش هناك لأن المهدي قرر الإقامة هنا بضعة أيام . وكنت وقت مسيرنا ازور أوليفيه بان فأجد آماله التي جاء بها تذهب بالتدريج . وكانت معرفته العربية قليلة جداً ولم يكن يؤذن له بالكلام الا مع العبيد الذين كانوا في خدمته . ولم تمض عليه أيام حتى نسي مهمته الأصلية وصار لا يذكر شيئاً سوى زوجته وأولاده . وكنت أحشه على التفاؤل بالمستقبل وان ينزع عن نفسه هذه الكآبة التي لا تنفعه في شيء . وكان الخليفة قد نسيه تقريبا فلم يكن يذكره ابداً

وبعد وصولنا بيوم الى الشط وافانا محمد الشريف شيخ المهدي السابق الذي كان قد طرده من طريقته وكان أصدقاؤه قد حشوه على ان يذهب اليه ويستغفره ولكن المهدي أحسن استقباله وسار معه بنفسه الى خيمته وأهدى اليه فتاتين حبشيتين جميلتين وخيولاً وغير ذلك . وبهذه المعاملة السمحة جذب المهدي اليه أنصار الشيخ محمد الشريف وضمن ولائهم

ولما غادرنا شرقلة جاءتنا الاخبار بان جيوش غوردون هزمت هزيمة منكرة . ولما بلغنا الشط جاءتنا تفاصيل هذه الهزيمة التي انتصر فيها الشيخ عبيد على محمد علي باشا في ام درمان . وكانت نتيجة هذا النصر ان الثائرين زادوا ضغطهم في حصار الخرطوم ولما أمدهم واد النجومي بجيشه وجد غوردون انه لم يعد في قوته أى فتق في القوة التي تحاصره .

وخرجنا من الشط الى الدويم حيث عرض المهدي الجيش عرضاً عظيماً وأشار الى النيل وقال : « ان الله قد خلق هذا النهر ووهبكم مياهه لتشربوها وقسم لكم أن تملكوا جميع ما على ضفتيه من ارض » فهتف له الجميع هتاف الفرح والسرور وكل منهم يعتقد ان تلك البلاد العجيبة قد وقعت فريسة للمهدين

وغادرنا الدويم الى طرة الحضرة حيث قضينا ايام العيد . وكان أوليفيه بان

الفرنسي قد أصيب بحمن ولما زرتة قال لي : « لقد جازفت جملة مجازفات في حياتي دون أن أفكر في نتائجها ولكن مجيئي هنا غلطة فادحة . وقد كان أصلح لي لو اني وقعت في يد الانجليز ومنعوني من تنفيذ ارادتي » . وكنت أجهد جهدي لكي أعزيه وأسري عنه ولكنه كان يقابل كلامي بهز رأسه

وفي العيد صلى المهدي بصوت عال غير عادي . ولما وصل الى الخطبة بكى واتعجب انتحاباً مرأ . وكنا نحن الذين لا يؤمنون بدعوته نعرف ان هذا البكاء نفاق ان يعقبه خير لاحد ولكن كانت له النتائج المرغوبة فان قبائل النيل الايض سارعت الى الانضواء تحت رايته ونحس الناس أشد تحمس لسماعهم خطبته

وبعد ان استرحنا يومين استأنفنا السفر وكنا نزحف زحفاً كالسلحفاة لكثرة جوعنا وازدياد عددهم يوماً بعد يوم . وكانت حالة اوليفيه بان تسوء كل يوم وتبين ان ما به هو التيفوس . ورجاني ان أطلب من المهدي بضعة نقود لان الذين يعنون به يضايقونه بما يطلبونه منه . ففعلت وأمر المهدي أمين بيت المال بان يعطيه خمسة جنيهات ودعا له بالشفاء . وأخبرت الخليفة بحال بان وبأن المهدي وهبه خمسة جنيهات فلامني لاني فعلت ذلك بدون اذنه . وقال لي : « اذا مات هنا فانه يكون سعيداً فان الله بقدرته قد نقله من الكفر الى الايمان »

وفي صباح اليوم التالي أرسل إليّ بان فذهبت ووجدته ضعيفاً لا يقوى على النهوض . وكان قد مضى عليه يومان لم ينق فيهما شيئاً من الطعام الذي كنت أرسله له ولما قعدت الى جانبه وضع يده في يدي وقال . « لقد جاءت ساعتى . وانا أشكر لك حنوك عليّ ورعايتك لي . وآخر ما أطلبه منه من المعروف اذا نجوت من هؤلاء المتوحشين وأتيحت لك الفرصة بزيارة باريس ان تذهب الى زوجتي المسكينه وأولادى وتخبرهم انى وانا أموت كنت لا أفكر الا فيهم »

وكان وهو يقول هذا الكلام تنحدر العبرات على خديه الغائرين . وعدت الى تعزيتة وتقويته ولكنى سمعت قرع الطبول فاضطرت الى تركه . وكانت هذه آخر مرة رأيته فيها . وأمرت أحد خدمي المدعو نظرون أن يبقى معه . ثم ذهبت الى

الخليفة فأخبرته بحالته السيئة ورجوته أن يأمر بإبقائه في إحدى القرى حتى يشفي .
فوافق الخليفة على مقترحي وطلب مني أن أذكره بهذه المسألة عند الغروب
ثم جاء الغروب ولكن المريض لم يجي . بل جاء نظرون وحده فقلت له وكان
يتفرز من خاطر يساوره : « أين يوسف ؟ » ويوسف هذا هو اسم بوليفيه بان الذي
تسمى به حين صار مسلماً

فقال : « مات سيدي . وهذا سبب تأخيرنا . وقد دفناه »
فدهشت وقلت : « كيف مات . أخبرني عما حدث »

فقال : « اشتدت به علته حتى لم يستطع الركوب ولكننا كنا مضطرين إلى السير .
وكان من وقت لا آخر يغيب عن وعيه ثم يفيق ويتكلم بكلمات لا نفهمها . فوضمنا
على سرج الفرس عنجربياً وربطنا به وجعلناه يرقد عليه ولكنه كان من الضعف
بحيث لم يتأسك فوقه فوقع فجأة ولم يبق بعد ذلك ثم مات فكفناه في شال من القطن
ودفناه وأخذ زكي جميع أمتعته »

فتبين لي أن مرضه كان قد بلغ به وأن السقطة قد عجلت الموت وكانت السبب
المباشر له . ياله من مسكين . جاء إلينا وآماله لاتسعه ثم تكون هذه خاتمة
وذهبت في الحال إلى الخليفة فأخبرته بوفاته فقال : « انه لسعيد » ثم أرسل
إلى زكي أحد الملازمين لكي يأمره بالاحتفاظ بأمعته ثم أرسلني أنا إلى المهدي لكي
أخبره بوفاته . وتأثر الخليفة وقال بضع كلمات تدل على عطفه وحنانه ثم تلا صلاة الموتى
وبعد ثلاثة أيام اقتربنا من الخرطوم وصرنا على مسيرة يوم منها . وكنا ونحن
في الطريق قد رأينا بواخر غوردون في النهر وبدأ لنا أنها أتت إلينا للاستطلاع ثم
عادت بدوران تطلق عياراً

ولما جاء المساء وضر بنا خيامنا جاءني ملازم من المهدي وطلب مني أن أذهب
إليه فذهبت ووجدته قاعداً مع عبد القادر وإدام مريم وكان قاضياً سابقاً وله نفوذ
عظيم بين قبائل النيل الأبيض . وكان حسين خليفة هناك فصرت أنا رابعهم
فقال المهدي : « بعثت في طلبك لكي تكتب إلى غوردون أن يسلم المدينة
فلا يتعرض للهزيمة . وأخبره بأنني المهدي الصادق فعليه تسليم الحامية فيسلم . وأخبره

أيضاً انه اذا رفض التسليم فاننا سنقاتله جميعاً وقل له انك ستقاتله أنت بنفسك وان النصر مضمون لنا وانك انما تقول له ذلك حقناً للدماء »

فالتزمت الصمت حتى دعاني حسين خليفة للإجابة فقلت : « مولاي المهدي . أرجوك ان تنصت اليّ فاني أريد ان أكون أميناً مخلصاً فلا تغضب اذا وجدت في قولي ما يخالف رأيك . فاني اذا كتبت الى غوردون أقول له انك المهدي المنتظر فانه لا يصدقني واذا هددته باني أقاتله بيدي فهو لا يخاف من ذلك شيئاً . ولما كانت رغبتك الوحيدة هي حقن الدماء فاني أطلب منه التسليم فقط . وسأقول له انه ليس عنده من القوة ما يمكنه من قتال المهدي وانه لا أمل له في الحصول على معونة أحد ثم أقول اني سفير الصلح بينك وبينه »

فقال المهدي « أنا موافق على ما تقول . اذهب الآن واكتب الخطابات وفي الغد تحمل الى غوردون »

فذهبت الى خيمتي وكانت خيمتي قد تمزقت وبليت فاهديتها الى بعض من حولي ونصبت بدلا منها بعض الملابس على عصي كنت اجلس تحتها وأتظلل بها في النهار . اما في الليل فكنت أنام في الخلاء . وبحثت عن مصباح وأخذت في كتابة الخطابات وأنا قاعد على عنجريب . وكتبت أولا بضعة سطور لغوردون باللغة الفرنسية قلت فيها اني قد فقدت المعجم الفرنسي لان المهديين قد أحرقوه ولذلك فانا اكتب بالالمانية حتى يمكنني التعبير بأسهاب عن اغراضى — وقلت اني أومل ان ألقيه قريباً واني أدعو الله لنصره . وقلت أيضاً ان بعض الشايخيه الذين انضوا قريباً الى راية المهدي لم يفعلوا ذلك الا خوفا على أنفسهم وأولادهم وان صدورهم لا تحمل الحقد او البغضاء لغوردون

ثم كتبت خطابا مسهبا بالالمانية قلت فيه اني سمعت من جورج كلامنتينو انه (أى غوردون) قد غضب من تسليمي للمهدي واني لذلك أوضح الحقائق راجياً منه ان ينظر فيها ويعتبرها ثم شرعت في شرح التجريدات التي جردتها لمقاتلة السلطان هرون » ثم قلت انه عند بدء الثورة المهدية كان الضباط الذين في جيشي يسمعون أخباراً عن عرابي وانه طرد الاوربيين من مصر وان هزائمي تعزى الى انى غير

مسلم . فاضطرت لذلك الى القضاء على هذه الدسائس بالادعاء بانى مسلم ونجحت بهذه الطريقة الى ان اصطم جيش هيكس واتقطع كل أمل في المعونة . وأخبرته عن تناقص جيشى بالحروب المتوالية حتى صار عدده لا يبلغ بضعة مئات من الجنود وان الذخيرة نفدت او كادت . وان الضباط والجنود طالبونى بالتسليم فلم يكن بد بعد ذلك بصفتى أوريبا وحيداً من الخضوع . وأخبرته بان هذا التسليم كان من أشق الاعمال عليّ . ولكنى شعرت باعتبارى ضابطاً نمسويانياً عملت عملاً لا أخجل منه . ثم قلت انى بما سلكته من المسلك الحسن مع الخليفة والمهدى قد حصلت على ثقتهما حتى أذناني بالكتابة اليه بحجة انى أطلب منه التسليم ولكنى أعرض عليه نفسي لكي أقاتل معه حتى الموت او النصر . فاذا وافق على قرارى لكي انضم اليه فانا أرجو ان يكتب اليّ بضعة أسطر بالفرنسية بهذا المعنى . ولكن لكي تجوز الحيلة يجب ان يكتب اليّ بضعة سطور بالعربية أيضاً بطلب منى فيها ان استأذن المهدي لكي أذهب الى أم درمان للمفاوضة فى الصلح والتسليم ثم أشرت الى ولاء صالح بك وبعض المشايخ الآخرين له ولكنهم لا يمكنهم ان يفروا اليه لانهم فى هذه الحالة يضعون أولادهم وزوجاتهم

ثم كتبت خطاباً آخر بالالمانية الى القنصل هانسل أرجوه ان يعمل كل ما فى جهده لكي أعود الى الخرطوم وانى اذا رجعت الى الخرطوم أكون ذا فائدة كبيرة لانى أعرف مقاصد المهدي ومبلغ قوته وما الى ذلك . ولكنى أخبرته بانه فى حالة انعقاد النية على تسليم الخرطوم لا داعي لى للهرب فقد ذاعت اشاعة بين رجال المهدي مقتضاها انه اذا لم تأت معونة انغوردون فانه سيسلم . وبدهى انه اذا سلم غوردون ووجدنى المهدي قد فررت اليه فانه يصرف غضبه كله الىّ لانى عاونت عدوه عليه وقد بدا لى أنه من الانصاف والعقل أن أتأكد من هذه المسألة . وكانت الاشاعات القائلة بان حامية الخرطوم قد سئمت القتال تروج بيننا وانها تنوى التسليم فشددت لذلك من عزم هانسل وقوته على الثبات وان قوات المهدي ليست بالكثرة التى يشاع عنها . وانه يكفى الجيوش المصرية ان تثبت وتنشط حتى يحق لها النصر وحضضته على الثبات ستة أسابيع على الاقل حتى تتمكن النجديات من انجادهن (ولما

عدت الى القاهرة في سنة ١٨٩٥ علمت ان خطاباتي هذه قد بلغت الى ولاية الامور الانجليز وطبعت مع يوميات غوردون)

وأخبرته ان عندنا اشاعة تقول ان الباخرة الصغيرة التي أرسلت الى دقلة قد تحطمت في وادي غمر ولكني لا أعرف مبلغ هذه الاشاعة من الصحة او الكذب وفي صباح اليوم التالي في ١٥ اكتوبر أخذت هذه الخطابات وذهبت الى المهدي وأخبرته بان يرسلها مع احد خدمي الى أم درمان . ثم ذهبت وبحشت عن الصبي مرجان فوراً وكان عمره يومئذ ١٥ سنة فسلمته الخطاب أمام المهدي . وأمر المهدي واد سليمان بان يعطيه حمزاً ومقداراً من النقود . وقبل ان يغادرنا مرجان أمرته وأكدت عليه بالا يخاطب أحداً سوى غوردون والقنصل هانسل وان يقول لهما باني أرغب في الذهاب اليهما .

وفي الظهر جاءنا فرسان من بربر وأكدوا لنا رواية تحطيم الباخرة وقتل الضابط ستيوارت ومن معه . وأحضروا معهم جميع الاوراق والوثائق التي كانت في الباخرة وأمرني الخليفة بان أقرأ ما هو مكتوب منها باللغات الاوربية . ووجدت بين هذه الاوراق جملة خطابات مرسله من الخرطوم ووثائق رسمية أخرى

وكان أهم ما في هذه الاوراق التقرير الحربي الذي يصف الحوادث اليومية في الخرطوم . ولم يكن ممهوراً بتوقيع ولكنني لم أشك في أن كاتبه هو غوردون ولم أطلع الا على جزء من المكاتبات التي لم أنه من قراءتها قبل أن دعاني المهدي وسألني عن محتويات هذه الاوراق فاجبته بان معظمها رسائل شخصية وان بها تقريراً حريياً لم أفهمه . وكان بين هذه المكاتبات اسوء الحظ بعض الخطابات والتقارير المكتوبة بالعربية تمكن المهدي والخليفة أن يفهما منها على الحالة في الخرطوم . وكان بينها خطاب نصفه بالارقام ونصفه بالحروف مرسل من غوردون الى الخديو وقد تمكن عبد الحليم افندي الكاتب السابق في كردوفان ان يفهمه . ووجدت بين تقارير القنصليات خبر وفاة صديقي ارنست مارتو الذي مات في الخرطوم من الحمى

وناقشني المهدي في الاوراق التي ترسلها الى غوردون لكي تقنعه بان الباخرة قد تحطمت وان الضابط ستيوارت قد قتل وكان يعتقد ان هذا يجعل غوردون

مضطراً الى التسليم . فاشرت على المهدي بأن أحسن ما يقنعه هو تقريره المربى وأنه يجب لذلك رده اليه . وطال الجدل في هذا الموضوع وأخيراً استقر الرأي على مقترحي .

وفي مساء اليوم الثاني عاد الى مرجان الذي كنت أرسلته بخطاب الى غوردون وغيره ولكنه لم يحضر معه جواباً . فلما سأله عن سبب ذلك قال انه عندما وصل الى قلعة أم درمان وسلم الخطابات خرج اليه بعد مدة ضابط القلعة وأخبره بأن يعود وأنه لن يجاب على الخطابات

وأخذت هذا الصبي في الحال الى المهدي فأعاد هذا الجواب ثم ذهبت الى الخليفة وأخبرته بما جرى . وفي المساء نفسه دعاني المهدي وأمرني بأن اكتب خطاباً آخر وقال انه متأكد ان غوردون سيجواب عندما يسمع بتحطيم الباخرة . وأبدت استعداداً في الحال لطاعة أمره وأشار علي بأن يحمل مرجان هذا الخطاب أيضاً فذهبت الى مكاني على العنجريب وقعدت الى ضوء مصباح ضعيف وكتبت بضع كلمات عن فقدان الباخرة و وفاة ستيوارت وذكرت جملة أشياء كنت قد شرحتها في خطاباتي السابقة وقلت له انه اذا كان يعتقد اني اتيت أمراً يخالف واجبات الضابط وان هذا هو الذي منعه من الاجابة على خطاباتي فانا أرجوه ان يتيح لي الفرصة لكي أدافع عن نفسي حتى يحكم علي حكماً سديداً .

وفي الصباح ذهبت مع مرجان الى المهدي وأمر المهدي احمد واد سليمان ان يعطى مرجان حملاً وسلمه خطابي ثم سافر مرجان وجاءنا بعد يوم ومعه جواب من هانسل مكتوب بالالمانية ومعه ترجمة بالعربية وهذا نصه :

عزيزي سلاطين بك

لقد وصلت خطاباتك وأنا أعرض عليك ان تمضي الى طاية راغب بك (في قلعة أم درمان) وانا أرغب في أن أخطبك بشأن الاجراءات الخاصة بتخليصنا . ويمكنك ان ترجع بعد ذلك الى صديقك .

المخلص لك

هانسل

ولم أفهم المقصود من هذا الخطاب . هل غايته الحقيقية خدع المهدي ؟ اذ لو كانت هذه هي الغاية لكانت الصيغة العربية كافية ثم خطر ببالى انه كان يمكنه ان يوضح غرضه باللغة الالمانية ولكن لعله توقي ذلك خشية وجود احد في معسكرنا يفهم هذه اللغة فيغرر بي . واعتبرت الفاظ الخطاب فوجدته يقصد او يلح الى انضمامه اليها . وقد كانت راجت بيننا اشاعات عن خوفه من سقوط المدينة ورغسته هو وسائر الضباط النمساويين في التسليم المهدي . ولكن لم يكن من الممكن ان يدت الانسان في هذه النية . ثم قوله : « ويمكنك بعد ذلك ان ترجع الى صديقك » هل يقصد به رجوعى الى المهدي او رجوعى الى غوردون . والحق انى قد غطى على المعنى ولكنه كشف لى بعد مدة قليلة

واخذت الخطاب فى الحال الى المهدي وأخبرته بان النص العربي يوافق النص الالمانى . ولما أتم قراءته سألتى هل أرغب فى الذهاب اليه فاجبت بانى مستعد لتلبية أمره وانى على الدوام طوع اشارة

فقال لى : « انى أخشى انك اذا ذهبت الى أم درمان ولقيت القنصل يقبض عليك غوردون ويقتلك لانى لا أعرف السبب فى عدم كتابته اليك لو كان يحسن بك الظن »

فقلت : « لست أعرف سبب سكوتة عن الرد وربما كان عنده من الاوامر ما يمنعه من مخاطبة العدو . ولكنى أظن انه يمكن تسوية الحالة عندما التقى بـ « هانسل » وأنت تقول ان غوردون ربما يقبض على » ولكنى لا أخشى ذلك ولو حدث هذا لامكنك ان تخلصنى . اما انه يقتلنى فهذا مالن يحدث »

فقال المهدي . « اذن يمكنك ان تستعد للسفر وتنتظر أوامرى »

وكنيت عند ذهابى الى عشة المهدي قد سمعت بمجئى . لبثون بك من بحر الغزال . وعند رجوعى الآن ذهبت اليه ووجدته واقفاً بباب الخليفة ينتظر الاذن بدخوله . ولم يكن من القواعد المرعية ان يخاطب الانسان أحدا لم يحصل بعد على عفو المهدي فقال لى انه يؤمل الامل كله ان أذهب الى الخرطوم . وقال أيضا انه ترك خدمه وأتباعه على مسيرة ساعات من المعسكر وطلب منى أن استأذن الخليفة فى

محيثهم . وبعد دقائق دعاه الخليفة فعفا عنه وأذن له بإحضار أتباعه وأخبره أنه سيقابل المهدي .

وذهبت أنا إلى مكاني وقعدت على العنجريب وأنا في أشد القلق انتظر الأوامر لكي أذهب إلى أم درمان . وكان يخطر ببالى وأنا قاعد أن المهدي ربما قد غير فكره ورجع عن عزمه بشأن سفرى

وأخيراً جاءنى خادم يخبرنى أن الخليفة أرسل ملازميه فى طلبى . فلما نهضت أخبرنى الملازم أن أسير معه إلى عشة يعقوب حيث كان أخوه الخليفة . فسارعت إلى عماتى فتعممت واحتزمت وسرت وراءه . ولكن لما بلغنا يعقوب قيل لنا إن الخليفة قد غادرها إلى عشة أبو انجه . وداخلنى شك من هذا التطواف فى الليل إذ لم تكن هذه عادتنا وكنت أعرف مقدار ما عند هؤلاء الناس من المكر والخديعة فاستعددت لأى حادث . ولما بلغنا زريبة أبو انجه أذن لنا بالدخول . وكانت هذه الزريبة واسعة وكان بها مظلات من قماش كل منها قائمة على عمود من خشب وكل واحدة منفصلة عن الأخرى بحائط من الكرة . وذهبنا فى ضوء مصباح إلى إحدى هذه المظلات فوجدت يعقوب وأبو انجه وفضل المولى وزكى طومال والحاج زبير قاعدين فى حلقة يتكلمون بمجد ونشاط . وكان وراءهم بضعة رجال قد وقفوا وهم مسلحون ولكنى لم أجِد أثراً للخليفة الذى قيل لى أنه يستدعينى وتأكدت عندئذ أن هناك مؤامرة على . وتقدم الملازم وخاطب يعقوب ثم أمرت بالتقدم وقعدت بين الحاج زبير وفضل المولى مواجهها لأبو انجه

فخاطبنى أبو انجه قائلاً . « لقد وعدت المهدي يا عبد القادر أن تخلص له . وواجب عليك أن تنف بوعدك . ثم عليك أن تطيع الأوامر وإن كان فيها ما يؤلمك . أليس كذلك ؟ »

فقلت . « هذا حق . وانت يا أبو انجه إذا سلمت لى أمرا من المهدي أو من الخليفة تجدننى مطيعاً »

فقال . « انى أمرت بالقبض عليك ولكن لا اعرف السبب » وعند ما قال

هذا استل الحاج زير سيني وكنت قد وضعت على ركبتي كما هي العادة ثم سلمه
لزي طومال وقبض بكلتا يديه على ذراعي اليمنى
فقال للحاج زير . « لم آت هنا لكي أقاتل فعلام تقبض على ذراعي ولكن
افعل ما أمرت به يا ابو انجه »

وهكذا قضى على بما كنت اقضى به على غيري ، ثم وقف ابو انجه والحاج زير
وخلى ذراعي . ثم أشار ابو انجه الى مظلة في الظلام وقال . « اذهب الى هذه المظلة »
فرافقني السجنان ومعه ثمانية آخرون الى المظلة ثم طلب مني ان أقعد على الارض
وأحضرت لي السلاسل . وقعدت فوضع في كل من ساقي حلقة طرقت حتى تضام
طرفاها . ثم وضع حول عنقي حلقة أخرى وبها سلسلة كانت تعوق حركة عنقي .
وتحمّلت كل ذلك وأنا صامت . ثم غادرني الحاج زير وقال لي الحارسان اللذان
تركا معي ان أقعد على الحصير الذي بجانبني

والآن بدأت أفكر وكنت ألوم نفسي على اني لم أجازف وأفر الى الخرطوم
على جوادى . ولكن هل كان غوردون يقبلني وقد صرت بعيداً عن الخطر كما
قال المهدي ؟ ولكن ما هو حظي الآن ؟ هل هو حظ محمد باشا سعيد وعلى بك
شريف ؟ ولم تكن عادتي التفكير في همومي الشخصية وتذكرت قول المادبو . « كن
مطيعاً وصبوراً . اللي عمره طويل ييشوف كثير » . وقد مارست الطاعة والآن يجب
أن أمارس الصبر . أما العمر الطويل ففي يد الله وحده

وبعد ساعة لم أُنمها بالضرورة رأيت عدداً من الملازمين يقتربون مني ومعهم
المصاييح وعندما اقتربوا رأيت بينهم الخليفة عبد الله فوقفت وانتظرت .

ورآني واقفاً أمامه فقال . يا عبد القادر هل سلمت أمرك للقدر ؟

فقلت بلهجة الاطمئنان . مذ كنت طفلاً . لقد اعتدت الطاعة والآن يجب ان

أطيع أردت أو لم أرد

فقال . ان صداقتك لصالح واد الملك وخطاباتك لغوردون فقد جعلتنا نشبه

في أمرك . وهذا هو ما أُلجأني الى أن أجبرك على أن تسير في الطريق القويم

قلت . « اتى لم أخف صداقتى مع صالح واد الملك . انه صديق وأظن انه مخلص لك . أما خطاباتي لغوردون فقد أمرني المهدي أن أكتبها »

فقال الخليفة : هل أمرك بأن تكتب ما كتبت ؟

قلت : « لقد كتبت ما أمرني به المهدي ولا يمكن أحداً أن يعرف محتويات هذه الخطابات سواي انا ومن كتبت اليه . وكل ما أرجوه يا مولاي هو العدل وألا تصفى لاقوال الدسائس »

ثم غادرني فحاولت ان انام ولكن اعصابي كانت هائجة . فكانت الخواطر المختلفة تمر برأسي . وكان الحديد حول عنقي وساقتي يؤلمني أشد الألم فلم يكن النوم مستطاعا . وما كدت اغنى تلك الليلة برهة قصيرة . وفي شروق الشمس جاءني ابو انجه ومعه خدم يحملون طعاما . وقعد على الحصير الى جانبي ووضع بيننا الطعام . وكان الطعام فاخراً يحتوي على فرايج ورز ولبن وعسل ولحم مشوي وعصيدة . ولكني قلت له انه ليست عندي شهوة للطعام فقال لي « أظنك خائفا يا عبد القادر ولهذا لا يمكنك ان تأكل » فقلت : « كلا . لست أخاف شيئا . وانما لا أشتهي الطعام الآن . ومع ذلك سأكل شيئا حتى لا تستاء » ثم بلعت لقمتين وكان ابو انجه يتودد الى ويظهر لي اني ضيفه المكرم

ثم قال لي : « لقد استاء الخليفة لانك لم تظهر له خضوعا وقال انك عنيد . وان هذا في رأيه هو السبب في عدم خوفك »

قلت « هل كان يجب على أن اتقى نفسي على قدميه واطلب منه العفو عن جرائم لم ارتكبها . انا في يديه فليفعل بي ما يشاء »

فقال : « غداً سنتحمل ونسير نحو الخرطوم ونضيق الحصار على المدينة ثم نهجم هجمة واحدة وسأطلب من الخليفة أن تبقى معي وسيكون هذا أهون عليك من ذهابك الى السجن »

فشكرته وغادرني

وقضيت اليوم كله وانا وحدي . وكنت اؤدي الصلاة بعناية ام الحرس وغيرهم

وكان في يدي مسبحة اسبح بها كما هو الشأن بين المسلمين الطيبين . ولكن الحقيقة
اتي كنت اكرر عليها صلاة النصارى . (ابانا الذى في السموات)
وكنت اري على مسافة مني خيولى وخدمى وسائر امتعى . وجاء احد خدمي
الى وأخبرني بانه أمر بان يلتحق بابي انجه

وفي بكرة اليوم التالى قرعت الطبول للتقدم فقوضت الخيام وحملت الجبال
وتحرك المعسكر باجمعه . وكان الحديد في سافي يمنعني من المشي . فاحضروا الى حماراً
وكانت السلسلة المربوطة بها الحلقة التى حول عنقي طويلة تحتوى على ٨٣ حلقة كنت
اسلى نفسي بعدها واطويها طيات حول جسمي وحملت الى ظهر الحمار يسندني من
كل جانب رجل حتى لا اقع وكنت وانا سائر يمر بي اصدقائي فيتحسرون ولا
يجسرون على مخاطبني . ووقفنا بعد الظهر على ربوة امكنتنا من رؤية نخيل الخرطوم
فشعرت بالشوق الشديد يغالبني للانضمام الى الحامية

ثم حططنا وامرنا بضرب خيامنا مؤقتاً تحت امرة الخليفة عبد الله . اما الامراء
الآخرون فقد ذهب كل منهم بجنده واختار مكاناً لمسكره . وكنت في هذا الوقت
قد شعرت بالجوع الشديد واشتقت الى شىء من الطعام الذى قد قدمه لى ابو انجه
فى الامس . ولكن ابانجه كان قد التحق بالخليفة وكان قد نسينى

وحدث ان زوجة احد الحراس اهتدت اليه واحضرت له خبزاً من الذرة
فاكلمته معه وفى الصباح استأنفنا مسيرنا وبقينا نمشي نحو ساعة ثم حططنا ثانياً في
المكان الذى اختير نهائياً للمعسكر

وكان ابو انجه قد رتب كل شىء لسكى ابقى معه ولا ارسل الى السجن فنصبت
لى خيمة ممزقة قديمة وضع حولها زريبة من الشوك فقعدت تحت هذه الخيمة ووضع
على بابها ديسة من الشوك يليها الحرس

وأمر المهدي الآن بتضييق الحصار . وفى المساء ارسل عدداً من الامراء الى
الضفة الشرقية لمعونة واد النجومي وابي حرجه وطلب من جميع اهالى هذه الناحية
أن ينضموا الى المحاصرين . وأمر ابو انجه وفضل المولى بان يذهب الى قلعة ام درمان
لمحاصرها وكانت تقع على بعد نحو ٤٠٠ متر من النهر من الضفة الغربية وكان يدافع

عنها فرج الله باشا وهو ضابط سوداني ترقى من رتبة كابتن في عام واحد الى أن صار قائدا للقلعة . وكان الذي رقاها بهذه السرعة غوردون . وتمكن ابوانجه من أن يحفر الخنادق بين القلعة والنهر ويضع فيها جنوده علي الرغم من اطلاق النار عليه من البواخر والقلعة . بل تمكن ابوانجه من أن يفرق احدى هذه البواخر وهي الباخرة « حسينية » بواسطة مدفع سد مرماء اليها . ولكن البعارة فروا الى الخرطوم واهمل امرى مدة الحصار وكان حرسى يغير كل يوم وكانت معاملتهم تختلف . وكانت الرقابة تشدد على اذا كان الحرس مؤلفا من عبيد اسرى ولكن اذا كانوا جنوداً يعرفونى فاتى كنت ألقى منهم بعض الحرية وكانوا يؤدون لى الخدمات الصغيرة ولكنهم كانوا يمنعونى من مخاطبة أى انسان . وكان طعامى سيئاً وكان ابوانجه مشغولاً بالحصار فبقيت انا مدة غيابه تحت رحمة زوجاته وكان قدامهن بطعامى وحدث فى احدى المرات ان حارسى كان أحد جنودى القدماء فبعثته برسالة الى رئيسة زوجات ابى انجه أشكو اليها عدم اطعامى مدة يومين : فأرسلت انى جوابها تقول : « هل يظن عبد القادر اننا نسمنه هنا بينما عمه غوردون باشا لا عمل له الا فى القاء القنابل على زوجنا الذى ربما يقتل بسببه »

وقد كانت هذه المرأة مصيبة فى قولها اذا اعتبرت وجهة نظرها

وكان يسمح أحيانا لبعض اليونان بالحجىء الى ومخاطبتى وكانوا يخبرونى بما يجد من الاخبار

وكنا عند ما حططنا رحالنا هنا قد قبض على لبتون بك وقيد بالسلاسل بتهمة محاولة الانضمام الى غوردون . ولما فتشت أمتعته وجدت فيها وثيقة وقع عليها الضابط مؤداها انه اضطر الى تسليم المديرية وأخذت زوجته وابنته البالغة من العمر خمس سنوات الى بيت المال . وكانت زوجته زنجية فى خدمة « روسيت » القنصل الالماني من الخرطوم ولما عين مديراً فى دارفور ذهبت معه . فلما مات فى الفاشر التحقت بلبتون بك وسافرت معه الى بحر الغزال . وأمر الخليفة بتصفية جميع ما يمتلكه لبتون ولكنه اذن لزوجته لبتون وابنته بان يكون معهما خادم

وفى أحد الايام جاءني جورجى كالامنتيو وأخبرنى بان الجيش الانجليزى

بقيادة واسون يتقدم نحو دقله . ولكنه لا يزال في صعيد مصر وان كانت الطلائع قد بلغت دقله

وكان غوردون بعد ان اذاع منشور اخلاء السودان قد أفهم أهالى الخرطوم انه سيجىء اليهم جيش لانجادهم . وتمكن من بث روح الشجاعة والرجاء في جنود الحامية ؟ ولكن بقى الشك فى ميعاد مجيى الجيش وهل يأتى قبل فوات الفرصة ؟
وفى أحد الايام جاءني ملازم من قبل الخليفة وطوق عنق وساقى بملفات أخرى غير ما كان عليّ وأضاف اليها قضياً من حديد وظننت ان الغرض من ذلك اذلالى . وكنت لا أقوى قبلاً على النهوض لثقل ما أحمله من القيود فلم تزد اضافة هذه القيود الجديدة شيئاً لاني كنت راقداً طول الوقت

ومضى اليوم التالى دون ان يحدث فيه شيء . وكنت أسمع من وقت لآخر فرقعة العيارات بين المحصورين والحاشرين ولكن اليونان الذين كانوا يزودونني قبلاً من الاخبار منعوا الآن من مخاطبتى فبقيت لذلك فى جهل من كل ما يجرى حولى
وفى احدى الليالى بعد غروب الشمس بنحو أربع ساعات عند ما كان النوم يتسلل الى اعضائى وينسينى ما أنا فيه أمرنى الحارس بان أنهض فى الحال فوقفت ورأيت ملازمى الخليفة الذين أخبرونى بان الخليفة فى أثرهم قادم الى . ثم رأيت جماعة تحمل مصابيح فأخذت أسائل نفسي : لم يأتى الى الخليفة الآن ؟

ولما اقترب الخليفة منى قال لى بلهجة الملاطفة : « يا عبد القادر اقعد »
ثم بسط له خدمه فروته فقعده الى جانبي وقال : « هنا ورقة أرغب فى ان تخبرنى عما فيها لكي تثبت لى امانتك » فأخذت الورقة وقلت : « سأفعل يا مولاي »
وكانت الورقة لا تزيد فى الحجم عن نصف ورقة سيجارة وقد كتبت من الجانبين وكان مكتوباً عليها باللغة الفرنسية ما يلى :

« عندى عشرة آلاف رجل تقريباً . ويمكننى الدفاع عن الخرطوم الى آخر شهر يناير . والياس باشا كتب الى . وقد أجبر على ذلك . انه رجل مسن وغير كاف . انا اغفر له . جرب محمد ابو حرجه او غن لنا أغنية أخرى »

« غوردون »

ولم يكن هناك ما يشير الى الشخص المرسل اليه هذه الرسالة . وكنت متأكداً
بانه ليس في معسكرنا من يعرف الفرنسية وهذا هو سبب مجيئ الخليفة الى
ثم قال الخليفة وقد نفذ صبره : « قل هل فهمت مضمونها ؟ »
فقلت : « الرسالة من غوردون وهي مكتوبة بخطه بلغة جفرية لا يمكنني ان
أفهمها »

فقال الخليفة وقد بدا عليه الغضب : « ما ذا تقول . أوضح ما تقول »
فقلت : « هنا كلمات لا أدرك معناها . فان لكل كلمة معنى خاصا ولا يمكن
ان يفهمها الا من اعتاد تفسير الجفر . ولو سألت أحداً من الموظفين السابقين لأؤكد
لك صحة قولي »

فهاج الخليفة وصاح بي غاضبا : « أليس في الرسالة اسم الياس باشا واسم
محمد ابو حرجه »

فقلت بلهجة التهكم : « لقد صدق من أخبرك بهذا فاني يمكنني ان اقرأ اسميهما
ولكن لا أفهم شيئا عما يقصد من ذكرهما . واهل الذي أخبرك بهذين الاسمين
يمكنه ان يفسر سائر ما في الرسالة . ثم اني أجدها أيضا رقم ١٠٠٠٠ ولكن
لا أعرف هل المقصود منه عدد الجنود او غير ذلك »

فأخذ الورقة من يدي ونهض وهو يقول : « اني هما عجزت عما في هذه الورقة
فان غوردون سينهزم وستسقط الخرطوم » ثم تركني مع الحرس

والآن عرفت ان غوردون يقول انه يمكنه الثبات الى آخر يناير وكنافي
أواخر ديسمبر فهل يمكن اتقاذ البلدة قبل فوات الفرصة ؟ ولكن ما ذا يعني من
كل ذلك ؟ هاء نذا مقيد بالسلاسل ولست أقدر على عمل شيء . يغير مجرى الحوادث
وبلغنا اول يناير الذي يقول غوردون انه يمكنه ان يثبت فيه الى آخره وأخذت
أشعر ان الساعة الحاسمة تقترب

واشتد القتال بين قلعة أم درمان وبين الدراويش وكان فرج الله باشا يجهد
جهده وحاول على الرغم من قلة عدد الحامية ان يفتق فتقا في القوة المحاصرة ويخرج
ولكنه رد الى القلعة ثانيا . وفقدت مؤونة القلعة وشرع عندئذ في مفاوضات

التسليم . وكان فرج الله قد خاطب غوردون بالرايات عن التعليمات الواجب اتباعها فاذن له غوردون في التسليم اذالم يكن قادرا على الثبات . وعفا المهدي عن جميع رجال الحامية ولما خرجت الحامية دخل رجال المهدي ولكنهم خرجوا في الحال لان مدفعية الخرطوم امطرتهم وابلا من القنابل وكان في القلعة مدفعان ولكن مداهما اقصر من المسافة التي بينهما وبين البلدة وحدث التسليم في ١٥ يناير سنة ١٨٨٥

ووقع ان ام درمان سقطت فان المهدي لم يرسل أى امداد للمحاصرين في شرقي الخرطوم وجنوبها لانه كان يعرف ان القوة المحاصرة تكفي المهمة المنتدبة لها وكان كما كانت حامية الخرطوم كلاهما ينظر بعين القلق الشديد الى الشمال حيث تكون الكلمة الفاصلة

وكان غوردون باشا قد ارسل الى متهمه خمس بواخر بقيادة خشم الموس وعبد الحميد واد محمد لكي تنتظر مجي . الانجليز وتجي . بهم الى الخرطوم باسرع ما يمكنها وكان غوردون ينتظر مجيئهم بغاية القلق وكان قد خاطر بكل شيء . على مجي . القوة الانجليزية ولكن كل انسان كان يجهل ماتم في أمرها

واذن غوردون في اوائل الشهر لجملة عائلات بمبارحة الخرطوم ولم يكن الى هذا الوقت يجيز لنفسه طردهم ولذلك اضطر الى توزيع المؤونة عليهم فكان يوزع مشات الاوقات من البسكويت والذرة على الفقراء . كل يوم . وهو على هذا العمل يستحق مكافأة الله ولكنه في الوقت نفسه قضى على نفسه وعلى رجاله . فقد نفذ الزاد وصار كل انسان يبكي ويطلب الخبز . وعاد الآن الى اغراء الاهالى بالخروج من المدينة وهو لو كان قد فعل ذلك منذ شهرين أو ثلاثة لكان عنده من المؤونة ما يكفي رجاله مدة طويلة . ولكنه كان يعتمد على مجي . الجيش وكان لذلك لايعنى بادخار المؤونة فهل كان يعتقد انه لا يمكن جيشا انجليزيا أن يتأخر عن ميعاده

وبعد ستة أيام من سقوط أم درمان سمعت عويلا في المعسكر لم أسمع مثله منذ خروجي من دارفور . وكان المهدي يمنع الناس من اظهار الحزن على الموتى أو القتلى لانهم في مذهبه يدخلون النعيم . ففهمت انه لا بد أن قد حدث شيء . غير عادي حتى

يخالف الناس مذهب المهدي . وكان الحراس المكلفون بحراستي يتطلعون لمعرفة سبب هذا العويل وقد تركوني لهذه الغاية . وعادوا بعد قليل يقولون ان طلائع الجيش الانجليزى التقت بالقوات المجموعة من البرابر والجمالين والدغيم وكنانه الذين يقودهم موسى وادخلو وهزمتهم في ابو نلا (ابو كلبه) وقد هلك كثيرون ولم ينج الا عدد قليل عادوا واكثرهم به جراحات وقد قتي الدغيم وكنانه تقريبا . وقتل موسى وادخلو وعدد من الامراء أيضاً

فيالبشرى لقد كان قلبي يثب وثوباً لهذه الاخبار . وقلت لنفسي لقد جاء الرجاء بعد هذه السنوات الطويلة . وأمر المهدي والخليفة بان يكف الناس عن العويل ولكنه استمر مع ذلك عدة ساعات وأرسلت الاوامر لنور انجره بان يقوم الى منته وبعد يومين أو ثلاثة جاءتنا اخبار هزيمة أخرى في أبي كر وهزيمة أخرى أيضاً في قبه « جوبات » وتيار قلعة على النيل قرية من مئمة

وعقد المهدي وامراؤه مجلساً للتشاور . فقد رأوا ان كل ماجنوه من الانتصارات السابقة قد بات في خطر حتى أن المحاصرين للخرطوم خافوا وارتدوا من الحصار . وصار القضاء على المهدي مسألة يمكن انهاؤها في بضعة أيام . فيجب عليهم أن يخاطروا بكل شيء . فأرسلت الاوامر للمحاصرين بان يستعدوا الاستعداد التام للهجمة الاخيرة ثم لم تات البواخر التي تحمل الجنود الانجليزية ؟ فهل كان قواد هذا الجيش يجهلون ان حياة جميع من في الخرطوم قد باتت في خطر . ولقد انتظرنا طويلاً لكي نسمع صفير البواخر يؤذن بمقدم الانجليز ودوى مدافعهم فوق خنادق الدراويش ولكن انتظارنا كان عبثاً . أجل كان عبثاً . ولم نكن نفهم علة هذا التأخير أو معناه وكنا نتساءل هل طرأ عائق جديد ؟

وكان اليوم الاحد ١٥ يناير . وهو يوم لن أنساه في حياتي . ففي مساء ذلك اليوم عبر المهدي وخلفاؤه في زورق الى الشط الشرقي حيث كان رجالهم مجتمعين للقتال . وكان قد عرف أن النية قد عقدت على مهاجمة الخرطوم في صباح اليوم التالي وذهب المهدي لكي يحمس رجاله ويذكرهم بالجهاد والقتال الى الموت . وكنت ادعو الله أن يكون غوردون قد عرف هذه النية واستعد لها

وفي هذا الوقت أمر المهدي والخلفاء اتباعهم بالا يهتفوا ولا يصيحوا حتى لا تدخل الشبه في قلوب رجال الحامية الذين انهمكهم الجوع والكلال . وخطبهم المهدي وهم سكون ثم عادوا الى الشط الغربي بعد أن خلف الخليفة شريف الذي رجاء أن يبقى مع المجاهدين

وكانت تلك الليلة احفل ليالى في قلق النفس وثورتها . فقد كنت اقول لنفسي لو أن الحامية ثبتت هذه الليلة وتصد المغيرين . اذن لن أخشى شيئاً على الخرطوم . اما اذا انهزمت فانا نفقد كل شيء في السودان . وشعرت باعياء في الفجر وبدأ النوم ينسل الى واذا بي أسمع ضجيج المدافع والبنادق من آونة لاخرى . ثم شمل السكون مرة أخرى . ولم يكن النور قد قشع الظلام بعد حتى لم أكن اتبين الاشياء . فما معنى كل هذا ؟ ضجيج المدافع والبنادق ثم سكوت تام ؟

ثم ظهر قرص الشمس احمر في الافق . فتساءلت ماذا يأتينا به هذا النهار ؟ وقعت انتظر وانا في أشد القلق وهياج النفس . ثم سمعت أصوات الابطهاج والنصر من بعيد وتركنا الحرس وجروا لكي يعرفوا سبب هذه الاصوات . وبعد دقائق عادوا الينا واخبرونا بان الخرطوم اخذت عنوة وصارت الآن في ايدي الدراويش وبقي لي شك اتعلل به هل تكون هذه الاخبار كاذبة !

ثم زحفت ونهضت وأخذت انظر في المعسكر فوجدت جما غفيراً من الناس قد تألبوا حول مكان المهدي والخليفة ثم رأيت هؤلاء الناس يسرون نحوي . وكان امامهم ثلاثة من الزنوج يدعى أحدهم « شطه » وكان سابقاً أحد الحرس العبيد عند ضيف الله . وكان في يده قماش مشرب بالدم قد لف على شيء . وكان وراءه جمهور من الناس سيكون . واقترب العبيد الثلاثة مني ثم وقفوا وهم يشيرون اشارات الالهة والسباب . ثم حل « شطه » القماش واخرج لي رأس غوردون

فدار رأسي وشعرت كأن قلبي قد قف . ولكنني جمعت كل قواي وضبطت نفسي ونظرت الى هذا المنظر المفزع وانا صامت . وكانت عينا غوردون الزرقاوان قد فتحتا الى النصف . اما الفم فكان في هيئته العادية . وكان شعر رأسه وعارضيه قد علاهما الشيب

وقال « شطه » وهو ممسك بالرأس امامي : « أليس هذا رأس عمك الكافر ؟ »
فقلت بهدوء : « وما في ذلك . جندي شجاع وقع وهو يقاتل . انه لسعيد اذ
قد انتهت آلامه »

فقال شطه : « ها . ها . لا تزال تمدح الكافر . ولكنك ستري النتيجة »
ثم تركوني وذهبوا الي المهدي ومعهم اشارة النصر المفزعة هذه ووراءهم
جمهور يبكي .

ثم عدت الى خيمتي وقد ماتت نفسي في جسدى . اجل لقد سقطت الخرطوم
ومات غوردون . وهذا اذن هو نهاية حياة هذا البطل الذى وقع وسيفه فى يده .
هذا الرجل الذى لم يكن يعرف الخوف والذى كان له من الخصال ما ذاع شهرته فى
العالم أجمع

فما هى فائدة الجيش الانجليزى الآن ؟ لقد تأخر فى متنه وكان فى تأخيره
هلاك الخرطوم . لقد وصلت طلائع الانجليز الى جوبات على النيل فى ٢٠ يناير
ووصلت بواخر غوردون الاربع فى ٢١ منه . فلماذا لم يرسلوا على هذه البواخر
جنودا الى الخرطوم مهما كان عددهم قليلا . فلو أن الحامية رأّت عدداً من هؤلاء
الجنود لامتلأت قلوبهم حماسة وقوة ورجاء ولا استطاعوا أن يصدوا للعدو . وكان
السكان الذين فقدوا كل ما عندهم من ثقة فى وعود غوردون تعادوهم ثقة جديدة
ويحاربون الى صف الحامية لتأكدهم بان القوة الانجليزية توشك أن تنجدهم

وقد جهد غوردون جهده لكي يثبت وقد أعلن ان جيشاً انجليزياً قادم اليه وطبع
نقوداً من الورق وكان يوزع الاوسمة والرتب كل يوم بلا حساب لكي يشجع الجنود
ولما أخذت الاحوال تسوء واليأس يحل كان هو يجاهد فى تحميس الجنود ورجيتهم
ولكن اليأس قلب الرجاء . فلم يعودوا يروا فائدة فى هذه الاوسمة والرتب . اما نقود
الورق فربما كان هناك من يشتري ورق الجنيه بقرشين آملا املا ضعيفا فى الربح
اذا جاءت المصادفات بانتصار للحكومة .

ولم يكن أحد يصدق وعود غوردون الآن . ولو أن باخرة واحدة حملت بعض

الجنود وجاءت بهم الى الخرطوم وأخبرتهم بان الانجليز انتصروا لامتلات قلوب السكان والجنود حماسة وصدقوا وعود غوردون وكان عندئذ يمكن لضابط انجليزي أن يرى الجزء الذى دمره فيضان النيل من حصون المدينة وكان في الحال يأمر باصلاحه . ولكن ماذا كان يمكن ان يصنعه غوردون وهو وحيد وليس معه مساعد أوربي

ولم يكن في استطاعه ان ينظر في كل شيء كما انه لم تكن بين يديه الوسائل التي تمكنه من التحقق من مرؤسيه هل ينفذون أوامره ام لا ؟ وكيف كان يمكن قائداً أن ينتظر من جنوده القيام بتنفيذ أوامره اذا كان غير قادر على أن يضمن لهم قوتهم ؟

وفي الليلة المشتومة ليلة ٢٥ يناير علم غوردون بان المهديين سيهجمون على المدينة فأرسل أوامره بنحبر القواد هذا الخبر . ولعله كان يشك في صدق نيتهم في الهجوم في بكور اليوم التالي . وفي الوقت الذي عبر فيه المهدي الى الضفة الشرقية كان غوردون قد أمر باطلاق بعض الاسهم النارية في الفضاء وكانت الوانها كثيرة مختلفة وكانت الموسيقى تعزف في الوقت نفسه والغرض من كل ذلك تحميس الجنود الذين أضناهم الجوع حتى يثوب اليهم نشاطهم وانتهت الاسهم النارية وسكنت الموسيقى ثم نامت الخرطوم وشرع العدو يزحف في حذر وصمت . وكان رجال العدو يعرفون أما كن الضعف في الحصون وكانوا يعرفون ان الجنود النظاميين قد وضعوا في الاماكن القوية في حين ان الخندق المهدم القريب من النيل الابيض وأيضاً مصطبة الخندق لم يكن يحميها سوى الاهالى الضعاف

وكان هذا الجزء من الحصون في حال سيئة لان بناءه لم يتم وكان كل يوم يزداد الجزء المعرض منه على النيل . واجتمع معظم الدراويش عند هذه النقطة وكانت سائر قواتهم تواجه سائر الحصون . وشرع في الهجوم عند اشارة متفق عليها . وفر في الحال جميع من كانوا عند النيل الابيض بعد أن أطلقوا بضع طلقات . وبينما كان الجنود يشتغلون في صد هجوم القوات الاخرى المهاجمة كان الآن الدراويش

يدخلون من جهة النيل الابيض ويخوضون في الماء والوحل الى ركبهم . ثم ينصبون في الشوارع . ودهش الجنود اذ رأوا الدراويش يهاجمونهم من خلف ولم يقاوم الجنود عندئذ الا مقاومة ضعيفة ووضع كل منهم سلاحه في الحال . ثم قتل المصريون اما السود فلم يقتل منهم الا عدد قليل . ولم تبلغ خسارة العدو ثمانين او مئة رجل . ثم فتح الدراويش أبواب المدينة فخرج من تبقى من الجنود الى معسكر المهدي

ولما دخل الدراويش من جهة النيل الابيض تصايحوا وهم يعدون في المدينة « السراية . للكنيسة » لانهم كانوا يعتقدون انهم سيجدون هناك الاموال المدخرة كما يجدون غوردون الذي دافعهم طويلا عن المدينة وعكس عليهم أغراضهم . وكان القادة في هذا الهجوم رجال مكيين واد النور الذي قتل بعد ذلك في معركة توسكي وهو ينتمي الى قبيلة العرافين . وكان قائدهم السابق شفيق مكيين الذي كان يدعى عبد الله واد النور وقد قتل في حصار الخرطوم وكان رجاله الآن يرغبون في الثأر له وكان عدد كبير ايضا من رجال ابو حرجه يستبقون نحو السراي وكانوا يرغبون في الانتقام لهزمهم في بوري حيث هزمهم غوردون

ولما دخلوا السراي وجدوا الخدم في قبو السراي يقتلهم في الحال وكان غوردون واقفاً على السلم المؤدى الى غرفة الجلوس فقال لهم عند ما رأيتم : « أين مولاكم المهدي ؟ »

ولكنهم لم يكثرثوا لهذا السؤال وتقدم اولهم وطعن غوردون بحربة فوقه على وجهه دون أن ينطق بكلمة . فأخذ القتلة يجرونه على السلم الى باب السراي وهنا أخذوا رأسه وأرسلوه الى المهدي في ام درمان . أما الجسم فقد ترك لرحمة المتعصبين . وكانت آلاف من هذه الخلائق الوحشية تمر على الجسم ويغمس كل منهم حربة في دمه . فلم يمض زمن حتى صار الجسم قطعة مشوهة من اللحم . وقد بقيت بقع الدم مدة طويلة في المكان الذي قتل فيه غوردون شاهدة على ارتكاب هذه الفظيعة بل كانت ترى أيضاً على درجات السلم مدة عدة أسابيع ولم تغسل الا حين قرر الخليفة أن يتخذ هذه السراي مأوى لزوجاته السابقات واللاحقات

ولما أحضر رأس غوردون للمهدى قال انه كاد يود ان يحضر اليه غوردون حياً لانه كان ينوى أن يدخله في الاسلام ثم يقايض به الحكومة الانجليزية على عرابي باشا لانه كان يأمل ان يساعده عرابي في فتح مصر . واعتقادي ان المهدى كان يناق في تأسفه هذا على قتل غوردون لانه لو كان يرغب حقيقة في الابقاء على حياته لما خالف أمره احد

وقد فعل غوردون كل ما في استطاعته لكي يقي حياة الاوربيين الذين كانوا في الخرطوم فقد أذن للضابط استيورت مع بعض القناصل وعدد كبير من الاوربيين في السفر الى دقسه ولكن بحارة الباخرة « عباس » كانوا غير كفاة وكانوا أيضا مستائين فصدموا الباخرة في الشلالات فوق الضابط استيورت ومن معه فريسة للغدر الذي قضى عليهم

وكان غوردون يرغب في هروب اليونان فسلمهم باخرة وتعل في الطاهر بانهم يعرفون البحر وأمرهم بالتفتيش في النيل الايض وذلك كي يتيح لهم الفرصة بان يسافروا جنوبا الى امين باشا ولكنهم أبوا ذلك . وكان غوردون مهموما بسلامتهم فاقترح اقتراحا آخر فانه أمر الناس بعدم السير في الطرق المؤدية الى النيل الازرق بعد الساعة العاشرة ثم كاف اليونانيين بحراسة هذه الطرق وذلك لكي تتاح لهم الفرصة بالفرار على باخرة قد ارسيت قريبا . ولكن اليونان اختلفوا فيما بينهم فصاع هذا التدبير

وأنا لا أشك في أن هؤلاء اليونانيين لم يكونوا يرغبون في الفرار الى الخرطوم فان معظمهم كانوا يعيشون في بلادهم او في مصر في قاعة شديدة وهم لم ينالوا الثروة الا في السودان ولذلك لم تطاوعهم نفوسهم على تركه

وكان غوردون يريد ان يقي نفوس جميع الناس الا نفسه . ويمكنني الآن أن أنتقد غوردون من حيث انه لم يحذر خنادق ولم يقيم تحصينات تحمي السراى ولكن الارجح ان الذي منع غوردون من عمل ذلك انه خشى ان يتهم بالاهتمام بحياته . وربما كان هذا ايضا هو السبب في عدم وضعه حراساً حول السراى

وكان يمكنه أن يستعمل عدداً من الجنود لهذا الغرض . وهل يمكن أحداً ان

يشك في الفائدة التي تعود على الجميع من حماية نفسه . وكان يمكنه بمثل هذا الحرس ان يصل الى الباخرة « اسماعيلية » القريبة من السراى : وكان فرغلي ربان هذه الباخرة قد رأى العدو وهو يهجم على السراى فوقف بالباخرة ينتظر مجيئ غوردون ولم يرح الشط حتى تأكد انه قتل فاقتلع المرساة وسار الى وسط النهر ثم أخذ يروح ويغدو امام المدينة حتى أشار اليه الدراويش بعفو المهدي

وكان فرغلي زوجة وعائلة في الخرطوم فسلم بعد ان حصل على الامان . ولكن ما كان أكثر انخداعه فانه ذهب الى بيته فوجد ابنه (وكان في العاشرة من عمره) مقتولا ووجد زوجته قد ألفت بنفسها على ابنها وجسمها ممزق بالحرايب

وليس من الممكن ان يصف الانسان مبلغ الفظاعة والقسوة في المذبحة التي تلت قتل غوردون فانه لم ينج أحد سوي الرجال والنساء من العبيد وكل امرأة عليها شيء من الملاحه من الاحرار . أما غير هؤلاء ، الذين نجوا من القتل فلم تكن نجاتهم الا مصادفة . . واتحدر كثير من الناس وكان من بينهم محمد باشا حسن ناظر المالية فانه زحف الى جنب ابنته وزوجها وكان كلاهما قد قتل وقد رآه أصدقاؤه في هذه الحال فحضوه على الفرار ولكنه أبي فحاولوا أن يأخذوه عنوة ولكنه صار يصيح ويدعو على المهدي ودراويشه فمر به بعض الدراويش فاجهزوا عليه

وقتل عدد من الناس من أيدي عبيدهم السابقين وكانوا قد انضموا الى العدو وكانوا أدلاءه فاشتركوا الآن في القتل والنهب والاعتصاب

ويمكن أن يعلأ الانسان مجلدأ عن هذه الفظائع التي ارتكبت في ذلك اليوم المشئوم . ولكنني أشك في مصير الذين أبقى على حياتهم هل كان أفضل من مصير القتلى ؟

وعندما احتل الدراويش المنازل شرع في البحث عن الكنوز ولم يكن يقبل عذر أو انكار . وكان معظم السكان قد خبأوا أموالهم فكان كل من يشتبه فيه يعذب حتى يفشي السر او حتي يقتنع معذبه بأنه لا يملك شيئاً . وكان السوط يستعمل بأسراف فكان الناس يجلدون حتى يتناثر لحمهم . ومن ضروب التعذيب التي كانت تستعمل ان يعلق الرجل من ابيهاميه الى عمود من الخشب فيترجح هو تحته في الهواء

حتى يغى عليه . وكانوا يأتون بسلخين من القصب المندى ويضعون كلا منهما على وجه الرجل ثم يربطون طرفيهما ثم يضرب هذان السلخان بعضا فيحدث من اهتزازهما آلام مضية . وكانوا يعذبون النساء بهذه الكيفية أيضاً . ويعذبوهن في أما كن اجسادهن الحساسة بطريقة لا يمكننى أن أصفها هنا . وحسب القارىء ان يعرف ان أفظع الطرق في التعذيب كانت تستعمل للحصول على الاموال

ولم ينج من هذا التعذيب سوى النساء الصغيرات في السن والفتيات وذلك خوفا من ان يعترض هذا التعذيب الغاية التي ستستخدم لها هذه النساء والفتيات

وجميع هؤلاء النساء والفتيات أرسلن الى المهدي يوم فتح الخرطوم فاصطفى منهن ما أراد ورد سائرهن الى الخلفاء والامراء واستمر جمع النساء والانتخاب بينهن عدة أسابيع حتى امتلأت بهن بيوت هؤلاء الاوغاد الشهوانيين بل فاضت بشباب الخرطوم الذي قضى عليهن النحاس أن يقعن في أيدي الدراويش

وفي اليوم التالي منح عفو عام لجميع الاهالي ماعدا الشايحية الذين اهدر دمهم . ولكن على الرغم من هذا العفو استمر القتل وارتكاب الفظائع عدة أيام بعد سقوط الخرطوم

وحملت الغنائم الى بيت المال ولكن بعد اختلاس أشياء كثيرة منها . ووزعت المنازل المهمة على الامراء . ويمم المهدي والخليفة في الباخرة « اسماعيلية » الى الخرطوم ورأيا نتيجة انتصارهما الدموي . ولم يبد أحدهما أية علامة على التحسر او الاسف بل ذهب كل منهما الى المنزل المخصص له . وكان كل منهما يقول لاتباعه ان الله أنزل العقاب بسكان المدينة لعسفهم وعدم اتباعهم ايمان المهدي

وقضيت الايام الاولى في اللهو واتباع الشهوات . ولما شبع المهدي واتباعه من من النساء ابتدأوا يلتفتون الى الخطر الذي يداهمهم من الخارج . فأمر الامير عبدالرحمن وادنجومي المشهور بأن يجمع قوة كبيرة ويذهب بها الى متنه لمقاومة الانجليز ويطرد هؤلاء الكفار الذين قيل انهم بلغوا النيل قريباً من هذه البلدة

وفي صباح يوم الاربعاء بعد سقوط الخرطوم بيومين حوالى الساعة الحادية عشرة سمعنا اطلاق القنابل وعيارات البنادق في ناحية جزيرة تونى . ثم ظهرت باخرتان

وهما « الثلامونية » و « بردين » وكان عليهما السير تشارلس ولسون وعدد من الضباط والجنود الانجليز جاءوا لانتقاذ غوردون . وكان السنجق خشم الموس وعبد الحميد محمد اللذان كان غوردون أرسلهما لقيادة الشايحية، على هاتين الباخرتين أيضاً. وسمعوا جميعاً بما حدث لغوردون ولكنهم أرادوا أن يتأكدوا من الخبر وجاءوا الى نصف الطريق بين جزيرة توني والنيل الأبيض

وأطلق الدراويش نيرانهم على الباخرتين من الخنادق الواقعة في الشمال الشرقي لقلعة أم درمان . ولكن الباخرتين عادتا في الحال عندما رأى رجالهما سقوط الخرطوم وسمعت بعد ذلك من بعض بحارة هاتين الباخرتين أنهم هم والانجليز تأثروا لسقوط الخرطوم . وعرفوا ان السودان قد بات تحت سيطرة المهديين. وكان المفهوم من الحديث الذي كان يتحدث به الجنود على البواخر ان الغرض هو انتقاذ غوردون فلما تأكد الخبر عن موته عادت البواخر الى دقله

ثم اتفق دليل الباخرة « الثلامونية » على ان يبحج بالباخرة الى الشاطئ حتى يكسرها ثم يفر في النيل هو والربان عبد الحميد ونجحت هذه الخطة وبلغ من شدة اصطدام الباخرة انها عطبت حتى احتاجوا الى نقل ما فيها بسرعة الى الباخرة « بردين » وفر كلاهما وقت الاصطدام وحصلوا بواسطة اصدقائهما على عفو المهدي وعادا الى الخرطوم . واستقبلهما المهدي استقبالا حسنا وامتدح صنيعهما في كسر الباخرة. ومع ان عبد الحميد كان من الشايحية المكروهين وأحد أقارب صالح واد الملك فان المهدي خلع عليه مرقعة اكراما له وكان عدد كثير من النساء قرابته قد سبين عند سقوط الخرطوم ووزعن على الامراء فلما عفى عنه اعدن اليه

اما الباخرة « بردين » فانها في عودتها جنحت وارتطمت بالوحل . ولما كانت حولتها ثقيلة فانه لم يمكن انتقاذها . وكان ذلك قريبا من مته . وكان عليها السير تشارلس ولسون فشعر عندئذ بخرج مركزه وكان الجنود الذين معه قليلين فلم يكن في وسعه أن يعبر الى الشط الغربي ليلتحق بسائر قوته في جوبات لان العدو كان قد خندق بينه وبينها في واد حبشي وكانت قوة الدراويش في واد حبشي بعدما أصابها من الخور وانحلال العزيمة بعد هزيمة أبو كلبه قد عادت اليها شجاعتها بعد سقوط

الخرطوم وانتشار خبر مجيء النجومي وكان في جوبات باخرة ثالثة تدعي « صفيه »
فارسل السير تشارلس اليها ضابطا في زورق يطلب المعونة

وقامت « صفيه » في الحال وعلم العدو بذلك فخذق على الشاطئ، ونهيا لمجيئها.
فلما اقتربت صب عليها نارا حامية من البنادق والمدافع . ولكن الجنود فيها قاتلوا
بمسالة عازمين عزما صادقا على انجاء الباخرة « بردين » مهما كلفهم ذلك واستمر
سير الباخرة حتى أصيب الرجل

ولكن الربان أمر في الحال باصلاح الخلل فاخذ العمال يصلحونه والنار تنصب
عليهم من العدو وقضى الليل كله في هذا الاصلاح حتى اذا كان الصبح تمكنت « صفيه »
من استئناف السير ومقاتلة الدراويش . بل تمكنت من اسكات مدافعهم وقتل أميرهم
حمد واد فايد وعدد آخر من صفار الامراء

وبلغت « صفيه » « بردين » وأتقت السير تشارلس ورجاله وكان لهذا العمل
العظيم أثر آخر في انجاء الجنود الانجليز في متمه

وكان جيش النجومي يسير ببطء لصعوبة جمع الرجال وقد اضره أيضا خبر قتل
الامير حمد واد فايد وهزيمة الدراويش في واد حبشي أمام باخرة واحدة . وقد قيل
لي بعد ذلك عند عودتي الى مصر ان ربان الباخرة « صفيه » عند احرازها ذلك
النصر كان اللورد تشارلس بريسفورد . ويقال ان النجومي عندما سمع بهذا النصر
قال لرجاله انه اذا عزم الانجليز على الدخول الى السودان فانهم بالطبع سيقاتلونهم .
اما اذا اتجهوا نحو الشمال فانه لا قتال بينهم وبين رجاله بل يحتلون البلاد التي جلوا
عنها . وتأخر في سيره حتى بلغ متمه بعد جلاء الانجليز عنها وعن جوبات . ومع انه
طاردهم الى ابو كلبه فانه لم يشتبك معهم في قتال

وعندما جلت طلائع الانجليز تحقق المهدي ان السودان باجمعه قد أصبح ملكه
فطفع عندئذ سرورا . وأعلن هذا الخبر في المسجد وأخذ يصف للدراويش فرار
الانجليز وكيف ان النبي قد أوحى ان الله قد خرق قريتهم فماتوا جميعهم عطشا .

وفي اليوم الخامس لسقوط الخرطوم رأيت ثلة من الجنود أمام خيمتي الممزقة
فوضعتني على حمار وأنا في قيودي وساروا بي الى السجن العمومي . وهناك طوقوا

حولى عموداً وحلقة من الحديد يبلغ وزنها ثمانية عشر رطلاً وكان هذا القيد الجديد يسمى « الحاجة فاطمة » وكان لا يقيد به إلا من كانت جنائياتهم خطيرة أو من يوصفون بالعناد من المسجونين

وكنت أجهل السبب في سقوط مكاتى في عين الخليفة الى هذا الحد ولكن علمت بعد ذلك ان غوردون عند ما عرف من خطابي ان القوة التي أرسلها المهدي الى الخرطوم غير قوية اذاع هذا الخبر بين الجنود في خطوط الدفاع . وهذا المنشور الذي نشره غوردون وقعت منه نسخة في يد حمد واد سليمان وكيل بيت المال فسلمها للمهدي والخليفة. فتأكدت لديهما عندئذ الشبهات في خياتى وتديري السابق لكي التحق بغوردون

ووضعتني في زاوية من الزرية الكبيرة (أى السجن العمومي) ومنعوني من محادثة أى انسان بحيث اذا خالفت هذا الامر فان العقاب هو الجلد. وكنا في الليل أربط انا وجميع المسجونين في سلسلة طويلة الى شجرة وفي الصباح يفك الرباط . وكان يربط معي بعض العبيد الذين قتلوا أسيادهم وكنت أرى لبتون بك في زاوية أخرى من الزرية وكان قد مضت عليه مدة في هذا المكان حتى ألفه . وكان قد أذن له في مخاطبة جميع من يريد باستثنائي أنا وحدي

وفي اليوم الذي دخلت فيه السجن أفرج عن صالح واد الملك وكان أخوه وابنه وجميع قرابته تقريباً قد قتلوا واذن له ان يخرج ويبحث عنه يجداً أحداً منهم وكان طعامي سيئاً للغاية فشعرت كأني قد وقعت من الرمضاء في النار . فقد كنت قبلاً أشكو من الجوع الذي كان يصيبني من وقت لآخر ولكن الآن صرت لا أجد طعاماً سوى الذرة الجافة آكلها كما يأكلها العبيد وكان مع ذلك مقدار ما يعطى لي قليلاً جداً ورأتني وأنا في هذه الحال زوجة أحد السجانيين فأخذتها الشفقة وصارت تأخذ مني الذرة وتسلقه ثم تعيده الى طريا فأكله ولكن لم يأذن لها زوجها بان تقدم لي طعاماً آخر لئلا يعرف رئيس السجانيين ذلك فيبلغ الخبر للخليفة. وكنت أنام على الارض وأضع تحت رأسي حجراً كوسادة وكان هذا يحدث لي صداً مستمراً ولكن حدث في أحد الايام ونحن نساق الى النهر

لسكى نغتسل انى وجدت فى الطريق بطانة بردعة يظهر ان صاحبها ألقاها لعدم فائدها فحملتها وخبأتها تحت ذراعى ونمت عليها تلك الليلة كما ينام الملك على وسادة من زغب

ولكن أحوالى اخذت فى التحسن . فان رئيس السجانيين الذى لم يكن يكرهنى صار يأذن لى بالتحدث مع سائر المساجين . وخفف قيودى . أما « الحاجة فاطمه » وأختها فكاتتا لا تزالان فى مكانهما ولا يمكنى ان أقول انهما كانتا يزيدان فى رفاهيتى فى تلك الاشهر المضنية التى قضيتها فى السجن

وبعد أيام حدثت حركة بين السجانيين وأخبرنى رئيسهم ان الخليفة سيأتى قريباً لزيارة السجن . فسألته عما يجب أن أفعله امامه حتى أسترضيه فنصح لى بان اجيب فوراً على الأسئلة التى توضع لى والا اشكو اى شكاية وان ابقى منكسراً ذليلاً فى الزاوية التى خصصت لى . وحوالى الظهر حضر الخليفة ومعه اخوته وملازموه وصار يطوف على الزوايا ويرى بعينه ضحايا عداته . وبدأ لى من مسلك المساجين ان رئيس السجن نصح لهم بمثل ما نصح لى فقد كانوا هادئين فى مكانهم وقد حملت سلاسل البعض وأفرج عنهم ثم اقترب الخليفة منى وهز رأسه الى بعطف وقال : « عبد القادر . انت طيب »

فقلت « أنا طيب يا سيدى »

ثم تركنى وسار . واقترب منى يونس واد وكم حاكم دقله واحد قرابة الخليفة فهز يدى قال لى : « تشجع . لا نخش شيئاً . كل شيء سيصلح قريباً »

وابتدأت أحوالى تتحسن منذ هذا اليوم ولكن كنت أشعر بطول الوقت

وانتشرت وافدة الجدرى فى أم درمان وكانت تحصد المئات كل يوم حتى بادت اسرار عن آخرها . واعتقادى ان الخسارة من هذا المرض كانت اكبر من أية خسارة خسرها الدراويش فى المعارك الماضية . والغريب ان العرب أصيبوا به اكثر من غيرهم ومات منه معظم السجانيين . اما نحن المسجونين فلم نصب بشيء وان كنا قد فرغنا فرغاً شديداً . ولعل الله فى رحمته رأى ان فيما تقاسيه أكثر مما تتحمل

وأتيت لي الفرص الآن للتحدث مع لبتون الذي كان يزداد سأمًا كل يوم .
وقد كان يبلغ به الخنق والغيظ ان يشكو أحيانًا من الشكوى وبصوت عال حتى كنت
أخشى عواقب فعله هذا . ولكن المعيشة التي كنا نعيشها في السجن كانت قد
أثرت فيه حتى خفت على صحته . وتمكنت بعد محادثات طويلة معه من تهدئته .
وكان مع عمره الذي لم يعد الثلاثين قد شاب رأسه ولحيته في مدة سجنه هذه

وأشيع في أحد الايام ان الخليفة مزع المجيء الى السجن فبيات خطبة وعينت
بانشائها وفعل لبتون مثل ذلك . وكان المرجح أنه سيخاطبني أولاً

ثم جاءت الساعة الخطرة ودخل الخليفة الى صحن السجن وبدلاً من أن يطلب
المسجونين واحداً بعد آخر وضع له عنجريب وقعد عليه وأحضر له المساجين وقعدوا
في نصف دائرة . فافرج عن البعض ووعد الآخرين ببحث قضاياهم ولكنه لم
يلتفت الى ولا الى لبتون

فنظر الى لبتون وهز رأسه فوضعت أصبعي على فمي أحذره من عمل أي شيء .
طائش والتفت الخليفة الى رئيس السجن وقال : « هل بقي على شيء »

فقال السجنان : « أنا في خدمتك يا مولاي »

ثم قعد الخليفة بعد ان كان قد همّ بالقيام والتفت الى وقال : « عبدالقادر .
انت طيب »

فقلت : « يا مولاي . اسمح لي بالكلام أخبرك عن حالي »

فأذن لي بالكلام فقلت : « أنا يا مولاي من قبيلة غربية . وقد جئت أطلب
حمايتك فحميتني . ومن طبع الانسان ان يخطيء ويذنب الى الله وإلى الناس . وأنا
قد أذنبت ولكني الآن أتوب . أتوب الى الله وإلى الرسول . هاءنذا يا مولاي في
القيود والسلاسل أمامك . هاءنذا عريان جوعان أقرش الارض وأرقد هنا صابراً
أتظر قدومك لكي تعفو عني . مولاي اني أذل لك وأرجو ان تفرج عني ولكن
اذا رأيت بقائي في هذه الحال التمسة فادعوا الله ان يقويني على تحملها »

وكنت قد حفظت هذه الخطبة جيداً والقيتها بفصاحة نادرة ورأيت اني بلغت

بها الأثر الذي أردته في نفس الخليفة . ثم التفت الى لبتون وقال . « وأنت يا عبد الله »

فقال لبتون : « لا أزيد شيئاً على ما قاله عبد القادر . أعف عني وافرّج عني »
فالتفت الى الخليفة وقال : « منذ مجيئك من دارفور عملت كل ما يجب أن
يعمل لاجلك . ولكن قلبك بقي بعيداً عنا وأردت أن تلحق بغوردون الكافر
وتحاربنا في صفه ولقد وفرت عليك حياتك لأنك أجنبي . ولكن اذا كنت قد تبنت
حقيقة فانا أعفو عنك أنت وعبد الله . يا سجان انزع عنهما القيود والسلاسل »

فحملنا السجانون وبعد استعمال الخيل تمكنوا من نزع القيود ثم أعادونا الى
الخليفة الذي كان قاعداً على العنجرية ينتظرنا . ثم أمر باحضار القرآن فوضعه على
فروة وطلب منا أن نقسم بيمين الولاء له . فوضع كل منا يده على القرآن وأقسم بان
يخدمه بامانة وولاء في المستقبل . ثم نهض وأمرنا بأن نسير وراءه ونهضنا ونحن نكاد
نجن من الفرح بالافراج عنا بعد هذا السجن الطويل وسرنا في آثره .

ولما بلغنا منزله أمرنا بأن نبقي في مكان بعيد عنه وتركنا . وبعد دقائق عاد
الينا وقعد الى جانبنا وحذرنا من عصيان أوامره . ثم قال انه تسلم خطابات من
قائد الجيش في مصر يقول فيها انه قد أسر أقارب المهدي الذين كانوا في دقله وأنه
يعرض أن يقايض بهم على ما عند المهدي من الاسرى الذين كانوا مسيحيين »

وقال : « لقد قررنا أن نجيب بانكم جميعاً مسلمون وانكم متحدون معنا ولا
ترغبون في أن تقايض عليكم برجال ولو كانوا من قرابة المهدي . فليفعلوا ما شاءوا
بأسراهم »

ثم أضاف الى ذلك قوله : « ولكن لعلكم تحبون العودة الى النصارى ؟ »
فاكدنا له انا ولبتون باننا لا نرغب في تركه وان مسرات الدنيا كلها لا تغرينا
بفراقته وان بقاءنا معه يفيدنا لانه يرشدنا الى طريق الخلاص . فجازت عليه
أكاذيبنا ووعدنا بان يقدمنا الى المهدي الذي كان قد وعد الخليفة بزيارته في عصر
ذلك اليوم في منزله . ثم خرج وتركنا

وجاءنا كثير من الاصدقاء يهتفوننا بالافراج عنا وكان بينهم ديمتري زيجاده

ولكن لم يكن معه المقدار المعتاد من التبغ . وكان بينهم أيضاً صديقى القديم الشيخ عlish فلما أخبرته باننا سنقابل المهدي نصح لي بعض نصائح مفيدة في هذه المقابلة ولما غربت الشمس جاءنا الخليفة وأمرنا بأن نتبعه فسرنا وراءه حتى دخلنا على المهدي وهو قاعد على عنجريب . وكان قد سمن سمناً فاحشاً حتى ما كدت أعرفه . فركعنا أمامه وقبلنا يده عدة مرات وأكد لنا انه يرغب في الخير لنا وان القيود والسلاسل تنفع الناس، يعنى بذلك ان العقاب يمنع الناس من ارتكاب الجرائم فينفعهم لهذا السبب . ثم والى الحديث الى قرابته الذين كانوا في أسر الانجليز وانه رفض المقايضة بنا قائلاً : « انى أحبكم أكثر مما أحب قرابتي ولهذا رفضت المقايضة »

فاجبته مؤكداً له الامانة والحب وقلت له : « ان كل انسان يحب ان يحبك اكثر مما يحب نفسه لان من لا يفعل ذلك لا يمكنه ان يحب أحداً من قلبه » وكان الشيخ عlish قد أوصاني بان أقول لك ذلك . فلما سمع المهدي كلامي التفت الى الخليفة وقال : « اسمع ما يقول . قل ثانياً »

فكررت العبارة على مسامعه فأخذ يدي بين يديه وقال : « لقد قلت حقاً . أحبني اكثر مما تحب نفسك »

ثم طلب لبتون بك وأخذ يده وأمرنا كلينا بان نقسم بيمين الولاء لاننا قد حثنا بيميننا الماضية . فاقسمنا من جديد وأمرنا الخليفة باقيام قبلنا يد المهدي وشكرنا له بره بنا وعدنا الى مكاننا

ومضي زمن قبل أن يأتينا الخليفة . ولما عاد أذن للبتون بان يرجع الى عائلته وكانت لا تزال في بيت المال وبعث معه بملازم يريه الطريق واكد له عنايته به ثم قال لي . « وأما أنت فأين تريد أن تذهب ؟ هل تعرف أحدا تذهب اليه ، » فقلت : « ليس لي سوى الله وأنت . ليس لي أحد يمولاي يعنى بي فافعل بي ما تراه خيراً لي »

فقال الخليفة : « لقد كنت ارجو وانتظر هذا الجواب منك . ويمكنك أن تعد من هذه الساعة واحداً من أسرتي . وسأعني بك ولن تحتاج الى شيء . وستتفع بلازمتي ولكن اشترط عليك شيئاً واحداً وهو أن تطيع كل ما أرسله اليك من الاوامر .

وواجبك ينحصر في أن تقعد مع الملازمين طول النهار على باب المنزل . اما في الليل بعد ذهابي فيمكنك أن تذهب الى منزلك الذي سأخصصه لك . وعند ما أخرج يجب أن تراقبني واذا ركبت فعليك أن تسير بحذائي حتي يأتي الوقت المناسب للاذن لك بالركوب الى جانبي . فهل أنت راض بهذه الشروط ؟ وهل تعد بالقيام بها ؟ » فأجبت : « انا راض يا مولاي كل الرضا بهذه الشروط . وستجد فيّ خادماً مطيعاً وارجو ان أجد القوة لكي أقوم بواجباتي خير قيام » فقال : « الله يقويك ويبعث لك الخير » ثم نهض وقال : « نم هنا هذه الليلة في حماية الله وسأراك غداً »

وبقيت وحدي وشعرت اني خرجت من سجنى فدخلت في آخر وأدركت في الحال مارى اليه الخليفة فانه لم يكن في حاجة الى خدمتى لانه لم يكن يثق بي أقل ثقة ولم يكن يريد ان ينتفع بي في مقاومة الحكومة المصرية او مقاومة العالم المتمدين ولكنه أراد ان أكون امام عينيه يشرف على الدوام . ولعله أيضاً أراد يعزز ويزهو بوجودى امامه مطيعاً كالعبد فيفتخر بذلك امام قبيلته التى هى الآن اساس سلطته . والتى كانت يوماً ما تحت امرتي وكذلك يفتخر بعبوديتي امام سائر القبائل التى كنت احكمها . ومع ذلك قلت لنفسى يجب ان اعنى كل العناية بالا أغضبه والا أتبع له الفرصة للاذى . وكنت أعرف الخليفة تمام المعرفة وأدرك ان ابتساماته لاتساوى شيئاً وقد قال لى هو ذلك فى احدى المرات . فقد كنا نتحدث فقال : « عبد القادر : ان من يتطلع الى السيادة والسلطة يجب عليه الا يظهر الناس على اغراضه . والا فان خصومه واعداءه يفسدون عليها »

وفي صباح اليوم التالى جاءني وطلب أخاه يعقوب وأشار عليه بان يخرج بي ويرينى مكانا ابني فيه عشتى بحيث لا أكون بعيداً عنه . وكانت قرابة الخليفة قد أخذوا الامكنة القريبة ولذلك لم نجد أقرب من مكان يبعد عنه نحو ٦٠٠ يارده فأخذته لبناء عشتى

ثم طلب الخليفة كاتب سره فاراني وثيقة موجهة لقائد الجيش الانجليزى

خلاصتها ان جميع الاسرى الاوربيين قد دخلوا فى الاسلام باختيارهم وانهم لا يرغبون الرجوع الى بلادهم وطلب منى ان أوقع هذه الوثيقة

ثم سألتى فجأة : « أأنت مسلماً ؟ أين تركت زوجاتك اذن ؟ »

وكان هذا السؤال مربكاً فقلت : « لى زوجة واحدة تركتها فى داره وقد

بلغنى انها أسرت مع سائر الخدم وانهم الآن فى بيت المال »

فقال : « وهل لك أولاد ؟ » فاجبته بالنفى فقال : « الرجل بلا ولد كالشجرة

بلا ثمرة وبما انك قد صرت فى خدمتى فسأعطيك بضع زوجات حتى تعيش عيشة هنية »

فشكرت له عنايته بى ورجوته ان يؤجل هديته الى ان انتهى من بناء عشتى

وقلت له فى ذلك ان الحريم يجب الا يعرض لنظر الاغراب . وكان ابو انجه قد أخذ

جميع أمتعنى فامر الخليفة بان يعوضنى منها باعطائى مخلفات المرحوم أوليفيه بان فارسلت

الى جميعها وكانت تحتوى على جبة قديمة وعباءة عربية بالية وقرآن مكتوب باللغة

الفرنسية . وأرسل الى فضل المولى يقول ان سائر أمتعة أوليفيه بان قد فقدت منذ

وفاته . وامر الخليفة بان ترد الى النقود التى كانت قد أخذت منى وأودعت بيت

المال . وكانت تبلغ أربعين جنيهاً وبعض الاقراط التى جمعتها لطرافتها وهذه كلها

سلمها الى حمد وأرسلها له

وشرعت فى بناء منزلى وكنت فى مدة البناء أقيم فى منزل الخليفة ووكلت أقدم

خدمى سعد الله النبوى فى بناء منزلى وكلفته بان يجعله مؤلفاً من ثلاث عيش مستقلة

داخل خطيرة . ولم أكن أبرح باب الخليفة منذ الصباح الباكر حتى المساء . وكان

كلما خرج راكباً أو ماشياً أسير مع عارى القدم . وكان الخليفة عند ما رأى قدمي

قد تلفتان من السير بلا حذاء قد أذن لى بان ألبس نعلين وكانتا تحزان فى قدمي

وتؤلماني

وكان الخليفة يرسل الى فآكل معه فى بعض الاوقات وكان أيضاً يرسل مايتبقى

من طعامه لنا فآكل مع الملازمين الذين صرت واحداً منهم . واذا كان الليل وذهب

الى فراشه توجهت أنا الى منزلى فانسطح على العنجريب وأنا فى غاية الاعياء واتام الى الفجر حيث استيقظ واذهب الى باب الخليفة فانتظره للصلاة

ولما علم الخليفة بان منزلى قد تم بناؤه أرسل الى جارية وقال لي سعد الله انها جاءت متلفعة . وانها قاعدة تنتظرني . فأمرت سعد الله بان يشعل مصباحاً ويرشدنى اليها . ففعل ووجدت المسكينة راقدة على حصير . وسألته عن ماضي حياتها فاخبرتني بصوت مشثوم انها من النوبارية وكانت تنتمى الى قبيلة فى جنوبي كردوفان وانها سبيت وأرسلت الى بيت المال فبقيت هناك الى ان أرسلها الى حمد واد سليمان . وكانت وهى تتكلم قد رفعت ما على رأسها من الاقمشة المعطرة التى كانت متلفعة بها فبدالى وجهها وكتفاها وصدرها

وأشرت الى سعد الله بان يقرب المصباح منها ثم رأيت عندئذ آتى فى حاجة الى ان اعبى جميع قوتي لكي لا أرب وأقع من العنجريب فقد كان لها وجه دميم تطل منه عينان صغيرتان وكان أنفها عظيماً مفرطحاً تحته فم له شفتان غليظتان تكاد ان تبلغان أذنيها عند ما تضحك . وكان رأسها يرتكز على عنق غليظ أشبه شئى بعنق الكلاب التى من سلالة « البول دوج » وكان اسم هذه المخلوقة مريم . فأمرت سعد الله بان يأخذها بعيداً عني ويعطيها عنجريباً

فهذه اذن هى أولى هدايا الخليفة لى . وهو لم يهد الى حماراً أو فرساً او بضعة تقود أستعين بها ولكنه أرسل لى جارية دميمة لا ارتاح الى وجودها وهى لو كانت جميلة لما قدرت على القيام بتكاليفها

ولما ذهبت فى اليوم التالى سألتى هل أرسل لى حمد واد سليمان جارية؟ فقلت : « اجل . لقد أنفذ أوامرك على الفور » ثم وصفت له الجارية وصفاً دقيقاً

فاغتاظ الخليفة أشد الغيظ وبعث فى طلب حمد واد سليمان ووبخه على عدم طاعة أوامره بل مخالفته أيضاً أوامر المهدي . وأرسلت الى فى المساء جارية أخرى اقل دمامة من سابقتها وكان الخليفة هو الذى اختارها . ولما هدأت بمنزلى سلمتها لمراحم سعد الله الخادم

واطمأن المهدي والخليفة والامراء من ناحية الغارات الخارجية فشرع كل منهم

في بناء منزل يوافق مكاته وحاجاته . وأخذت النساء سبايا الخراطوم الى هذه المنازل الجديدة وأخذ أسيادهن في التمتع بهن لا تزعمهم نظرة الغريب أو حسد الصديق ولم يكن الخليفة والمهدي وقرابتهما يحبون أن يعرف الناس أنهم أخذوا معظم الغنيمة لان هذا العمل يناقض تعاليم المهدي الذي يقول بالزهد في ملذات الدنيا وكانت منازلهم واسعة تسع أكثر ممن فيها وذلك انتظارا للغانم التي ستأتيهم من البلاد التي لم تفتح للآن

وفي يوم ما مرض المهدي ولم يذهب الى المسجد للصلاة . ولم يأبه أحد لمرضه أولا لانه كان قد أعاد على اسماع الناس عدة مرار انه سيفتح مكة والمدينة والقدس ثم يموت بعد عمر طويل في الكوفة . وأن النبي قد أظهره على هذه الرؤيا . ولكن مرض المهدي لم يكن وعكة خفيفة فقد استولت عليه حمى التيفوس وبعد ستة أيام من مرضه بدأ الذين حوله يقنطون من شفائه

وكان سيدي الخليفة يهتم اهتماما كبيرا بمرض المهدي ولا يبرح داره ليل نهار . وكنت انا أقف على الابواب بلا غاية معينة

وفي مساء اليوم السادس اجتمع جمهور كبير حول بيت المهدي وأمر المصلون في المسجد بان يصلوا ويدعوا لشفائه لانه بات في خطر الموت . وكانت هذه أول مرة أعلنت فيه الصفة الخطرة للمرض المصاب به المهدي امام الناس . وفي صباح اليوم السابع اذيع أن حاله تسوء ولم يبق شك في انه يموت

وكان المرض الآن قد بلغ غايته . وكان المهدي راقدا على عنجريب وحوله الخلفاء وقرابته وحمد واد سليمان ومحمد واد بشير (أحد كبار موظفي بيت المال ووكيل بيت المهدي) وعثمان واد احمد والسيد المكي (وهو شيخ من شيوخ الدين في كردوفان) وبعض من كبار أنصاره الذين سمح لهم بالدخول في غرفة مرضه

وكان المهدي يغيب عن وعيه من وقت لآخر ولما شعر بان آخرته قد قربت قال للذين حوله : « ان الخليفة عبد الله هو الخليفة الصادق وقد عينه النبي للخلافة بعدي . فهو مني وانا منه . وكما اطعموني وانفذتم أوامري كذلك افعلوا معي . الله يرحمنا »

ثم جمع مافيه من قوة وكرر عدة مرات عبارة : « لا اله الا الله محمد رسول الله » ووضع يديه مشبوكتين على صدره ومد ساقيه وأسلم روحه

وقبل أن يبرد دمه أقسم أنصار المهدي بيمين الولاء للخليفة عبد الله . وكان أول من بايعه سيد المكي ثم عقب ذلك الخليفتان الآخران وتبعهم جميع الموجودين ولم يكن من الممكن أن يحتفظ بوفاء المهدي سرّاً لا يذاع بين الجمهور . ولكن أمر الجميع بالا يبكوا أو ينوحوا وطلب من الجميع مبايعة الخليفة . وكانت ستنا عائشة أم المؤمنين كبرى زوجات المهدي في غرفة وفاته قاعدة متلفعة في احدي الزوايا فلما مات خرجت من الغرفة لكي تخبر سائر النساء بوفاة مولاها وزوجها وكان عليها أن تعزيهن وتمنعهن من النوح والندب . وكان معظمهن قد فرحن في قلوبهن بوفاء المهدي الذي جلب الخراب على البلاد والذي دعاه الله الى محكمته العليا قبل أن يتمتع بثمار انتصاره

ولكن على الرغم من الاوامر القاضية بمنع النوح والندب ارتفعت الاصوات من كل بيت وقيل ان المهدي مات باختياره لانه كان في شوق شديد لرؤية الله وشرع بعض الموجودين في غرفة المهدي بغسل الجثة ولفها في قماش من الكتان وأخذ البعض في حفر حفرة عميقة في الغرفة اتى مات فيها وبعد ساعتين وضعوا الجثة في الحفرة وبنوا فوقها بالطوب ثم طمروا الحفرة بالتراب وصبوا عليه ماء . ولما انتهوا من ذلك رفعوا أيديهم وتلوا عليه صلاة الموتى وخرجوا من الغرفة وهدأ روع الجماهير المتكاثرة حول المنزل

وكنا نحن الملازمين أول من دعى الى الخليفة الذي صار يسمى بعد ذلك خليفة المهدي فاقسمنا له بيمين الولاء وامرنا بان تنقل منبر المهدي الى مدخل المسجد وأن نخبر الجمهور بانه سيخطبهم الآن فلما أخبرناه باننا قد افقدنا أوامره خرج من غرفة المهدي وذهب الى المسجد واعتلى المنبر لأول مرة باعتباره حاكماً للبلاد

وكان يتفزز من الهياج وعبراته تنحدر على خديه ثم قال بصوت عال :

« يا أصدقاء المهدي . انه لا مرد لقضاء الله . لقد غادرنا المهدي الى الجنة حيث يجد مملذات النعيم . وعلينا نحن أن نتبع تعاليمه وأن نتعاون وأن نتساند كما يتساند بناء

البيت . وهذا العالم فان . فلا تنحرفوا عن طريق المهدي واغتنبوا بالشر الحسن الذي معكم من أنصاره وأتباعه . وأنتم أنصاره وأنا حليفته . فأقسموا الآن الى يمين الولاء » ولما انتهى من هذه الخطبة القصيرة شرع الحاضرون في المبايعة وكانت صيغتها « بايعنا الله ورسوله ومهدينا وبايعناك على توحيد الله الخ ... »

وكانت كل طائفة تباع نخرج وتأتي أخرى وكان المجتمعون كثيرين حتى كانوا في خطر الموت من الزحام . واستمرت المبايعة الى المساء . وكان الخليفة قد سكت عن البكاء واخذت امارات الفرع ترسم على وجهه عندما رأى هذه الجماهير العديدة تزدهم لمبايعة

وكان قد جهده التعب فنزل عن المنبر واحتسب جرعة ماء بعد ان جف ريقه من تعب طول النهار . ولكن خاطر السلطة الجديدة وانه الحاكم للقطر السوداني كان يؤنس ويشد من عزمه ولم يترك المنبر الا بعد ان ألح عليه كبار اتباعه بذلك

وقبل ان يترك المنبر طلب امراءه وجعلهم يقسمون بيمين الولاء على حدة وامرهم بلزوم طاعته وطاعة اخيه يعقوب ونصح لهم بان يعيشوا على وفاق بعضهم مع البعض لانهم اغراب وذلك لكي يكافحوا دسائس اهل البلاد التي نزلوا فيها ثم حضهم على لزوم تعاليم المهدي

وكنا قد تأخرنا الى ما بعد منتصف الليل فلم ارغب في الذهاب الى منزلي وانطرحت على الارض حيث انا اسمع روايات الناس عن موت المهدي واستعدادهم لطاعة الخليفة .

والآن يمكننا ان نتساءل . ماذا فعل المهدي لاحياء الدين . وما هي تعاليمه ؟ لقد دعا الى الزهد وكان يجحد الملذات الدنيوية وغرور هذا العالم . وهدم النظام الاجتماعي ونظام الموظفين وسوى بين الاغنياء والفقراء واختار الجبة المرقعة لباساً عاماً لجميع الناس . وضم المذاهب الاربعة المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي الى مذهب واحد ولم يكن اختلافها كبيراً فانه مقصور على كيفية الوضوء والسجود وكيفية عقد الزواج وما الى ذلك . واختار بضع آيات من القرآن سماها الراتب وكان يأمر المصلين بتلاوتها بعد صلاة الصبح وصلاة العصر

وقد سهل على الناس عملية الوضوء . ومنعهم من الشراب وكان السودانيون لا يعقدون زواجا بدون أن يشربوا . وانزل قيمة المهر الى عشرة ريالات وثوبين للبكر وخمسة ريالات وثوبين للثيب . ومن أعطي أكثر من ذلك كان يصادر في أملاكه . وقصرت ولية العرس على طبق من اللبن وآخر من البلح . وكان يقصد تيسير الزواج وكان يحتم على الآباء والاوصياء زواج بناتهم . وهن بعد صغيرات ومنع الرقص واللعب وكل من خالف ذلك يعاقب بالجلد وتصفى أملاكه . وكان السباب يعاقب عليه بحساب ثمانين جلدة لكل كلمة بذينة والحبس سبعة أيام . ومنع استعمال الخمر والمريسة وتدخين التبغ ومن خالف هذه الأوامر يعاقب بالجلد والحبس ثمانية أيام ومصادرة أملاكه . وكان السارق يعاقب بقطع يده اليمنى فاذا عاد الى السرقة قطعت اليسرى

ولما كانت عادة الرجال في عرب السودان ارسال شعورهم أمر المهدي بحلقها وكذلك أمر بمنع النوح على الموتى أو نديهم ومنع الولائم التي تقام في المآتم ومن خالف ذلك تصفى أملاكه

ولما كان المهدي يخشى فرار جنوده لعله بما يقاسونه من المعيشة التي رتبها لهم ولعله أيضاً بان مذهبه قد لا يعد صحيحا في نظر المسلمين الآخرين منع السودانيين من الحج الى مكة ومنع المواصلات بين السودان والاقطار المحيطة به

وكان يعاقب كل من يصرح بالشك في صحة مذهبه ويشهد عليه اثنان بقطع يده اليمنى وساقه اليسرى . وكان يستغني أحيانا عن شهادة الشاهدين بما يدعيه من ايجاء النبي له واثباته جناية المتهم أو براءته

وكان أيضا يعرف ان معظم أوامره تخالف الدين فأمر لذلك بمنع الناس من دروس الفقه وشروح القرآن وقضى بان تحرق هذه الكتب أو تلقي في ماء النيل هذه هي تعاليم المهدي ولم يترك حجراً الا قلبه لكي ينفذ أوامره . وكان في الظاهر يبدو للناس أنه يحافظ كل المحافظة على لزوم تعاليمه ولكنه كان هو وخلفاؤه وقرابته اذا دخلوا منازلهم استسلموا للنهم في الطعام والشراب وللهو وضروب اللذات الشهوانية المنتشرة في السودان

الفصل الحادى عشر

حكم الخليفة عبدالله

لم يحدث شيء ذو أهمية فى دارفور منذ أن غادرتها . فان خالد درزريك كان قد أرسخ حكم المهدي فى المديرية باجمعها وبعث الامراء والجيش لكي يقوى حكم المهدي فى جميع الأنحاء . وقد تظاهر ضابطى القديم عمر واد دارهو بالولاء للنظام الجديد ولكنه عند وفاة المهدي قام فى ذهنه ان يستقل فكاد له خالد حتى أوقع به وحمل الى دارفور حيث قطع رأسه .

وكان أبو أنجه فى كردوفان وكانت هذه المديرية قد خضعت كلها للمهدي ماعدا الجزء الجنوبى فيها وأرضه جبلية فاعتبر أهل هذا الجزء عبيداً لم يدفعوا الجزية وطلب منهم الهجرة الى أم درمان

ولما لم يجيبوا هذا الطلب دعى أبو أنجه الى اخضاعهم والى احتلال بلادهم بجيشه واجبارهم على تموينه وارسال عدد منهم عبيداً الى المهدي . وتمكن أبو أنجه بعد أن فقد مقداراً كبيراً من الذخيرة وعدداً عظيماً من رجاله من القيام بجميع ما أمر به تقريباً . وكان السودان الغربى باستثناء هذا الجزء الصغير منه خاضعاً لسلطة المهدي من حدود وادى النيل الى الابيض

أما فى السودان الشرقى فقد ثبتت سنار وكسله ودافعت كل منهما المهديين ولما علمت الحكومة المضرية بالحالة الخطرة التى بات فيها الجنود فى الحاميات الشرقية أرسلت الى يوحنا ملك الحبشة تستنجد به لكي ينقذ حاميات القلايات وجبره وسنهيته وكسله وينقلهم الى مصوع . ولكن حاكم كسله صرح بان الحامية مؤلفة من أولاد البلدة فهو لذلك لا يمكنهم ان يجعلهم يتركون بلادهم الى مصوع

وأرسل المهدي كلا من ادريس واد عبد الرحيم وحسين واد صحرا بالامداد لكي يعجلا باسقاط المدينة . وفى هذه الاثناء كان الملك يوحنا قد أنقذ حاميات سنهيت وجبره والقلايات وارسلهم الى مصوع وصار العرب المقيمون فى المثلث بين

سوا كن وبربر وكسله من أتباع المهدي الخاضعين له . وكان عثمان دجنه قد انتخب واليا على هذا القسم وأرسل محمد الخير الي دقله لكي يحتلها بعد خروج الانجليز منها هذه اذن هي حالة السودان عند تولى الخليفة . ومن هنا نفهم السبب الذي دعاه الى ان يحث القبائل العربية العربية على الاتحاد لانهم أغراب في البلاد التي يحتلونها . فانه كان يعرف ان « أولاد البلد » من برابرة وجعالين وسكان الجزيرة لا يستمرثون قدوم هؤلاء العرب الغربيين الذين يختلفون عنهم في الافكار والاخلاق الى بلادهم . وكان أول ما عمله الخليفة انه فصل حمد واد سليمان من منصب مدير بيت المال وعين بدلا منه ابراهيم واد عدلان وكان من عرب الكواحلة على النيل الازرق ولكنه أهضي عدة سنوات يشتغل بالتجارة في كردوفان وكانت له حظوة عند الخليفة وطلب من عدلان ان يجعل حسابا للوارد والمنصرف وان يكون لهذا الحساب دفاتر تمكن مراجعتها في أى وقت وتعرف منها الحالة المالية . وأمره أيضا بان يضع قائمة عن جميع أولئك الذين يتسلمون أى مبلغ من المال والذين يقبضون مرتبا

وعند وفاة المهدي جاءت الاخبار بان الفارة على سنار قد فشلت وان عبدالكريم قد صد عنها فارسل الخليفة عبدالرحمن النجومي لكي يتولى القيادة وذلك في سنة ١٨٨٥ فسلمت الحامية لهذا القائد القوى . وحدثت الفظائع المعتادة بعد سقوط المدينة فان عددا من أهالى سنار أرسلوا الى الخليفة وكان بينهم بنات الموظفين الجميلات فاحتفظ الخليفة باجملهن ووزع الباقي على الامراء .

وشرع الخليفة في تأييد سيادته . وكان يعرف ان عبدالكريم مزاحم قوي فاستدعاه الى الحضور الى أم درمان بجميع جيوشه ثم دبر له هو والخليفة على واد حلو مكيدة بحيث سلم عبدالكريم جميع ذخيرته وجنوده وكذلك سلم الخليفة شريف جميع جنوده السود لاختيه يعقوب وأصبح كل منهما مقلم الظفر لا خطر منه .

وبينا كانت هذه الاخبار تشيع في العاصمة وصلت الاخبار بان كسله سقطت وان عثمان دجنه يقاتل الاحباش الذين يقودهم الرأس الوله . وقد انتصر الاحباش على عثمان دجنه واضطروه الى الالتجاء الى كسله ولكنهم اكتفوا بذلك ورجعوا الى بلادهم

وانهم عثمان دجنة حاكم كسله السابق أحمد بك عفت بانه قاوض الاحباش وحرصهم على مقاتلته . ولم يكن هناك أقل ما يثبت هذه التهمة ومع هذا فقد قبض على ستة موظفين في كسله وشدت أيديهم خلف ظهورهم وضربوا بالرصاص كأنهم مجرمون

وكان الخليفة عبد الله يعرف ان جوره على سائر الخلفاء سيثير غضب قرابة المهدي الذي كانت علاقته بهم سيئة ولكنه لم يبال بذلك . فقد عقد عزمه على ان ينفذ أغراضه ولو احتاج في ذلك الى استعمال العنف وقد كان مع ذلك يخشى الرأي العام ويعرف ان الاهالي كانوا يحبون المهدي وانهم يعطفون على قرابته فلم يكن يظهر بمظهر العدا له . بل سار في طريق مرضاة الجمهور الى ان اهدى الى الخليفة شريف طائفة من العبيد وبعض الخيول العتيقة والبغال الفارحة ووهب اتباعه ايضاً عدداً من العبيد . وقد اجتهد في ان يجعل هذه الهبات والانعامات علنية حتي يعرفها جميع الناس وقد نال وطره فان الناس حمدوا له فعله وامتدحوا سخاءه في قصائد كانوا يتغنون بها

وكان واضحاً امام الخليفة ان ترك البلاد البعيدة في أيدي قرابة المهدي مما يعود بالخطر على حكمه ولذلك لم يتوان في إرسال قرابته هو الى دارفور وكردوفان لكي يلوا الحكومة .

وقد طلبني الامير يونس الدكيم لكي أراققه الى سنار ولكني قبل أن أغادر أم درمان قال لي الخليفة : « اني أحثك على أن تخدمني خدمة صادقة . فاني أنظر اليك نظرة الاب لأبنه وقلي يعطف عليك . والله يعد المؤمنين بالمكافأة كما أن غضبه ينزل على الخونة . ويونس يحبك ويرجو لك الخير وسيسمع لنصائحك وإذا شرع في عمل يعود عليه بالاذى فيجب ان تحذره منه وقد أخبرته باني اعتبرك أحد أولادي وسيستشيرك في كل ما يعمل »

فقلت : سأعمل بما تأمرني . ولكن يونس رئيسي فهو لذلك سيستبد برأيه . فأرجوك ألا تنسب الي عملا لا يكون وفق هواك وتجعلني مسئولاً عنه »

فقال : « ان لك أن تشير ولكن ليس لك أن تعمل . فاذا كان عمله وفق مشورتك وإلا فهو المستول »

ثم تحول الحديث الى مسائل دارفور وجهات اخرى من السودان واستمر الحديث مدة ولكنني حين اوشكت ان أهم بالقيام هتف الخليفة باحد الخصيان وهمس في أذنه كلمة . وكنت أعرف مولاي معرفة جيدة وأعرف ان اشاراته نذير شؤم

وقال لي : « لقد أشرت عليك بان تترك أهلك لأنهم قد جاءوا بعد سفر شاق فهم في حاجة الى الراحة . وسيعطيك يونس خادما وهاء نذا اعطيك زوجة حتي اذا مرضت وجدت من يعنى بك » ثم تبسم وقال : « وهي جميلة وليست مثل تلك التي قدمها لك حمدواد سليمان »

ثم أشار الى المرأة التي دخلت فرفعت ثيابها ونظرت اليها فاذا بها جميلة على الرغم من سمرتها

ثم قال الخليفة : « هذه زوجتي وهي طيبة صبور . وعندي كثير من النساء ولذلك انا اعتقها فيمكنك ان تأخذها »

فارتبكت وكنت طول الوقت أفكر في طريقة أرفض بها مثل هذه الهدية . بدون أن أغضب الخليفة . فقلت : « اسمح لي يا مولاي بالكلام »

فقال : « لا تخش شيئاً . قل ما تريد »

فقلت : « هذه المرأة كانت يا مولاي زوجتك وأنت سيدي وانا خادمك فكيف يجوز لي أن آخذ زوجتك . ثم انك تقول يا مولاي انك تنظر الي كآني ابنك » ثم أغضيت الطرف وقلت وانا انظر الى الارض : « لا يمكنني أن أقبل هذه الهدية » فقال وهو يشير الى المرأة بان تذهب : « لقد قلت حقاً وانا أوافقك »

ثم هتف بالخصي قائلاً : « يا ألماس . احضر جبنى البيضاء » وذهب وأحضرها فسلمها لي وهو يقول : « خذ هذه الجبة التي لبستها أنا مرارا والتي باركها المهدي . وسيغبطك ألوف الناس عليها فاحرص عليها لأنها تأتيك بالبركات »

فابتهجت بهذه الهدية وقبلت يديه وانا مرتاح الى تخليص من تلك المرأة التي

ما كانت سوى حجر عثرة ونفقة لا أتحملها ووجدت في الجبة بديلا طيبا منها . ثم استأذنت في الخروج وأخذت هديتي الغالية معي

وعين يونس يوم السفر ولكن قبل السفر طلبني الخليفة وحتى على الصدق في الخدمة والامانة امام يونس

وفي المساء برحنا أم درمان في الباخرة «بردين» وفي اليوم الثالث بلغنا شاطئ النيل الازرق وتراءت لنا سنار على بعد

وقد اخترنا مكانا لخيامنا قطعة مستطيلة من الرمل شمالى وادى العباس لان الارض التي حولها منخفضة لاتوافق الاقامة مدة فصل الامطار . ولم يكن رأسي يفكر الآن بشيء سوى الفرار . ولكن لما كان جميع الاهالى راضين عن الخليفة فاني كنت في حاجة الى ان احذر اشد الحذر في اتخاذ واحد اثنى به . ولم يمض على طويل زمن في وادى العباس حتى جاءني خطاب من الخليفة يقول فيه انه جاءته اخبار بان زوجتي قد وصلت الى كروسكو وانها ترتب الترتيبات اللازمة لفراري ثم حضني على ان اترك هذه الافكار والزم الايمان . وتسلم يونس ايضا خطابا جاء فيه هذا المعنى ثم تعلل بانه يريد ان يوقف الخليفة على الاحوال في سنار وامرني بالسفر الى ام درمان . وعلى ذلك ذهبت تدير آتي للفرار ضياعا ورأيت نفسي بعد ايام في حضرة مولاي الخليفة

وبدأ الخليفة الكلام عن الخطاب الذي جاءه من بربر فأكدت له بانه اذا كان هذا الخطاب قد وصل بالفعل فانه لم يكتب الا بغية الاذى لي والا فقد يكون هناك خطأ وبرهاني على ذلك اني لم أتزوج قط فليس لي زوجة تصبو الى لقائي . أما اذا جاء احد الى أم درمان وأراد اغرائي بالهرب فاني لن أتأخر عن ابلاغ امره للخليفة فأكد لي الخليفة بانه لم يصدق هذه الاشاعة ثم سألتني هل احب البقاء معه او مع يونس وكنت اعرف قصده من هذا السؤال فقلت اني لا اعدل بالبقاء معه شيئاً . وابتهج من تملق له ولكنه قال بصوت جدي انه يذكركني بالولاء والامانة والا احادث احداً خلاف اهل داره . ثم امرني بلزوم مكاني كما كنت سابقا على باب الدار . وعند خروجي لم اشك في ان شبهات قد تأصلت في قلبه وانها ابتدأت في النمو

وكانت قوة الابيض تحتوى فى هذا الوقت على مائتين من الجنود السود وقد زاد عددهم بما انضم اليهم من جنود داره السود ايضا . وكان كثيرون منهم يقطنون جبل دبرو وهم على عداوة دائمة مع المهدي . وكان الدراويش قد اسروا بعضا منهم واستعملوهم فى بناء الكواخيم واستعبدوهم .

واغتاز هؤلاء الجنود من هذه المعاملة وعزموا على ان ينالوا حريتهم . وكان الامير سيد محمود غائبا لحسن حظهم فى ام درمان وتمكن المتمردون من الاستيلاء على الترسانة . فأخذوا منها السلاح ثم اقتتلوا مع سائر الجنود وخرجوا الى جبل النوبة وبلغت هذه الاخبار السيد محمود فى ام درمان فسافر فى الحال الى الابيض وتولى قيادة الجند وسار الى جبل النوبة وحاول ان يهزمهم ولكنه فشل فى ذلك وقتل هو وعده كبير من الجند

ولم يكن الخليفة يجهل تزايد قوة خالد (زوجال) واستقلاله فى دارفور . وكان يعرف انه لقرابته من المهدي يعطف على الخليفة شريف فتعلل بانه يرغب فى ان يتوسط خالد بينه وبين الخليفة شريف فى ايجاد الصلح والوفاق ودعاه لذلك الى الحضور الى ام درمان مع جميع جنوده .

ولكن عندما وصل خالد الى باره وجد نفسه فجأة محوطا باتباع ابو انجه وكان الخليفة قد أمرهم بأن يأخذوا جنود خالد ويضموهم الى جيشهم ويذهبوا جميعاً الى جبل النوبة لمقاتلة المتمردين . ولم يكن بد من ان يخضع خالد بعد ان وقع فى هذا الشرك فقيد بالسلاسل وأرسل الى أم درمان ثم صودر فى أملاكه وبقي سجيناً عدة أشهر ولكن عفى عنه بعد ذلك وعين بدلا منه عثمان واد آدم ابن عم الخليفة

ونجح ابو انجه فى هزيمة المتمردين قتل جميع الزعماء وجعل معظم الجنود المتمردين عبيداً

وعلمت من تاجر قدم اليها من كردوفان فى ذلك الوقت ان صديق يوسف أوهرولدر قد غادر الابيض وانه سيصل قريباً الى أم درمان . ومع علمى بأنى سأجد أكبر مشقة فى لقائه فقد فرحت بان أحد بني وطنى سيكون قريباً منى . وكنت طول الوقت على باب مولاي الخليفة أنفذ أوامره . وكان يخاطبني أحياناً بلهجة الرافة

ويدعوني الى الطعام فأكل معه . وفي أحيان أخرى كان ينساني نسيانا تاما او ينظر اليّ نظرة الحقد والغضب بلا مناسبة أستطيع فهمها . ولكنني صرت أنسب هذه الاحوال الى مزاجه الشخصي وصرت أسوم نفسي على الرضا .

وكننت لا أبدى أقل اكتراث لما يحدث في البلاد من الحوادث وذلك حتى لا يجدوا سببا في زيادة شبهات الخليفة الذي كان على الدوام يتوجس منى شرأويسأل عن مسلكي ولكن الحقيقة اني كنت أرقب الحوادث بعين الاهتمام بمقدار ما يسمح لي مركزي وكننت أحاول ان أنقشها في ذهني حتى لا أنساها لانه لم يكن يسمح لي بكتابة شيء . وكان الخليفة يقتر عليّ في مؤونة بيتي وقدا كان يأذن باعطائي بعض الارادب من الذرة او منحى بقرة او شاة .

وكننت أعرف ابراهيم عدلان مدة الحكومة السابقة فكان يرسل لي كل شهر مبلغا يتراوح بين العشرة والعشرين ريالاً وكان بعض الموظفين واطجاريساعدوني أيضا بالمال من وقت لآخر . وعلى ذلك يمكنتي ان أقول ان حالي وان لم تكن في بسر إلا اني لم أشعر بالحاجة الى ضروريات المعيشة او كننت أشعر بها قليلا من وقت لآخر فقط . وعلى كل كانت حاتي تفضل حال صديقي لبتون الذي وعده الخليفة بمساعدته ولكنه لم يف بوعده وكان لبتون يتمتع بشيء من الحرية يحول أينما شاء في أم درمان ويحادث الناس ولم يكن مضطراً الى حضور الصلوات الخمس في المسجد . ولكن حياته كانت مع ذلك مملوءة بالمتاعب والاحزان . وقد رجوت عدلان أن يساعده ويعطيه شيئاً من المال ولكن هذا لم يكفه . وكان لبتون يجهل التجارة ولا يكن الحاجة اضطرته الى ان يرج شيئاً باصلاح البنادق الفاسدة . ولما كننت أعرف انه كان مستخدماً في السفن الانجليزية قديماً خطر في بالي انه ربما يعرف شيئاً عن الآلات

والتقيت به أحد الايام في المسجد فشكا اليّ سوء حاله شكاية مرة فاقترحت عليه ان أبحث له عن وظيفة في البواخر يستعين بها على العيش فطرب لمقترحي ووعده بانى سأعمل جهدي لكي أحقق له ذلك .

وبعد أيام بينما كان الخليفة في مزاج موافق ينظر اليّ بعين الرضا لان أبا أنجه

أرسل اليه جوادا عتيقا وبعض المال وعددا من عبيد خالد فعدت لتناول الطعام معه
وذكرت له حال البواخر وأنها يخشى عليها من التلف لأنه ليس فيها من يفهم
آلاتها وكيفية اصلاح ما يفسد منها فقال لى انه لا يعرف شيئا عنها مطلقا وانه فى
حيرة ماذا يفعل لصيانتها فانها ضرورية . فاقترحت عليه فى الحال بانه يمكن ان
يستخدم لبتون فيها لصيانتها واصلاحها وقلت له ان لبتون كان مهندسا فى احدى
البواخر الانجليزية . فوافقنى الخليفة على اقتراحى وأمرني بالبحث عنه .

وفى اليوم التالى بحثت عن لبتون ودعوته للحضور . فحضر وأخبرته بما قاله
الخليفة والكنى نصحت له بالا يعمل شيئا مفيدا للبواخر التى يملكها أعداؤنا .
فأكد لى لبتون بان معرفته بالآلات سطحية جدا وأنها ستسوء بإدارته وان الحظ
السيىء هو الذى سيجبره على قبول هذه الوظيفة . وخاطب الخليفة عدلان فى هذا
الشأن . وفى المساء أرسل الى لبتون يقول انه قد تعين فى هذه الوظيفة براتب قدره
أربعون ريالاً فى الشهر وفى هذا المبلغ كفاف المعيشة .

وأشيع فى ذلك الوقت فى أم درمان ان الاحباش سيغيرون على القلابات .
وقيل أيضاً ان من يدعى الحاج على واد سالم من السكواحلة كان يقيم فى القلابات .
وقد تعين أميراً على قبيلته وكان يسيح فى نخوم الحبشة فاغار على جبطة وهدم كنيستها
وكان من يدعى صالح شنجبه وهو رجل تكرورى كان يقيم قبلاً فى القلابات
فلما أخلاها الجنود المصريون ذهب وأقام فى الحبشة ولكن ابن عمه أحمد وادأرباب
عين أميراً فى ذلك القسم .

وكان حاكم أمهرة (فى الحبشة) الرأس عدل قد طلب من «أرباب» ان يسلم له
الحاج على الذى أغار على جبطة . فرفض طلبه فجمع جيشاً وأغار به على القلابات
وكان «أرباب» قد علم بنية الرأس عدل على الهجوم فجمع جيشاً يبلغ سنة آلاف
ووقف ينتظره خارج المدينة . ولكن هجوم الاحباش الذى كان يزيد عددهم على
عدد السودانيين بعشرة أضعاف كان عنيفا فاحدقوا بالدرأويش وذبحوهم وقتل
«أرباب» ولم ينج إلا عدد قليل جدا . وقطع الاحباش أجسام القتلى ومثلوا بهم ما عدا
جسم «أرباب» فانهم استثنوه احتراماً لصالح شنجبه .

وكان الدراويش قد خزنوا بارودهم في منزل ووكلوا حراسته لمصرى . فلما طالب الاحباش هذا المصرى بتسليم البارود أبى واشعل البارود فانفجر وقتله هو ومن حوله من الاحباش . أما القلايات نفسها فقد أحرقها الاحباش وسووها بالارض بحيث صارت خرابا لا يعيش فيها سوى الضباع .

ولما بلغ الخليفة خبر اصطلام جيش واد ارباب أرسل خطابا الى الملك يوحنا يعرض عليه اقتداء الاسرى بمبلغ يعينه هو بنفسه . ولكنه في الوقت نفسه أمر يونس بان يقوم بجيشه الى القلايات وينتظر أوامره هناك وعند ما غادر يونس الخرطوم بجيشه عبر الخليفة النهر الى الخرطوم وشيعه ثم عاد الى أم درمان .

وحدث ان «كلوتز» اختفي فجأة من أم درمان وكان هذا على أثر فشله في الحصول على ما يعيش به وظننت انه قد فر ونجا . ولكني علمت من بعض التجار الواردين من غضارف انه وصل الى هذه البلدة وقد بلغ به الاعياء حتى مات قبل هجوم الاحباش

الفصل الثانى عشر

بعض الحوادث الاخرى

كان الامير كرم الله قد تولى الحكم في بحر الغزال بعد لبون وذهب الى شقة وأقام فيها . ولكن صديقى القديم المادبو كان يحكم هذه الجهة فاصطدم الاثنان وتنازعا السلطة

وانتهى النزاع بالشجار وفر المادبو بعد مقاومة غير مفيدة فقبض عليه وأرسل الى أبى انجه وكان يحقد عليه لعدة سابقة . وذلك ان المادبو أسره أحد الايام عند ما كان يقاتل في صف سليمان زبير وكافه حمل صندوق كبير من الذخيرة فلما شكك اليه أبو أنجه جلده . ولما أحضر المادبو حاول ان يدافع عن نفسه بقوله انه لم يقاتل المهدي وإنما كان يقاتل كرم الله . ولكن ما فائدة الدفاع في هذه الاوقات ؟

وعرف المادبو ان الدفاع لا فائدة فيه فاستسلم لقضاء الله وقال : « ان الله هو الذى يقتلنى . وانا لا أسأل الرحمة وانما اطلب العدل . ولكن كبير على عبد مثلك أن يكون شريفاً . وها هي ذى آثار سوطي على ظهرك لم تزل واضحة . ومهما جاءني الموت فانه سيجدني رجلاً هادئاً مطمئناً لقبوله . فاما المادبو والقبائل تعرفنى »

وأمر أبو أنجه برده الى السجن ولكنه لم يجده وفي اليوم التالي قتله امام جيشه وبر المادبو بوعده فانه وقف فى الساحة الفسيحة المعدة لقتله والسلاسل حول عنقه وكان يضحك فى وجه الجنود الذين كانوا يركضون الخيول ويلوحون بالرماح فى وجهه . ولما أمر بالركوع لكي يقتل صاح فى الناس ان يشهدوا عليه كيف مات وتحمل الموت بشجاعة . وبعد لحظة انتهى كل شيء . وهكذا ختمت حياة المادبو وكان من أقدر شيوخ العرب فى السودان .

ولما أحضر رأسه الى أم درمان حزن عليه جنود الرزيفات الذين كانوا قد هاجروا الى أم درمان . حتى الخليفة نفسه أسف على قتله . ولكن لما كان كل شيء قد انتهى لم يكن ثم مجال لان يلوم أكبر أمرائه على شيء فأت . ولكنه أخبرني انه لو عاش لكان فيه منفعة كبيرة

وكان يونس قد غادر أبا حرز الى الغضارف والقلابات حيث أقام وكانت سلطته واسعة . وحدث انه طلب من الخليفة أن يأذن له فى الاغارة على الحبشة ولم يكن الخليفة قد تسلم الجواب من الملك يوحنا على خطابه فأذن له . فأخذت جيوش يونس فى الاغارة على القرى المتاخمة وكان يقودها عرابى ضيف الله فكان يقتل الرجال ويسبي النساء والأولاد وكانت هذه الجيوش سريعة الحركة كثيرة الاغارة حتى لقد سارت مرة عشرين ميلاً فى داخل البلاد تنهب وتقتل وتفتك . ولكن يونس كان فى القلابات وعلاقته بالاحباش على ما برام يتاجر معهم فيأتونه بالبن والعسل والشمع والطماطم وریش النعام والخيول والبغال والعييد وحدث مرة أن جاءت قافلة كبيرة من الجبارته (وهم من مسلمي الاحباش) ومن المكاده ومعهم متاجر عظيمة فلم يقو يونس على كبح أطمائه فادعى انهم جواسيس أرسلهم الرأس عدل وقبض عليهم وأخذ سلهم واستحسن الخليفة عمله حتى سماه « عفريت المشركين » و« مسمار الدين »

وكان يونس قد أرسل اليه جميع الفتيات الجميلات اللاتي سبين في الغارات كما أنه أرسل اليه عدداً من الخيول والبغال . وطعم الخليفة في التوسع وكان أيضاً مقتاضاً من الملك يوحنا لانه لم يجب على خطابه فعزم على ان يضم جيش يونس الى جيش أبي أنجه ويغير بهما على الحبشة . وطلب من يونس ان يبقى بجيشه ويتخذ خطة الدفاع الى أن تأتيه أوامره

وأرسلت الاوامر الى أبي أنجه لكل يرسل ١٥٠٠ من جنوده المسلحين ينادق منجئون الى عثمان واد آدم الذي عين أميراً لكردوفان ودارفور . وطلب منه أن يحضر هو بنفسه مع سائر جيشه الى أم درمان

وقبل هذه الحوادث بمدة قليلة كانت قبيلة الكبايش التي تقيم بين كردوفان ودقلة قد ظهر منها شيء من العصيان . فأرسلت اليهم تجريدة نجحت في اخضاعهم وغنمت منهم مقادير كبيرة من الماشية والعييد . ولجأ شيخ القبيلة الشيخ صالح الى أم بدر وهي بقعة بعيدة ومعه عدد قليل من أتباعه

وأرسل الشيخ صالح الى وادي حلفا يستنجد بالحكومة المصرية فسلمت لوكيله مائتي بندقية وأربعين صندوقاً من الذخيرة ومائتي جنيه وبعض المسدسات الملبسة بالمعدن وكان في اسوان في ذلك الوقت تاجر الماني يدعي شارل نيوفلد وكان يعرف ضيف الله اجيل شقيق الياس باشا الذي فر حديثاً من السودان . وعلم منه ان في كردوفان مقادير كبيرة من الصمغ لم يستطع التجار إصدارها بالنسبة للثورة وانه يمكن بمعاونة الشيخ صالح أن تنقل الى وادي حلفا . فاغراه الطمع في المال أن يذهب بنفسه الى الشيخ صالح . ويظهر انه لم يجد صعوبة كبيرة في الحصول على إذن بالسفر الى السودان بعد ان وعد بكتابة تقرير عن الحالة في السودان . وفي أوائل ابريل ١٨٨٧ غادر وادي حلفا قاصداً الشيخ صالح

وكان النجومى عارفاً بقيام القافلة فوضع أناساً على الطرق لكي يخبروه بالطريق التي تسلكها القافلة . ومما زاد الطين بلة ان الدليل ضل في طريقه فقاشرت القافلة عذاباً كبيراً من العطش . ولما وصلوا الى آبار الكلب وجدوا بضعة دراويش في انتظارهم فنشب قتال انهزم فيه رجال صالح لما كان بهم من الاعياء والعطش وأسر بعضهم

وكان بين الاسرى نيوفلد . وفي بدء القتال عزم نيوفلد على ألا يبيع حياته رخيصة فانه اتخذ مكانا وراء القنطرة وكانت معه خادمة حبشية . ولكن القتال لم يبلغ اليه وعند انتهاء القتال عرض عليه الدراويش أن يعفوا عنه اذا سلم نفسه فرضي وأخذ الى النجومي في دققة مع سائر الاسرى . وقتل النجومي جميع الاسرى ما عدا نيوفلد فانه حقن دمه لكي يرسله الى أم درمان

وكنت قد سمعت أن أسيراً اوروبياً سيرسل الى أم درمان . وفي أحد الايام في شهر مايو رأيت جمهوراً يسير نحو دار الخليفة وفي وسطه رجل اوروبى قد ركب جملاً . وكان المشاع على ألسنة الناس انه الباشا حاكم وادى حلفاء . وكان بين المسجد وبين دار الخليفة بناء يدعى رقوبة يجلس فيه الملازمون والى هذا البناء أدخل الينا نيوفلد فلما رأيته صمت لأنى كنت أعرف أخلاق الخليفة وجواسيسه وتظاهرت بالمحانة لا أكثرث لما يجري أمامي

ولما سمع الخليفة بوصول نيوفلد بعث في طلب الخليفتين والقاضيين طاهر المجذوب والامير بنحيت ونور أنجره الذى كان قد وصل حديثاً من كردوفان حيث كان يحارب مع أبي انجه . وأرسل أيضاً في طلب يعقوب أخيه . وعند ما دخلوا همست في اذن نور انجره قائلاً : « افعل جهدك لكي ينجو الرجل »

وطلبني الخليفة وأمرني بأن أجلس مع المجتمعين معه . ثم أخبرنا بأن الرجل جاسوس انجليزى وطلب من الشيخ طاهر المجذوب أن يستجوبه . وطلبت أنا في الحال أن يؤذن لى بأن أخاطبه بلغة أوروبية فأذن لى وذهبت أنا وطاهر الى الرقوبة حيث كان نيوفلد

ولما ذكر اسمى قام نيوفلد وصافحنى وهو فرح . فنبهته الى وجوب مخاطبته الشيخ طاهر الذى وكلت اليه محاكمته وانه يجب عليه الخضوع كل الخضوع لما يقال له . وكان يجيد التكلم بالعربية وأحدث استعداداً للكلام اثرأ سيئاً في نفوس سامعيه فطلبوا أن يرسل الى الخليفة وكان حكمهم انه جاسوس يجب أن يقتل . ولما صرنا جميعاً في حضرة الخليفة قال لى : « وما رأيك أنت فيه ؟ »

فقلت : « كل ما أعرفه انه الماني أى انه ينتسب لأمة لانهتم بمصر »

وسلم اليّ الخليفة أوراقا وطلب مني قراءتها ورأيت في عينيه انه يحقق النظر فيّ لكي يعرف ضميري

فوجدتها تحتوي على كشف أدوية مكتوب باللغة الالمانية . وخطاب بالانجليزية الى نيوفلد فيه أخبار عن الحالة بالسودان . كذلك خطاب طويل من الجنرال « استيفنسن » ينبيء فيه بأنه منحه الاذن بدخول السودان مع القافلة القادمة . وفي الوقت نفسه يطلب معرفة أخبار وافية عن الحالة عموما .

ترجمت هذا الخطاب للخليفة غير اني تكتمت ماطلبه الجنرال من معرفة الاخبار فقلت له ان ما يطلبه هذا الرجل هو السماح له في دخول البلاد وهو يشتغل في التجارة كما أخبر الشيخ طاهر . وقد رأيت الخليفة في تلك اللحظة يحقق النظر بي ثم أمرنا بالانصراف انتظاراً لأوامره خارج الدار .

وقد اجتمع في ذلك الأوان عند البناء المسمي « الرقوبة » آلاف الناس بقصد رؤية الباشا الانجليزى . وما هي الا هنية حتى جاء بعض الضباط السود وأوثقوا يدي نيوفلد وأمروه بمغادرة الرقوبة . فوقفت أنا والقاضي « نورانجره » على كومة من الاحجار نرقب ما سيحدث

وفي تلك اللحظة التي ظنها نيوفلد آخر حياته حلق بنظره الى السماء ثم خر ساجدا دون ان يطلب اليه ذلك . فأمروه بالنهوض ومن ثم تقدم رجل يحمل أرغونا وابتدأ يعزف أنغاماً مطربة فوق رأس نيوفلد . ولقد دهشت لما رأيت ان ذلك لم يربكه قط واندفعت خادمته الحبشية بدافع الاخلاص لسيدها طالبة ان تقتل معه ولكنها أعيدت الى الرقوبة في الحال . وقد تيقنت حينئذ أنا والقاضي بان الخليفة يداعب نيوفلد كما يداعب القط الفأر وان الحكم باعدامه لم يصدر بعد فحاولت أن أشير اليه ولكنه يظهر انه لم يتنبه الي اشارتي

ثم عدنا بعد ذلك في حضرة الخليفة فبادر الشيخ طاهر بقوله « هل أنتم تصرون على اعدام هذا الرجل » ثم التفت الى نورانجره وقال له ما رأيك وأنت الذي طلبت العفو عن نيوفلد وقلت انه شجاع ثم التفت اليّ وقال « ما رأيك أنت يا عبد القادر » فقلت يا مولاي ان الرجل يستحق القتل ولو كان هناك أى حاكم غيرك ما تأخر عن

قتله . ولكن علو نفس مولاي الخليفة ورحمته لا شك بأنهما سيشملانه خصوصا انه اعتنق الدين الاسلامي وان رحمة الخليفة به لا محالة ستقوى عقيدته . وقد عفا عنه القاضي احمد من قبل كما ان الخليفة لم يكن في عزمه قط ان يقتله كما ظهر لى .

وحينئذ أمر الخليفة باعادة نيوفلد الى الرقوبة بعد ان فكت أغلاله الا أنه أصدر الأمر بان يعرض على أنظار الجمهور ثم أن يسجن بعد ذلك حتى صدور أوامر أخرى ثم التفت الخليفة الى وأمرني بالا اختلط مع نيوفلد بعد الآن . فانسحبنا جميعاً ولكني لم أعدم الفرصة لا بلع نيوفلد بما قضاه الخليفة من انه سيعرض على أنظار الجمهور . وبعد ذلك نفذ الامر وعرض على الانظار

وفي اليوم التالي استدعاني الخليفة وأبلغني ان النجومى يقول ان نيوفلد أغرى بواسطه الحكومة ليتصل بالشيخ صالح الكباشى ويساعده على محاربة المهديين . فوضحت للخليفة عدم صحة هذه الرواية اذ ان اوراق نيوفلد صحيحة مستوفاة وان الحكومة على أي الحالات لا يعقل ان تعهد اليه بعمل كهذا . وقد تبادر الى ذهني في أول الامر انه صدق قولى في هذا الصدد ولكني تيقنت من الضد بما أظهره لى من الاحتقار وعدم الثقة مدة من الزمن

وبعد أيام قليلة عقد الخليفة استعراضا كبيرا أخذ اليه نيوفلد مكبلا بالحديد وراكبا جملا . ولما التقى بالخليفة سأله عن آرائه فيما يختص بكتائبه فأجابه بأنها بالرغم من وفرة عددها لا تزال الجيوش المصرية أحسن نظاما منها وتدريباً . وعند ذلك امر الخليفة برده الى « الرقوبة » سجيناً

ورغبة في الانتقام من الشيخ صالح الذى لم يقدم ولاءه للخليفة ارسلت اليه حملة قضت على حياته وفرقت رجاله وبهذا قضى على حياة آخر شيخ مخلص للحكومة المصرية

وفي اواخر يوايو وصل « ابوانجه » الى ام درمان مصحوبا بقوة تقدر بعشرين ألف رجل . وبعد اسابيع قليلة ارسل جزء من هذه القوة تحت قيادة « زكي طومال » لاختضاع « ابوروف » شيخ قبيلة جهينة الذى لم يلب نداء الخليفة ويذهب الى ام درمان . فدحر زكي طومال معظم رجال تلك القبيلة وارسل كثيرا من السبايا

وأُسرى الأطفال هدايا للخليفة وأحضر الباقي بعد ذلك الى أم درمان حيث اشتغلوا في نقل الماء وعمل الحصر . وبيعت قطعانهم بأبخس الأثمان في الاسواق فيبيع الثور او الجمل الذي قيمته ٤٠ او ٦٠ ريالاً بريالين او ثلاثة

وتلقى ابو انجه الاوامر لكي يوالى السير من أم درمان الى القلابات بعد تشتيت شمل قبيلة جهينة . ويتولى هناك قيادة الجيوش . فعند وصوله جمع القوات المربطة في المراكز الجنوبية عند أبي هرر وأخذ ينظمها ويعد العدة للأخذ بثأر (واد أرباب) من الاحباش واجتمعت تحت إمرته أكبر قوة جمعت من عهد الخليفة عبد الله إذ كان مجموع ماتحت قيادته ٤٥ ألفاً من حاملي الرماح و ٨٠٠ من الخيالة و ٥٠ ألف بندقية فغادر القلابات بهذه القوة مختاراً ممر (منتك) قاصداً (راس أوال) ولست أعلم حتى هذه اللحظة لماذا لم يهاجم الاحباش أعداءهم اثناء اختراقهم هذه الممرات الضيقة والوديان السحيقة التي كان يتعذر عليهم فيها استعمال نيران بنادقهم فاذا لم يتمكنوا من صد أعدائهم فانهم على الأقل يستطيعون ان يلحقوا بال دراويش خسائر تذكر . وكل ما أمكنني ادراكه هو ان الاحباش ربما تأكدوا من فوزهم النهائي وعملوا على جرحهم بعيداً داخل المملكة حتى يقطعوا عليهم خط رجعتهم وبذلك يبيدونهم عن آخرهم . فابتدأ القتال على سهل « دبراش » وكان تحت قيادة الرأس « عدل » الفان من المحاربين واتخذ له موقعاً يهدد به جناح ابو انجه الشمالى ولكن ابو انجه كان لديه من الوقت ما يسمح له بالانسحاب من التلوى وان ينظم صفوفه وهو يتقهقر . فحمل الاحباش المرة تلو الأخرى على الدراويش إلا أن هؤلاء تمكنوا من صدم بعد ان حملوهم خسائر فادحة وأخذ ابو انجه بعد ذلك في الهجوم حتى انتصر في معركة حاسمة

وكان يتولى القيادة في كسلا « ابو حرجه » وقد أمر باللعاق « بعثان دجنه » ليعاونه في القتال . وترك « احمد ود علي » نيابة عنه في كسلا . وعرج في طريقه على أم درمان ليرفع الى الخليفة تقريراً عن حالة القبائل العربية النازلة بشرق السودان . وزعم انه وصل الى أم درمان في ساعة متأخرة من الليل إلا ان الخليفة قابله بمقابلة طويلة خصوصية . وقد أبلغني اثناء خروجه ان خطاباً وردني من أهلي .

وبعد بضع دقائق طلبت عند الخليفة وأبلغت بان حاكم سوا كن بعث بخطاب الى « عثمان دجنه » يظن انه من عند أهلي. وأمرني الخليفة بفتحه في الحال واخباره عما يحتويه . فتصفحته بسرعة وأشد ما آلتني خبر وفاة والدتي . وقد أخبرني اخوتي بانها ما كانت تطلب في آخر حياتها وهي على فراش الموت الا أن يجمع الباري بيني وبينهم .

ولما لاحظ الخليفة طول الوقت الذي استغرقته في مطالعة الخطاب سألتني عن اسم من أرسله لي وما هي محتوياته فاجبته بان اخوتي هم الذين بعثوا به الى واني سأترجمه اذ لم يكن هناك داع لكتمان أي شيء فيه فهو عبارة عن بضعة أسطر سطرها اخوة بؤساء الى أخ بعيد عنهم .

وقد أبلغته مقدار جزعهم على طول غيابي عنهم وكيف انهم على استعداد لعمل أي تضحية في سبيل خلاصى واستردادى لحريتى . ولما وصلت في الخطاب الى الجزء الخاص بوالدتي قلت للخليفة انه بسبب بعدى عنها كانت في كل أوقات مرضها تتضرع الى الباري كي ترانى قبل موتها . كانت تمنى ذلك ولكن أمنيته لم تتحقق ففاضت روحها قبل ان تراني وفي تلك اللحظة التى نضب فيها لعابي ولم أقو على الاستمرار فى الكلام . بادرني الخليفة قائلا :

« ألا تعلم والدتك بانى أرحم عليك من أي مخلوق كان وعلى كل حال إنى لا أتصور انها كانت على ما تذكر من الحال فعليك ان تحزن لوفاتها ولكن يجب أن تعلم انها ماتت مسيحية ولم تعتقد فى الرسول والمهدى . وعلى ذلك هى لاتلاقى رحمة ربها »

فهاجت أعصابى عند سماع قوله هذا ولكنى لم أفه بكلمة ثم استرجعت قواي وصرت أتلو عليه ماجاء فى الخطاب عن زواج أخى هنرى وان «أودلف» واخواني البنات بخير . وطلبوا الى فى آخر خطابهم ان أكتب اليهم عن الطريقة التى يمكن عملها لاسترداد حرينى كما طلبوا الى الاسراع فى الاجابة عليهم . فقال لى الخليفة اكتب الى واحد من اخوتك كي يسرع فى الحضور الى هنا وأخبره بأنه سيكون موضع اجلال واحترام وسوف لا يحتاج الى شيء بالمرّة ما دام مقبلا هنا . ومع ذلك

سأتكلم معك في هذا الشأن مرة أخرى . وبعد ذلك أشار عليّ بالانصراف . فانصرفت وكان رفاقي الذين علموا بوصول هذا الخطاب ينتظرونني بفارغ الصبر ليسمعوا مني ما حواه وبمجرد ان تلاقوا معي وجهوا لى عدة أسئلة كنت أجابهم عليها بكل اقتضاب

ولما ذهب الخليفة الى راحته اتكأت على سريري « عنجربي » فسألني خدي عن الاخبار فكنت أطلب اليهم عدم محادثتي

ثم أخذت أحدث نفسي قائلاً: « واأسفاه عليك يا والدتي فانتى أنا الذى كنت سبباً فى لحظاتك السيئة الاخيرة » وقد أخبرني اخوتي فى خطابهم بأخر كلماتها التى كانت تفوه بها فعلت انها كانت تقول :

« انى على استعداد للملاقاة الخالق . انى على استعداد للموت . ولكنى أرجو ان أرى وأقبل رودلف قبل ان تفيض روحى » وكانت تقول أيضاً « انتى كلما تذكرت انه فى قبضة أعدائه تزداد آلامى »

آه . انى أتذكر جيداً كلماتها التى فاهت بها لما عولت على القدوم الى السودان . لقد كانت تقول لى: « يا بنى ان روحك المضطربة تدفعك الى المغامرة بحياتك فى بلاد بعيدة لا تعلم عنها شيئاً . وربما يأتى الوقت الذى تنتهى فيه من كل ذلك وتقبل على حياة هادئة » فما أصدق كلماتك يا والدتي وما أعظم الشقاء الذى سببته لك

وبعد ان فكرت فى هذا كله صرت أنوح ثم أنوح لا بالنسبة لما أنا عليه من حال سيئ بل من أجل أمى العزيزة التى فاضت روحها بسببى

وفى صباح اليوم التالى أرسل لى الخليفة وطلب منى مرة أخرى أن أترجم له الخطاب وأمرني ان أرد فى الحال على اخوتى لاخبرهم بانى فى رغد من العيش . فنفذت ما طلبه وكتبت خطاباً كله ثناء على الخليفة واعجاب بنخصاله وكم أنا سعيد بجواره . ولكنى كنت أضع كل كلمات المدح والاطراء وحسن الحال داخل أقواس وبجوارها علامات استفهام . وكتبت فى ذيل الخطاب ما يشير الى ان تلك الكلمات الموضوعة بين الاقواس هى عكس الحقيقة

وفى الوقت نفسه طلبت الى اخوتى ان يكتبوا الى الخليفة خطاب شكر على

حسن معاملته لى ١١١ وان يرسلوا له كيس سفر كبير ويرسلوا لى مبلغ ٢٠٠ جنيه و ١٢ ساعة اعتيادية تستحق ان تكون هدايا لا قدمها الى أمراء الخليفة الذين يسرون بها كثيراً . وطلبت نسخة القرآن مترجمة الى اللغة الالمانية . ولكى لا يجزعوا قلت لهم انى أرجو ان تسمح الظروف بملاقاتنا قريبا

طلبت اليهم ان يرسلوا تلك الطلبات الى قنصل النمسا فى القاهرة الذى يرسلها الى حاكم سواكن وهذا يبعث بها الى عثمان دجنة ومنه تصل الى . وقد سلمت هذا الخطاب الى الخليفة فبعث به رسولا كان ذاهبا الى عثمان دجنة ليرسله الى سواكن وقد حزنت قبل وصول الخطاب المحزن بنحو شهر تقريبا لما أصاب صديقى « ليتون » الذى كان يشتغل فى جمر ك الخرطوم وأرغمته حالته الصحية على ان يترك عمله . وعاد بعد ذلك الى أم درمان يشكو الفاقة ولكن لحسن حظه كان قد عاد صديقه (صالح واد الحاج على) من القاهرة ومعه بعض النقود أرسلها اليه بعض أفراد أسرته من القاهرة مع صالح المذكور

وكان واد الحاج على هذا طماعا فى ابتزاز الاموال، حرامها وحلالها، فقد أعطى « ليتون » قبل ذلك مبلغ ١٠٠ ريال وأخذ منه تحويلا على أخيه بالقاهرة بمبلغ ٢٠٠ ريال قبضها بمجرد وصوله ولما عاد الى أم درمان أعطى ليتون ٢٠٠ دولار واغتصب لنفسه باقى ما أرسله أخو « ليتون » وهو ما يقرب من ٨٠٠ دولار وقد ساعد هذا المبلغ الضئيل « ليتون » نوعا على فك ضيقه . وهذا مع ما كان يؤمله من ان هناك مخاطبات دائرة بشأن اطلاق حريته كانا سببا فى تخفيف شيء من آلامه . وكان هذا المسكين قد حضر معى ذات يوم من المسجد عقيب الصلاة الى المنزل وأخذ يستشيرني فى انتقاء شخص يضع عنده مبلغ الـ ٢٠٠ دولار بحيث يأخذ منه ما يريد كلما شاء اذ انه يخشى اذا بقيت معه ان يندفع فى الظهور بالبذخ والامراف ومن ثم يفتضح أمره وتعرف صلاته بالقاهرة فيلاقي حتفه .

كنا نتحدث عن حالتنا وما نحن عليه وقد كان فى تلك اللحظة منشراح الصدر اكثر من عادته رغم ما كان ينتابه من الآلام فى ظهره والضعف العام فى كل جسمه وقد تركته حوالى الظهر . وفى يوم الثلاثاء التالى أرسل لى خادمه يطلب أن

أذهب اليه لانه يشكو مرضا شديدا وأبلغنى خادمه ان سيده مصاب بحمى شديدة وانه ملازم الفراش من ثلاثة أيام فوعدت الخادم بأنى قادم اليه سريعا وفى المساء طلبت الى الخليفة ان يسمح لى فى بالذهاب . وفى صبيحة اليوم التالى - وقد حصلت على الاذن بقضاء عامة اليوم مع هذا المريض - ذهبت فى الحال الى منزله فوجدته فى حالة يرثى لها . وجدته يشكو ألم حى التيفوس وحالته شديدة لدرجة انه لم يتمكن من معرفتى لما دخلت عليه فى أول الامر وقد حدثنى بعد ذلك بالفاظ متقطعة موصيا بان أعتنى باخته . ثم تمم كلاما عن والده .

الفصل الثالث عشر

حملة الاحباش

وما كان يدور بخلد احد ان انتصارات المهديين يسكت عليها من جانب الاحباش فقد أعد الملك « جان » عدته وجمع قواته بعد ان استتب له الامر فى الداخل ببلاده . أعد العدة لغزو القلايات وبالفعل أحرزت قوات الاحباش نصرا فى بادىء الامر الا ان نصرهم انقلب هزيمة عندما أصيب الملك « جان » برصاصة قضت عليه لساعته فارتد الجيش الحبشى بغير نظام وتعقبه « زكى طومال » الذى تمكن من الاستيلاء على تاج الملك ومتاعه وأخذ جثته غنيمة وقامت على أثر ذلك فى بلاد الاحباش ثورة داخلية بسبب تطلم كثيرين الى العرش .

وكان الايطاليون يحتلون مصوع منذ بدء عام ١٨٨٥ وعلى ذلك مكنتهم تلك الثورات الداخلية من الاستيلاء على مناطق واسعة داخل حدود الحبشة بالقرب من مصوع . وقد قوى الاستيلاء عليها مركز الدراويش فى القلايات لان الاحباش شغلوا باسترداد ما استولى عليه عدوهم الجديد

وبينما كانت القوة العسكرية فى القلايات تحت رحمة الملك « جان » فى بادىء الامر كان « عثمان واد آدم » فى حرب شديدة فى غربى السودان وقد شنت شمل

السلطان يوسف ودحر جيشه وجعل عساكره بدون مأوى في شرقي السودان وغربه وقد حكم على أمرائه واتباعه بأشد العقوبات وساق أتباعه من النساء والاطفال غنائم وارسلهم مخفورين الى الفاشر . وانتشر الهرج والمرج في جميع الانحاء حتي حدود « دار تاما »

وكان في ذلك الوقت بتلك الناحية شاب هرب من أم درمان ينتسب الى قبيلة من القبائل النازلة علي ضفاف النهر ويسكن في تلك الناحية مستظلاً بشجرة جميز فلقبوه من أجلها بابو جميز . فوصل اليه بعض من هؤلاء الرجال الذين شئت شملهم « عثمان واد آدم » وانضموا تحت لوائه فجمع شملهم وتولى قيادتهم الأخذ بثأرم وبالفعل تم له النصر في أول الامر على قوة صغيرة من قوي الدراويش كانت في ذلك الوقت قريبة منهم وكان لذلك الانتصار صداد فانضم اليه كثير من الدارفوريين وكونوا قوة عظيمة تحت امرته سار بها الى الفاشر الا ان المنية عاجلته في الطريق فقضى نحبه فانقض « عثمان واد آدم » على جيشه وكان على بضعة أميال من الفاشر وهزم هذا الجيش شر هزيمة

اما الخليفة فكان في هذه الاثناء يسر في نفسه غزو الديار المصرية وقد استشار من أجل ذلك كثيراً من زعمائه فحسنوا له غزو مصر لما احتوت عليه من حقائق غنا، وقصور فخمة وسيدات لو هن أبيض جميلات

وبطبيعة الحال كان أكفاً قواد الخليفة في ذلك الوقت والذي يصح أن توكل اليه قياد الجيوش الغازية هو « ابن النجومي » لشجاعته النادرة ولأنه عرف مصر وخبائها لما كان تاجراً بسيطاً . وفضلاً عن ذلك انه كان من أشد أنصار الدعوة المهدية يعمل لنشرها بكل ماأوتي من حول وقوة

وكانت الخيوش التي تحت أمره مكونة من أبناء القبائل النازلة على ضفاف النيل لذين عرفوا مصر جيداً ولهم صلات قرابة ونسب مع القبائل القاطنة في مديريات الوجه القبلي الملاصقة

فمن أجل هذا لما أصر الخليفة على غزو مصر لم يفكر في اسناد قيادة الجيوش الفاتحة لغير ابن النجومي

وكان الخليفة يحسب حساباً كبيراً لهذا الفتح ويقدر نتائجه وكان يخشى الهزيمة والخسارة ولذلك تدبر في الأمر وقرر أن يرسل مع ابن النجومي جيوشاً من القبائل النازلة بقرب السودان التابعة له لا من القبائل التي تنتمي إليه حقيقة حفظاً لهم ووقاية من الوقوع في الهزيمة فجهز جيش ابن النجومي من قبائل « الجالان » و « الدناجلا » و « النيفاريون » . وقبيلتا « الجالان » و « والدناجلا » من أتباع الخليفة الشريف . وقد كان الخليفة عبدالله ينظر إليهما دائماً كما ينظر إلى الأعداء . وكان الخليفة يتمني بكل جوارحه نجاح الحملة وما كان يخالجه شك في قدرة قائده وإخلاصه وكان يمني نفسه بغزو الديار المصرية ليضيف إلى ملكه بلاداً جديدة إلا أن المصريين انتصروا عليه وألحقوا به خسائر فادحة وردوا جيوشه منهوكة القوى إلى دققة .

وان حوادث ذلك العهد التي انتهت بهزيمة جيش الدراويش في واقعة توشكا في ٣ أغسطس سنة ١٨٨٩ وموت ابن النجومي معروفة ولا تحتاج إلى إعادة إيضاح هنا . ولكن بمناسبة تكوين الحملة السالفة الذكر من رجال القبائل التي قلنا أنها في الأصل كانت معادية للخليفة وهو يوجس منها خيفة دائماً أبدأ أروي حادثة حدثت لقبيلة من تلك القبائل فقد حدث أن ترددت قبيلة « البتاهية » في القدوم إلى أم درمان لتقديم طاعتها إلى الخليفة فجهز للهجوم عليها حملة هزمتها شر هزيمة وأسرت منها ما يقرب من ٦٧ رجلاً بأهلهم . وكانت هذه القبيلة مشهورة بقوة رجالها أيام أن كانت الحكومة المصرية مستولية على السودان

وأمر الخليفة بمحاكمة هؤلاء الأسرى بتهمة « العصيان » فلما سأل قضاته عن عقوبة العصيان أجابوه بلا تردد « الموت » وبعد ذلك أمر الخليفة بإعادتهم إلى السجن وأخذ يعد المعدات اللازمة لتنفيذ الحكم عليهم

وبناء على إرادته أقاموا ثلاث مشانق في ساحة السوق . وبعد صلاة الظهر دقت الطبول أيذاناً بقرب ميعاد التنفيذ وجاء الخليفة متبوعاً بحاشيته راكباً ولما اقترب من مكان التنفيذ نزل وجلس على سرير صغير وحاشيته من حوله ، منهم من هم ركوع ومنهم من هم وقوف ، ثم أحضروا أمامه أولئك الرجال مكتوفي الأيدي

يحبط بهم رجال عبد الباقي بينما كانت النساء والاطفال تتبعهم نائحات نادبات وأمر الخليفة بأن يجعل النساء والاطفال في ناحية والرجال في ناحية أخرى وبعد ذلك جاء « احمد الدليا » و « طاهر واد الغالى » و « حسن واد خير » وهم الذين انتقام الخليفة لتنفيذ الحكم على هؤلاء النساء. وأمر ثالثهم بأن يذهب ويأمر الحراس بأن يأخذوهم الى المكان الذي نصبت فيه المشانق .

وبعد ربع ساعة قام الخليفة وتبعه جميع من كان حوله الى ساحة السوق حيث رأينا منظرآ تقشعر منه الابدان . وجدنا هؤلاء البؤساء قسموا الى ثلاث فرق قسم نفذ فيه حكم الشنق وقسم تحت التنفيذ والقسم الثالث قطعت ايديهم اليمنى وارجلهم اليسرى . ووقف الخليفة يشاهد هذا المنظر بنفسه . وقف يشاهد كومة من جثث الرجال . وقف يشاهد من قطعت أيديهم وأرجلهم . وقف يشاهد هذه الايدي وتلك الارجل مبعثرة هنا وهناك . وقال « لعثمان واد احمد » أحد القضاة - وقد كان من أعز أصدقاء الخليفة « على » وأحد اركان تلك القبيلة - وهو يشير الى تلك الجثث : « يمكنك الآن أن تأخذ مابقى من افراد قبيلتك » . قال ذلك بكل سخرية فارتعدت فرائص الرجل ولم يقدر على الاجابة .

وعاد الخليفة بعد ذلك وأخذ « احمد الدليا » يتمم مهمته . فترك ٢٣ جثة هامدة منقاة على الارض هنا وهناك . والباقي ينفذ فيهم الحكم بأفطع حال .

وقد كان هؤلاء يلاقون الموت بشجاعتهم المعهودة فيهم ولم يجرع واحد منهم بل كان معظمهم يردد كلمات تنبيء عن البسالة كأن يقول أحدهم « الموت حق » أو « لا بد لكل واحد أن يموت » أو « من لم ير في حياته شجاعا يلاقي الموت فليقدم الى هنا ليرى بعينه » وغير ذلك مما يثبت عدم اكرامهم لما كانوا يلاقونه .

وبعد ذلك تمت ارادة الخليفة بأن اعدموا جميعا . ولما عاد الى داره اصدر امره بأن يترك النساء والاطفال بدون مأوى حتى يباعوا بأرخص الأثمان .

وبالرغم من تلك المناظر التي كانت تقشعر منها الابدان كنت اشعر بسرور في نفسى لما وصلت الى من الاخبار بأن هناك خطابات ستصل الى قريبا من اخوتى وان فى الطريق صندوقين لى من النقود . وفي صباح يوم بينما كنت جالسا امام الباب

وصل جمل يحمل صندوقين وطلب الجمل مقابلة الخليفة شخصيا قائلا انه جاء ومعه رسائل من عمان دجنه وامر الخليفة بعد أن تقابل مع الجمل بأن يرسل الصندوقان الى بيت المال وكان قد دهش في اول الامر لما رآهما . وامر ايضا بأن تعطى الخطابات الى كتاب سره . وضاق صدرى لطول الانتظار لأنى كنت احب ان اعلم ما ورد لى . وكانت للخليفة لذة خاصة فى عدم ابلاغى اى شىء قبل غروب الشمس . فلما غربت ناوانى الخطابات وكانت كما لاحظت من اخوتى وهم يظهرون فيها سرورهم العظيم لما تسلموا منى خطابا وعلوموا بانى لازلت على قيد الحياة .

وكان أحد تلك الخطابات باللغة العربية موجهة الى الخليفة نفسه يشكرونه فيه على عنايته بى . والذي كتبه هو الاستاذ « واهر مند » فجعله كله آيات مدح فلما اطلع الخليفة عليها صار يترنم بذكر كاتبها وأمر بقراءة الخطاب فى المسجد عقب الصلاة ثم أمر بعد ذلك بأن يرد الصندوقان إلى

وترجمت اليه الخطابات التى وصلت الى وأبلغته ان اخوتى أرسلوا اليه كيس سفر هدية وأنهم يلتمسون منه التنازل بقبول هذه الهدية الصغيرة التى لا تتناسب مع مقامه العظيم فقبلها وأمرني باحضارها اليه فى صباح الغد . وأرسل معى تابعيه ليحضر افتح الصندوقين فتوجهنا جميعاً الى بيت المال حيث فتحناها فوجدت فيهما مائتى الجنيه التى طلبتها وكذلك الساعات وأمواسا للحلاقة ومرايا وجرائد وترجمة القرآن باللغة الالمانية وهدية الخليفة وقد تسلمت كل هذه الاشياء ثم توجهت الى حجرتي وأخذت أعيد قراءة خطابانى واحتفظت بالصحف التى تحوى أخبار بلادى العزيزة ! ! !

وكانت تلك الصحف عبارة عن اعداد جريدة Nene Freie Presse وهى بطبيعة الحال فيها الكفاية لاسد رمق من لم يعرف شيئا عن أخبار بلاده منذ ست سنوات وجاءنى الأب « اوهروالدر » خفية وأخذنا معا نقلب تلك الصفحات

وفى صباح الغد قت مبكرا وحملت الهدية وذهبت الى الخليفة فامرني بفتحها ولما رأى ما احتوت عليه من علب المعدن اللامعة والزجاجات والامواس والفرش أظهر اعجابه الكثير ثم ابتدأت اوضح له فائدة كل شىء على حدة . وحينئذ أرسل فى طلب القضاة الذين كانوا فى ذلك الوقت يباشرون عملهم فلما جاءوه واطلعوا على

ما احتوته الخفية دهشوا كثيرا ولو اني كنت على يقين من ان كثيرا منهم رأوا مثل هذه الأشياء قبل الآن

وبعد ذلك طلب الخليفة كاتب سره وأمره بأن يكتب في الحال خطابا لاختوتي يبين فيه المركز السامي الذي أشغله عند الخليفة وثقته التي لاحد لها في أخيهام وان يدعوهم للحضور الى ام درمان لزيارتي وان لهم الحرية التامة في الرجوع بعد تأدية الزيارة

وأمرني بان اكتب لهم مثل ذلك . وبالرغم من وثوقي بانهم لا يجيبون هذه الدعوة كتبت اليهم بالألا يجيبوها وبالألا يحضروا

وأرسلت المراسلات مع نفس الرسول الذي قدم من قبل عثمان دجنه . وأعطى الخليفة اعمان التعليمات بان يبعث تلك الرسائل بنفس الطريقة التي سبق له أن بعث بها فيما مضى

وكان الخليفة في هذا اليوم منشرح الصدر مسرورا ، وكان سروره بسبب قدوم جميع أفراد قبيلته التعايشة الى أم درمان لانه كان قد طلب اليهم ذلك ومهد لهم كل السبل التي تسهل عليهم القدوم . الا أنهم ظنوا أنفسهم أسياد الحرب والنسل واستولوا على كل شيء مروا به من ماشية بجميع أنواعها ونهبوا متاع الرجال وحلي النساء في طريقهم . مع ان الخليفة كما قدمت كان أمر بتشديد مخازن للمؤن في طول طريقهم لتسد حاجتهم . وكانت المراكب والبواخر قد أعدت لنقلهم الى أم درمان ولما وصلوا الى الضفة اليمنى لأم درمان أمرهم الخليفة بالانتظار بعد ان قسمهم الى قسمين وبعد ان أمر بان يلبس الرجال والنساء ازياء جديدة من بيت المال . ثم أخذ يستقبلهم جماعات جماعات في ام درمان واستغرقت مدة نقلهم من الضفة اليمنى الى ام درمان يومين أو ثلاثة أيام حتى يلفت الانظار ويعلم الجميع ان اسيادهم قدموا الى المدينة . وأخلي لهم الجزء الواقع بين المسجد والحصن ليكون مقرا لهم واعطى السكان الذين تركوا ديارهم أرضا بدلا منها كما اصدر أمره لبيت المال بان يمد يد المساعدة لتشديد مساكن جديدة لهم

ولكي يسهل على أفراد قبيلته سبل المعيشة — وكانت أسعار الغلال قد أخذت

في الصعود — أصدر أمره بمصادرة جميع الغلال المخزونة وبيعها بأرخص الأثمان لرجال التعايشة وقسم الاموال التي جمعت بين أصحاب الغلال الذين عادوا فاشتروا غلالا بأضعاف أضاعف ما باعوا . ويمكنني أن أقول إن ثمن عشرة أراذب بيعت للتعايشة صارت بعد ذلك تساوي ثمن اردبين لما أراد أصحاب الغلال شراء بدل منها . ولما نفذ ما كان مخزونافي أم درمان أرسل الخليفة رسله الى الجزيرة ليصادروا كل ما يجدونه هناك ولكن تلك الاعمال التي عملها في سبيل راحة أفراد قبيلته وما ارتكبه هؤلاء من سلب ونهب سببت كراهية اتباعه فيه .

والآن قد انتشرت المجاعة في جميع انحاء السودان حيث لم يسقط مطر . ولما وقعت المجاعة وانتشرت في بربر قبل غيرها من نواحي السودان نقصت المحصولات لدرجة أنها أصبحت لا تسد حاجة السكان ورحل أغلب هؤلاء الى أم درمان التي كانت مزدحمة أشد ازدحام فاشتد الخطب وارتفعت أثمان المحاصيل حتى بلغ ثمن الأراذب من الحنطة ٤٠ ريالاً ثم ارتفع بعد ذلك الى ٦٠ ريالاً . فمات الفقراء جوعاً . وكانت الاشهر الاخيرة من عام ١٨٨٩ أشهر شقاء وبؤس وتعاسة فتكت المجاعة فيها بالناس فتكا ذريعاً . وانحطت حالة القوم الصحية حتى أصبحت أجسامهم هياكل عظمية تحوى العظام وعليها الجلود البشرية فقط

وصار الناس يأكلون كل شيء ، فأكلوا جلود الحيوانات القديمة ولم يتركوا حتى الجلود المصنوعة منها سررهم فقد كانوا يقطعونها ويغلوونها في الماء ثم يأكلونها ويشربون الماء . وانتشرت السرقات وعمت الفوضى فكان كل من في قدرته ارتكاب السرقات فعل .

واني أذكر حادثة وقعت أمامي فقد رأيت رجلاً اختطف من غيره قطعة شحم والنهيمها بكل شراهة فهجم عليه صاحبها محاولاً إخراجها من فمه فأحاط عنقه يديه وخنقه ولكن اللص لم يخرج فريسته من فمه وأخيراً وقع مغى عليه .

وقد كنت نسمع في ساحة السوق حيث يجلس النساء لبيع سلعهن نداء الاستغاثة في كل لحظة من هؤلاء الذين أخذوا على عاتقهم السلب والنهب .

وكانت الساحة الواقعة بين بيت الخليفة وبيت يعقوب تزدهم كل ليلة بالذين

يصرخون مطالبين بالخبز وكان بعضهم يتبعني عند ذهابي الى منزلي محاولين اقتحامه
وفي ذلك الوقت ما كنت امتلاك من القوت الا ما أسد به رمقي ورمق حاشيتي
وأصدقائي الذين معي

وفي ذات ليلة — وكان القمر بدرأ — بينما كنت راجعاً الى منزلي حوالى
الساعة الثانية عشرة ليلا شاهدت بالقرب من بيت الامانة « مخزن السلاح » شيئاً
يتحرك على الارض فتوجهت شطره لأرى ما هناك ووقفت أرقب منظرأ بشعاً تقشعر
منه الأبدان . رأيت ثلاث نساء عاريات مسدلات شعورهن الطويلة على أكتافهن
يتهاقن على أكل جحش صغير يخيل لى أنهن خطفنه من أمه . وقد رأيتهن يقطعن
من لحمه بأسنانهن ويأكلن منه . وكان هذا الحيوان المسكين لا يزال على قيد الحياة
فهجم عليهن الذين كانوا يتبعونى واختطفوا الفريسة منهن وحينئذ تركت هذا
المنظر فارأ الى دارى .

وفي يوم آخر رأيت امرأة يظهر لى انها كانت فى يوم من الايام جميلة ، رأيتها
ملتقاة على الارض وبجانبتها طفلها الذى قد لا يتجاوز من العمر عاماً وهو يحاول
الرضاعة ولكنه كان يحاولها من أم أصبحت للأسف جثة هامدة ١١١ وبقى يتأوه
ويتألم على ذلك الحال حتى مرت عليه امرأة أخرى فاخذته

وفي ذات يوم مرت بدارى سيدة ومعها بنتها الوحيدة وكانت هذه المرأة على
ما يظهر لى من قبيلة « الجالان » تلك القبيلة التى يمكننى ان أقول انها أحسن القبائل
حالا . جاءت هذه السيدة وبنتها معها على شفا حفرة من الموت تطلب منى مساعدتهما
فجئت اليها بكل ما أمكننى ان اجود به وبعد ذلك عرضت على ان تسلمنى بنتها
وتتركها لى رقيقة لأحميها من الموت جوعاً . وكانت تتلفظ بهذا القول ودموعها تنهمر
من عيونها . فطلبت اليها مغادرتي ومعها بنتها وأعطيتهما كل ما كان فى وسعى
ان اعطيه .

ووجدت امرأة أخرى تأكل طفلها فساfooها الى مركز البوليس لتأخذ جزاء
ما فعلت ولكنها ماتت بعد يومين
وكان الناس يبيعون أولادهم ذكوراً وأناثاً لا لغرض الحصول على أمانهم بل

لحفظ حياتهم عند من يقدر على تمويثهم . وبعد ان انقضت تلك السنة استردوهم بأمان عالية .

وكانت جثث الموتى في الشوارع لا تحصى ولا يوجد من يحملها . واصدر الخليفة أمره مكلفاً كل شخص بان يحمل الجثث التي توجد أمام داره ليوارىها بالتراب ومن لم يفعل تصدر املاكه

وكان لذلك بعض التأثير الا أن اصحاب المنازل كانوا يزيحون ما امام منازلهم الى قرب منازل جيرانهم تخلصاً من العقاب فتسبب من ذلك وقوع المشاكل والمضاربات بين الناس وكنت ترى الجثث طافية في النيل آتية من البلاد الواقعة على ضفتيه وعددها لا يحصى

وكان جل الذين ماتوا في أم درمان من الذين وفدوا عليها من الخارج لا من سكانها الاصليين . اذ ان هؤلاء كانوا قد خزنوا ما وقعت عليه ايديهم من غلال وكانت كل قبيلة تساعد جارتها اذا احتاجت

وكان الحال على عكس ذلك في جهات السودان الاخرى . وكان ما أصاب قبيلة « الجالان » أشد مما أصاب أي قبيلة أخرى ولو انها كانت احسن قبائل السودان حالا .

واما سكان دنقلة فكانوا احسن حالا من غيرهم وكان اسوأ السكان حالا سكان القضارف والقلابات . وكان (زكي طومال) قد اصدر أوامره في اول المجاعة بأن تجمع كل الحبوب التي في جهاته على ان يتمون منها جيشه ففجئ من ذلك موت الكثير جوعاً .

وكانت حوادث السلب والنهب في تلك الجهات واصبح الواحد من سكانها يخشى الخروج بدون سلاح يحمي به نفسه ممن يريد السطو عليه لا ليسرقه بل ليقترسه ويأكله كما حدث ذات يوم لاحد امراء قبيلة الحمر فقد وجدت رأسه في اليوم التالي ملقاة في طرف من أطراف المدينة . اما جسمه فلم يوجد لانه أكل بطبيعة الحال وأبيدت بسبب تلك المجاعة قبائل « الحسايا » و « الشكرية » و « العقالان » و « الحمرة » عن آخرها وبذلك خلت بقاع واسعة في السودان من السكان .

وكان الحال في دارفور أحسن منه في القضارف والقلابات كما كانت القبائل الغربية كقبيلة « حمر » و « دار تاما » و « مزاليط » أحسن حالا من الفاشر نفسها اذ كانوا قد منعو تصدير الحبوب اليها .

وقد بنخيل الي ان هذه المجاعة حلت بهؤلاء القوم لينتقم بها الباري . جلت قدرته من هذا الخليفة الجبار وشيعته . وعلى أثر انتشارها جهز تجار ام درمان مراكبهم بالحبوب وذهبوا الى فاشوده فبدلوا غلالهم باشيا . اخرى كالنحاس والبلح وغيرها وعمل مثلهم سكان جهات اخرى وصلوا بغلالهم حتى اعالي نهر السوبات

وبعد ذلك ابتداء فصل الامطار ونمت المزروعات ففرح الناس لازالة الخطب .
إلا ان جيوشا من الجراد حلت بالبلاد ففتكت بالمزروعات فتكا ذريعا .

ولما كان الخليفة لا هم له الا اغداق النعم على أفراد قبيلته والسعي لتوفير راحتهم صدر أوامره الى السكان بالألا يبيعوا النزر القليل من محاصيلهم التي جمعوها بعدفتك الجراد الا لافراد قبيلته بأرخص الأثمان . ولما كان هذا القدر لا يكفي بطبيعة الحال لسد رمقهم أصدر أوامره الى ابرهيم عدلان لكي يتوجه الى الجزيرة ليرغم الاهالي هناك على تقديم مالهديهم من الذرة بدون مقابل الا ان عدلان لم يوافق على هذا الطلب وعارض فيه بكل اباء وشتم

ولقد بحث الخليفة عبد الله مع أخيه يعقوب في هذا الشأن وغيره وكان يعقوب هذا من ألد أعداء عدلان الذي يروى عنه الناس انه طيب القلب على الهمة لايميل لاضطهاد الناس بتكليفهم مالا طاقة لهم به بل على النقيض من ذلك كان يأخذ على عاتقه في كثير من الاوقات ما يقع على غيره من المسئوليات . ولقد جمع ثروة طائلة ما كانت لتخفى على الخليفة

وسمع الخليفة من يعقوب وأصدقائه ان نفوذ عدلان في البلاد لا يقل عن نفوذه . وقالوا انه دائما يتكلم في المجالس ضده وضد حكومته . وكان من أقواله للناس ان المجاعة لم تكن إلا بسبب ارهاق الخليفة لهم في سبيل راحة ابناء قبيلته وقد تسبب من هذه الوشايات ان أحيل عدلان الى المحاكمة فقضت عليه بان يقبل الموت أو الفقر بفضل الاول فساقوه مكتوف اليدين الى صدره حتي ساحة السوق وهناك نفذوا فيه

الحكم وكان رابط الجأش لدرجة انه هو الذى وضع رأسه بنفسه فى حبل المشنقة .
ورفض ان يشرب الماء الذى قدم اليه طالبا الاسراع فى تنفيذ الحكم . وقد سقطت
جثته وهو يشير بسبابته اشارة انه يموت مسلماً موحداً الله سبحانه وتعالى . وحزن
جميع السكان على قتله الا ان الخليفة سرسورراً عظيماً لأنه قضى على شخص كان يوجس
منه ومن نفوذه خيفة وكان غير مطيع لاوامره . وأرسل الخليفة أخاه ليسبر فى جنازة
عدلان اشارة الى انه لم يشق إلا تنفيذاً للقانون لاحقداً عليه كما ظن الناس
وولّى الخليفة بدله خازناً لبيت المال المدعو « نور واد ابرهيم » الذى كان
جده « تكروري » وعلى ذلك هو ليس من القبائل النازلة على ضفاف النيل ولكنه
نال ثقة الخليفة ورضاءه

وأما بالنسبة لشخصى فقد تغيرت نظرات الخليفة الى وداخله الشك من جهني
ووصل رد خطابي الاخير الذى أرسلته الى أهلى غير مشتمل على شيء سوى
الاغتياب لا تنظام المراسلات بينى وبينهم . وكتبوا فى الوقت نفسه الى الخليفة يشكرونه
على عنايته وعلى الدعوة التى وجهها اليهم بطلب الحضور الى أم درمان .
واعتذر أخى الأكبر عن عدم امكانه الحضور بان حالته لا تساعد له يشغل
وظيفة كبير أمناء جلالة امبراطور النمسا . واعتذر الآخر بان وقته وهو ضابط فى
الطوبجية لا يسمح له بالقيام برحلة طويلة كهذه

ولما طلبنى الخليفة الى حضرته أمرنى بترجمة تلك الخطابات ثم قال لى: « كانت
رغبتي فى ان تطلب الى واحد من اخوتك ان يحضر وبما انهما يعتذران الآن
باعذار لا أقبلها فيتحمم عليك ألا تكتب اليهما بعد الآن فاذا أرسلت خطابا واحداً
اليهما فان ذلك يكفي للقضاء على هدوئك وسكينتك . أفهمت ؟ فأجبتة : « نعم يا مولاي .
أوامرك مطاعة . وانى لا أجد داعياً للكتابة اليهما » فقال لى « أين الانجيل الذى
أرسل اليك ؟ » فأجبتة : « انى مسلم يا مولاي وليس لدى انجيل بالمنزل وانما الذى
أمتلكه هو ترجمة القرآن الذى رآه كأنم سرك لما فتحنا الصناديق سوياً » فأمرنى بأن
أحضره اليه فى صباح الغد وأشار الى بالانصراف

وتيقنت بعد هذه المقابلة أن ثقة الخليفة بي زالت وعلمت أيضاً انه بعد هزيمة ابن النجومي أخذ يسر الى قضائه أن ثقته في تغيرت
و كنت في هذا الوقت قد صرفت المبلغ الذي وصل الى من أهلي و جلّه منحه
هبّات الى زملائي الذين أخذوا يدسون لي الدسائس الآن لما علموا انني أصبحت
لا أملك شيئاً وهم الذين قالوا للخليفة ان الكتاب الذي عندي هو الانجيل
وفي صباح اليوم التالي توجهت اليه ومعي الكتاب وسلمته اليه وهو من ترجمة
العلامة « المان » ففحصه جيداً

وقال لي : « أنت تقول ان هذا الكتاب ترجمة القرآن وهو مكتوب بلغة
الذين ليس عندهم عقيدة دينية . انهم ربما يكونون قد أخطأوا في ترجمته » فأجبتّه
بكل هدوء وسكينة : « انه يا سيدي ترجمة حرفية والغرض منه هو ان يتمكن من
فهم الكتاب المقدس الذي نزل من عند الله سبحانه وتعالى على يد الرسول باللغة
العربية وان شئت ان تتأكد من صحة ترجمته الحرفية » فأجابني قائلاً : « اني اعتقد
فيك الصدق ولكن الناس هم الذين قالوا ذلك القول فيحسن بك والحالة هذه ان
تحرّقه » ولما أظهرت له الموافقة على طلبه قال لي : « ويجب أيضاً ان ترد الهدية التي
بعث بها اخوتك لي لانه لا فائدة لها عندي وليعرفوا ان الاشياء الدنيوية لا قيمة
لها في نظري »

ثم أمر كاتب سره بان يكتب خطاباً باسمي الى أهلي يخبرهم فيه بان لا داعي بعد
الآن الى مكاتبتني . فوقعته بامضائي وأرسلته مع الهدية الى بيت المال ليرسلا من
هناك الى سواكن كالمعتاد .

ومن هذا اليوم أصبحت شديد الخرص . وبعد موت عدلان استدعاني الخليفة
مرة أخرى بمحضور ضباطه وأخذ يقول لي : « انه يعلم اني جاسوس ونجب مراقبتني
بكل دقة ومراقبة الذين يحضرون لزيارتي وجلهم من أعدائه . ويجب على ان أعلمه
بمحل نومي في منزلي وان أغير خطتي التي انا متبها والا لحقت بعدلان » ١١١

فأجبتّه قائلاً بكل هدوء وسكينة : « يا مولاي لا يمكنني الدفاع عن نفسي .
وانا أجهل خصومي الذين وشوا بي ولكني أفوض أمري للباري . جلت قدرته . ولقد

مضت ست سنوات بل أكثر وأنا الخادم الأمين في خدمة مولاي أوصل الليل بالنهار على بابي تحت الشمس المحرقة وتساقط المطر الغزير . وتنفيذاً لأوامرك يا مولاي قطعت صلاتي مع كل أصدقائي . وفي كل هذه المدة التي أنا فيها في خدمة سيدي لم أرتكب جرماً . فأخبرني يا مولاي عن الذنب الذي ارتكبته . إن طاعتي لك طول هذه المدة لم تكن عن خوف وإنما كانت عن محبة وإخلاص . وليس يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك . وأني لرحمة ربي وعفو مولاي منتظر . »

فقال للملازمين ما رأيكم في أقواله هذه فأجابوه بأنهم لم يلاحظوا شيئاً يشين سمعته .

وقد علمت بعد ذلك من هم هؤلاء الذين أوجدوني في ذلك المركز الحرج . ثم قال لي أنت مسامح هذه المرة وعليك أن تحاذر في المستقبل . ثم مد لي يده لأقبلها وأمرني بالانصراف .

وفي اليوم التالي طلبني وحدثني بكل لطف طالباً مني أن احذر أعدائي وأن أجهد بقدر المستطاع حتى لا يكون لي أعداء . وأعلمني بأن المهديّة تتبع قواعد الاسلام فإذا ما شهد ضدي في أي دعوى شاهدان وجبت ادائتي حتى ولو كان الشاهدان كاذبين وفي هذه الحالة يصبح العفو عني غير مستطاع فكيف يحلو لي العيش والحالة هذه وحياتي أصبحت بارادة شخصين يريدان الايقاع بي . ولكني على كل حال شكرته على نصيحته الغالية وقلت له يا مولاي اني اعمل دائماً بقدر استطاعتي لارضائكم حتى أكون دائماً محل ثقتكم .

ولما عدت الى منزلي وقد انتصف الليل كنت في أشد حالات التعب رغباً في الراحة فقابلني خادمي سعد الله وأبلغني أن تابعا من اتباع الخليفة جاء حالا ومعه سيدة مقنعة أرسلها لي وهي بداري الآن . فسررت عند سماعي ذلك لا شيء سوى اني تيقنت من رضا الخليفة وتحققت أن قد زال كل شيء من نفسي . ثم ذهبت مع سعد الله الى المنزل فوجدت تحت القناع سيدة مصرية ولدت بالخرطوم لا بأس بجمالها فبعد أن تبادلنا التحيات بادرتني بسردي تاريخ حياتها مدعية أنها ابنة ضابط مصري وقد علمت بعد ذلك أنها ابنة جندي وقع قتيلاً في حرب الشك وان زوجها الاول

قتل في الحملة التي أرسلت للاستيلاء على الخرطوم وان امها حبشية لانزال على قيد الحياة . ثم قالت انها كانت احدى نساء ابو انجه العديدات وان الخليفة اختارها الآن لتكون زوجة لى خلفا لذلك البطل العظيم . وقالت لى انه سبق للاحباش أن أسروها وكان زكي طومال هو الذى أطلق سراحها . وقالت أخيرا ان لديها معلومات قيمة عن المعارك التي نشبت في عهد ابو انجه

وحكاية هذه السيدة هي ان الخليفة كان قد أصدر أوامره باحضار ارامل ابوانجه الى أم درمان فلما حضرن أخذ يوزعهن على أتباعه وقالت لى انها لمقبطة جدا لوقوعها مع شخص من أبناء جلدتها فأجبتها فى الحال بأني أوروبى وان ما حصل من تغيير لوني انما كان بسبب ماأنا عليه من الحال واضطرت الى أن اقول لها انها ستكون موضع عنايتى .

ولما كنت في أشد حالات التعب طلبت اليها أن تتبع الخادم سعد الله الذى سيمهد لها كل سبل الراحة . وقلت في نفسي ان الخليفة بدلا من أن يأمر خازن بيت المال بأن يمدني بالمساعدة لقضاء حاجياتى الضرورية بعث لى بتلك الزوجة التى يزيد في شقايتى وتعبي .

وفي اليوم التالى سألتني الخليفة عما اذا كنت قد أعجبت بهديته وهل أنا راغب فيها . فأجبتة بأني سعيد لأني شعرت برضاء مولاي عني واتى أتمنى أن يجعلنى الله سبحانه وتعالى مشمولاً دائماً برعايته .

ولما عدت الى منزلى قبل صلاة الظهر وجدته مزدحماً بالنساء اللاتي دخلنه بالقوة كما أبلغنى سعد الله مدعيات أنهن أقارب فاطمة البيضاء كما كانوا يسمون السيدة التى بعث بها الى الخليفة ووجدت ضمنهن امرأة مسنة قالت لى انها والددة فاطمة وانها مسرورة لان ابنتها أصبحت لى ورجعتنى ان احسن رعايتها . فاخبرتها بأن ابنتها ستكون دائماً موضع عنايتى وسنعيش فى منتهى الهناء والسرور واعتذرت لهن بكثرة اشغالى ثم انسحبت بعد ان طلبت الى سعد الله ان يحسن وفادتهن على حسب عادات البلاد وان يخرجهن بعد ذلك ولو أدى الامر الى استدعاء من يساعده .

ومضت بضعة ايام ثم سأل الخليفة عن فاطمة مرة اخرى . وبما انى كنت أعلم

جيداً انه يريد دائماً ان اعيش عيشة الوحدة ولا اخالط احداً اخبرته باني لا ارى مانعاً من ان تعيش معي غير ان لها عدة اقارب يترددون عليها طول اليوم وعلى ذلك قد تضطرنني الظروف الى مخالطتهم وهذا امر يأباه مولاي وتأباه نفسي ولذلك فاني سأمرها بأن تخضع لاوامري وتمتنع عن الاتصال بأهلها ومعارفها بقدر الامكان فاذا لم تخضع فاني افضل تسليمها لاقاربها فارتاح الخليفة لهذا الاقتراح ارتياحاً تاماً الا انه منذ طرد سعد الله الزوار في اول مرة لم يعد احد يقدم الى دارنا . وخفاة ان يسي . الخليفة الظن في قصدي توانيت قليلاً في تنفيذ ماقررت

وبعد مدة ارسلت فاطمة البيضاء الى امها وكلفها بالانتظار هناك حتى ابعث اليها . وعرف سعد الله دار امها فبعد مدة ارسلت لها ولأُمها ملابس وتقوداً ورسالة اخبرتها فيها بأنها اصبحت طليقة غير خاضعة لاوامري .

واخبرت الخليفة بذلك قائلاً له ان امثال هؤلاء القوم الغرباء عنه وعنى لايجوز ان يكون لى صلة بهم واني دائماً ابدأ على استعداد تام لاطاعة اوامره .

وبعد مضي سنة تقريباً جاءتنى الام تستأذتنى في زواج بنتها من احد اقاربها فوافقت على ذلك بسرور تام وقد تركت فاطمة البيضاء في ام درمان سعيدة بين أولادها .

الفصل الرابع عشر

نشأت وتفرق

قد عين حاكماً لدنقله عدوى خالد الذى كان مسجوناً منذ بضعة أشهر وقد حل محل يونس الا انه لم يمض شهران على هذا التعيين حتى ذهب ضحية الدسائس التى كان يدسها له اثنان من أبناء عم الخليفة كانا قد ذهبا لمراقبة حركاته وأفعاله . وقد استدعاه الخليفة ثانية الى أم درمان ووضعه مرة ثانية فى الاغلال . فهذا العمل كان من شأنه أن زاد هياج أقارب المهدي وانصاره وعقب ذلك اتفاق الخليفة محمد شريف واثنين من أولاد المهدي لم يبلغا العشرين من عمرهما مع كثيرين من الاقارب على أن يعملوا جميعاً للقبض على ناصية الحكم وكبح جماح الخليفة عبد الله . وفعلوا أخذوا فى اعداد الخطة اللازمة سرّاً فى أم درمان وبدأوا كذلك يستميلون الاصدقاء وابناء القبائل وأرسلوا كتبهم الى « الدناجلة » القاطنين بالجزيرة يدعونهم للحضور الى أم درمان للانضمام اليهم . ولكن حدث ان أحد الامراء الجعليين الذى كان قد أقسم بالآيواح لا أحد بشيء الا لآخيه واعز صديق عنده خدع القوم وخانهم وذهب يطلع الخليفة على الامر معتبراً إياه اقرب الاصدقاء . فلما وقف الخليفة عبد الله على سر هذه المؤامرة اخذ يعد المعدات لاحتباطها الا ان جواسيس الاشراف عندما عرفوا ان مؤامرتهم انكشفت وعرفوا ما يدبره لهم الخليفة اجتمعوا فى جزء من المدينة واقع فى شمالى بيت الخليفة واستعدوا للمعركة .

واما انا نفسى فقد كنت مشتاقاً لرؤية هذه المعركة فما أخشاه وحياتى كانت كل يوم فى خطر . وان أمام نظرى حادثة عدلاز الذى كان الصديق الحميم للخليفة فقد شنقه ومثّل به وقد تأكدت ان عبد الله ما كان يهتم البتة بأرواح أعز أصدقائه وأحبهم اليه وان هذه الحرب الداخلة لا بد أنها ستضعف أعدائى « الخليفة وانصاره » وربما كان لى من وراء ذلك الاضطراب المنتظر حدوثه أمل فى ان أسرد حيرتى وبصبح

في مقدورى ان استعمل نفوذى في جيش الحكومة الذى ظهرت فيه نزعة الاستياء بسبب المعاملة التي كان يلقاها

وقد كان من المستحيل على الانسان في مثل تلك الظروف ان يرسم لنفسه خطة واضحة وكل ما كنت أرغبه هو ان تقوم المعركة وان يكون لى من ورائها اكبر قسط من الفائدة الشخصية

بعد ذلك ابتداء الفريقان بتبادل الطلقات النارية إلا ان ذلك لم يكن الا ايدانا بيد المعركة الحربية بين الطرفين

وقد كان الفريقان في حالة لا تسر فكانت الاسلحة من النوع الردى، ولم يمض غير وقت قصير حتى انتهت تلك المعركة وقدرت الخسارة خمسة قتلى

بعد ذلك عرض الخليفة طلب الصلح وان يعين الاشراف شروطهم وقد دارت المفاوضات طول اليوم بين الفريقين وفعلا عادت سيرتها في اليوم التالى . ومن سوء حظى ان الطرفين وصلا الى حلول مرضية اتفقا عليها ووافق الخليفة وحلف وتعهد بتنفيذها بعد ان عفا عن كل المتهمين

وقد منح الخليفة محمد الشريف مركزاً سامياً وان يحضر جلسات مجلس الخليفة كأحد أقطابه وقد قرر منح كثير من أقارب المهدي اعانات من بيت المال وعلى ذلك سلمت الجنود أسلحتها الى الخليفة وبذلك تم توقيع الصلح .

وفي يوم الجمعة التالى حضر امام الخليفة قواد الجيش ونالوا منه المكافآت التي كان قد أعدها وفي ظهر ذلك اليوم نفسه اجتمع الخليفة الشريف وأولاد المهدي وعبدالله نفسه

وبذلك وطدت الآن أركان الصلح بين الفريقين واصدرت الاوامر الى رجال المدفعية والمشاة بان يعودوا الى مراكزهم الاصلية غير ان الملازمين والجهادية كلفوا بالبقاء حتى يتم تسليم السلاح جميعه

وفي يوم أحد بعد الظهر أرسلت خادما الى الأب « اوهر والدر » لاسأل عنه فوجد بابه مقفلا وقد حاولت الاستفسار عنه من جيرانه الاغريق فلم اتمكن من الاستدلال على مكانه ولا مكان أفراد بعثته

وقد خيل الى في الحال انه في أثناء الاضطراب ربما يكون قد تمكن بمعرفة
مخلصين له من اللياذ بالفرار

وقبل صلاة المغرب حضر رئيس الدين اعتنقوا الدين الاسلامي بدون رغبتهم
والسورى « جورج استامبول » وطلبا ان يؤذن لهما بمقابلة الخليفة حالا لأمر مهم
ولكن الخليفة ، وكان في تلك اللحظة مشغولا امرهما بالانتظار في المسجد حتى يأذن
لهما وبعد تأدية الصلاة طلبهما اليه وسألهما عن مرغوبهما فقالا له ان يوسف القسيس
ومن معه من النساء هربوا جميعاً في الحال طلب « نور الجرباوي » خازن بيت المال
ومحمد وهبه حكمدار البوليس وطلب اليهما ان يعملوا مافى وسعهما للقبض على الذين
هربوا واحضارهم الى هنا أحياء او أمواتا

وكان من حسن حظ هؤلاء اليونانيين ان الخليفة كان مشغولا بأشياء مهمة
ولولاها لكان وجه كل قواه للقبض عليهم والتمثيل بهم

وعلى ذلك لم يتمكن الجرباوي وهبه الا من الحصول على ثلاثة جمال للحاق
بـ « اوهر والدر » الذي كان يعلم جيداً ان هروبه متوقف على السرعة

وقد تمنيت من صميم قلبي ان يفوز هو ومن معه بالهروب فقد تعذبوا كثيراً ولو
اني حزنت في الوقت نفسه حزناً شديداً لأنه كان الشخص الوحيد الذي يعرف لغتي
الاصلية التي كنت أحن الى التحدث بها أحيانا معه

وفي اليوم التالي استدعاني الخليفة وقابلني بوجه مكفهر قائلاً : « هو من ابناء
جلدتك وبطبيعة الحال انك كنت تعرف جيداً عزمه علي الهروب فلماذا لم تبلغني
حتى كنت اعمل الاحتياطات اللازمة ؟ » فاجبته : « عفوا يا مولاي كيف كان في
استطاعتي ان اعلم عن هروبه شيئاً وانا منذ قيام الحركة الاخيرة لم انتقل من مركزى
بالبل ولا بالنهار كما تعلم ياسيدى » فاجابني بكل حدة : « لاشك في ان قنصلكم هو
الذي دبر لهم طريقة الهروب »

وكان من بين الخطابات التي وردت أخيراً واحد منها جاء الى الخليفة باللغة
العربية من القنصل العام لدولة النمسا والمجر المسيو « فون روستى » يشكره فيه على
حسن معاملته للبعثة الكاثوليكية ويطلب اليه ان يسمح لهم بمغادرة السودان والعودة

الى أوطانهم حيث أنهم من رعايا الحكومة النمساوية وانت لجلالة الامبراطور غايا خاصة بهم ومنذ هذا اليوم اعتقد ان اعضاء هذه البعثة من ابناء جلدتي وهو متيقن الآن بان أمر هروبهم دبر بمعرفة القنصل المشار اليه

وهنا قلت للخليفة : « ربما يكون للقبائل النازلة على الحدود يد في تدير هروبهم لغنيمة وعدوا بنيلها فحضروا الى أم درمان وانهزوا فرصة الثورة التي قامت ومهدوا اسبيل « لاهر والدر » ومن معه للهروب . وقد اقتنع الخليفة بهذا الرأي . وبعد ان طلب اليّ ان اكون دائما مخلصا أمرني بالانصراف

وبالرغم من الوعود التي قطعها الخليفة على نفسه للاشراف بالآ يعكر صفو الود والاتفاق الذي تم بين الفريقين بلا مبرر القى القبض على ثلاثة عشر من زعمائهم بينهم اعمام المهدي نفسه وارسلهم بمركب الى فاشوده حيث يوجد زكي طومال الامير المحلف الامين للخليفة والذي كان قد ذهب هناك لاختاد ثورة « الشلك »

ولما وصلوا الى فاشوده وضعهم زكي في زريبة وتركهم بدون طعام الا القدر اليسير ثمانية ايام . ولما جاءت التعليمات السرية لاعدائهم ضربا بعصى تقطع من اشجار الشوك نفذ ذلك الامر بحضور رجال جيشه بعد ان عراهم من ملابسهم

بعد ذلك عاد زكي طومال الي أم درمان ومعه غنائم كثيرة اذ أحضر معه آلافا من الرقيق من النساء وقطعانا من الماشية باعها بمبالغ عظيمة حصل عليها بالفعل . وقد شكا كثير من الناس زكي الى الخليفة من شدة ظلمه وطفغائه وكان بعض الناس يقولون للخليفة اذا اكتسب قلوب عدد كبير من اتباعه يمكن ان يستقل ويشق عصا الطاعة

غير ان ما قدمه زكي اليه ولأخيه من الهدايا الثمينة من رقيق مال وماشية حفظ له مركزه عندهما

ولما كان زكي طومال بأم درمان قام الخليفة بعدة مناورات عسكرية تولى قيادتها بنفسه غير ان جهله بالحركات العسكرية وعدم النظام السائد بين الثلاثين الف عسكري جعل هذه المناورات تفشل فشلا تاما ولكن اللوم وقع على رأسي حيث كنت قائما بوظيفة اركان حرب ولما رأى ما وقع فيه من الارتباك قرر بان هذا العمل كان

مقصوداً مني لأني عدت في تنفيذ أوامره . واخيراً صرف الجنود وبعث بزكي طومال الى القلايات وطلب الى كعادته ان انفذ اوامره كما هي وأهدى الى جارتين صغيرتين علامة الرضاء

والآن وقد سمع الخليفة شريف بما حدث من قتل اقاربه اعلن استياءه الشديد وسخطه على الخليفة جزاء ما ارتكب وبذلك تمكن الخليفة عبد الله من إيجاد سبيل الى محاكمته فسرعان ما اتهمه بانه خارج على القانون غير مطيع للأوامر وكوّنت المحكمة لتعاكم بهمة عدم الطاعة

وبالفعل قرر القضاة اداة الخليفة شريف واصدروا الاوامر بالقبض عليه وفي اليوم التالي ذهب الضباط لتنفيذ هذا الامر في منزله الواقع بين منزل عبد الله وقبة المهدي وهناك ابلغوه الامر ونصحوا اليه بان يطيع اوامره ولا يظهر أى مقاومة. وفي الحال اصبح تحت تصرف الضباط الذين كان يرأسهم عرابي ضيف الله ولما طلب اليهم ان يسمحوا له بلبس خذائه رفضوا ثم ساقوه بكل عنف وشدة لدرجة انه وقع على الارض مرتين . ثم وصلوا الى السجن وهناك وضعوا فيه القيود الحديدية ومنعوا ايا كان من الاتصال به وجعلوا الارض العارية مقعداً له والسماء غطاء

وقد أرسلوا ابناء المهدي الى جدهم « احمد شوقي » وامروه بان يقيهم عنده محبوسين لا يتصل بهم احد — وقد كان جدهم يطيع الخليفة طاعة عمياء خوفاً على نروة طائفة اقتناها من ان يصادروها منه — فنفذ الاوامر الصادرة اليه كما صدرت

وقد مرت بي بعد ذلك ساعات دقيقة للغاية فقد ارسل يونس رجلاً من دقله الى الخليفة ومعه معلومات مهمة من الحكومة المصرية . وقد قابله الخليفة بنفسه بحضور جميع القضاة وقد داخلني الشك في ان ما يدور عليه الحديث هو بخصوصي وقد حاولت استطلاع حقيقة الامر من احد القضاة وكان صديقي الا انه اجابني بالا جعل للامر اهمية عظمى . وبعد الصلاة اجتمع القضاة والرسول بالخليفة مرة ثانية ولم تمض غير برهة حتى رأينا الرسول قد كبلت يداها بالحديد وارسل الى السجن ولقد اندهشنا عند ما رأينا ذلك المنظر

وفي يوم التالي لما ذهبت الى منزلى لبرهة قصيرة طلبنى الخليفة الى حضرة فتوجهت حيث كان مجتمعاً ببعض القضاة وبناء على امره اخذت مكانى بينهم ثم ابتداءً يقول وقد وجه نظره الى قضائه : « ولطالما نصحتك بان يكون مخلصاً الى واني دائماً اعامله معاملة الاب لابنه وما كنت اصدق ما يصل الى من الوشايات بخصوصه ولطالما عفوت عنه » . أخذ يقول كل ذلك غني لقضائه ثم التفت الى قائلاً : ان المثل العربى يقول « لا يوجد الدخان اذا لم توجد النار » وانت يحوم حولك دخان كثير

وقد قال الرسول أمس انك جاسوس الحكومة وان مرتبك يدفع شهرياً الى مندوبك في القاهرة حيث يرسله اليك هنا . وهو يوقن بانه رأى توقيعك في ديوان الحكومة هناك . وانت الذى مهدت الى يوسف القسيس الهروب وقد قال ايضا انك تعمل لتسهيل الاستيلاء على ام درمان بواسطة الانجليز وانك ستشعل النار فى مخزن البارود الموجود بقرب منزلك حينما يبدأون بالزحف . فماذا تقول دفاعاً عن نفسك ... ؟ فاجبته : —

« مولاي ! ان الله لا يظلم احداً وانت رجل الحق والعدل واني اقول بانى لم اكن قط جاسوساً ولا صلة لى بالمرءة مع الحكومة المصرية واني لم استلم قط نقوداً هنا . وان ضباطك لعل يقين من اتى فى أشد حالات البؤس والشقاء وان احترامي الشديد لشخصك هو الذى يمنعنى من ان اطلب اليك مساعدتي . وبما انه روى لمولاي بانه اطلع على امضائى هناك فاني اتهمه بالكذب وانا موقن بانه لا يعرف لغة اجنبية واذا اردت ياسيدى ان اكتب على قطعة ورق عدة امضاءات ثم نعرضها عليه ليستخلص منها امضائى التى يقول عليها بانه رآها هناك بالقاهرة لفعلت . وهنا يتضح لك جلياً ان كان حقيقة يعرف اللغات الاجنبية اولا يعرفها وانت تعرف يامولاي ان يوسف القسيس هرب فى وقت ما كان فى استطاعته الاتصال به . ولو كان لى اتصال بهؤلاء الذين يمهّدون الهرب فلم لا أمهده لِنَفْسِي . ومن السهل جداً على الانجليز ان يعلموا ان منزلى بجوار مخزن البارود لأن الرجل الذى جاءنى بالخطابات التى بعث بها الى اخواني رأى منزلى فربما يدعون هو الذى حدثهم بذلك

« ومن الجائز ان اقاربي الذين قطعت كل صلاتي بهم بناء على امر مولاي يسألون غنى وعن مرتبي في دواوين الحكومة المصرية ظنا منهم ان السودان لا يزال جزءاً من مصر او يسألون التجار الذين يفدون منه الى القطر المصرى وبطبيعة الحال يعلم هؤلاء التجار جيداً موضع منزلى بالنسبة لمخزن البارود . واني لموقن بان الحكومة المصرية لا تفكر مطلقاً في الكرّ عليك وانت هذا الخليفة القوى البطش . واذا سلمنا جدلاً بان الحكومة تفكر في هذا الغزو فمن أين جاءني التأكيّد باتي سابق في مركزى وأتمكن من تنفيذ الخطة التي يقول عنها ؟ هذا فضلاً عن أنى كما تعلم يامولاي كنت الخادم ولا زلت الامين المخلص واني آتئني بان أكون دائماً في طليعة جيوشك الغازية لنصرتك على أعدائك .

« اني ياسيدى بعد كل هذا الايضاح الذى أوضحته لا أعتد الا على انك لا تظلم أحداً . »

ثم قلت : وهل يحق لك أن تضحي بمخلص امين لك من أجل وشاية « دتقلاوى » ! فبادرنى بقوله من أين علمت بانه « دتقلاوى » ؟ فقلت له من منذ مدة رأيت هذا الرجل يبابك مع عبد الرحمن واد النجومى الشاهد ونظراً لسخافته والحاحه طردته بالقوة فهو يريد لنفسه الآن الانتقام فانت يامولاي وقدمنحك الله العدل والانصاف ستحكم لى بطبيعة الحال بالبراءة .

فقال لى : « ما طلبتكم هنا للمحاكمة ولا شككت لحظة في اخلاصك ولو كان الأمر فيه شيء . يشينك ما كنت أمرت بسجيه واني اعلى يقين من أن أعداءك كثيرون وهم يحاولون دائماً الايقاع بك لأنهم يغارون من وجودك بقربى . ولكن يجب عليك أن تحاذر واعتقد دائماً ابداً في المثل القائل : « لا يوحد الدخان الا حيث توجد النار » .

وبعد ذلك أمرني بالانصراف ومن ثم انصرف الجميع ولقد سألت أحد اصدقائى عما قاله الخليفة بعد خروجى فاخبرنى بان الخليفة اعتبر الرجل كذاباً ولكن لا يخلو الحال من أن يكون في دعواه بعض أشياء حقيقية وقد قال لى أيضاً لا بد أن يكون لك أعداء بالقاهرة وهذا الرأي سبق أن طرأ لى .

ولكن ما الحيلة وما العمل وانا أرى ان خصومي يوقعون بى كل يوم ويجعلون مركزى من أخرج المراكز فصرت أفكر دائماً فى هذه المواقف وصرت أفكر ايضاً فى علاقتى مع الخليفة وكيف انها ستتأثر بهذه الوشايات بطبيعة الحال وان ضيقتى من أنه أصبح بعد كل هذا يتحين لى فرصة للانتقام لاني على ما اعتقد أصبحت فى نظره العدو اللدود فى ثوب الصديق الحميم ولكن على كل حال احمد الله ومن بعش ير .

وقد قابلت فى اليوم التالى وانا عائد الى المنزل بعد تأدية الصلاة « القرباوى » وهو الذى خلف « عدلان » فى بيت المال . فحادثنى بكل لطف قائلاً لى — بعد ان قلت له انك تزورنا نادراً — لقد جئت لأقلقك بطلبي اليك بان تخلى منزلك اليوم . وسأعطيك بدله فى جنوب شرقي المسجد حيث يستقبل زوار الخليفة وهو ولو انه يقل عن مساحة منزلك الا انه بقرب المسجد ويصلح لرجل عابد مثلك فقلت له اني أوافق على ذلك بكل سرور ولكن أرجوك أن تقول لى بصفة خاصة من الذى أرسلك . الخليفة أم يعقوب ؟ فاجابنى وهو يضحك قائلاً : « آه . هذا سر . ولكن من حديثك أمس مع الخليفة يمكنك أن تعلم حقيقة السبب وهو ان مولانا الخليفة يريد أن يجعلك فى مكان قريب منه حتى تكون تحت رقابته مباشرة حيث ستكون على بعد ٢٠٠ خطوة منه »

ثم قال لى اذن متى احضر لاستلام منزلك فقلت له سأنتهى من النقل فى مساء هذا اليوم ولربما كان نقل مؤونة حصانى وبغلى هى التى تستغرق منى وقتاً أطول . وهل المنزل الذى سأذهب اليه غير مسكون فاجابنى : « نعم بطبيعة الحال » وقد اصدرت الاوامر بان ينظف وتعمل الاصلاحات اللازمة له . ولكن يحسن بك أن تبتدىء فى مغادرة هذا المنزل حالا وآمل أن تكون سعيداً فى منزلك الجديد أكثر مما أنت عليه من السعادة هنا

ولقد وضحت لى الآن جلياً ان ثقة الخليفة بى قد تزعزعت وأصبح لا يثق بى لأن أكون بجوار مخزن البارود . وعلى ذلك حزمت متاعى وأمرت الخدم بنقله الى المنزل الجديد فتأثر الخدم وأخذوا يطلبون الى المولى أن يوقع كل اللعنات على الخليفة حيث

ترك منزلنا الذي أصلحناه وغرسنا فيه الأشجار وحفرنا فيه الآبار . ولكنني على كل حال غادرت المنزل مؤملاً فيما قاله القرباوى من انى سأ كون بمنزلى الجديد أسعد حالا منى فى المنزل الذى انا فيه

وقد أصبحت حالي بعد ذلك مضطربة وأصبح مركزي مزعزعا

ولقد تقابلت اتفاقاً مع تاجر من دارفور جاب الديار المصرية والبلاد السورية وعرف كثيراً من أجناس البشر المختلفة وقد عرف لأول وهلة انى نمساوى الاصل وأخذ يحدثنى — وعلم بانى أسير من مدة طويلة ولا صلة لى باى مخلوق — عن الاحوال فى القطر المصرى واعطانى بعض الجرائد المصرية القديمة . وتحتوى احدى تلك الصحف على أخبار من النمسا . ولما توجهت الى المنزل وابتدأت أقلب صفحاتها علمت أول ما علمت ان ولي عهدنا الامير رودلف قد توفي . ولا يمكن ان ابها القارىء ان تتصور مقدار الحزن الذى حل بى . فقد خدمت معه فى الجيش وقد كان يودى ان ارجع الى وطنى وابلغه بعد طول الاسر ان اشرف ساعات قضيتها فى حياتى هي تلك الساعات التى كنت فيها تحت امرته وأعظم شرف لى أن انتمى الى الفرقة الامبراطورية . ولقد فكرت طويلاً فيما عساه أن يكون قد اصاب امبراطورنا العظيم بمقد ولده .

قد حلت بى الاحزان فى هذا الوسط المزعج الذى انا موجود بينه وقد كان زملائي وهم لا يدرون أسباب حزنى يطلبون ان لا اظهر أسفى بالنسبة لركى منزلى الاول حيث ان الخليفة أصدر أمره الى جواسيسه بان يراقبوني جيداً فابتدأت اظهر عدم اهتمامى باى شىء مطلقاً .

وقبل ذلك بمدة وجيزة كان المصريون قد استولوا على طوكر وهم لا محالة زاحفون ومن أجل ذلك استدعى الخليفة « ابو حرجه » وولى بدله قيادة الجيوش واحداً من أقاربه اسمه « مسعود » وقد أرسل « ابو حرجه » بباخرتين الى الاقاليم الاستوائية ليلحق بعمر صالح الذى كان قد ذهب الى الرجاف ليقيم هناك مركزاً لجيوش الدراويش لصدملة « ستانلى » و « امين باشا »

وبعد مضي أيام قليلة لسفر هذه البواخر مرض الخليفة بالحمى التيفوسية وكان عموم سكان أم درمان يستطلعون أخبار هذا المرض أولا فأولا

وأصبح جميع سكان أم درمان يرقبون أخبار مرض الخليفة بفارغ الصبر وكانوا يتوقعون أن موت الخليفة يغير نظام كل شيء . وبطبيعة الحال إذا مات سيخلفه الخليفة « على واد الخلو » حسب ما تقتضيه القوانين المهدية وكان هذا يترقب وفاته بكل سرور وقد أظهر أتباعه الرغبة الشديدة في الاستيلاء على الحكم

بعد ذلك ابتدأت حالته الصحية تتحسن وقد خيل إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يهيء بعد لهؤلاء القوم النجاة فيقضى على حياة هذا الطاغية

خرج الخليفة بعد ثلاثة أسابيع من مرضه لأول مرة فقابله رجال قبيلته بالتجلة والتعظيم والغبطة والسرور بينما أظهر له بقية السكان سرورا مصطنعا وعلى ذلك لم يعرف شعور الناس نحوه حق المعرفة

وحيث كان يقطن بين النهرين في الجزيرة قبائل « الجالان » و « الدناجالا » وغيرهما من الأعراب الذين يعرف الخليفة عنهم أنهم أعدائه فكان دائما يراقبهم عن كثب ويدعهم عزلا من السلاح مصادرا كل ممتلكاتهم وكان ينتخب من بينهم آنا بعد آخر عددا يرسله لتعزيز حامية دارفور والقلابات والرجاف

وكان يعتقد دائما أن الخليفة على وأتباعه يحقدون عليه ولو أنهم كانوا يظهرون له غير ما يخفون إلا أنه ما كان يتوقع قط أن يعلنوا العداء كما أعلنه من قبل الأشراف والآن وقد أصبحت اقطن على بعد خطوات منه أخذ يسأل عنى كثيرا زملائي ويطلب اليهم ابلاغه هل أنا مسرور من مكاني الجديد أو لا . وكان يترقب بفارغ الصبر وقوع هفوة منى ولكن من حسن الحظ كانت الملازمون يعطفون على ويني وبينهم صداقة وكان يسرون لى بين آن وآخر أن الخليفة أصبح شديد الحقد على . ويجب أن أكون شديد الحذر .

وفي ذات يوم من شهر ديسمبر سنة ١٨٩٢ لما حصلت على أجازة قصيرة لاستريح فيها من عناء العمل طلبنى أحد الملازمين إلى الخليفة وبعد أن ذهبت وجدته ينتظرني

في حجرة الاستقبال محاطا بقضائه . ولقد صدقت ما قيل لي من أول وهلة حيث لم يرد تحيتي وأمرني بأن آخذ مكاتي بين قضائه

وقال لي بكل حدة خذ هذا الشيء وانظر الى ما يحتويه . فقممت واستلمت الشيء المشار اليه ثم جلست فاذا به قطعة مستديرة من النحاس على شكل علبة صغيرة قطرها يقرب من أربعة سنتيمترات مغلفة بقطعة من المعدن متينة كقبضة «المسدس» فحاولت فتح هذا الشيء وبعد ان تمكنت وجدته يحتوي على قطعتين من الورق

وبطبيعة الحال كنت في هذه اللحظة في أشد حالات الاستغراب وقلت في نفسي اعله خطاب من أهلى او من الحكومة المصرية استحضره الرسول ولما مسكت قطعتي الورق حاولت قراءة ما يحتويانه فوحدت مكتوبا فيهما باللغات الالمانية والفرنسية والانجليزية والروسية ما يأتي :—

« هذا العصفور نشأ وترى بضيعتى فى « اسكانيا » فى مقاطعة « فوريدا » بجنوب روسيا فمن يمسكه أو يقتله فالمرجو منه ان يكتب لى ويخبرنى عن مكانه . »
الامضاء

ف ر. فولزفن

سبتمبر سنة ١٨٩٢

فرفعت رأسى بعد تلاوة هذا الخطاب فقال الخليفة ما هو المدون بهذه الاوراق فاجبته قائلا يا سيدى لا بد وان تكون هذه القطعة كانت معلقة فى رقبة عصفور قتل وان صاحبه الذى يسكن فى أوربا يطلب الى من يقتله او يمسكه ان يكتب اليه ويخبره عن المكان الذى مسك فيه او قتل

فقال لى لقد قلت صدقا فحقيقة قتل هذا العصفور بالقرب من دقله ووجدت هذه القطعة برقبته ، وقد أخذه من قتله الى الامير يونس الذى عجز كاتبه الخاص عن تفسير ما هو مدون به . وبعد ذلك بعثوا به الى فخبرنى بترجمة ما هو مكتوب فيه فترجمت الجملة كلمة كلمة كما أراد الخليفة وبينت له موضع البقعة التى جاء منها هذا العصفور وكذلك المسافة التى قطعها— فقال الخليفة هذه خرافات يضيع بها الذين لا عقيدة لهم اوقاتهم فبعيد على محمدى ان يجهد نفسه فى خرافات كهذه بعد ذلك أمرنى بان أسلم العلبة الى سكرتيره وأمرنى بالانصراف غير أنى

تصفحت الورقة مرة ثانية بكل سرعة وعلقت منها كلمات « اسكانيا — نوقا —
فوريدا بجنوب روسيا » وأخذت اكرر تلك الكلمات حتى علقت بهذا كرّتي
وقد كان الملازمون في انتظارى خارج الباب وهم في غاية الشوق الى سماع اخباري
ولما رأوني خارجا وعلى وجهي علامات السرور فرحوا لفرحي

وقد صرت أكرر وانا في طريقى الى منزلى تلك الكلمات ونذرت اذا منحنى
الله سبحانه وتعالى حرّيتى لا بد من ان اذهب الى هذا الرجل وأبلغه ما طلب وماذا
حدث للعصفور . والآن عاد محمود احمد — وهو الذي حل محل عثمان وادّ آدم لما
توفى — الى أم درمان بجيوشه البالغة خمسة آلاف بدوي ولم يترك بها غير ما يكفى
لحفظ النظام وعسكر بهذه الجيوش عند عين يونس في جنوبي المدينة

وقد أمر الخليفة باستعراض جميع الجيوش النازلة في أم درمان وبطبيعة الحال
ستكون نتيجة هذا الاستعراض كنتيجة سابقة وقد كنت اركان الحرب وكل هفوة
تقع على مسؤوليتها

بعد ذلك أمر محمود احمد بالعودة الى الفاشر بعد ان جدد عساكره يمين
الاخلاص للخليفة . وقد وجه الخليفة نظره الآن الى الجهات الاستوائية فبعث
ببأخرتين أخريين بهما ٣٠٠ رجل تحت إمرة قريه عرابي ضيف الله . أرسلهما الى
الرجاف ولدى عرابي الاوامر بالقبض على « ابو حرجه » وان يكبله بالحديد . وقد
ظهر جليا ان هذا الاخير لم يرسل الى الرجاف الا خدعة

وجاء بعد ذلك دور زكي طومال فخذ عليه يعقوب فأمره أن يعود حالا الى
أم درمان حيث زجوه في السجن ووضعوا على جسمه اكبر كمية ممكنة من الحديد
تعذيبا له . بعد ذلك وضعوه في مغارة وقطعوا صلاته بكل الناس ولم يسمحوا له
حتى بالحبز الضروري لغذائه فمات بعد ٢٠ يوما جوعا وعطشا

وقد حل الآن بدله في قيادة الجيوش احمد واد على قاصدر له الخليفة الاوامر
بغزو القبائل النازلة بين كسلا والبحر الاحمر . وكانت خاضعة للايطاليين ولكنه
تلقى أوامر بالألا يغزو جيوشا محصنة في حصون . ولما توجه على رأس جيشه في نوفمبر
سنة ١٨٩٣ من الفصارف لحق بالقوة العسكرية في كسلا وهناك توجه الى « اجردات »

فواجه القوات الطليانية وكانت قليلة العدد الا انها متحصنة وبالرغم مما أمره به الخليفة هاجمها لقلتها في نظره فهزم شر هزيمة وقتل هو نفسه وقتل قائدان من قواده وفي أثناء هذه الملاحظات الدقيقة واذا بباخرتين تفدان من الرجاف يحملان كميات هائلة من العاج وآلاف من الاسرى وبعد ذلك بقليل وصلت أخبار غير سارة من دارفور وقد روى محمود احمد ان المسيحيين دخلوا مناطق بحر الغزال وقد اتحدوا مع القبائل النازلة في هذه الجهات وقد وصلوا بالفعل الى حضرة النحاس . وقد وقعت تلك الاخبار على الخليفة كالصاعقة

ولما كانت مصر تحكم السودان جند المصريون من أهالي اقليم بحر الغزال الكثير ، منهم من قبل برغبته ومنهم من أجبر على الدخول في سلك العسكرية . ولما كانت مناطق بحر الغزال أعلى بكثير من غيرها من مناطق السودان ومزروعاتها كثيرة وماؤها وفير . ولما كانت القبائل الساكنة في تلك الجهة متفرقة الكلمة . سهل كل ذلك على أي أجنبي يريد الاستيلاء عليها وهذا هو ما قد حصل . وكان في نظر الخليفة ان من يستولى على هذه المناطق فقد استولى على مفتاح السودان باجمعه . ومما زاد الطين بلة ان العبيد يكرهون العرب كراهة لا مزيد عليها .

وقد أمر الخليفة في الحال محمود احمد بان يجند من جنوبي دارفور ويزحف جنوبا الى بحر الغزال ليكسح الاجانب الذين دخلوا هذا الاقليم

وقد استدعاني الخليفة ذات يوم وسلمني بعض أوراق مكتوبة بالفرنسية وطلب الى ترجمتها وهي تحتوي خطابين من اللفتنانت دي كنيل الى مساعديه يشملان أوامرا أصدرها اليهم . وسلمني ايضا نص معاهدة موقع عليها من مندوب حكومة الكنفو الحرة والاسطان حامد واد موسى تاريخها ٤ أغسطس سنة ١٨٩٤ والشاهدان فيها « سلطان ريميو » و « سلطان تيجا » وهما موقعان بالفرنسية . فترجمت هذه الاوراق بكل سرعة شفويا للخليفة . ولقد أراد ان يظهر لي عدم اكترائه فقال : « لم أطلب اليك ترجمة هذه الاوراق لاني ان لامر شيئا خطيرا — كلا فقد اصدرت أمرى الى محمود احمد ليطرد هؤلاء النصاري الذين اخترقوا الحدود ولكن هناك أمر يهمني أن أصرح لك به وهو « بما اننا نعتبرك كواحد من عائلتنا

فاني أود ان أشعرك بحقيقة هذا الحال وعلى ذلك قررت ان أزوجك واحدة من بنات أعمامى . فماذا ترى .

وبطبيعة الحال لم تدهشنى هذه المنحة فقد عودنى الخليفة أمثالها من قبل وتيقنت من حقيقة ما يقصده فهو يريد أن يعث لى بمن تكون رقية على أحوالى بمنزلى . هو يريد أن يعلم حقيقة أسرارى . يريد ان يعرف اذا كانت هناك صلات بينى وبين أي مخلوق آخر . فقلت له يامولاي اتنى أدعوك بالنصر على كل أعدائك . ان هذا الذى تريد ان تولينى إياه باقتراي بابنة عمك شرف عظيم . واني أقول لك يامولاي ان ابنة عمك هذا لم تكن من بيت الملك فقط بل هى من سلالة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام . وعلى ذلك يجب ان تكون موضع كل عناية ومشغولة بكل رعاية ولما كان من سوء الحظ أنى مصاب بداء الحماسة والحماسة أعيت من يداويها وقد لايمكننى أن أحكم عواطفى عند حدوث اي حادث ولا تخفى نتيجة هذا بين الزوج وزوجته وقد يؤدى هذا الى نفور قد يحصل لا سمح الله بينى وبين مولاي فأرجو معذرتي اذا رجوت سيدي ان يترك هذا الرأى

فقال لى : الآن وقد عشت بين ظهر ايننا عشرة أعوام خبرناك فيها وعرفنا خصالك وعاداتك فلم أسمع عنك الا كل طيب وكل ماينجلى لى من أمرك هذا انك لاتود تغيير العادة التى ورثتها من قبيلتك الاصلية بانك لاتريد الا زوجة واحدة (والخليفة يقصد من كلامه هذا انه باعتبارى مسيحيا فلا أزوج الا واحدة ولذلك أرفض أن أزوج بابنة عمه) فقلت له لا يامولاي فاني لا اتبع عادة بلادى مطلقا وان كنت اتبعها فلماذا تزوجت بثلاث نساء قبل الآن . فأجابنى فهمت على كل حال فأنت ترفض زوج ابنة عمي ! فقلت له : كلا ياسيدى فأنا لا أرفض ولكنى أريد قبل الاقدام على أي شيء ان أوضح لك حقيقة اخلاقي . وبذلك أضمن العواقب . وبطبيعة الحال انه لما يشرقتى الانتساب الى قبيلتك . الا اني اود قبل كل شيء ان يكون مولاي على علم تام . والآن وقد تيقن من ان محاولاتي هذه كلها غلامة الرفض أمرني بالانصراف

وقد وضعت نفسي بعدم القبول هذا في مركز حرج للغاية وهذا مما جعلنى أزيد في جهدى لتدبير أمر الهروب

وقبل هذه الحادثة ببضعة أشهر كنت قد كلفت تاجرا سودانيا بالذهاب الى القاهرة ومقابلة القنصل النمساوى ليطلب اليه أن يعمل غاية جهده على تمكينى من الهروب ولكن متى تتحقق هذه الآمال

الفصل الخامس عشر

ملاحظات متنوعة

سأحدث القراء الآن عن شخص الخليفة وعاداته وأخلاقه فأقول هو السيد عبد الله ابن السيد محمد ينتمى الى قبيلة التعايشة من أولاد أم سار من أسرة الجبارات. وقد اتصل بالمهدى وهو في الخامسة والثلاثين من عمره وكان في ذلك الوقت قوى البنية إلا ان الشواغل قد انهكت قواه الآن فأصبحت تراه كهلا اشتعل رأسه شيئا ولو انه لم يتجاوز ٤٩ عاما . أصبح سريع الانفعال . ولما تنتابه تلك الحال يصبح من غير المتيسر علي أعز عزيز لديه الدنو منه ومحادثته حتى ولا أحد اخوته .

وكان يعتقد دائما ان الصدق والامانة لا وجود لهما مطلقا عند أى مخلوق وكل ما يظهره الانسان من ملق ومداهنة إنما هو لقضاء الحاجات والمآرب دون سواها . وكان بطبعه محبا للملق والمداهنة لذلك كنت ترى القوم يكيلون له الملق جزافا حتى ان أحدهم لا يجسر أن يذكر اسمه دون ان يقرنه بصفات الحكم والقوة والعدل والشجاعة والكرم والصدق . وكان من جهته يقابل ذلك الرياء بسرور وارتياح تام وياشقاء من كان يمس كرامته .

ولكي يكون لدى القارىء فكرة عامة عن طباع هذا الرجل أسرد الحكاية الآتية :

كان من بين قضائه قاض اسمه «اسماعيل عبد القادر» تعلم جيدا في القاهرة ونال حظوة كبرى عند المهدي لانه كتب تاريخا قوامه يشمل جميع انتصاراته وتاريخ حياته . ولما

مات المهدي أمر الخليفة، اسماعيل هذا، ان يتم عمله ويكتب عن الانتصارات ويكيل الفاظ الملك والمداينة للخليفة. فقال اسماعيل عبدالقادر ضمن أقواله مقارناً الحالة في السودان بها في مصر فشبه الخليفة بالخدو اسماعيل باشا وشبه نفسه باسماعيل باشا المفتش ولما وصل هذا القول الى مسامع الخليفة أمر القضاة في الحال ليجتمعوا لمحاكمة اسماعيل على هذا القول الذي اعتبره الخليفة ذماً في شخصه وقال « كيف والمهدي خليفة النبي وأنا خليفته يشبهني هذا الرجل بالخدو الذي هو من أصل تركي . كيف أشبه بهذا الرجل وأنا خليفة المهدي والمهدي خليفة النبي الذي هو أعظم مخلوق ظهر على ظهر الارض وطلب الى القضاة ان يحاكموه فقصوا بادائته و كبل بالاغلال وأرسل الى الرجاف . وقال الخليفة ما الذي دعاه الى التشبيه بين مصر والسودان فاذا كان يود أن يشبه نفسه بباشا مصري فأنا خليفة النبي لا أقبل على نفسى مطلقاً ان أشبه بتركي ولم يقف به غروره عند هذا الحد بل أصدر أوامره في الحال بان تجمع كل نسخ مؤلف هذا القاضى وتحرق وبالفعل تم ذلك الا نسخة واحدة كما بلغنى احتفظ بها سكرتير الخليفة ولو وجدت هذه النسخة الآن وترجمت الى اللغات الافرنجية لظهر الشئ الكثير مما كانت عليه الحركة المهدية منذ نشأتها

وكان هذا الخليفة مغروراً جداً بقوة جيوشه معتقداً انه في وسعه ان يعمل كل شئ . ويغزو أى بلاد وكانت أخلاقه خليطاً من اللين والشدة وما كان يسير الا اذا أحدث آلاماً لاخرين كمصادرته أموالهم او تعذيبهم . وكانت تلك خصاله حتى أيام حياة المهدي نفسه فعبد الله نفسه هو الذي سبب مذبحه الخرطوم التي قتل فيها النساء والاطفال بلا شفقة ولا رحمة

ولما أرسل عثمان واد آدم الى أم درمان اختى سلطان دارفور البرنسية مريم عيسى وبنجيته منحهما الخليفة حريتهما ولكنه حجز غيرهما من أقاربهما النساء وأخذ لنفسه كثيراً منهن وأعطى توابعه أخريات . ولما علم بان هناك من أهل دارفور من يقطن أم درمان ويريد مساعدة البرنسيستين قبض عليهما وأعطاهما لاثنتين من أمرائه هما حبيب و خليل وكانا على أهبة السفر الى الرجاف . وقد حاولت أم بنجيته وهي ضريرة ان تتبع ابنتها فرفض طلبها ومنعت بامر الخليفة بالقوة من متابعة بنتها

حتى انها ماتت بعد أيام قليلة وقلبها يتحرق على ابنتها . ورمت بجثته بنفسها في النهر والباخرة لم تقلع من مكانها ولما نجوها من مخالب الموت ماتت من التعب والبؤس بعد قليل وكان احمد غراب مصري الجنس مولوداً بالخرطوم ولكنه قبل حملة هكس باشا سافر في تجارة تاركا وراءه زوجته وهي سودانية وبنته وقد عاد ليراهما الا انه في يوم عودته وقبل ان يرى أسرته أحضر امام الخليفة فأوضح الاسباب التي حملته على الرجوع مظهراً رغبته في الدخول في خدمة الخليفة فقال له اني أقبل ذلك بكل سرور فلتذهب في الحال الى الرجاف . وجاهد في سبيل الله . وعبنا حاول هذا المسكين ان يقنع الخليفة في ان يستأذنه السماح له برؤية أولاده فأمر الخليفة حرسه في الحال بان يأخذوه الى المركب المسافر على ان يراقبوه جيداً

والخليفة عبد الله هذا هو الذي سبب هلاك آلاف الناس . وهو الذي كان يعذب الآدميين بان يقطع أيديهم وأرجلهم تعذيباً . ولم ندس له حادثة قتله وشنقه أفراد قبيلة « البتاهين » في ساحة السوق . ولقد ذكرت كثيراً ان أصدقاءه كانوا أشد خوفاً من أعدائه على حياتهم منه . وهل هناك دليل يثبت فظاعة هذا الرجل أقوى من حادثة سفكه دماً ، الاشراف بعد ان اتفق معهم وعقد التحالف المعروف وكان كل من يدخل عنده يقف مكتوف اليدين مسبلاً عينيه الى الارض ينتظر أمره بالجلوس . وكان هو يجلس دائماً على عنجريب مفروش بحصير عليه فرو فاذا أمر أحداً بالجلوس فانما يكون جلوسه على الارض مقعياً كما يقعي عند الصلاة لا يتحرك حتى يؤذن له بالانصراف وكان لا يسمح لأى مخلوق بان يشخص ببصره نحوه وقد حدث مرة ان سوريا اسمه محمد سعيد جمعه سوء الحظ — وهو بعين واحدة لا يرى بالأخرى — بالخليفة في المسجد فلاحظ الخليفة ان عين هذا السورى ترمقه فدعاني وأمرني بان أبلغه ان الخليفة لا يحب ان يراه مرة أخرى يرمق اليه

وكانت حالته في منزله على عكس ما هو عليه من طباع إذ كان لين العريكة بطيع أمر ابنه حتى انه في ذات يوم لما قال الولد لايه انه أتم دروسه سرعان ما أمر المعلمين بالانصراف . وقد زوج ابنه عثمان هذا بابنة عمه بنت يعقوب ولم يتجاوز من العمر سبعة عشر عاماً . وأقام له افراحاً لم يسبق لها مثيل فقد مدت موائد الطعام

ثمانية أيام حتى تمكن كل فرد من سكان ام درمان من ان يأكل . كما انه زين المنزل المبني بالطوب الاحمر والموجود تجاه بيت يعقوب بأفخر الرياش لكي يكون محل سكن ولده .

وبعد ذلك بقليل زوج ابنه هذا باثنتين من أقاربه وقدم له جوارى اختارهن هو بنفسه لابنه . وكان يحرم على ابنه الاتصال بالغير كما كان يصرح دائماً بأنه لا يسمح له ان تجمعه صلة نسب مع أى قبيلة أخرى .

ولما رأى ان لابنه علاقات مع آخرين سرعان ما جعله يسكن فى منزل داخل السور بجوار منزله ليشدد عليه الرقابة

وقد زوج بنته لابن المهدي «محمد» وكان محمد هذا غير راغب فى هذا الزواج لانه لا يحب ابنة الخليفة مطلقاً . وكان يرغب فى الزواج بقريبة له . إلا ان الخليفة عبد الله وهو صاحب الحول والقوة وولى أمره والرقب عليه أرغمه على ألا يتزوج بمن يريد فتزوج بابنة الخليفة مرغماً وعاشا عيشة مرة .

وكان للخليفة ما يقرب من ٤٠٠ امرأة . وبحكم الشرع كان من بينهن أربع زوجات شرعيات والباقيات كن من بنات القبائل التى أرغمت على اتباع المهدي أى بمعنى آخر أسيرات وكان كلما أحب واحدة وأراد الاقتران بها اقترانا شرعياً طلق واحدة من زوجاته الشرعيات ليستبدلها بمن يريد . وقد جمع فى زوجاته بين البيض والسود وقد قسمهن الى أقسام بعضها مكون من ١٥ والبعض من ٢٠ رأس كلاً من هذه الاقسام رئيسة وكل قسمين أو ثلاثة أقسام منها تحت اشراف سيدة الاحرار المحظيات عند الخليفة وكان يمنحهن حبا وتقودا وهبات أخرى تمكنهن من قضاء حاجاتهن ويعطين أيضاً الملابس بنسبة جمال واخلاق ومركز كل منهن عنده . وتكون تلك الملابس عادة من نسيج قطنى يصنع فى البلاد السودانية ملون الحواشى أو من حرير لامع وشيلان صوف مستوردة من مصر وكان هو نفسه الذى يباشر توزيع هذه الاشياء عليهن وفى بعض الاحيان يوزعها أغاه الخاص

ولما كانت المجوهرات الفضية قد حرمها المهدي كن يتزين عادة بالخرز والصدف وكن يصفرن شعورهن . الا انه فى الايام الاخيرة لبست زوجات العظماء حلياً

من ذهب وفضة ولبست زوجة الخليفة الاصلية اكثر ما يتصوره انسان من حلى .
وكان يشرف على حالة نسائه الصحية نسوة مخصوصات لا يتأخرن عن اخطاره
بكل ما يحدث من الاصابات

ولما كان يريد اختيار واحدة منهن ليجتمع بها كان يستعرضهن جميعاً ويختار
منهن من يشاء . وكان لا يختلط بنسائه الا اغواته ولا يحرسهن الا الملازمون السود
وقلما كان يسمح لواحدة منهن ان تتصل بأي كائن كان من أهلها او أقاربها وقد
تمضي السنة دون ان ترى الواحدة أى فرد من عائلتها .

وكان اسم زوجته الاولى « ساره » وهى من قبيلته شاركته السراء والضراء .
وهى أم أولاد عثمان وخديجه . ومع انها أصبحت زوجة الخليفة الآن إلا انها كانت
تحافظ على مظاهرها وعاداتها الاصلية فكانت تعمل بنفسها أو تحت اشرافها طعامهم
البسيط المكون من العصيدة وبعض الفراخ . ولما أراد الخليفة أن يترقى فى معيشته
واطلع على أنواع الطعام المصرى واصناف المأكولات التركية وأراد ادخالها فى
مطبخه تسبب عن ذلك شقاق بينه وبين زوجته كان سيقضى حتما الى فراقها لو لا
تداخل يعقوب وبعض أفراد أسرته

وكان عنده اغا رئيس يسمى « عبد القيوم » وكان هذا هو المشرف على
تأمين بيت الخليفة ويتناول من بيت المال المصاريف اللازمة ويتولى صرفها . كما كان
تحت يديه الهدايا التى كان يقدمها الخليفة لمن يشاء يساعده فى اداء هذه المهام رهط
من السكتبة والمساعدين تحت امرته كلهم اغوات حيث ان الخليفة كما قدمت ما كان
يسمح لغير الاغوات بالدنو من منزله

وأما لباس الخليفة فكان عبارة عن الجبة البيضاء وعلى رأسه عمامة من حرير
وعلى كتفه حرام . وكان يلبس فى رجله فى أول الامر صندلا الا انه غير ذلك بعد
قليل واستبدله بلبس « بلغة » صفراء . وكان دائما يحمل فى يده اليسرى عندما يسير
سيفا وفى يده اليمنى حربة يتوكأ عليها كأنها عصا . ويتبعه فى سيره ١٢ صبيا خدما
خصوصيين له . جلهم من الاحباش الذين أسرهم ابو انجه وزكى طومال . وكان
واجبهم ان يكونوا دائما على مقربة منه ليكونوا رسله عندما يرى أى شيء . ولما يبلغ

الواحد منهم السابعة عشر من عمره يترك خدمة الخليفة الخصوصية ويندمج في حرس الخليفة النظامي . ويحل محله آخر من الصبيان .

وكان الخليفة يعتقد انه باستخدام صغار السن يكون دائماً في مأمن من اذاعة أسرارهِ وبطبيعة الحال لا يخططه واحد مطلقاً في رأيه هذا .

واما في داخل منزله فكان بطبيعة الحال يحل الاغوات محل هؤلاء الأولاد اذ كما قدمت ما كان يسمح لغيرهم بدخول داره

عرضت على الخليفة منذ ثلاث سنوات فكرة من جانب مشير به الحريين فارتاح اليها وعزم على تنفيذها . وتلخص هذه الفكرة في ضم افراد من حرس الخليفة الى صفوف الضباط في الجيش العام . ولم يكذب يعلن موافقته على ذلك الرأي حتى اختار بنفسه عدداً من المجاهدين البارزين في جيش محمد احمد وزكي طومال

لم يقف الخليفة عند هذا بل أصدر أمره لامراء القبائل الغربية حتى يحضروا المئات من الجنود الجدد ليدمجهم تحت الوية ضباطه ولكن تلك الاوامر لم تلق الطاعة الاجتماعية من ناحية الامراء . وفي كل خطوة من خطواته التنظيمية الاخيرة كان معنياً باضطهاد الدقلين والمصريين واخراجهم من دائرة حرسه لانه لم يكن يثق بهم ولم يمل اليهم

جد الخليفة في سبيل ذلك الانشاء الحربي حتى تمكن من تكوين قوة تتراوح بين احد عشر الفا واثنى عشر الفا من الجند ونظم لذلك العدد الكبير اراضى تشبه القطائع سكنها أولئك الجنود مع نسايتهم وهي على مقربة من مساكن الخليفة ودور ابنه وفي حدود السور الحربي الجديد

وقسمت هذه القوة الجديدة الى ثلاث كتائب يقودها على التابع ابنه عثمان وأخوه هارون ابو محمد (الذي لا يزيد سنه على الثامنة عشرة) وابن عمه ابراهيم خليل . اما الثالث فلم تطل مدة قيادته كنيته حيث حل محله رجل حربي حبشي اسمه راجح كان في حاشية الخليفة في بيته الخاص . وانه لما يجب ذكره ان عثمان كان موضع احترام صفوف الجيش بقسميه الأعلى والأدنى فلقبه الجنود بمثل الخليفة .

وتنقسم كل كتيبة الى اجزاء منتظمة يحتوي كل منها على مئة جندي يرأسهم ضابط ويلقب برأس المئة ولذلك الضابط مساعدون مدربون

اذا عدنا لانواع الجنود وجدنا السود منهم مندمجين في الاقسام المتفرعة من الكتائب وهم في ذلك ليسوا الجنس العربي الحر ولكنهم تحت رقابة الامراء الذين يصدرون أوامرهم المطاعة لكل من الفريقين على حدة لان السود لا يخضعون للنظم العسكرية كما يخضع العرب

وانا لانغالى في التقدير اذا قلنا ان جميع أولئك الجنود مسلحون ببنادق ومنجوتون ولكننا نظهر امام الحقيقة اكثر دقة وصدقا اذا قلنا ان البنادق المذكرة محفوظة في المخازن لافى أيدي الجنود حيث لا تسمح ادارة الجيش العليا باخراج البنادق من مكائنها الا في أعياد خاصة في كل عام . اما فيما يختص بمرتب الجندي فإنه لا يتجاوز نصف ريال درويشى شهريا مضافا اليه ثمن ($\frac{1}{8}$) أردب من الذرة في كل اسبوعين . وفي الحق لا يظفر الجندي باكثر من تلك الذرة . اما نصف الريال فيكاد يكون مرتبا اسميا

يجيء بعد ذلك ذكر مرتب كل من رأس المئة والامير وكل من المرتبين عال بطبيعة الحال اذا قسناه الى مرتب الجندي . هذا الى ان كلا منهما (رأس المئة والامير) يظفر بمنح متتالية من النساء والعبيد الخاضعين لنفوذ الخليفة

اذا انعمنا النظر في مهمة الجنود والحرس وجدناها محصورة في حماية شخص الخليفة واذن أولئك جميعاً مضطرون لمرافقته في جولاته الحربية على ان يحميه حرسه الخاص أيام استعراض الجيش العام . ومن العجب ان يسير ذلك الحرس في ركاب الخليفة الى أى مكان سار وفي أية بقعة نزل مما يدل على رغبته الشديدة في الاحتفاظ بحياته . ولما كان أمر الحرس كذلك اضطر الخليفة ان يقيم له ميدانا خاصا فسيحا امام منزله ليكون لاصقا به مدى حياته

يذكر القراء اننا أشرنا في السطور السالفة الى كراهية الخليفة المصريين واتساع دائرة الكراهية الى حد انه يمقت سماع انغامهم ومع ذلك كان يستصحب في رحلاته افراداً ليسمعوه الانغام المصرية وغير المصرية الا انه لم يقلع عن فكرة

الكراهية فبدلاً من سير اثنين من المصريين للنفخ في البوق وتوقيع النغم كان يرافقه اثنان من السود . وكان الخليفة يلقب رأس المئة بكلمة « قبطان » ولقب الامير عنده « بكباشى » اما القائد « أميرالاي »

لا ينسى المتكلم عن الخليفة ان يقول ان عبداً لله كان في أكثر الاحايين يفتش ويراقب جنوده ليلاً حتى يثق من بقاء كل رجل من رجاله الحرييين في المكان الذي عينه له وقد كان أكبر هم الخليفة موجهاً الى مركز طليعة الجيش . وازاء هذا التدقيق الشديد وتلك اليد القاسية كان رؤوس المئة والامراء يدعون المرضى في كثير من الليالى فيذهبون سرّاً الى بيوتهم وفي نفوسهم غصص وآلام فيفرجون عنها باظهار استيائهم لذويهم

تشتمل أعمال الخليفة العامة على ترديد الصلوات الخمس يومياً في الجامع الكبير فعند ما يبدو السحر يؤدي الخليفة صلاة الفجر وبعد ذلك يقرأ المحتشدون بعض الآيات القرآنية في حضرة المهدي ويستغرق ترديد القرآن وبعض الصلوات الخاصة مدة تقرب من ساعة

وبعد ذلك يعود الخليفة الى مخدعه الخاص ولكنه في بعض الاحايين يخالف ذلك الترتيب في المسجد ليتحقق بنفسه مبلغ اذعان سكان أم درمان لاوامره الدينية الخاصة بحضور الصلوات الخمس حضوراً منظماً . اما صلاة الظهر فيقوم بها الخليفة حوالى الساعة الثانية مساءً وبعد ساعتين آخرين يؤدي صلاة العصر التي يذكر فيها المصلون بعد تأديتها بعض أقوال دينية ولا تكاد تغرب الشمس حتى يؤدي الخليفة صلاة المغرب ثم ينتهي بعد ثلاث ساعات الى الصلاة الخامسة وهي صلاة العشاء . وفي كل من الصلوات الخمس يصلى الخليفة في محرابه القائم امام صفوف المصلين . وذلك المحراب بناء جميل رباعى الشكل مكون من أعمدة رفيعة مخروطة الشكل يعلو كلا منها طبقة حديدية صلبة ولا ريب في ان الخليفة يستطيع ان يشاهد كل ما يحيط بمحرابه وهو في حالة هادئة ومكان أمين

هذا هو المحراب الذى يجلس وراءه مباشرة ابن الخليفة فاقضاه فاشخاص قلائل يختارهم الخليفة من اخصائه . اما الجنود الذين يحرسونه فيجلسون على جانبي

المهراب ويظل الجنود السود في الجوانب التي تحيط بالمسجد ملازمين سوراً ضخماً يفصل بين المسجد والميدان . وإلى جانب الضباط أما كن مخصصة للامراء ، وأغلب رجال القبائل الغربية وقد عينت لاؤائك الجهة اليمنى . أما الناحية اليسرى فيجلس فيها بعض الاتباع وقليلون من العرب المنتمين إلى الخليفة (على واد هلو) ثم انصار الجعليين والدنقلين . ووراء أولئك جميعاً يجلس المصلون من المسلمين في صفوف تتراوح بين عشرة واثني عشر حتى اذا ما بدأ الخليفة تلاوة صلاته رددوا المصلون وعلى أية حال فان المصلين لا يقلون عن بضعة آلاف . وبما أن الخليفة محدود الدائرة من موقفه بالمصلين فان الامراء الظاهرين وبعض ذوي النفوذ من رجال القبائل مضطرون إلى معاونة الخليفة في تأدية الصلاة . ولئن كان في صدر الخليفة غل أو حقد على شخص من الاشخاص فانه لا يتردد في الاقتصاص منه والزامه بحضور الصلوات الخمس في المسجد بحيث يراقبه هو وغيره (من المغضوب عليهم من الخليفة) بواسطة أشخاص معينين لهذا الغرض

السبب ان الخليفة — في كل هذه التحرجات وذلك التقييد الديني — مدفوع بعامل صيانة الدين ولكنه لا يرمى إلى ذلك فحسب بل ينبغي إلى جانب ذلك الاحتفاظ بسيادته ونفوذه على اتباعه جميعاً . وانه لو اوجب علينا في هذا الصدد ان نقول بان الكثيرين من المصلين يسكنون في جهات بعيدة عن المسجد الكبير فمن الشاق عليهم ان يذهبوا من منازلهم إلى المسجد ويعودوا إليه خمس مرات يومياً وكل ما يستطيعون عمله هو ان يجتمع بعض الناس في منازل أصدقائهم وهذا ما يمتنعه الخليفة مقتناً شديداً لأنه يخشى ما يسمونه « حياة الجماعة » وقد كان الخليفة عبد الله على اعتقاد ثابت في ان هذه الاجتماعات المذكورة البعيدة عن رقبته لا بد ان تنتهي إلى المسامرات والتسكلم في شئون الجماعات ومثل ذلك الكلام يصل إلى بحث أعمال وشئون الخليفة فهذا ينقدها باللوم والتجريح وذلك يرضي عنها خائفاً وآخر يمتدحها فلا عجب ان نرى من الخليفة جهداً شديداً مبذولاً في سبيل تأييد فكرة اجتماع المسلمين تحت رقبته هو وحرسه الخاص

نرى من الاقوال السابقة الخاصة باقامة الفرائض الدينية ان الخليفة عبد الله أول

من يصلي بالناس في المسجد الكبير ولكننا لا ننسى أن كل انسان معرض للمرض الذي يحول دون قيامه بما تعود تأديته يوميا واذن الخليفة عرضة لذلك المرض أو لأي عذر طارىء يمنع من السير خمس مرات يوميا الى المسجد الكبير وبالفعل تغيب عبد الله في بعض الايام عن القيام بعمله الديني الكبير فكان يخلفه في الامامة أحد القضاة او ضابط من قبيلة تكرر على ان يكون ذلك الضابط مشهوراً بين الناس بصلاحه وتقواه . وعلى أي حال لا يسمح مطلقا للامام الذي يقوم بعمل الخليفة ان يقف في المحراب بل يكون في قيادته الدينية قائما في اول صف مجاور لذلك المحراب العظيم . ومع ان القانون الديني يحتم على الخليفة (على وادهلو) ان يمثل الخليفة عبد الله في تأدية الفرائض الدينية اثناء غيابه (عبدالله) فان (على وادهلو) لم يكن يمثله في أغلب الاحايين

كان الخليفة عبد الله في حياته اليومية يتلقى بين صلاة العصر وصلاة المغرب عدة تقارير ويستمع الانباء الخاصة بشئون الامة وبطلع على الخطابات الواردة له ويقابل القضاة والامراء الذين سمح لهم الخليفة قبل يوم المقابلة بالتحدث معه والى جانب اولئك كان يسمح الخليفة في ذلك الميعاد من كل يوم بمقابلة الاشخاص الاختصاص الذين يرغب التحدث اليهم

أما مراسلاته البريدية الخاصة فمحدودة وسائرة في سبيل طبيعية وهو يحتفظ لذلك بما يتراوح بين ستين وثمانين جملا لحمل البريد العام على أن يتولى رقابته أشخاص مخصوصون بصفة عمال بريد . ولا يذهبن تصور القارىء الى أن اولئك محصورو العمل في بلد الخليفة وانما هم موزعون في جميع انحاء امبراطوريته حيث يتلقون أوامره وتعليماته فينفذونها عاجلا

ومما يذكر في هذا الصدد ان ابراهيم عدلان اقترح عليه انشاء محطات خاصة للبريد على طول الخطوط الرئيسية المعروفة .

ولكن الخليفة رفض قبول هذا الاقتراح بشيء من الضجر بعد أن قال لابراهيم بانه غنى قبل كل شيء بالاوامر الشفوية التي يلقبها (الخليفة) على الاختصاص من رجال البريد الذين لم يتأخروا مطلقا في تنفيذ أوامره باخلاص وامانة علاوة على أن الخليفة

كان يتلقى من اولئك المقرين اليه تقارير واقية عن أعمال الحكام التابعين له لم يقتصر أمر البريد الخاص على الخليفة بل تعداه الى الامراء كل في منطقته حيث كان للامير رجال مخصوصون وعدد معين من الجبال لحمل البريد مع تعالجات خاصة لاولئك المتجهين الى أم درمان ، ومهما يكن الامر فلم تكن هناك طريقة للمراسلات البريدية العامة أي للمراسلات بين الاشخاص من عامة الشعب السوداني ولكن على رغم ذلك كان الحملون يحملون رسائل من بلد الى آخر بطريقة سرية .

لم يكن الخليفة في جميع أيام زعامته واثقا بغريب عن دائرته فدعاه ذلك الى التشديد على الرجال المحيطين به حتى انه لم تكن تصدر رسالة من أحدهم الى الخارج الا بعد أن تمر على كاتم سر الخليفة . ومما يذكر عن الخليفة عبد الله انه كان يجمل القراءة والكتابة فحدا به ذلك الى الشك في كثير من الكتابات الواردة من الخارج الى الامراء القريين منه وتبعاً لذلك كان يصدر أوامره المشددة بمرور الرسائل على سكرتيريه الخصوصيين ومن أهم اولئك في نظره اثنان هما قاسم ومدثر الذين كانا مضطرين دائماً اشرح محتويات الخطابات لسيدهما الخليفة على ان الخطابات الواردة لمركز الخلافة ذاته لا يرد عليها السكرتيرون من ذواتهم بل يتلقون أوامر الخليفة في كل مايكتبونه . ولم يكن جهل الخليفة القراءة والكتابة مانعاً له من الوصول لبغيته بواسطة المفتشين الذين يراقبون تلك الردود البريدية

اما هذان السكرتيران فقد عاشا مع الخليفة حياة تعسة مملوءة بالأوامر التي تم عن رغبة عبد الله فيهما وقد كان ذانك الرجلان على ثقة تامة من أن الخليفة لن يغتفر لهما أصغر هفوة والويل كل الويل لاحدهما أو لاثنيهما في حالة اذاعة سر من أسرار الخليفة حتى لو كانت تلك الاذاعة غير مقصودة بسوء نية من جانب السكرتيرين ولم يكن الخليفة يقصر في حالة من تلك الحالات عن معاملة ذينك الرجلين بما عامل به الاحدى وأشقاه الاربعة الذين نفذ فيهم حكم الاعدام بعد أن اتهموا باتصالهم بالاشراف . اذا خلا الخليفة الى نفسه ونزع الى شيء من الراحة أو التحدث للناس فانه لم يكن يرتاح لشيء أكثر من التحدث مع القضاة الذين لم يكونوا — في أغلب الاحيان — غير آلات صماء في يديه بحيث لم يكونوا يترددون في اصدار أقصى

الاحكام الاستبدادية ضد من يمتنهم الخليفة أو يرتاب فيهم . فانك كنت ترى اولئك القضاة يجلسون امام الخليفة في وقت راحته في شكل نصف دائرة على الارض العارية من كل فراش . ولم يكن يتجاسر أحد اولئك على رفع رأسه امام الخليفة فاذا جلسوا أرهفوا آذانهم وصمتوا انتظاراً لأوامر الخليفة المطاعة . وقد كانت الاوامر المذكورة في أغلب الاحيان تلقى بصوت خافت هادي . والمعجيب في الامر أنهم لم يكونوا بحال من الاحوال يستطيعون رفع أصواتهم وبطبيعة الحال لم يتوقع شخص معارضة أو اقتراحاً من جانب أي قاضٍ وسواء أكان الخليفة مصيباً في رأيه أم غير مصيب فإن القاضي ملزم بالاذعان للأمر والتأمين على ماسمع

الى جانب اولئك القضاة كان الخليفة في كثير من الاحيان يجتمع بالأمراء وبعض الاشخاص ذوي النفوذ الموثوق فيهم عنده . وكان الخليفة على وجه عام يقف على شئون الرعية وأحوال البلاد بواسطة اولئك الاشخاص القريبين ومما يذكر عن عبد الله انه كان ماهراً في بث الفتنة بين اولئك المقربين منه حتى لاتتم الصلة بينهم وحتى يصل كل منهم الى اذاعة ما عنده اذاعة دقيقة لمولاه الخليفة

وكانت مناقشات الخليفة ومباحثاته عقب صلاة العشاء كل يوم، وتلك المباحثات الخاصة مع يعقوب وبعض اقربائه الاقربين ، وكانت تستغرق مباحثاتهم في كثير من الأحيان بضع ساعات . وفي أيام خاصة تظل الى ما بعد منتصف الليل . وعلى وجه عام كانت الاجتماعات العائلية البحتة خاصة بالبحث في أنجع الطرق للتخلص من الاشخاص غير المرغوب في وجودهم أمام الخليفة بصفة خاصة وامام ابنه وبعض اقربائه بصفة عامة . وانه لما يجدر بنا ذكره ان اولئك الاشخاص كانوا لا يتطلعون — في ذلك الحقد على المكروهين — الى مصالح عامة بل الى ما قد ينجم عنه ضعف لقواهم أو التقليل من أثرهم البارز في الدولة

كان الخليفة في كثير من الاحيان يقوم برحلات صغيرة داخل المدينة أو في الجهات المجاورة على انه في أيام خاصة من الشهر كان يقوم ببعض زيارات لاختصاصه في أم درمان . وليس هناك ما يدعو الى بذل جهد من الشعب خارج أو داخل المنازل لتعرف ميعاد مرور الخليفة فان الاصوات المرتفعة من الحشم ودق الطبول والنفخ في الابواق

امام ركب الخليفة ، كل ذلك كاف لأن يسمع الناس ذلك الصوت الخاص على بعد مئات من الامتار فيهرع السكان لتقديم التحية لمولاهم الكبير

كان الى جوار بيت الخليفة مكان فسيح للحرس ودار مستقوفة بقش يظل فيها الخيل بعد أن ينظفها الحرس فاذا ما قال الخليفة انه يعتزم الجولان في المدينة أسرع حراسه الى خيولهم وأسرجوها . فاذا ظهر الخليفة في رحبة داره الخارجية خرج الضباط والحرس الخاص من كل النواحي المحيطة وأسرعوا لحماية سيدهم . وكان النظام المتبع في تلك الرحلة أن يتقدم الضباط وحرس الخليفة ثم يتبعهم عبد الله ممتطياً جواده الخاص وحوله من النواحي الاربع دائرة من الحرس الموثوق في اخلاصهم له . وانك لتكاد تظن الناس الخارجين من منازلهم لمشاهدة الخليفة مجموعات متتالية من الكتائب الحربية . أما الجنود فكل فصيلة تسير على انفراد مكونة من اثني عشر متجاورين . وورا- اوائك جميعاً يسير الموكب اللاحق والمؤلف من الامراء والاختصاصاء على ظهور الخيل ثم آخرون من الاقرباء.

نضيف الى ذلك ان رجلاً عربياً مسلماً اسمه « ابو دخيه » كان يجاور الخليفة الى يساره وكل ما كان لهذا الرجل من شرف هو ان يرفع الخليفة الى حواده الخاص ثم يظل ملازماً له أثناء نزوله من الجواد . هذا الى ان الذي كان يشغل الناحية اليمنى من الخليفة أثناء سير موكبه هو كبير الخصيان ورئيس فرقة العبيد في حاشية الخليفة

كان أمام الخليفة مباشرة في كل رحلة من رحلاته ستة من النافخين في الابواق ايذاناً بمرور الركب العظيم . أما السائرون وراء حواد الخليفة مباشرة فهم الضاربون على طبول خفيفة ترمي الى تحسين صوت البوق في أذني الخليفة الذي كان شديد الميل لسماع الانغام . ومن اختصاص الاخيرين (الضاربين على الطبول) اصدار اشارات معروفة في المدينة لسير الركب او وقوفه تبعاً لأوامر ورغبات الخليفة . فاذا ما انتهينا من اولئك جاء صف الحشم الخصوصي الذي كان يحمل أفراده محافظ جلدية فيها أوراق دينية وعالمية (خاصة بشئون الدولة)

بعد أن تنتهي من صف القارعين على الطبول قرعاً خفيفاً نصل الى صفوف

خصيان الخليفة وصغار خدمه وبين اولئك من يحمل آنية كبيرة فيها ماء للوضوء .
ويحمل غيره سجادة فاخرة لصلاة عبد الله ويسير الآخرون حاملين الرماح . وفي
بعض الاحايين يتقدم الموكب أو يخلفه ركب موسيقى مكون من خمسين سودانياً
تكون آلاتهم الموسيقية من مستخرجات قرون الوعول وتغطي الجلود طبولهم
المصنوعة من تجايف جذوع الاشجار الضخمة . وانه لمن الميسور لك أن تميز أنغام
اولئك السودانيين بما فيها من تنافر قبيح وبما اشتهرت به من ابتعاد عن كل
توقيع مطرب

تعود الخليفة القيام برحلاته بعد صلاة الظهر على أن يرجع الى داره قبل الغروب
وفي أثناء كل من الرحلات المذكورة يبذل الضباط أقصى مجهوداتهم لاطهار
شجاعتهم وفروسيتهم أمام مولاهم الخليفة . فمن أمثلة تلك الشجاعة تقدم اربعة من
الضباط متجاورين الى ناحية الخليفة بحيث يرمون رماحهم المديبة في الهواء ويقفزون
من صهوات جيادهم الى البقعة الممتدة امام الخليفة ليحيوه واقفين فاذا ما انتهوا من
ذلك أسرعوا لركوب جيادهم وعادوا الى الصف الذي كانوا فيه دون اخلال
بنظام الموكب

كان الخليفة في السنوات الاولى من حكمه يحضر الى ساحة الاستعراض العسكرية
كل يوم جمعة حيث تجري حفلة عرض الجنود على اختلاف درجاتهم ولكنه اكتفى
في سني حكمه الاخيرة باستعراض الجيش أربع مرات في السنة هي على التعاقب يوم
ذكرى الميلاد النبوي ويوم المعراج وأول أيام عيد الفطر ثم يوم العيد الاضحى .
وكان مما يذكر عن عناية الخليفة عبد الله بحفلة العيد الاضحى انه كان يجمع فرق
جميع البلاد المجاورة مع جنود دارفور والقضارف للقيام بالاستعراض العام وسط
دق الطبول والنفخ في الأبواق . اما الصلاة في ذلك اليوم فكانت تقدم منه ومن
جنوده الى الله الرحمن في ساحة الاستعراض حيث يصلى عبد الله اماما بالجند وهو
واقف في غرفة مديبة الحواجز — كأنما هو في محراب المسجد الكبير — وفي ذلك
الحين يحيط به خارج غرفته كثير من ضباطه الابخياء وبعض اعيان السودان المتمتعين
بثقة الخليفة وحبه . اما بقية الضباط والجند وعامة الجمهور فيوزعون أنفسهم في صفوف

متلاصة فاذا ما تمت الصلاة صعد عبد الله الى منبر خشبي لالقاء خطبة يستظهرها بعد أن يقرأها له من كتبها من السكرتيرين . وفي نهاية الحفلة يطلق بعض الضباط رصاص بنادقهم سبع مرات إيداناً بانتهاء الاحتفال المقدس . وعقب ذلك يتقدم واحد منهم لذبح خراف الضحية لارسالها الى السوق العام بواسطة الجنود وتوزيعها صدقة على الفقراء . ولكننا لا ننسى ذكر ما كانت عليه شئون الدولة من الفقر والاضطراب بحيث لم يكن يتسنى ذبح العدد الكافي من الخراف لتقديمها للفقراء فكان ذلك داعياً الى استعاضة الفقراء عن لحم الخراف بقصاع الثريد

اعتاد الخليفة تخصيص اليوم الاول من أيام العيد الاضحى لذلك الاستعراض المصحوب بتأدية فريضة الشكر المقدسة للعة الالهية ازاء ما أسبغته على السودان من خير طول العام . ولم تكن تجري في ذلك اليوم أية معاملة رسمية . أما المقابلات « التشريفات » فكانت في الايام الثلاثة التالية لليوم الاول حيث يسير الى دار خلافة عبد الله قبل مشرق الشمس في كل يوم من الايام الثلاثة أمراء أم درمان والجهات المجاورة حاملين راياتهم ومن خلفهم أتباعهم المتفائلون خيراً بالعيد فاذا جمع كل أمير أتباعه سار بهم الى الناحية المعدة له في ساحة الاحتفال (وهي عبارة عن أرض رملية تتخللها أحجار صغيرة) ومن تلك الجهة كانوا يسرون الى دار عبد الله الا اذا بدت الرغبة من الخليفة في التوجه الى دار الاستعراض . حتى لا يتعب الامراء وأتباعهم وصفوف الجند . وفي كل حال من تلك الاحوال يعيد الجنود السير الى حيث الخليفة لتقديم التحية للمهنيين بالعيد وهم في سيرهم هذا يولون وجهم شطر المشرق

أما يعقوب ابن الخليفة وصاحب اكبر مكانة في السودان بعد أبيه فكان يحمل العلم الرئيسى وهو عبارة عن قطعة كبيرة منتظمة الشكل من القماش الاسود توضع مباشرة أمام الحاجز المدبب القوائم الذى اعتاد الخليفة الجلوس فيه في ساحة الاستعراض . على ان الخط المستقيم الواصل بين العلم والحاجز يبلغ امتداده اربعمئة قدم . وبعد أن يتركز لواء يعقوب بضع الامراء المختلفون على جانبيه راياتهم المميزة لقبائلهم وقد يكون اكبر يبرق ظاهر بعد لواء يعقوب يبرق الخليفة على

وادهلو الذي يرتكز في البقعة الشمالية من الميدان ممتازا بلونه الاخضر وبقيام بعض ألوية على جانبيه . هذا الى أن الناحيتين اليسرى واليمنى من مركز الجيش معدتان لطوائف خاصة ففي الاولى يتوزع راكبو الخيول والجمال وفي الثانية يقف ضاربو النار الذين يتكونون من بعض المجاهدين وأتباع بعض الامراء . على أن الخليفة لا يسمح مطلقا لضاربى النار أولئك بحمل بنادقهم الا في هذه الايام الثلاثة من السنة لا تكاد الشمس تغرب في كل يوم من الايام المذكورة المقدسة عند المسلمين حتى يخرج الخليفة عبدالله من تلك الغرفة المدية القوائم فيركب جواده يحيط به ضباطه وحرسه الخاص . وفي هذه الاثناء يسير الجيش بصفوفه الكاملة أمام الخليفة حيث يوزع الجيب والعمائم على المرضى عنهم من رجاله

كان المتبع أن يمتطي الخليفة صهوة جواده في ذلك الميدان ولكنه في بعض الاوقات كان ينزع الى ركوب جمل خاص مزخرفة حمائله . وقد تخطى هذا التقليد مرة واحدة — على ما أذكر — في سنى حكمه فركب عربة أسرها السودانيون في الخرطوم من حاكم عام سابق وبقيت بعد ذلك ملكا المسلمين ومحفوظة في بيت المال . وبما ان ركوب هذه العربة كان أمراً شاذاً غريباً فلنذكر طريقة مرور الخليفة بالناس وهو فيها فنقول : أنها خرجت من بيت المال فكانت أعجوبة لناظرها من الدراويش وكان يجرها جوادان وتسير بخطى متثددة جدا . والداعى لذلك خوف الخليفة من انقلاب العربة في حالة عدو الموادين وائس ذلك غريباً على من لم يعتد غير ركوب الخيل والجمال . ومهما يكن الامر فان الخليفة لم يرنح الى فكرة ركوب العربة فارجمت الى بيت المال واستمر على عادته المألوفة في المواكب والرحلات وهي الخروج على ظهر الجواد مباشرة من المسجد الكبير الى الطريق القرية حيث راية يعقوب السوداء . فاذا ما وصل اليها تأمل فيها وأظهر احترامه لمقامها . وبعد الانتهاء من تقديم التحية للراية اليعقوبية بولى عبدالله وجهه شطر الحاجز المدبب القوائم حيث يجد الى جانبه مكانا مسقفا مصنوعا من سيقان الاشجار المتراسة بعضها الى بعض والمغطاة بمحصرات النخيل فاذا ما انتهى الى ذلك المكان نزل عن جواده واستند الى عنجريب حيث يحيط به القضاة والمقربون اليه

اقتضت التقاليد الدينية في السودان أيام الأعياد الكبرى خروج الخليفة من داره الى الناحية الغربية من المدينة حتى يصل الى ثكنات جنوده ومن الامور المقررة في مقابلات العيد وقوف الجنود حاملين دروعا مغطاة من الطرزين الاوربي والاسيوى وعلى رؤوسهم خوذة ثقيلة وأغطية قطنية غريبة الشكل من مختلف الالوان وأعظم ما يميز هذه الأغطية لفائف مخصوصة شبيهة بالعمائم

أما الخيول فمسرحة بأقمشة مبطنة وقد يكون هناك شبه بين تلك الاغطية المبطنة وبين ما كان يضعه الفرسان على خيولهم وقت المبارزة في العصور القديمة . ولانكون مغالين اذا قلنا ان المتفرج يوم استعراض الجند على خيولهم يظن انه في حفلة من حفلات القرون الوسطى أو ما قبلها

عندما تنتهى « التشريفات » بنهاية اليوم الثالث من أيام العيد يعود الجنود مع ضباطهم الى ثكناتهم في البلاد المجاورة



سأعرض على القراء الآن صورة موجزة للرأي والاغراض السياسية التى كان ينزع اليها الخليفة عبدالله . فأكرر ما قلته أكثر من مرة بان المهدي عندما أعلن نفسه هاديا للمسلمين فى السودان منح حق الخلافة بعده الى ثلاثة أشخاص فى السودان هم عبدالله وعلى واد هلو ومحمد شريف على أن يخلفه بعد موته أولهم ثم يعقب الاثنان الآخران عبدالله بعد موته فى سالة بقائهما على قيد الحياة بعده

نفذ القضاء فى المهدي فتولى الخلافة بعد موته أول الثلاثة عبدالله ولكن الخليفة الجديد (عبدالله) لم يفتأ — من اللحظة التى تولى فيها الحكم — يدس للآخرين الآخرين باذلا جهده فى تقوية نفوذه واعلاء كلمته وجعل الخلافة وراثية فى أسرته فلم يرض ذلك الثوريين من طبقة الاشراف الذين عدوا أنفسهم اكبر السودانين قدراً وذلك راجع الى صلهم بالمهدي . ومع ذلك قدموا التحية لعبدالله خوفا من السقوط الذى يصيبهم من جراء اشهار العداء للخليفة . الا أن عبدالله كان واقفاً على حقيقة نيات منافسيه فضم الى حاشيته الكثير من فصائل السودانين التابعين قبلا لعلى واد هلو ومحمد شريف حتى يعينوه باخلاص له على مصادمة منافسيه فى الخلافة.

ليس بدعا أن يشاهد السياسى كل ذلك الجزع من جانب عبدالله فانه غريب عن أم درمان ولم يكن فى حياته سوى رجل غامض الأسرار من قبيلة غربية واذن هو غريب جدا عن البلاد الداخلية وكان - بذكائه وبما يصل اليه من تقارير أتباعه - على ثقة أنه لن يستطيع الاستناد الى تأييد الجعليين والدنقليين وسكان الجزيرة وغيرهم من قبائل وادى النيل واذن اضطر لارسال مندوبين سرين الى القبائل الغربية فى الناحية الغربية ليغريهم بالحج الى قبر المهدي والمهاجرة الى وادى النيل سعي مندوبو عبدالله ورسله فى الجهات المجاورة لأم درمان سعيا حثيثا فى سبيل الوصول الى اغراء الناس بالمهاجرة الى قبر المهدي والبقاء فى الارض التى تقل جثامه فدعوا الناس الى التمتع بخيرات الارض الجديدة التى ينزحون اليها ذاكرين لهم بأنهم عبيد الله المختارون وأنه من مصلحة اولئك المدعويين أن يذهبوا لامتلاك الارض الجديدة التى يتمتع سكانها الاصليون بثروة كبرى من مال وماشية وعبيد . وقد ذهب المندوبون فى اغرائهم سكان الجهات المجاورة الى حدان وعدوم بامتلاك كل ما فى الارض الجديدة

أثر اولئك المندوبون بدعوتهم الحماسية تأثيراً منتجاً فى نفوس السذج فرحل الكثيرون من أفراد القبائل المختلفة الى أم درمان وكانوا فى ذلك مدفوعين برغبة خالصة فى التمتع بالغنى الذى سمعوا عنه . الا أن عدد القادمين لم يكن كافياً لتعمير وانحاء أم درمان فعمد الخليفة عبدالله الى اصدار الاوامر لاميرى دارفور وكردوفان حتى ينفذا أوامره بالقوة وتبعاً لذلك تدفق سيل المهاجرين سواء كانوا طائعين أم مرغمين وانتهى الامر الى نقص عددهم بعد أن سمعوا الشئ الكثير عن الشدة التى يقاسيها من سبقوهم الى أم درمان

كانت النتيجة المنطقية لذلك احاطة الخليفة بالجمع الغفير من قبائل الرحل الغربيين عنه وعن أتباعه على أن اولئك المهاجرين الجدد لم يألوا جهداً فى اقصاد أصحاب الحق الاصليين واعداد أنفسهم لان يكونوا الاسياد المسموعة أوامرهم لم يمر زمن على اولئك المهاجرين لام درمان حتى امتلأت بهم وظائف الحكومة الرئيسية وكان أصحاب القسم الاكبر من هذه الغنيمة رجال التعاشي . وانك لتكاد

ترى جميع الامراء السابقين في جهة مجهولة بحيث لم تسمع لاحد منهم كلمة بعد ذلك وقد تستثني من ذلك الحكم الامير عثمان دجنه. ويرجع ذلك الى أن قبائل العرب الشرقية التي يحكمها عمان يتكلم أفرادها بلهجة لا يعرفها عرب القبائل الغربية . وعلاوة على ذلك أصبح الكثيرون من أفراد تلك القبائل خاضعين للنفوذين المصريين والاطاللى وليس من سبب الى اتصال القبائل الباقين بعمان دجنه سوى كونه واحداً منهم . وعلى أية حال فان قبيلة التعايشى تمكنت من الحصول على السلطان والنفوذ الكاملين فى جميع الجهات التى يضرب رجالهم بارحلتهم فى أرضها . ولم يكن لهم غرض سوى ملء جيوبهم بالايراد الضئيل التى يحصل عليه السودان الفقير

مما يذكر عن أوامر الخليفة عبد الله قبل عام ١٨٩٥ أنه اعطى تعليماته لاميرو دنقله وبربر باضعاف نفوذ وقوة رجال مديريتهما الى أقصى حدود الضعف فدعا ذلك الى تجريد السكان من أسلحتهم النارية وجمع ما لديهم من معدات القتال بحيث ينقص مقدار الموجود من تلك الاسلحة الى حد لا يخشى معه أي خطر .

لم يكتف الخليفة بذلك بل أصدر أمراً جديداً بالتشديد فى معاملة رجال توشكو وطوكر فأغرى المأمورين فى تشديدهم بحيث قتلوا كثيرين من الجعليين والدناقلة ورحلوا آخرين الى دارفور والقلابات رغبة فى استئصالهم نهائياً فى تينك الناحيتين . واذن استطاع الخليفة اتقاء شر سكان تلك النواحي وضمن التغلب على أية قوة معارضة هناك .

تنطبق مثل هذه المعاملة على سكان الجزيرة الذين أقصوا بأمر الخليفة الى جهات نائية من السودان أو الذين اضطروا الى الحضور لأمر درمان هم وأفراد أسرهم حيث قاسوا الأمرين من الاضطهاد والفاقة . ومما زاد فى اثنال كواهلهم صدور الأمر بتسليم مايزيد عن نصف محصول أراضيهم الزراعية التى كانت موزعة على عرب القبائل الغربية ومازال الخليفة مستمراً فى التضيق على أولئك حتى توصل عام ١٨٩٠ الى تفريق الاراضى على أقربائه وأصحاب الخطوة عنده . وقد بلغ الضيق باصحاب الارض الاصلين حداً التزموا عنده حراثة الارض وتقليحها لاسيادهم الجدد الذين وزعوا على أراضيهم كل مايلكون من خدم وعبيد وماشية

نجم عن ذلك التعسف اهمال أرض الجزيرة القابلة للانتاج الوافر فبعد ان كانت أوفر أرض السودان غلة وأكثرها سكانا تضاد هذان الخيران وكان ذلك التضاد مصحوبا بهرج ومرج سادا جميع المناطق التي كان الخليفة مضطرا فيها الى الانحياز لتاحية الاهالى الذين عوملوا معاملة سيئة ونزل بهم العسف وحق بهم الطغيان الى حد لا يكاد يصدقه العقل

أكرر الآن ماقلته سابقا عن تفضيل أفراد القبائل المنتمية الى الخليفة عبد الله عن جميع القبائل الأخرى في جميع الاحوال والظروف فانهم لا يتمتعون بأسمى الوظائف الحكومية والمراتب الشعبية فحسب بل يتمتعون بما هو أسمى من ذلك ماديا فان القسم الأكبر من الاموال والغنائم التي ترد الى بيت المال من مديريات دارفور والقلابات والرجاف يصل الى أيدي أولئك الافراد ولا يجد من يحاسبهم عليه . ومن غريب أمر أولئك الطامعين انهم — رغبة في ملء جيوبهم بأكبر قيمة من المال — دعوا الخليفة الى فرض ضريبة خاصة على الخيول غير مبال بالشكوى العامة من جانب السكان الاصليين فلا ريب اذن في حصول فرقة على نصيب الأسد من الغنيمة

اشتهر الخليفة عبد الله أيام حكمه بتوسيع نفوذه بواسطة الدساتس وبث الفتن فلا يكاد يتصل به زعماء قبائل غربية عنه حتى ينشر الفتنة بينهم ليقوي جانبه ويضعفهم ومن أمثلة ذلك أنه عند هزيمة وموت النجومي (الذي كان تابعا للخليفة الشريف الذي سحب منه عبد الله كل نفوذ على غيره من الامراء) وضع عبد الله فلول الجيش المهزوم تحت قيادة الامير يونس وبدلا من رجال الجيش المقتولين عين عبد الله افرادا من الجعليين ورجال أم درمان حتى يكون واثقا من حصوله على نفوذ جديد .

قد وضع الخليفة أولئك في بادىء الامر تحت إمرة مواطنهم بدوى وادالعريق ولكن بدلا من ارسالهم الى دنقلة بعث بهم عبد الله الى القضارف ومما يذكّر عن سوء نية الخليفة عبد الله نحوهم ان عنرا قهريا منهم عن الرحيل الى القضارف في الميعاد المعين فأسرع (عبد الله) الى انهامهم بالعصيان ثم اصدر أمره بنفي بدوى وستة من أمرائه الى الرجاف واحلال ستة آخرين بدلا منه تحت إمرة حامد وادعلى ابن عم الخليفة خلق الانسان وفي طبيعته البشرية نزوع الى طلب الوقاية من القوى

ورغبته في التمتع بسند الاقوى فليس بدعا أن نرى حركة جديدة في صفوف أتباع الامراء لان اكثرهم فضلو السير تحت لواء الخليفة مباشرة أو تحت أسرة اخيه يعقوب حتي ان أشياع علي وادهلو أنفسهم اسرعوا الى تنفيذ هذه الرغبة ويحمل بي في هذا الصدد أن اذ كر شيئا عن سعي حامد واد جار النبي الذي كان عاملا رئيسا في هدم التباهين. كان حامد هذا منتشيا لقبيلة حسابات التي برأسها علي وادهلو وبما أن حامدا هذا كان علي بينة مما يجري وراغبا في تنفيذ فكرة الاستناد الى ذراع الاقوي لم يأل جهدا في بث فكرة انضواء اتباعه تحت لواء يعقوب ولكنه (حامد) كان في الوقت نفسه قصير النظر غير مبال بما يجري ازاء تصريحاته فافضي برغبته الى اقرباء علي وادهلو ولم يكتف بذلك بل تجاوزها الى التصريح في اجتماع عام بان الذي سيخلف الخليفة عبد الله بعد موته هو أخوه يعقوب أو ابنه الخليفة عثمان. فاذا ما استقر الامر بين يدي يعقوب أو انتهت السطوة الى عثمان تلاشى نفوذ علي وادهلو وأصبح رجلا عاديا لا شأن له

عند ما سمع الواقفون هذه التصريحات العلنية أجابه بعضهم بأن المهدي أوصى الخليفة عبد الله قبل موته (المهدي) بأن يخلفه في الخلافة علي وادهلو فقال له حامد بأن الاحوال تغيرت وان عبد الله من القوة بحيث لا يبالى بوصية المهدي الذي سبقه لم يكده حامد يذكر أقواله هذه حتي أسرع بعض المشائين بالتميمة الى تبليغ الحادث الى علي وادهلو فاتهم الاخير حامداً بتهمة التحريض وبث الفتنة وعند ما قدم حامد الى القاضي وسمع الاخير شهادة الشهود لم يبق مجال للشك في صحة ما أدلى به مخبرو علي فانتهى الحادث الى تأييم حامد بتهمة الزندقة لانه شك في قدسية أوامر المهدي وتعاليمه ومع انه كان من المتوقع جداً ان يتدخل الخليفة عبد الله لنصرة حامد وتبرئة ساحته لم يستطع الخليفة اظهار تدخله علنا فان ذلك التدخل دليل قاطع على جلاء رغبة عبد الله في حرمان علي وادهلو من الخلافة بعده واثبات جديد لصحة ما قاله حامد ومع ذلك لم تكن الحقيقة خافية عن الشعب السوداني عموما وسكان أم درمان خصوصا .

قضى الامر وصدر حكم القضاة باعدام حامد ورغم كون عبد الله بذل أقصى

ما في وسعه لخل علي واد هلو علي ارجاء ميعاد التنفيذ فان ذلك لم يخفف من غلواء علي وشدة حنقه وقد عرف واد هلو ان تنفيذ الحكم في حامد انتقام مباشر من الخليفة، عبدالله . واذن ظفر علي واد هلو بتحقيق رغبته فنفذ حكم الاعداد في حامد جار النبي علناً في ميدان السوق الكبير بعد ان ألصقت به تهمة الزنادقة والتحريض على الثورة لاريب في ان ذلك التنفيذ مؤلم جداً للخليفة ولأخيه يعقوب وبما أن خروج الخليفة علناً على الحكم دلائل على رفضه الاحكام التي ضد الزنادقة كان من المنتظر ان يحرض الخليفة اتباعه سرأ على اظهار سخطهم من ذلك الحكم القاسى وهذا وقع فعلاً فقد وصلت الاوامر من يعقوب الى رجال جميع القبائل الخاضعة له وصدرت الاوامر من الخليفة الى اتباعه المقربين بان يظهروا جميعهم سخطهم العام وامتعاضهم من تنفيذ الحكم وسبيل اظهار ذلك الشعور هو الامتناع عن حضور التنفيذ

كان الخليفة في أي نزاع قائم بينه وبين خصومه يعتمد أولاً وأخيراً على جنوده فان أولئك كانوا جداً لا رغام أية قوة معارضة له في الداخل مهما كان شأنها سواءاً أكانت هذه القوة في أم دمارن ذاتها أم في أية ناحية أخرى من الجهات المجاورة . واذن هو السيد المتسلط صاحب القوة التي لا تنازع في داخل السودان . اما اذا خرج الامر عن الدائرة الداخلية فهو عاجز عن صد جميع الغارات التي تبدو طلائعها من الخارج فان قواد جيشه ليسوا من القوة والدربة بحيث يستطيعون مهاجمة قوة خارجية هجوما يكفل لهم النصر على اعدائهم كما ان رجال جيشه ليسوا من الولا، والوفاء . في آخر سني حكمه - بما كان يعتقده الخليفة في أول ايامه ويرجع ذلك الى انطفاء جذوة الحماسة الشديدة الاولى وهم الى جانب ذلك على قليل من الثقة او الايمان بالقضية التي يحاربون من أجلها وخطر من هذا وذلك تسرب الشك الى رؤوس المحاربين في قدرة الخليفة واتباعه على مناوأة أية قوة خارجية ترمى الى احتلال السودان

يرغب القراء بطبيعة الحال بعد ان اطلعوا على الكثير من تصرفات الخليفة الدينية والسياسية ان يقفوا على ما لديه من القوى الحربية ولئن كان من العسير

ذكر تقدير دقيق عن رجال الحرب السودانين ومعداتهم فلا مانع من نشر بيان
تقريبى عن الموجود لدى أولئك المحاربين

قبل واثنا عام ١٨٩٥ تنقسم النواحي السودانية التى يشرف عليها الخليفة الى
أربعة أقسام رئيسية هي على التتابع أم درمان والرجاف والسودان الغربى والسودان
الشرقى وسنذكر فيما يلي عدد المحاربين ومقدار معداتهم فى كل من الاقسام المذكورة

القسم الاول : يتولى إمرة الجيش فيها (أم درمان) أميران هما عثمان شيخ الدين
ويعقوب اما أولهما فيتكون جيشه من احدى عشر الف جندي من المشاة فى أيديهم
احدى عشر الف بندقية واكل بندقية ماسورة ملساء ويتألف جيش الثانى (يعقوب)
من أربعة آلاف من المشاة وثلاثة آلاف وخمسمائة فارس وخمسة وأربعين الف من
حاملي الحراب والرماح هذا الى ان مخزن هذا الامير يحتوى على ٤٦ مدفعاً
وأربعة آلاف بندقية . كما توجد فى مخازن جيش أم درمان ست آلاف بندقية

القسم الثانى : أمير جيش الرجاف هو عرابى واد دفلة الذى يأمر بأمره
أربعة آلاف وخمسمائة من حملة الحراب والف وثمانمائة من المشاة وتوجد فى مخزن
ثلاثة مدافع والف وثمانمائة بندقية ملساء الماسورة

القسم الثالث : ينقسم (السودان الغربى) الى الفاشر والايبض وشاكا وبربر
وأبى حمد وللجهات الثلاث الاولى أمير واحد اسمه محمد (يعينه اثنان من اتباعه)
تحت امرته ستة آلاف من المشاة مثلاً وثمانمائة وخمسون فارساً والفان وخمسمائة من
حملة المزارق والرماح وفى مخزنه أربعة مدافع وست آلاف بندقية اما الناحية الرابعة
(بربر) فتحت إمرة زكى عثمان الذى يقود الفا وستمائة من المشاة وخمسمائة فارس
والفا وثمانمائة من حملة الرماح وفى مخزنه ستة مدافع والف وستمائة بندقية وبذلك
تنتهى الى الناحية الخامسة (ابو حمد) التى يقود جنودها الامير نور عنو وتحت ارشاد
هذا الرئيس اربعمائة من المشاة ومائة فارس وسبعائة من حاملي الرماح . وفى مخزنه
أربعة مدافع وأربعمائة بندقية

القسم الرابع : ينقسم (السودان الشرقى) الى احناراما والقضارف والفاشر
واسوبرى والقلابات ودقله وسواردا وسنذكر محتوياتها تباعاً تحت حروف أولية

(ا) ينضوي جنود أضايا تحت لواء الامير عثمان دجنه الذي يقود أربعمائة وخمسين من المشاة وثلاثمائة وخمسين من الفرسان وألفاً من حملة الرماح وفي مخزنه أربعمائة وخمسون بندقية من طراز الماسورة الواحدة الملصا.

(ب) أمير جيش القضايف هو احمد فصيل الذي يصدر أوامره الى أربعة آلاف وخمسمائة من المشاة وستمائة فارس وألف من حاملي المزاريق والحرايب وفي مخازنه أربعة مدافع وأربعة آلاف وخمسمائة بندقية

(ج) ينولى إمرة الفاشر — الى جانب إمارة القضايف — احمد فضيل السابق ذكره ويتكون جيش هذا الامير من ألف جندي من المشاة ومائتي فارس وخمسمائة من حاملي الحرايب وفي مخزنه ألف بندقية

(د) القائم بإدارة شئون أسوبرى العسكرية هو الامير حامد واد علي وتحت ارشاده تسعمائة من المشاة

(هـ) الامير في جيش القلابات هو عين نور (وهو أقل أمراء جنود السودان شأنًا) الذي يأمر بأمره خمسون من المشاة ومائتان من حملة الرماح والحرايب . هذا الى ان البنادق التي في مخزنه خمسون بندقية لا غير

(و) يقود جيش دنقله الامير يونس الدغيم ولهذا الامير ألفان وأربعمائة من المشاة وخمسمائة فارس وخمسة آلاف من حاملي الرماح وفي مخزنه ثمانية مدافع وألفان وأربعمائة بندقية

(ز) آخر الامراء السبعة للقسم الرابع هو سوراذا وأمير الجيش هناك زعيم سوداني اسمه حموده تحت قيادته مائتان وخمسون من المشاة ومائة فارس وألف من حملة الرماح وفي مخزن الامير مائتان وخمسون بندقية. وباحصاء ما تقدم احصاءاً عاماً نجد الاقسام الاربعة متفرعة الى خمسة عشر معسكراً حريباً فيها اثني عشر أميراً ومجموع الجنود المشاة في دوائر نفود الخليفة المذكورة آنفاً أربعة وثلاثون ألفاً وثلثمائة وخمسون ومجموع الفرسان ستة آلاف وستمائة وعدد حاملي الرماح أربعة وستون ألفاً والموجود من المدافع في المخازن خمسة وسبعون وعدد البنادق ألفاً وثلثمائة وستون

هذا هو مجموع ما في البيان ولكن في الحقيقة لا نجد من البنادق المذكورة أكثر من اثنين وعشرين ألف بندقية صالحة للحرب (والبنادق المذكورة من طراز رمنجتن) أما الباقي فعبارة عن بنادق من ذات الماسورة أو الماسورتين وغير ذلك من النماذج القديمة غير المنتجة . ومهما يكن أمر الأسلحة النارية المذكورة فقد أصدر الامراء أوامرهم بقطع اجزاء مختلفة الطول من أنابيب (مواسير) رمنجتن والغرض الرئيسى من ذلك تخفيف ثقل البندقية ولم يبال الجنود بما قد يلحق بالبنادق من الضرر في حالة ذلك القطع غير المنتظم .

ذكرنا في البيان السابق أن مجموع حاملى الحراب والرماح أربعة وستون ألفاً وأنه لمن الواجب علينا بعد ذلك أن نقول إن ربع أولئك — على أقل تقدير — طاعنون فى السن أو صغيرو الاسنان أى انهم فى كلتا الحالتين غير صالحين لتزول المعركة نزولاً يصمن لهم الفوز

أما المدافع الخمسة والسبعون فتشتمل على ستة من طراز كروب ذات الفوهة الواسعة القطر (ولكن لا توجد جبخانة كافية للمدافع الستة السالفة الذكر) ثم ثمانية مدافع من أنواع ونماذج مختلفة ويتبقى بعد ذلك واحد وستون مدفعا نحاسية مختلفة الاشكال والاحجام على أنها تعبأ جميعاً بواسطة الفوهة ومن المعروف عن ذخيرة المدافع الأخيرة أنها تصنع فى أم درمان بصفة خاصة وهذه (الذخيرة) من صنف رخيص غير فعال بحيث لا يبعد مدى طلقة المدفع عن ستمائة أو سبعمائة ياردة

لتأمل الآن قليلا فى حدود نفوذ الخليفة وبعد ذلك نرى أن سلطان الدراويش امتد فى السنوات القليلة الماضية (قبل عام ١٨٩٥) من وادى حلفا الى الجنوب الشرقى حيث ابو حمد ثم سار شرقا الى سواكن وماجاورها (بما فى ذلك طوكر وضور بركة) واتجه بعد ذلك جنوبا (بما فى ذلك كسلا والقلابات والانحدارات الجنوبية الشرقية لبني شانفول وجبال جوبي) ثم مال من تلك الناحية الى الجنوب الغربى مقابل النيل الابيض (بما فى ذلك فاشودة وبوهر والرجاف)

امتد ذلك النفوذ الدراويشى من الغرب فى اتجاه جنوبي عربى داخل الصحراء الليبية الجنوبية (بما فى ذلك سليمة ومديريات دنقله وكردوفان ودارفور الى حدود

واداى ثم سار جنوبا مخترقا بحر العرب ومارا بدار رنجا (بما في ذلك دار فريت
وبحر الغزال وقسم من منطقة خط الاستواء)

بعد أن انهزم النجومي اضطر اتباع المهدي الى الجلاء عن القسم الشمالي من
مديرية دنقلة وأصبح مركز طليعة جيشهم الآن (عام ١٨٩٧) في ناحية سواردا التي
تبعد ثلاثة أيام — سيرا على الاقدام — عن دنقلة وانه ليكمل بنا أن نذكر خبر
التجريدة التي تمكنت عام ١٨٩٦ من اخراج الدراويش من مديرية دنقلة وتأسيس
حكومة ذات نفوذ مصرى ممتد جنوبا لغاية مروي

انتصر المصريون في طوكر وهندوب فساعد ذلك القبائل الداخلية على استرجاع
ما كان لها من مناطق في الجهات المجاورة مباشرة لسواكن وطوكر كما انتهى الاستيلاء
على كسلا الى امتلاك الايطاليين جميع الاقسام الواقعة شرقي كسلا . وازاء هذا
وذاك أصبح نهر عطبرة حد الخليفة الشرقي في أواخر القرن التاسع عشر

حدث تغير ظاهر في مراكز الجنود فانتقلت القوة الرئيسية التي كانت معسكرة
في القلابات تحت امرة احمد فضيل الى جهة القصارف ولم تبق في ثكنة القلابات
سوى قوة ضئيلة . وقد انهز رؤساء مناطق بني شانقول وطور الغورى ثم كثيرون
من مشايخ الجهات القريبة هذه الفرصة فاعلنوا استقلال مناطقهم وسرت العدوى الى
الناحية الغربية القاصية فبعد أن اعتاد رجال قبائل مسالت وناما وبني حسين وجهر
دفع الضرائب ثاروا على حكومة المهدي وأخيراً أعلنوا استقلالهم واشتركوا عقب
ذلك في محالفة دفاعية هجومية مع يوسف سلطان واداي فاعزم الخليفة عبدالله ارسال
مندوبين لاحضار أولئك العصاة واجبارهم على تقديم الطاعة والولاء له ولكنه عدل
عن ذلك بعد ما ظهر النفوذ الاوربي الجديد في بحر الغزال ووقف خاتم موسى أحد
قواد عبدالله في دائرة نفوذه دون تمكن من التقدم

اكتفى عبدالله باصدار تعليماته الى خاتم — بعد أفول نجم الدراويش — بعدم
التقدم الى الجنوب قبل وصول مدد جديد له من أم درمان

الفصل السادس عشر

ملاحظات متنوعة

أشرت في الفصل السابق إشارة عامة الى موقف الخليفة عبدالله من القضاء والقضاة والآن أفصل قليلا ما أجملته فاقول ان القضاء هناك آلات صماء في يدي سيدهم الماكر النبيه فلم يكن الخليفة يسمح لهم بالفصل في القضايا الكبرى وكل ما يمكنهم من بحثه هو ما يختص بالمنازعات العائلية وقضايا الارث وتوزيع الاملاك وما شابه ذلك وعلى أية حال فهم في جميع أحكامهم الكبرى في القضايا الهامة كانوا ملزمين بالرجوع الى الخليفة قبل اصدار الحكم النهائي ولا حاجة بنا الى القول بان الخليفة كان في كل ما يدلى به من آراء الى أولئك القضاة لا ينظر الى شيء خلاف مصالحه الشخصية وأهوائه وأغراضه ولكنه في الوقت نفسه كان يجتهد — بما أوتي به من حذق ودهاء — من الظهور أمام الشعب بمظهر المدافع عن الحق والراغب في اتباع نصوص القانون واذن فالقضاة أمام مهمة شاقة جداً فهم من ناحية مضطرون الى ارضاء أهواء الخليفة وتنفيذ أوامره التي لا تتفق — في غالب الاحيان — مع العدالة في شيء ومن الناحية الاخرى مضطرون الى صوغ أحكامهم في قوالب قانونية تبعث الشعب على الاعتقاد في تمسك الخليفة بالحق ومهما يكن الامر فان تسمين في المائة من أحكام أولئك القضاة لم تنطبق حتي على أبسط مبادئ العدالة . أما الدين في السودان حسبما أرشدني الاختبار الى استنتاجه — فيتمشي مع المبدأ القائل « الغاية تبرر الوسيلة » ومما أذكره في مدة اقامتي أن الدوائر الدينية كانت بين آن وآخر تصدر اعلانات ورسائل صغيرة تحض فيها المسلمين على التقيد بأوامر الدين وتأدية الواجبات الدينية — وفي مقدمتها الصلاة — على الوجه الاتم ثم الابتعاد عن جميع الملذات العالمية والتوجه الى عالم الخير الأعلى ولم تكن الاوامر الدينية المذكورة قاصرة على السودان بل تعدته الى جميع نواحي أفريقيا وبلاد العرب وبورنو ودار فلاة ومكة والمدينة

اعتبر الخليفة شخصه قدوة للمسلمين عموماً في السودان فكان — مادام في صحته الكاملة — يشهد الصلوات الخمس يومياً ليظهر أمام الناس متمسكاً بأهداب الدين مع أنه في الواقع كان أبعد المسلمين عن التمسك بأوامر الدين ففي جميع السنوات التي كنت فيها على اتصال وثيق جداً بالخليفة لم أشاهده على الإطلاق يصلّى الى ربه في داره الخاصة ولم أسمعه يكرر — ولو بصوت خافت — بعض التعاليم الدينية التي يعرفها المسلمون جميعاً سواء أكانوا ممن يقرأون ويكتبون أم من الجاهلين

لم يكن ادعاء عبد الله التقوى من الاحكام بحيث يصدقه البعيدون عنه لانه رغم ظهوره بالتقى كان لا يتردد في اصدار أمره بالغاء حفلة دينية وعدم تأدية فرض مذكور اذا كان في تأدية الفرض ما يحول دون تحقيق غرض أو طمع من أطماعه الشخصية وهنا نعود فنقول ان الخليفة كان يتذرع في مثل هذه التعديات بالقضاة حتى يجيء الالغاء من الجانب القانوني وفي ذلك الموقف الحرج لا يتردد القضاة في اعلان أن ذلك الالغاء لازم في سبيل الاحتفاظ بالدين في حالة خاصة فاذا ما صدرت تلك الفتوى ارتاح الخليفة واطمان الا أن القضاة في بعض الاحايين يقفون من أطماع الخليفة أمام حالات لا يستطيعون معها بحال من الاحوال أن يصدرُوا أمر الالغاء واذن يضطرون الى التمويه فيدعون بان الالهام الديني أمرهم بالقيام بهذا العمل الشاذ لحكمة قد تغيب عن اذهان البشر

اعتاد الخليفة عبد الله مخاطبة أتباعه من منصة المنبر في المسجد الكبير ولكن بما أن عبد الله يجهل الفقه الديني الاسلامي ويعرف الشيء القليل من قواعد الدين وأصوله فان مدى خطبه الدينية محدودة وبمعنى آخر لا يتعدى تلاوة جمل كتبها له أحد سكرتيريه .

ألغى عبد الله عادة الحج الى مكة واستعوض عنها بدعوة المسلمين الى الحج لقبر المهدي ممثل النبي الكبير وانا على الرغم من مشاهدة كراهية السودانين لهذه البدعة الجديدة نراهم مضطرين الى الرضوخ لأمر عبد الله وما زال أولئك السودانيون على نظامهم الجديد حتى أصبحوا الآن (عام ١٨٩٧) ساعين من غير قصد الى تحقيق رغبة عبد الله راغبين في الحج دائماً الى قبر المهدي وقد ذهب بهم حبهم في التقليد

الجديد الى حد أنهم يسخرون ممن لا يوافقهم في طريقة الحج هذه . وانه لمن النزاهة والعدل أن تقول بان السودانيين في تشبههم هذا لا يعبرون عن عقيدة ثابتة بل يرمون الي تحقيق رغبة مولا هم عبد الله

أما فيما يختص بالتعليم والاورام الدينية فمن الحق أن تقول إنهما في حيز العدم من الوجهة العملية الواقعية وكل ما في الامر أن بعض الاولاد والبنات يتلقون معاً آيات قرآنية وبعض جمل من الحديث المقدس لدى المسلمين ويكون ذلك الاقاء بواسطة شيوخ دينيين في معاهد صغيرة مجاورة للمسجد ولئن قلنا ان الشيوخ يلقون الآيات على أولئك الصغار فانا لا ننسى بان نذكر الى جانب ذلك ان الذي يحفظ من الآيات قسم صغير والمتبع في زمن الخليفة عبد الله ان يرسل عدد قليل من أولئك الاولاد الى بيت المال بعد انما دراستهم الأولية في المساجد فاذا ما ساروا الى ذلك البيت أصبحوا تلاميذ تحت التمرين لموظفي الحكومة الاقدمين وهناك يتعلمون مقداراً محدوداً من المراسلات الكتابية العامة

نتدرج الآن الى التجارة في السودان فنقول بان ذلك العهد الذي كان زاهراً والذي امتدت فيه الطرق التجارية في السودان قد اضمحل فاصبحت الطرق — التي كانت نجتازها القوافل الكثيرة العدد — شبيهة بالصحراء المقفرة حيث تحت الرمال الحكومة معالمها أو حلت بقايا جذور النبات في بعض نواحيها . وفي صدد ما نذكره يحسن بنا أن نضع بيانا للطرق التجارية الرئيسية الاربع

أولاً — الطريق الاربعينية من دارفور الى أسيوط او من كردوفان عن طريق بيوضة الصحراوية الى دقله ووادي حلفا

ثانياً — الطريق من الخرطوم الى أسوان من ناحية بربر الى كروسكو عن طريق ابي حمد

ثالثاً — الطريق من الخرطوم الى سواكن من ناحية بربر أو كسلا

رابعاً — الطريق من القلابات للقضارف فكسلا فصوع . أما الطريق الحالية

(عام ١٨٩٧) التي تجتازها جمال القوافل فمن بربر الى أسوان وسواكن

بعد أن تم الاستيلاء على الخرطوم جلب التجار السودانيون الى أسوان مقادير

كبرى من الحلى الذهبية والفضية وما زال التجار فى عملية النهب والتصدير الى جهات خارجة من السودان حتى اضطر الخليفة الى اصدار أوامره المشددة للتجار بعدم حمل ذهب أو فضة معهم الى مصر مهما كانت يعوزهم الانفاق وكل ما سمح به الخليفة لاولئك التجار الخارجين عن السودان هو مقدار من المال يعينه بيت المال حتى لا تضيق على الشعب السوداني وكنوزه فى سبيل انفاق غير مشروع فى نظر الخليفة. ولم يكتف عبد الله بتحديد مقدار ما يأخذه التجار معهم بأمر بيت المال بل جعل العملة التى يحملونها من الطراز القديم على أن تحدد قيمتها فى جواز سفر التاجر أدت القيود والتشديدات التى أجراها الخليفة عبد الله مع التجار الى تضائل شأن التجارة بين السودانين ولكن ذلك لم يستمر طويلا فانتعشت التجارة ونهضت بعد كسادها فعادت الى السودان حياته بتبادل أصناف تجارته الرئيسية كالصنع وریش النعام والتمر الهندي وأوراق نبات السنامكي وما شاكل ذلك . وقد كانت العادة المتبعة فى هذا التبادل التجارى جمع هذه الاصناف فى بيت المال الى جانب ما فيه من العاج المحزون على أن تقدم جميعها للبيع فى سوق المزاد العلنى تبعاً للسعر المحلى ولكن بما ان الاصناف المذكورة تستورد من جهات السودان الغربية التى أصابت أهلها الحروب الداخلية والفاقة والأمراض فمن المعقول فهمه أن مقدار المستورد يقل بقلة عدد السكان المنتجين

لا شك فى أن الصنع السوداني احتكار لسكانه وهذا الصنف يختلف فى أثمانه باختلاف أنواعه المتعددة وأما ذكر ذلك لندل به على فائدته فى المبادلة علماً بان التبادل التجارى بين مصر والسودان لا يتم بالمال بل بالبضائع والذي نعرفه عن المصريين أنهم يقدمون بدل ما يأخذونه من السودان بضائع جاهزة من مانشستر لان الحاجة اليها فى السودان كبيرة جداً

فى حالة التعامل بالنقد فى السودان يشتري بيت المال أى صنف تجارى بعشرين ريالاً من العملة الجديدة مثلاً فيبيعه للشاري السوداني بثلاثين ريالاً حتى يبقى المكسب فى بيت المال وعند ما تم المبايعة بين الطرفين الرسمى والشعبى فى السودان يسمح رجال الخليفة لاولئك التجار السودانين بالسفر الى مصر لبيع تجارتهم وقبل

سفرهم توضع بضائعهم في موازين الشحن لتقدير ثقلها بالضبط وفرض ضريبة خاصة عليها بعد ذلك هي في الغالب ريال على ما زنته قنطار فاذا رغب التاجر شحن تجارته الى سواكن او أسوان اضطر الى دفع ريال آخر على كل مائة رطل ولكن الريال في هذه الدفعة يكون من العملة الجديدة واذن قد أصبحت الضريبة الاضافية سدس الثمن الاصلى .

يرد العاج الى السودان من أقاليم خط الاستواء بكميات كبرى مرة واحدة كل عام وفي الغالب تمر تجارته بسواكن وبما أن المناطق المذكورة خارجة أو تخرج تباعا عن دوائر نفوذ المهدي فقد كان من الظاهر جداً لدى عبد الله ان الكميات المذكورة تتناقص في السنوات التي تعقبه

أما ناب الفيل فلم تكن الدوائر الحكومية لتظفر به كثيراً لان الوارد منه قليل يجلبه بيت المال من مناطق دارفور الجنوبية ومن الحق ان نقول بان الدراويش — مالم يعودوا الى احتلال بحر الغزال بالقوة مرة اخرى — لا يستطيعون الاحتفاظ بتجارة العاج احتفاظاً يضمن لهم مقداراً مذكوراً من الثراء

لا يستطيع السودان جلب البضائع من مصر الا عن طريقين هما أسوان وسواكن وقد كانت الحكومة السودانية فيما سبق تجلب مقداراً من تجارتها القادمة في مصر أو ماجاورها عن طريق سواكن الى كسلا أو من كسلا الى مصوع . ولكن حال دون استعمال ذينك الطريقين احتلال السودان الشرقي بواسطة الايطاليين فليست البضائع المستوردة سوى اصناف من قيمة مالية طفيفة وتتكون في غالبيتها من مواد خاصة بمجلايب النساء وجيب الرجال ومهما يكن الامر فان ذلك شيء غير جوهري لدى سكان السودان الذين اعتادوا التعلق بكل ماله رونق خارجي زاه وما فيه التزاويق الكثيرة بغض النظر عن تناسب ذلك مع الذوق السليم وبدون اهتمام بالقماش المتين . وفي الحق يكاد يكون من العسير جداً او من المستحيل وجود مشتريين من طبقة عالية أو متوسطة في نواحي السودان

بين الاصناف المستوردة الى السودان الروائح العطرية من جميع الاصناف كزيت خشب الصندل والقرنفل والحبوب ذوات الرائحة الطيبة والسبب في استيراد

ذلك النوع التجارى بكثرة هو استحسان السودانيات اياه ولئن كنا اشرنا أخيرا الى عدم رواج البضائع الغالية القيمة بين أهل السودان فان ذلك لا يمنعنا من القول ان السكر والارز والانواع العادية من الحلوى والفواكه المجففة تجدد جميعها شارين بين اكثر السودانيات ثراء. وقد يجهل بنا ان نذكر في صدد التجارة أوامر الحكومة المصرية سابقا بمنع الحديد والقصدير والنحاس بنوعيه الأصفر والاحمر من دخول السودان حتى أصبح أسيرا على الأوروبي في عام ١٨٩٧ أن يحصل على مقص أو موسى لخلق الذقن وقد كان من جراء هذا المنع ارتفاع أسعار أواني الطبخ النحاسية الى حد كبير من الغلاء لانه علاوة على منع التصدير استولت الشكنات العسكرية على النحاس القديم القابل للتصليح فاستخدمته في صنع الخراطيش للبنادق . واذن اضطر السودانيون المعوزون الى الاستعاضة عن الاواني النحاسية بأوان خزفية في تحضير الطعام .

كان مفروضا على صاحب كل تجارة واردة للسودان أن يدفع ضريبة عبارة عن عشر قيمة الوارد وقد ألزمت الحكومة اصحاب التجارة المستوردة بدفع الضريبة إما نقدا وإما بضاعة مبادلة وقد كانت الضريبة تؤخذ أكثر من مرة على طول طريق القافلة . فاذا ما وصلت التجارة الى أم درمان أخذت الى بيت المال ووضع عليها ختم الحكومة ومن ذلك الوقت تجبى الحكومة عشرة جديدا . واذن وقف التجار امام ضرائب ثقيلة متعددة كما ألزموا تقديم ما يشبه الرشوة الى رؤساء. أما كن الحكومة السودانية التجارية في المحطات المختلفة أي أن التاجر كان يدفع من جديد ما يقرب من نصف ثمن البضاعة الذي دفعه أولا للبائعين . وهم ازاء ذلك مجبورون على رفع قيم البضائع وعلى الرغم من ذلك كله تجد مكاسبهم في النهاية قليلة بالنسبة لغيرهم من التجار في مختلف الجهات المجاورة للسودان .

ان كثيرين من التجار الأغنياء في السودان نزحوا الى مصر وغرضهم الاول ليس جلب التجارة منها أو بيع تجارة لها ولكنهم رموا قبل كل اعتبار آخر الى التخلص من جو السودان بضعة شهور يكونون فيها بعيدين عن سلطان الخليفة الشديد فان كل الذين قاسوا الامرين من ظلم هذا الحاكم لم يجدوا وسيلة للحصول على جواز

يهربون به من السودان سوى التجارة فلم يكن مسموحا للحكومة السودانية ان تعترض أى راغب فى بيع أو جلب تجارة للخارج أو منه

كان الكثيرون من التجار مقيدين بأسرهم وزوجاتهم وبينهم ولا يخرجون أى شك أو ريبة فى أنهم لو كانوا خالصين من تلك القيود لما رجعوا مطلقا الى السودان وفضلوا العيش فى مكان هادى. كصر — خارج وطنهم الاصلى — عن البقاء تحت نير العسف الشديد والاستبداد المطلق فى السودان

لئن اصبحت التجارة بكساد عظيم فى السودان فتم تجارة لقبت الرواج الكبير والتأييد الكلى من جانب المهدي والخليفة عبد الله وأعنى بذلك تجارة الرقيق وبما أن تصدير العبيد الى مصر لبيعهم أصبح أمرا محظورا ومعاقبا عليه فالخليفة بطبيعة الحال معنى بتوسيع تلك التجارة فى جميع المديرىات والنواحى الداخلية فى دائرة نفوذه . ولم يغب عن خاطر الخليفة بعد منع تصدير العبيد -- أن يحول دون استئثار مشيريه بالامر على حسابه .

كان من المستحيل بطبيعة الحال — رغم صدور الاوامر المشددة من حكومة مصر بمنع تصدير الرقيق — أن يحول الخليفة عبد الله دون تجارة الرقيق فى مصر وبلاد العرب ولكن القوافل التى كانت فيما مضى تقل المقادير الوفرة من عبيد السودان قد وقفت وقوفا يكاد يكون كليا

كان فى السنوات التى بين ١٨٩٠ و ١٨٩٧ يرسل العدد الكبير من عبيد الحبشة بواسطة أبى النجا ومن فاشودة بواسطة زكى طومال ومثل ذينك المقدارين كان يرسله عثمان واد آدم من دارفور وجبال النوبة وكان اولئك المرسلون الى السودان يباعون علنا فى سوق المزاد العلنى على أن تودع أثمانهم فى بيت المال أو فى خزانة الخليفة الخاصة . وبمثل الشدة والقسوة التى كان يعامل اولئك الرقيق اثناء شرائهم كانوا يعاملون وقت تسفيرهم الى الجهات .

عرف الجميع عن أبى النجا انه استولى فى بلاد الحبشة على الآلاف من المسيحيين لبيعهم فى سوق الرقيق فى السودان وكان أغلب اولئك من النساء والاولاد وقد بلغت القسوة بابى النجا ورجاله مبلغا دعمهم لسوق اولئك بالسياط اثناء مسيرهم على

الاقدام من بلاد الحبشة الى أم درمان فاذا ما ذكرنا أنهم كانوا يُخفون قهرا من عائلاتهم ويحرمون من الطعام الكافي لسد رمقهم في هذه المسافة الطويلة ويسيطرون على اقدامهم العارية عرفنا أنهم كانوا أشبه بقطيع من الاغنام فليس بدعا أن يعرف القراء أن العدد الاكبر من اولئك العبيد كانوا يهلكون جوعا أو مرضا قبل الوصول الى أم درمان وأن الباقيين منهم— أثناء وصول أبي النجائبهم الى أم درمان— كانوا في حالة سيئة ضعيفة يتعذر معها وجود الشارين وازاء ذلك كان الخليفة في كثير من الاحيان يتبرع بعدد من اولئك العبيد لبعض اخصائه

بعد أن هزمت قبيلة الشلوكة سعى زكي طومال في الاستفادة من ضعف رجالها ونسائها فحمل العدد الكثير من صنادل— كانت معدة لنقل رجاله الحربيين— ونقلهم الى سيدى عبد الله في أم درمان . وقد سمعنا في تلك الاثناء الشيء الكثير عن اختناق المئات من جراء ازدحام الصنادل البحرية بهم فاذا ما وفق الباقون للحياة اخذ الخليفة بعض صفار السن منهم لضمهم الى حرسه الخاص بصفة احتياطي أما النساء فكن يبعن مع الاولاد في سوق المزاد العلني الذي كان يستغرق عادة بضعة أيام في أم درمان

كان اولئك المنكودو الحظ يجلسون في غالب الاحيان عراة خاوى البطون أمام بيت المال فاذا ما قدر لبعضهم أن يسدوا رمقهم اعطاهم عمال الخليفة اعوادا قليلة من النرة دون تسوية فكان من الطبيعي أن يصاب المئات منهم بالمرض مما يعرضهم الى عدم عناية أسيادهم الشارين بهم وقت العرض

في كثير من الاحيان كان يبلغ الضجر والتعب بعشرات اولئك التعساء حدا يفضلون معه اللقاء أجسامهم في ماء النيل حتى يريحوا أجسامهم العارية ويطونهم الخاوية من عذاب لا يعرفون مداه فكانوا يموتون هناك وبما أنه لم يوجد من يعني باخراج جثثهم فان النتيجة المنطقية هي اكتساح الجثث بقوة التيار الى الشاطئ . فاذا ما ظهرت جثة القيت خارج الشاطئ مما يدعو الى نشر رائحة كريهة في الجهات المجاورة

هذا فيما يختص بالقرييين من شاطئ النيل أما الذين كتب عليهم الشقاء الاكبر

فكانوا يدفعون في الصحراء . حيث لاما ، ولا زرع . على طول الطريق بين دارفور وأم درمان وقد كان أولئك البائسون تحت امرة رجال غلاظ القلوب يدفعونهم الى أم درمان نهاراً وليلاً دون المن عليهم بشيء . ولو قليل جداً . من الراحة ، وقد أكون عاجزاً الآن عن وصف ما يرتكبه أولئك الرجال المتوحشون المقترسون اثناء سبرهم بالنساء الى سوق العبيد في أم درمان .

كان من عادة أولئك المتوحشين الهمج أن يقطعوا آذان من يعجز من الاولاد أو الرجال أو النساء عن السير الى أم درمان . بمناسبة ما نزل بهم من الكلال . ليقدّموا الأذان المقطوعة للخليفة علامة على مقدار من ماتوا من سباياهم وسط الطريق وقد أخبرني أحد أصدقائي أنه شاهد في مرة من المرات إحدى النساء مقطوعة الاذنين ولكنها لم تكن قد فارقت الحياة بعد فذب ديب الشفقة في قلبه فأحضرها الى الفاشر وبعد أيام من الله عليها بالشفاء في حين ان أذنيها قدما الى الخليفة دليلاً على موتها

وقف تيار القوافل المملوءة بالعبيد الى أم درمان لان القسم الأكبر من الاجزاء الموردة للعبيد . كدارفور . قد هجرها ساكنوها وفي أحيان أخرى كان يقدم رجال القبائل . كقبيلتي تاما ومسالت . فروض الخضوع الى الخليفة ليعفيهم من خطر الاسر . ومع ذلك استمر لغاية عام ١٨٩٥ ورود الكثيرين من الرقيق الاسود من الرجاف الا ان بعد المسافة بينهما وبين أم درمان كان يحول دون وصول الكثيرين أحياء الى بيت المال

اضطر الخليفة عام ١٨٩٦ — حيا ل نقص او انعدام المأسورين من الرقيق الاسود في القلابات وكردوفان ودارفور — الى اصدار أوامره للامراء التابعين له ببيع ما يصل الى أيديهم من العبيد لزعماء القبائل المتجولين بحيث يضطر كل من أولئك الزعماء الى كتابة ورقة يذكر فيها اسم العبد ومقدار ما دفعه للامير ثمنه له . وقد كان يسمح لهم الخليفة باعادة بيع من اشترؤهم من العبيد بالطريقة ذاتها

لا ريب في ان بيع الرقيق في أم درمان ذاتها يجري يومياً ولكن من المحرم رسمياً الآن (١٨٩٧) بيع رقيق الجهات والقوافل والسبب في السماح ببيع النوع

الاول هو اعتبارهم ملك الخليفة وحكراً له على أن جميعهم أو أغلبهم كانوا يعتبرون ضمن الجنود . واذا سلمنا بأن شخصاً خارجاً أم درمان جلب معه سرّاً أحد العبيد السذج فقد كان من الميسور أن يبيعه بيعة اسمياً ليبت المال على أن يورده الى صفوف الجند مقابل قيمة مالية لمن جلب العبيد وذلك في حالة تمتع الرقيق بالصحة أما اذا كان الاخير غير لائق للخدمة فيبقى في دائرة نفوذ سيده على أن يعمل في أراضيه الخاصة

أما فيما يختص ببيع النساء والاولاد فأمر مسموح به في أية ناحية من نواحي السودان بشرط أن يمضى على ورقة البيع اثنان من الشهود ويحسن أن يكون أحد الاثنين قاضياً وفي تلك الورقة يقر الاثنان بأن المرأة التي بيعت حق مكتسب للسيد السوداني الذي اشترى والسبب في تنفيذ ذلك العمل والسماح به هو أن كثيراً من العبيد كانوا يهربون من بيوت ساداتهم فيمسكهم آخرون ويبيعونهم لغير ساداتهم الاولين مما أدى الى انتشار فكرة سرقة العبيد في أم درمان وكان أولئك العبيد في كثير من الاحيان يؤخذون بواسطة أشخاص ظاهرين لضهم الى منازلهم أو كان يفرهم أولئك بترك الحقول والاراضي التي يعملون فيها وبعد ذلك كانوا يقيدون بالسلال لترحيلهم الى جهات نائية حيث يتم بيعهم بأثمان بخسة جداً

تنص الشريعة الاسلامية على عدم الاعتراف بشهادة العبيد الذين تم المساومة على بيعهم في سوق الرقيق فكان أولئك البائسون واقفين على حقيقة حالتهم المزرية فاذا علمنا بأن بعضهم عوملوا من أسيادهم معاملة حسنة فان ذلك لم يكن ليرضي الرقيق على وجه عام

أنشأ الخليفة في أم درمان ذاتها في ساحة فسيحة على مسافة قريبة من الجنوب الشرقى لبيت المال بيتاً عادياً مبنياً بالطوب وتعرف الساحة المحيطة بهذا البيت بسوق الرقيق وقد كنت في كثير من الاحيان أدعى بأنني أرغب في شراء أو استبدال بعض الرقيق وبهذه الحجة وحدها كان يسمح لي الخليفة بالتوجه الى سوق الرقيق فسنحت لي بذلك فرص متعددة للوقوف بنفسى على كيفية اجراء عملية المساومة في تلك السوق كان يقف الاختصاصيون بتلك التجارة لبيع ما لديهم من سلع

بشرية بحيث يقف حول سور البيت الطيني عدد كبير من النساء والاولاد ويجلس البعض الآخر فهناك ترى العاجز والعارية والمزخرقة والمسرورة وبطبيعة الحال أسعد المذكورات حظاً من المحظيات اللاتي يعن بثمرن طيب ، وبما أن تجارة الرقيق أمر جائز ومشروع جداً في السودان فمن حق الباعة والشارين أن يفحصوا رقيقهم فحصاً دقيقاً من هامة الرأس الى باطن القدم بدون أقل تقيد كما لو كان هذا الرقيق من طبقة الحيوانات الدنيئة .

فكان الشاري يفتح قم المرأة ليرى حال أسنانها وأضراسها ثم يأمر البائع برفع ما عليها من غطاء في النصف الاعلى من جسمها ليفحصها الفحص الدقيق ويعني في ذلك عناية خاصة بتفحص ذراعيها وبعد ذلك يطلب الشاري من المبيعة ان تمشي الى الامام او الخلف بضع خطوات ليتعرف كيفية مشيها ثم تلقى بعض أسئلة من الشارين على النساء والاولاد للوقوف على مقدار ما يعلمونه ويعلمنه من اللغة العربية وفي الحق يظل كل من أفراد الرقيق خاضعاً لرحمة الشاري في كل ما يلقيه عليه من أسئلته .

ذكرنا قبلاً أن بين الرقيق نسوة يسمين بالمحظيات فنعود الى القول بان أثمانهن تختلف اختلافاً كبيراً وهذا لا يمنع دخولهن في دائرة الاسئلة العامة الموجهة للرقيق فان ذلك أمر عادي جداً ولم يكن يخطر في بال واحدة منهن أن تعترض على طريقة البيع المذكور رغم ما فيها من شدة في كثير من الاحيان . وكل ما في الامر أن بعض النساء أو البنات أو النساء يشعرن بانهن لدى أسعارهن في كثير من الاحيان أفصل مركزاً من الرقيق وبعبارة أخرى يجدن أنفسهن خادمت وقديز بذهب بالواحدة حظها السعيد الى درجة تشعر معها ان مركزها لدى سيدها كمركز أفراد الاسرة التي تخدمها بعد ان كانت في حالة سيئة عند سيدها الاول الذي كان يعاملها معاملة وحشية قاسية . وبعد أن ينتهي الشاري من استقصاءاته يتساوم مع البائع فيسأله عن ثمنها ثم يردف هذا السؤال بالاستفسار عن امرأة أحسن من التي أمامه لبيعها له وقد كان الشاري في كثير من الاحيان يشكو للبائع عدم تمتع المبيعة له بجمال كاف وعدم ظهور مخايل الحسن على جسدها بوجه عام كما كان يشكو أحياناً من جهلها اللغة

العربية جهلاً تاماً الى غير ذلك من الشكاوى التي لم يكن يقصد منها سوى تخفيض عن السلعة الآدمية التي تباع له بينما نرى البائع من الناحية الاخرى باذلاً أقصى ما في وسعه لاطهار محاسن تلك المرأة المنكودة الحظ والاطناب في جمال أخلاقها مما لا داعي الى تفصيله في هذا المقام

هناك نقائص في المرأة أو البنت أو الولد تضطر البائع الى تخفيض الثمن وفي مقدمة النقائص المذكورة الغطيظ والسرقة والكذب ومهما يكن أمر البيع فالذي نعرفه أنه عند الانتهاء من المساومة والوصول الى اتفاق يخرج البائع ورقة يوقع عليها هو والشاري الذي يدفع الثمن في الساعة التي أصبح فيها سيداً للسلعة البشرية التي اشتراها وكان الدفع دائماً بالعملة المحلية السودانية (عملة الريالات الجديدة) ويمكن على وجه الاجمال تقدير الثمن بما يأتي :

كان ثمن العبد العامل الكبير السن يتراوح بين خمسين وثمانين ريالاً وثمان المرأة المتوسطة العمر بين ثمانين ومائة وعشرين ريالاً أما البنت ما بين الثامنة والحادية عشر من عمرها فكان يقدر ثمنها تبعاً لمنظرها وهو على وجه عام بين مائة وعشرة ريالات ومائة وستين ريالاً. ويجدر بنا أن نشير الى أن الأثمان الاخيرة ذاتها تختلف باختلاف سعر السوق أو باختلاف الطلب لفئة خاصة من الرقيق

لا توجد من الوجهة العملية صناعات خاصة في السودان ومع استثناء المواد التي ذكرتها في الصحائف السابقة لا تجد بضائع مصدرة من السودان

كان فيما مضى (قبل عام ١٨١٧) يرسل العمل المزركش بالذهب أو الفضة الى مصر ولكن بعد أن قل ورود ذينك المعدنين النفيسين — بتضاؤل الايدي العاملة من الرقيق — وبعد أن أصدر المهدي أوامره المشددة ضد لبس الجواهر والحلي نقص أو وقف التصدير للنواحي المجاورة عامة ولمصر خاصة . ومع ذلك لدى السودانيين تجارة رابحة في الحراب الطويلة والقصيرة والحدايد المستعملة لسروج الخيول والحير والمدى القصيرة التي توضع على الاذرع . هذا الى ما اكتسبه السودانيون من بيع الآلات الزراعية . ولم يكتف السودانيون بذلك بل اشتركوا في عمل

السروج الخشبية للخيول والجمال والبغال وصنع (العنجريب) والصناديق الخشبية لشحن الملابس ثم اعداد الابواب والشبابيك والغرف البسيطة

كان السودانيون في السنين السابقة لا تقضاء القرن التاسع عشر يعملون عملا جديا في بناء المراكب ولكن حال دون الاستمرار في ذلك العمل المنتج تدخل الخليفة ومصادره جميع المراكب الموجودة في النيل ومع ذلك نهضت هذه الصناعة قليلا عام ١٨٩٦ بعد أن أذن الخليفة بتسيير المراكب . ومهما يكن الامر فان الرغبة في بناء السفن قد ضعفت ضعفا كبيرا بعد أن فرض بيت المال الضرائب الثقيلة على كل مركب جديد

من الصناعات التي عنى بها السودانيون عمل الاحذية الصفراء والحمراء والسروج المختلفة الانواع والاحجية الجلدية لصغار الاولاد والبنات وأعمال السيوف وقرابات المدى أما الكرايسج فتصنع بمقادير وافرة جداً من جلد فرس البحر .

علينا ألا ننسى زراعة القطن وتجارته في السنين الاخيرة في القرن التاسع عشر في السودان . فقد كان مصرحاً لكل امرأة أو بنت أن تغزل لحسابها الخاص وإلى جانب هذا العمل الخاص وجدت في كل قرية أما كن صغيرة للغازلات اللاتي يقمن بمختلف أنواع النسيج . اما أرض الجزيرة ففيها ناسجات وناسجون لانواع مختلفة من الملابس القطنية كالاثواب والدمور والجنجس التي يبلغ طول كل قطعة جزئية منها عشر ياردات فاذا ماتم نسيج الاقمشة المذكورة جلبها أصحاب المحال الصغيرة الى الاسواق بكيات كبيرة على أن يشتريها أفراد الطبقة العامية من رجال ونساء . ولا شك في أن أعلى نوع من الغزل ينسج في مديرية بربر ففي تلك الناحية تنسج النساء أغذية وجلاليب من الحرير الملون ويغزلن قطعاً حريرية تستعمل كعمائم للاغنياء وبعض الاحزمة التي يلفها لابسو العمائم الاغنياء فوق كساواتهم الحريرية القطنية وفي هذا الصدد نذكر الشيلان الحريرية التي تروج في مختلف الانحاء رواجاً عظيماً .

تقوم مديرية دنقلة بمقدار كبير من نسيج القطن ولكن هذه الدائرة مشهورة شهرة خاصة بصنع أغذية قلع المراكب وانه لواجب علينا في صدد تقرير الحق أن

شهد لرجال كردقان بمتانة نسيجهم بغض النظر عن بعد ما يصنعونه عن الحال في المنظر الى حاب غزل القطن تجدد النساء والبنات عملا آخر رابحا هو ضمير الحصر من جميع الاشكال والحجوم من أوراق شجر الدوم التي تباع بكثرة في جميع نواحي السودان ولا مشاحة في أن أمتن نوع من هذه الحصر هو الذي يصفى من الخوط الضيقة من الاوراق المذكورة ومن قش الشعير . "تقطع الجلدية الرفيعة . ولا تستعمل الحصر المذكورة في فرش الغرف فحسب بل تحت أطباق الاكل أيضا بحيث تكون الحصرة في السودان غطاء المائدة بدلا من أغطية القماش المستعملة في الغرب .

وقد تلغ حودة عمل الحصر حدا ترسل معه مقادير كبيرة الى مصر كتحف وطرائف اللوريين الذين يقصدون القطر المصري في شهور الشتاء.

ان نساء دارفور على مهارة خاصة في صنع الحصر المذكورة التي توضع بين ثيابها بعض الخرازات الزجاجية مما يؤدي الى اكتسابها رونقا جميلا جدا .

اجتهدت في الصحائف السابقة أن أسور للقارىء حياة الخليفة العامة وشؤون السودان في عهده ولكن ذلك التصوير لا يأخذ شكلة الدقيق بدون الإشارة الى حالة السودانيين الخلقية فاقول ان المهدي سعى جهده في ترك انتماعهم والعوائد الدينية الرئيسية وانشاء نظم دينية جديدة فت أوامره في صنوف الشعب ودعا ذلك لطبيعة الحال الى افساد الاخلاق لان الناس اضطروا في الظاهر الى مجارة المهدي بينما هم في الواقع متمسكون بدينهم الاصلية وفي هذا الاختلاف بين ما يعتقدونه المرء وما يرى امام الخليفة لاحترامه اغراء على الكذب وهذا الاغراء الجزئي ينتهي الى شر خلق مستطير . وعلمنا أن نذكر بان الناس خافوا بطش الخليفة من ناحية وتمسكوا بمصالحهم وشهواتهم من الناحية الاخرى فدعا ذلك الى فساد خلق عظيم لا أستطيع وصفه للقراء . ومهما يكن الامر فقد كان أغلب سكان السودان غير مرتاحين الى الحالة العامة في السودان عامة وفي أم درمان — حيث يقيم عبد الله — خاصة لانهم أشفقوا على حرياتهم الشخصية من تعسف رجال الخليفة عبد الله ففضلوا حينذاك الانصراف الى اهوائهم وملذاتهم والاسراف فيها بقدر ما تسمح لهم أجسامهم

نستطرد الآن الى نقطة حيوية هامة وهي عدم وجود حياة اجتماعية أو تبادل بين النفوس فكان الحل الوحيد الذي أجمع عليه السودانيون أمرهم هو الاغراق في بحار الشهوات والميل الى حب النساء حباً بهيميا لا ينتهى عند حد . ففكر حينئذ كل سوداني في الحصول على أقصى عدد من النساء كزوجات له الى جانب محظياته ومراريه فكان الخليفة — من هذه الناحية — مشجعاً لرعاياه على السير في طريق اللذة المفسدة ومن دلائل ذلك التشجيع أنه أمر بتخفيض مصاريف الزواج الرسمية تخفيضاً ظاهراً فبعد أن كان صداق البنت عشرة ريالات أصبح خمسة وصار صداق الارملة أقل من ذلك ومعه لباس عادي وحذاء ان وبعض روائح عطرية .

إذا رغب سوداني في الاقتران بينت وجب على والدها أو ولي أمرها أن يعلن مصادقته وفي العادة لا يحول دون هذا القبول سوى مانع قوى جداً . وعلى أية حال فالآباء وأولياء الامور مسئولون دائماً عن زواج بناتهم أو من يتولون رعايتهن بحيث يصبحن زوجات متى بلغن عمراً مناسباً .

ذكرنا قبلاً اغراق السوداني في لذته واذن لا عجب أن نرى بأن حصول السوداني على أربع زوجات — وهو أقصى ما صرح به القرآن من عدد للزوج — أمر عادي جداً حتي أن السوداني في ذلك الحين عد الحصول على الزوجة حصولاً على متاع بسيط . هذا الى أن السودايات كن يرغبن رغبة شديدة في هذا الزواج إما للحصول على بعض ملابس وكمية صغيرة من المال . وإما للرغبة في نظام جديد من الحياة لم يكن يعرفه في منازل آبائهن وأولياء أمورهن وفي الوقت ذاته كن على علم بأنهن — تبعاً لنصوص الشريعة — يستطعن الانفصال عن أزواجهن بدون عناء كبير

في حالة الطلاق تستبقى السودانية صداقها الا في حالة واحدة هي كراهيتها لزوجها فيتحمم اذ ذاك رد الصداق الى الزوج وقد عرفت في بعض الاحيان أن الزوج كان يترك المهر لزوجته المطلقة بمحض اختياره واني أقرر عن ثقة واطلاع أن من السودانيين من يتزوج في بحر عشر سنوات باربعين أو خمسين سودانية (مع مراعاة أن هناك طلاقاً مستمراً في حياة مثل ذلك السوداني) كما أن من النساء من تزوجت في هذه الفترة الخمسة عشر أو العشرين زوجاً على أن قانون الزواج الاسلامي

ينص على اقضاء فترة بين الطلاق والزواج الجديد لا تقل عن ثلاثة شهور . أما فيما يختص بالمحظيات فيبيح القانون السوداني الديني تمتع السوداني بأي عدد يزيد منهن ولا ريب في أن اباحة التمتع بالمحظيات أدت الى انتشار الفساد الخاقي مع انتشار الامراض السرية الخطرة

قلنا ان المحظيات السودانيات خطر على الاخلاق وجماليات للامراض الخبيثة ولنفصل ذلك نقول انهن لا يعشن جميعاً في المنزل الذي يعيش فيه سيدهن مالم يكن لذلك السيد أولاد من احداهن فانها (المحظية) تضطر للبقاء في منزل قانيها ولا يجوز مطلقاً بيعها لآخر ولكنهن في أغلب الاحيان يعن لاسيادهن على أن يقين في حوزاتهم قترات قصيرة جداً على أن يعن بعد ذلك لغيرهم بأرباح جديدة ولا ريب في أن هذا الانتقال المستمر من بيت الى آخر يعرض الاخلاق والصحة لخطر جسيم والى جانب ذلك تدبل زهرة شباب المحظية وتضيع معالم جمالها فاذا أضفنا الى ذلك أن المحظية تباع لسيدها في أول مرة وهي في سن صغيرة عرفنا ما تقاسيه من الآلام الحقيقية التي لا تخفف منها لذة بهيمية غير منتجة

من المعروف عن تجار الرقيق في السودان أنهم في سبيل الحصول على مكسب تقدي لا يبالون بما يصيب النساء والبنات من ضعف في القوة وفساد في الخلق وتعرض لأخبت الامراض فكانوا يشترون البنات الصغيرات ويسمحون لهن بالحرية المطلقة في اختيار المنزل الذي تعيش فيه البنت والحياة التي تحياها ولم يقف الفساد عند حد أولئك التجار بل تعداه الى الشارين أنفسهم ففي كثير من الاحيان كانوا يسمحون للتجار ببيع محظياتهن لغيرهم على أن يتعاطى أولئك الاسياد مقداراً معيناً من الربح الجديد .

لاريب في أن شر ما ينتج من فساد خلقى تجده في دوائر الضباط السودانيين وجنودهم حيث يغرى أولئك الخريون الكثيرات من النساء والبنات للعيش معهم في ثكناتهم بصفتهن زوجات لهم فاذا ما دخلن الثكنات أصبحن كالسبع يتبادلهن جميع الضباط بلا استثناء وبحرية مطلقة ولم يكن الخليفة عبدالله ضد هذه الفكرة الاخيرة بل على النقيض من ذلك كان يشجعها اعتقاداً منه أن انهماك الصباط في

اللذة وتماديهم في ارضاء شهواتهم يجعل مكانا للخليفة في نفوس ضباطه فوق كل مكانة وبذلك يضمن ولا. رجال الحرب له ورغبتهم في عدم ترك سيادته عليهم لاحاجة بنا الى القول بان السماح بتلك الالاحة المنكرة قد أدى الى انتشار أخبث الامراض بين جميع طبقات الامة سواء في ذلك الاحرار والرقيق الرجال والنساء. فادا ذكرنا حرارة السودان وأثرها السيء في أى مرض سرى حيث استطعنا ادراك الاخطا الخلقى الذى عوى اليه السودان في ذلك العهد. وعلمنا ألا تنسى أن السودان كان محروما من جميع الادوية التى تعالج تلك الامراض مما أدى الى تعريض الصحة على وجه عام لخطر عظيم.

وجد في السودان في أوائل حكم الخليفة عبدالله قوم أمعنوا في ضروب الفساد وألقوا العنان لشهواتهم فعاقبهم الخليفة في مبدأ الامر بنفيهم وتشريدهم الى الرجاف ولكنه عدل عن ذلك بعد قليل من الزمن وانتهى الى حل حاسم في نظره وهو ظهور سهولة كبرى — في معاملة شعب بعيد عن الاخلاق القويمة — في استعمال التعسف والشدة وصعوبة الجور مع شعب متمسك باهداب الاخلاق القويمة وتبعاً لذلك كان الخليفة عبدالله في آن واحد بكره ومخشى اجعلين الذين سكنوا على شاطئ النيل بين حجر العسل وبرر لان أولئك كانوا ب الوحيدين في السودان الذين مقتوا الفساد والذائل الخبيثة واحتفظوا بالاسر الفاضلة البعيدة عن الشهوات الشائنة. كما اعتاد أولئك الخليلون النظر الى الاخلاق بسفقتها حجر الزاوية في بناء الحياة القومية والركن الاساسى في تأسيس صحة قوية

كان تشديد المهدي على نسائه (زوجاته) بالغاً أقصى حد ولم يقب أمر صيانهن عند حد الخوف من المهدي في حياته بل تعداه الى الاحتفاظ باشراف بعد مماته فكان محرماً عليهن وهن أرامله (بعد وفاته) أن يسرن سيرة المحظيات وأن يعشن عيشة الفجور وقد ساعد عبدالله على ذلك فبلغ احترامه لذكرى المهدي حداً دفعه الى انشاء بيوت خاصة للارامل المذكورات حيث تحيط بالمنازل أسوار مرتفعة على مقربة من ضريح المهدي وقد عين عبدالله على ذلك عدداً من الخسبان لمراقبة الارامل المذكورات انفاً.

شدد الخليفة على زوجات ومحظيات سلفه المهدي بعدم الزواج ومن قانوناً حرم به عليهن أى زواج جديد فكان ذلك ضد رغبتهن ولم يكتف بذلك بل حرم البنات (وأغلبهن من بنات موظفي حكومته السابقين) من طلب الزواج بعد أن بقين في منزله اعداداً لاقرانه بهن في المستقبل . ومما يذكر عن عسف الخليفة عبد الله في معاملتهن أنه لم يكن يسمح بمقابلة رجل اياهن حتى ولو كان من ذوى قرباهن وكل ما من به عليهن هو السماح لقريباتهن من النسوة بزيارتهن مرة واحدة في السنة . ومع كل ذلك التقييد لم يكن يفسح عليهن في العيش فكان يقدم لهن ما يكفين بالجهد من القوت واللباس فلا عجب اذا عرفنا أنهم كن يتطلعن دائماً الى التحرير من ربق عبودية الخليفة .

أدرك عبد الله أن عسفه وجوره يؤديان بلا نزاع الى زيادة الحاقدين عليه والساعين الى الفتك به فكان تبعاً لذلك كثير الخوف على حياته فطرد بعنف وقساوة جميع السكان النازين في منازل صغيرة مجاورة لبيته وأحل محلهم حرسه الخاص الذي استمر في تنميته يوماً بعد يوم . وبعد ذلك بنى سوراً ضخماً حول مسكنه والمساكن الصغيرة المجاورة وجمع اليها كل أقربائه على أنه عاد بعد ذلك فأظهر ريبة وخالجه الشك في بعض أقربائه فأمر ابقائهم خارج مسكنه المسور ولعدم الظهور دفعة واحدة بهذا الشك جعلهم الى جانب منازل الحرس الخاص ورغم ذلك كله لم يكن الساكنون في دائرة الخليفة على وفاق وفي ارتياح تام لان أوامر عبد الله كانت شديدة على حرسه الخاص مما أدى الى تبرمهم واستيائهم الشديد كما أنهم تدمروا من مرتباتهم الضئيلة وشكوا لرؤسائهم مراراً من تضيق الخليفة على حريتهم الشخصية وكان عدد المحيطين بالخليفة بضعة آلاف ينتمي أغلبهم الى العرب الخالص ولم يكن مسموحاً لهم على الاطلاق الاقتراب من ذويهم كما ان الخليفة حرمهم من ترك مساكنهم ولم يكن يصفح عن هفواتهم الصغيرة فكان ينزل بهم العقاب الصارم

عني عبد الله عناية خاصة بحياته وكان شديد الرغبة في الاحتفاظ بها من عبث الحاقدين عليه فكان لا يخرج في النهار أو الليل الا وفي معيته أفراد معينون من حرسه الخاص واثنان أو ثلاثة من خدمه الامراء له وفيما عدا ذلك لم يكن يرافقه أي

شخص آخر — حتى أقرب أقربائه — ولم يكن يسمح الخليفة لاحد — خلاف الحرس والخدم — بمراقبته

كان من المقرر أن كل من يسمح الخليفة بمقابلته إياه يتجرد من سلاحه (الذي كان يحمله السوداني دائما) ثم يقتشه أحد رجال الحرس قبل دخوله الى غرف الاستقبال الرسمية فكان ذلك العمل من جانب الخليفة دليلا على سوء ظنه في رعيته فاذا أضفنا الى ذلك كراهية الشعب له استطعنا بسهولة ادراك ما كان يتحدث به الناس عن ظلم الخليفة وتعسفه وعن مخاوفه الشديدة

على الرغم من هذه الشدة النادرة وتلك القسوة المؤلمة لم يوفق الخليفة في اكتساب جانب أية قبيلة حتى أن أفراد قبيلته الخاصة فروا منه وهذه بطبيعة الحال نتيجة منطقية معقولة

عند ما وصل أفراد قبيلة عبد الله الى أم درمان بعد القاء مقاليد الخلافة اليه — مضوا في الاعتداء على أصحاب الارض فأخذوا غلالهم واغتصبوا نساءهم ونكلوا بأولادهم فاشتد نكرب اشتدادا اضطرت الخليفة لاصدار أوامره بعدم خروج تعايشي من أم درمان الا باذن خاص ولكن أوامره تبهوت ثم دب ديب العصيان في قلوب السكان حتى انتشرت فكرة التمرد انتشارا لم يكن معروفا من قبل

أما فيما يختص باخلاق أولئك العرب فخميدة في ذاتها ولكنهم في الوقت نفسه ميالون الى الكبرياء والاعجاب بأنفسهم فحسب وذلك راجع الى صلتهم وقرابتهم بالخليفة فكانوا يدعون دائما أنهم أسياد البلاد وأصحاب الشأن الاعلى فيها لاشيء سوى صلتهم بالخليفة

وقد انتهى بهم ذلك التعسف الى وضع أيادهم على خيرات الارض وغلالها وماشيتها وخبولها فكان هذا الاستثثار مدعاة الحسد في القبائل الغريبة السودانية حيث الافراد الذين لم ينظروا الى التعايشي ورجاله نظرة ودية

كل ذلك الاضطراب سبب من أهم الاسباب في حذر الخليفة وخوفه مما يجري حوله ولكنني لا أعتقد أنه على علم دقيق بمقدار كراهة الشعب إياه وحقده عليه وعلى أية حال فقد كان هم الخليفة متجها الى ارضاء أمراء القبائل بارسال الهدايا المالية

والعبيد سرّاً اليهم في أوقات الليل من الايام المختلفة. أما الامراء فلم يكونوا يترددون في قبول الهدايا المذكورة وهم على ثقة من أنها جمعت ظلماً وعدواناً. وقد يكون من دواعي الاشفاق على الخليفة أنه لم يكن متمتعاً بولاء الامراء الحقيقي رغم ما يعيشه اليهم من الهدايا

من أعجب ما يروي عن الخليفة عبد الله أنه لم يفارق أم درمان الى الضواحي مرة واحدة في أكثر من عشرين سنة لأنه كان يخشى ترك تلك العاصمة التي استجمع فيها كل ما لديه من قوة وذكيرة ووضع تحت رقابته فيها جميع الذين خاف شرهم بعد أن اضطروهم الى القيام بالصلوات الخمس يوميا في حضوره وسماع خطبه الدينية. صرح الخليفة بأن أم درمان هي مدينة المهدي المقدسة وقد يكون غريبا على القراء أن يسمعوا عن أم درمان قبل عام ١٨٩٠ بأنها كانت مدينة صغيرة ضئيلة الشأن يسكنها بعض قطاع الطرق وكل ما لها من شأن أنها واقعة تجاه الخرطوم. غريب عليهم أن يسمعوا ذلك في الوقت الذي علت فيه كلمة هذه الجهة وأصبحت أضخم وأعظم شأنًا من الخرطوم وقد سبقه اليها المهدي. فبعد أن كانت الارض حقيرة غير منتظمة مدت اليها الاشجار الوارفة الظلال وأسس الجامع الكبير وبيوت الخليفة عبد الله والخليفين محمد شريف وعلي واد هلو. أما عبد الله فقد وضع يده على جميع الاراضي الواقعة جنوبي المسجد وأما القسم السامي فاقسمه الخليفان محمد شريف وعلي واد هلو

مما يذكر عن المهدي في حياته أنه صرح علنا في المسجد الكبير بأن أم درمان محلة وقية لان رؤيا النبي التي ظهرت له في احدى الليالي أمرته بنقل الخلافة الى الشام بعد التغلب على مصر وبلاد العرب ولكن موته المبكر قد شتت جميع مشاريعه وقضى على آماله وآمال أتباعه

بعد أن نقلت العاصمة الى أم درمان تم تنظيمها ونخطيطها وقد بلغ طولها السطحي من الشمال الى الجنوب ما يقرب من ستة أميال انجليزية وقد أصبحت نهاية الحد الجنوبي مقابل الطرف الغربي للخرطوم

انجهدت الرغبة من بادي الامر الى السكنى على مقربة من شاطئ النيل أملا في

نسهل الحصول على الماء الكافي فنجم عن تلك الرغبة ازدياد في ناحية وقلة الناحية الأخرى فلم يبق مكان خال واحد في مسافة ثلاثة أميال عرضاً مع نحو أميال ممتدة طولاً

أنشئت في بادية. الامر في تلك الناحية آلاف من الاكواخ المصنوعة من القش فلم يكن ظاهراً منها سوى المسجد الكبير الذي أحاط به حائط من الطين طوله أربعمائه وستون ياردة وعرضه ثلاثمائة وخمسون ياردة ولكن ذلك لم يرق في عيني الخليفة فاستعاض عنه ببناء من الطوب المحروق الذي تم تبييضه بعد ذلك بمعرفة بنائين من العرب . وبعد ذلك أقام الخليفة لنفسه ولأخيه وأقربائه بيوتاً من الطين ثم هذا الامراء حذوم وتبعهم في ذلك أغنياء أم درمان .

ذكرت في فصل سابق وصفا لضريح المهدي ولكني لم أذكر تي شأدت — قل مغادرتي الاخيرة لام درمان — ضياع لون القشرة البيضاء التي على الضريح ولا بأس من العودة الى التفصيل فأقول بأن فوق قبة الضريح ثلاث كرات نحاسية فارغة الواحدة فوق الأخرى ويربط هذه الثلاثة رمح مقوس في آخره حلقة رئيسية تزين الضريح . ومن أغرب ما سمعته من السودانيين أن الخليفة وضع هذا الرمح حول الكرات الثلاث ليعلن استعدادة لمحاربة الطبيعة اذا حدث ما يحول دون تحقيق رغبته كان عبد الله في كثير من الاحيان يقضى ساعات من النهار منفرداً داخل ذلك الضريح (مزار المهدي) والمعروف أن غرضه الاساسي من ذلك هو تلقي الوحي الخاص منه ولكن قلت عنايته بهذه الزيارات الدينية بعد أن قتل الكثيرين من أقرباء المهدي وزعماء أتباعه وبطبيعة الحال كان من العسير بل من المريب أن ينقطع عبد الله هذا الاقطاع الفجائي فاضطر الى انتحال المعاذير وتبعاً لذلك أوعز الى رجال حرسه الخاص أن يذيعوا بين الناس أن السبب الحقيقي لانتقطاع عبد الله عن زيارة سيده المهدي هو خوفه من البقاء بمفرده داخل الضريح وقد كان منتظراً أن يرد بعضهم على ذلك بأن يستصحب الخليفة معه من يذهب عنه الفرع ولكن عبد الله لم يعجز عن الرد فكان يقول إنه من غير المرغوب فيه أو من الامور غير المسموح بها بقاء أي شخص خلاف الخليفة داخل ضريح المهدي .

هذا ما كان يعتذر به عبد الله الى الشعب السوداني في حين أنه (عبد الله) خالف وصايا سيده المهدي لا بالقول فحسب بل بالفعل ايضا

كان من المتبع فتح جميع الابواب المؤدية الى الضريح يوم الجمعة للسماح للشعب بالحج الى ضريح المهدي وبما أن القانون الديني كان يحتم على كل رجل من أتباع المهدي أن يردد صلوات الترحم على جثمان المهدي وروحه فقد كان من الميسور على المشاهد أن يرى الآلاف من الناس متقين في الغرض ومختلفين في طريقة تلاوة الصلوات والادعية ولم يكن قصدهم محصورا في الصلاة المهدي ولكنه تعداه الى طالب الحماية والرحمة من الله الرحمن بشفاء الشهيد (?) الذي قد رقد في قبره الاخير ولكن في الحقيقة كثير الرية في أن الصلوات المذكورة خارجة للرحم فاني أقرر - وفي قولي على ما أعتقد كثير من الحق ان لم يكن الصدق كله - أن أغلب الصلوات الصادرة من قلوب اولئك المتحمسين الى مقام العرش الالهى تتطلب من الله اتقاذ الشعب السوداني من ظلم وعسف عبد الله المستبد الذي خلف ساكن الضريح الطيب في نظر السودانيين

يقع بيت الخليفة الرئيسي في الناحية الجنوبية من الضريح وعلى اتصال بالمسجد الكبير ويحيط بهذا البناء الرئيسي حائط ضخمة مبني بالطوب الاحمر ومقسمة نواحيه الى مبان صغيرة متلاصقة وبطبيعة الحال أقرب المباني الى المسجد هي التي يسكنها هو وأفراد بيته المقربون وفي الناحية الشرقية من مسكنه بيوت زوجاته وأماكن الحصيان ومخازنه الخاصة . ومما يسترعى الانظار في الجهة الشرقية من مسكنه المركزية للمسجد الكبير قيام باب خشبي ضخمة (لا توجد أبواب في داخل المسجد من النواحي الثلاث الاخرى) يجتازها المسموح لهم بالوصول الى غرف الخليفة الخاصة ومكان الاستقبال الرسمي . اذا ما رغب انسان في اجتياز المر الرئيسي كان عليه أن يمر بما يشبه الدهليز ومن ثم يسير الى ردهة صغيرة فيها غرفتان لا يوجد على جانب أيتهما ما يمنع من ظهور الناس للخليفة الذي يستقبل الناس في هذه البقعة . يوجد في الجهة الجنوبية من غرفة الاستقبال باب خاص يقفل بين تلك الغرفة وبين غرفة المدع ولا يسمح لأحد باجتيازها سوى الشبان من حرس الخليفة

أما المساكن التي سبقت الإشارة إليها فمكونة على شكل قاعات متصلة بين كل والاخرى رواق صغير . وقد تمكن الخليفة من انشاء دور ثانٍ على سقف مجموعة من تلك المساكن ووضع في ذلك الدور المبنى على الطراز الجديد (عام ١٨٩٥) منافذ يتمكن الناظر من احداها من مشاهدة منظر عام واضح لأم درمان

امتازت غرف استقبال الخليفة بالبساطة الكمية والبعد عن الزخرفة وكل ما في الغرف من زينة هو أعمدة العنجريب الممتدة في كل غرفة وعلى الواحد منها حصيرة من أوراق النخيل أما غرف الخليفة فمزخرفة بكل ما يستطيع الحصول عليه من زينة وتزويق في السودان . ففي كل الغرف الداخلية أسرة نحاسية وحديدية تعلوها ناموسيات (للوقاية من الناموس الذي يعد نكبة السودان وبلاءه) كما أن أراضي الغرف مفروشة بالسجاجيد وفوق المراتب النظيفة أغطية حريرية ووسائد موشاة أطرافها بالحرير الخالص وفوق الابواب والنوافذ ستائر من الالوان والانسجة ولا ريب في أن ذلك أقصى ما يطمع اليه الخليفة من زخرف وأبهة في السودان أما الاروقه فممتلئة بالخصر المصنوعة من أوراق شجر الدوم ثم بمقاعد العنجريب . فاذا قارنا ذلك بما كان عليه الخليفة عبيد الله في أول سني حياته الرسمية وجدنا أنه شديد الميل الى الزخرفة ما استطاع الى ذلك سبيلا

تكلما كثيرا عن بيت الخليفة ومساكن رجاله والمقربين اليه والآن نذكر شيئا موحزاً عن بيت ابنه عثمان فنقول إنه يقع في الناحية الشرقية من تلك المساكن ويكاد يكون هذا البيت مفروشا بالفراش والاثاث الموجودة في منزل أبيه ولا تغالي اذا قلنا انه أفخم وأكثر نزوعا الى الثروة من مسكن أبيه . فقد يمتاز هذا البيت عن بيت الخليفة بالنجفات النحاسية المدلاة من سقوف الغرف والتي أحضرها عثمان خصيصا من الخرطوم . هذا الى أن بيت عثمان واقع وسط حديقة كبيرة يمتد اليها طمى النيل ويشغل فيها يوميا مئات من الرقيق الاسود وقد غنى أولئك عناية فائقة بعرض الحديقة في أحسن وأجمل منظر لسيدهم عثمان الذي كان طول حياته مولما بكل ما هو جميل . ومن الغريب في أمر أولئك العبيد أنهم كدوا واجتهدوا في

ذلك راضين مختارين رغم التعب الذي لاقوه ورغم القوت الذي لم يكن يكفيهم في عملهم الشاق

صرف الخليفة عبد الله وابنه عثمان أغلب أوقاتهم في البناء وتجديد نظم ما أقاماه قبلاً وقد بذلا أقصى ما يستطيعان من جهد في سبيل البقاء في حياتهما على الأرض متمتعين بأقصى ما تنزع إليه نفسيهما من بهجة وسرور

وقد حذا يعقوب أخو الخليفة حذوها فلم يكن غريباً والحالة هذه أن يتدفق يوماً مئات من العمال (وأغلبهم من الرقيق) إلى بيتي الخليفة وابنه حاملين الحجارة والطوب وكل ما يتعلق بالبناء. أما بيت الخليفة على واد هلو فصغير من ناحية وبعيد عن معالم الزينة والزخرف من ناحية أخرى.

كان لعبد الله — إلى جانب بيت الخلافة الرئيسي — بعض منازل في الناحيتين الشمالية والجنوبية من أم درمان ولكن المنازل الأخيرة مبنية بناء بسيطاً عادياً لا شيء من الزخرفة فيه والغرض من بنائها هو استعمالها كأماكن استراحة له والمقرين إليه عندما يرسل بعثات من جنوده إلى الجهات المجاورة لأم درمان أو عندما يخرج لاستعراض الجنود القادمين حديثاً إلى أم درمان ولم يكن يستطيع (عبد الله) البقاء في منزل من المنازل المذكورة أكثر من يوم أو يومين في المرة التي يخرج فيها

بني عبد الله خلاف المنازل المذكورة منزلاً على مقربة من نهر النيل مجاوراً لحصن الحكومة القديم بعد أن ردم الخنادق التي كانت متاخمة للحصن المذكور. وقد كان يذهب إلى هذا المنزل عندما تشرع السفن البخارية في مغادرة أم درمان إلى الرجاف وغرضه الرئيسي من ذلك الوقوف بنفسه على كيفية سير السفينة ومقدار سرعتها إلى جوار بيت الامانات (الترسانة) المكون من بناء ضخمة حجري جمعت فيه المدافع والبنادق والذخيرة وكل ما يختص بالحرب وإلى جوارها (في البناء نفسه) خمس عربات كانت ملك الحكام السابقين والبعثة الكاثوليكية وقد عني عبد الله عناية فائقة بحراسة ذلك البيت فوزع على مسافات قصيرة حراساً خصوصيين (ديدبانات)

وأعد لكل واحد كشكاً صغيراً ومهمة أولئك هي منع جميع الخارجين عن هيئة الجيش من الدخول الى الترسانة

وجد في الناحية الشمالية للترسانة مباشرة بناء لحفظ رايات الامراء المقيمين في أم درمان والى جانب ذلك البناء محل نصف دائرى (يبلغ ارتفاعه نحو عشرين قدماً ويصعد اليه الصاعدون بسلام مدرجة) لحفظ أبواق وطبول الخليفة الحربية . فاذا ماسرنا الى الناحية الشرقية قليلاً وجدنا مخزن الخراطيش والاسلحة الصغيرة

ذكرنا في الفصول السابقة شيئاً عن بيت المال فنقول الآن انه يقع في شمال أم درمان على مقربة من نهر النيل ويمتاز هذا البناء بضخامته وانقسامه الى أجزاء بارزة تكاد تكون أروقة متساوية الحجم وفي تلك الأروقة تجمع البضائع الواردة لام درمان من جميع نواحي السودان ومن مصر كما أن فيه (بيت المال) مكاناً لحزن الحبوب وآخر لجمع الرقيق . ويقع على مسافة قريبة جنوبى بيت المال بناء واسع لبيع الرقيق يسمى (سوق النبيذ) وقد أنشأ عبد الله جوار البناء الاخير بيتاً سماه (بيت المال الحربى) بعد أن استقرت خلافة عبد الله وسلفه المهدي في أم درمان ثم تنظيم المدينة وهي على العموم قائمة فوق أرض مستوية ولكننا نجد في بعض النواحي هنا وهناك تلالاً صغيرة تعترض ذلك المستوى . أما تربة أم درمان فمجموعة طبقات صلبة حمراء تكاد تكون حجرية في مجموعها وتشكلها في أجزاء متفرقة أراض رملية . ومما يذكر عن تعسف عبد الله أنه — في سبيل راحته والتمتع بما يرضي شخصه — أنشأ الطرق والشوارع الجديدة وهذا العمل حميد في حد ذاته الا أن الخليفة في سبيل هذا البناء قد هدم بيوتاً كثيرة ولم يدفع لأصحابها المzkودي الحظ قرشاً واحداً فدل بذلك على أنه يرمي من وراء تنظيمه الحميد في ذاته الى منفعة خاصة هي لفته النظر الى شوارع نظيفة بغض النظر عما يصيب الناس من هدم منازلهم دون تعويض .

علا شأن أم درمان وتقص قدر الخرطوم في زمن خلافة عبد الله فأصبحت الخرطوم عبارة عن أنقاض وخرائب ولم يبق فيها من المباني الظاهرة سوى المرفأ وقد ظلت المواصلات بين أم درمان والخرطوم بواسطة الرسائل التلغرافية التي أحسن استعمالها موظفو إدارة التلغراف في الحكومة السابقة

أبقى عبداً لله قسماً كبيراً من السور المحيط ببيت المال والمؤدي إليه (لم يكل هذا البناء في زمن عبد الله) وعلى طول هذا البناء امتدت حوانيت لبيع المواد التجارية المختلفة وإلى جوارها حوانيت منفصلة وأما كن صغيرة مستقلة للحلاقين والنجارين والقصابين والخياطين ومن شابههم . هذا إلى أن عبد الله عني بنظام المحتسبين الذين كانوا مسئولين عن حفظ النظام في المدينة . وأنه لما يفزعني أن أذكر المشائق وآلات الأعدام التي كانت موزعة في جميع نواحي أم درمان فقد كانت أكبر دليل على حالة المدينة وموقف السودانيين من حكومتهم

كان سكان أم درمان موزعين في مساكنهم تبعاً لقبائلهم فكان العرب التابعون للقبائل الغربية يسكنون غالباً في المحلات الجنوبية أما القسم الشمالى فكان مخصصاً لسكان وادى النيل ورغم وجود المحتسبين والمحافظين الرسميين على نظام المدينة كان مفروضاً على كل قبيلة أن تعين من بين رجالها من يقومون بحفظ الأمن والسلام في القبيلة ذاتها على أن يبلغ أولئك عن أى اضطراب أو خلل في القبيلة إلى رجال الحفظ المعيّنين من قبل الحكومة

إذا استثنينا الشوارع المنتظمة التي أنشأها وخططها الخليفة عبد الله أرضاء لراحته ومزاجه فحسب وجدنا المدينة عبارة عن منحدرات وعطفات مملوءة بقاذورات وبطبيعة الحال أجد شخصى عاجزاً عن وصف الأضرار الصحية المنبعثة من تلك القاذورات الكريهة الرائحة في الأماكن الوبائية التي تجمعت فيها كل أوساخ أم درمان . ويكفينى القول بأن جثث الخيول الميتة ترمى في تلك النواحي وأن الجمال والحمر والماعز ترحم الطرق الضيقة وتملأها بأوساخها وقاذوراتها وكل ما يعمل به الخليفة هو أن يصدر أوامره قبل أيام أعياد مخصوصة في كل سنة باكتساح هذه الأوساخ وتنظيف الطرق الضيقة فلا يتعدى التنظيف حد إلقاء الجيف المنتنة في زوايا الحارات فإذا ما جاء فصل الشتاء المطر حمل الهواء (المشبع بالروائح الكريهة المنبعثة من تلك الأوساخ والجيف) بعض أمراض وبائية تعمل على قتل المئات من السكان لمساكين

كانت المدافن قبل عهد الخليفة عبدالله قائمة وسط المدينة ولكن تبرم الاحياء وتذمرهم من الروائح التي أصيب بها السكان من ذلك النظام اضطر عبد الله الى انشاء مكان فسيح خاص واعداده لدفن الموتى وقد وقع اختياره على الصحراء الواقعة شمال مكان استعراض الجنود

سهل على القارىء أن يتصور انتشار الامراض في السودان بعد أن عرف الشيء غير القليل عن الروائح الكريهة وأوساخ البهائم في جميع نواحي أم درمان تقريباً إلا أن ذلك الانتشار لا يمنعنا من تخصيص الامراض الخطيرة السائدة هناك فنقول ان الحمى والدوسنتاريا هما شر ما يبلى به ساكنو أم درمان ولا تكاد تنقطع حمى التيفوس الوبائية بين نوفمبر ومارس من كل عام

نتكلم الآن قليلاً عن مياه أم درمان فنقول ان الآبار المفيدة والينابيع المعدة لجلب المياه الصحية انشئت قبيل عام ١٨٩٥ وتلك العيون الصحية أقيمت في الناحية الشمالية من المسجد الكبير . أما الآبار المحفورة في نواحي أم درمان الجنوبية فماؤها أجاج في غالب الاوقات . وهي في مجموعها تختلف في العمق بين ثلاثين وتسعين قدماً وقد تم حفرها بواسطة المسجونين تحت رقابة الحراس الغليظي القلوب . ومما يذكر في صدد السجن والحراس أن المرء في أم درمان يسمع كثيراً من المارة قولهم (لقد أخذوا صاحبنا الى السعير) ومعنى السعير عندهم هو السجن الذي يلاقى فيه المغضوب عليه عذاباً شديداً . ان مجرد لفظ هذه الكلمة (السعير) يولد الاضطراب والفرع في نفوس جميع سامعيها . أما السجن فقائم في الناحية الجنوبية الشرقية من أم درمان على مقربة من نهر النيل وهو مسيج بحائط ضخمة . وللسير الى السجن يمر الانسان بردهة خارجية فسيحة يحرسها نهراً وليلاً جنود من السودانيين الخيفين فاذا ما عبر المرء تلك الردهة وصل الى ساحة داخلية مكونة من غرف طينية صغيرة لاقامة المسجونين المنكودي الحظ الذين اعتادوا — وهم في السلاسل والاصفاد الثقيلة — قضاء سحابة اليوم في ظل ذلك البناء وهم في سكون وجود كاملين لا يتخللها من الاصوات سوى رنين السلاسل والاورام القاسية الصادرة من الحراس الغلاظ القلوب وصراخ وتأوهات بعض المسجونين المضطهدين من جراء ما ينزل على

أجسامهم من سياط الجلد والتأديب والويل كل الويل لمن تعرض لسخط الخليفة ومخالفة أمره فامثال أولئك يرمفون في أثقل الاغلال بعد أن يحتم عليهم مراقب السجن البقاء في أصغر الغرف والامتناع عن الاختلاط بباقي المسجونين

وفي الغالب كانوا يأخذون من الطعام ما يكفي لبقائهم أحياء، أي أن أمر مراقب السجن كان صادراً ببقائهم دائماً في حالة الجوع الشديد التي لا تعرضهم للموت مقابل الكمية القليلة التي يتناولونها للغذاء أما المسجونون العاديون فلا يتناولون مقداراً منظماً من الطعام ومن المسموح لهم جلب الطعام من منازلهم وقد حدث في كثير من الأحيان أن الحراس السلايين التهمين التهموا الجزء الأكبر من الطعام الوارد من منزل أحد المسجونين قبل إيصاله إلى غرفة المسجون وفي أحيان أخرى كان أولئك المسجونون التعساء يحرمون من كل ما يرد إليهم من بيوتهم الخاصة عند حلول الليل كان السجنانون يقودون المسجونين كقطيع من الغنم إلى غرفهم الحجرية التي كانت خالية من النوافذ خلوا كلياً وبالتالي كانت محرومة من الشمس والهواء النقي ولم يكن أولئك السجنانون القساة يسمعون نضرات أو توسلات من المسجونين فكانوا يسوقونهم ليلاً إلى الغرف الحجرية شذر مذر وفي الحقيقة كان أولئك المنكوبون يساقون إلى قبور لا فرق بينها وبين قبور الموتى سوى أن النازلين فيها أحياء أشقياء بجور قوهم على ضعيفهم رغم كونهم في المصاب سواء . وقد كان الحراس في كثير من الأحيان يذهبون في الصباح المبكر إلى تلك الغرف السوداء المظلمة فيجدون بعض المسجونين التعساء قد ماتوا مختنقين لعدم وجود ذرة من الهواء في غرفهم المغلقة من جميع نواحيها ولعدم تمتعهم بالغذاء الكافي من الناحية الأخرى . وأنه لمن المفزع حقاً أن يشاهد المرء عشرات من أولئك الموتى في أجسام الأحياء خارجين من كهوفهم إلى فضاء السجن كل صباح بعد أن قضوا ليلتهم منهوكي القوى غير قادرين على النوم في ذلك الوسط الخفيف المضرب بالصحة

إذا ما بزغ نور الصباح خرجوا من غرفهم الصغيرة وهم أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة — واستظلوا بظل حيطان السجن وقضوا بقية النهار في السعي إلى راحة

أجسامهم من ألم الليلة السابقة وعمدوا الى اكتساب قوة جديدة يستطيع بها كل مسجون مواجهة ما ينتظره في يومه من أتعاب وآلام

من المعقول جداً أن كلا من أولئك الأحياء التعساء كان يفضل الموت على تلك الحياة الشاقة المؤلمة ولكن الواقع خلاف ذلك فقد سعى كل الى البقاء في الحياة مهما قاسى من ألم وضنك وقد كانت دعواتهم الى الله محصورة في انتقاذهم من الشدة التي انتابهم ومع أن السجن كان مزدحماً ومعرضاً المسجونين للاختناق، ومع أن المسجونين كانوا يلاقون من العسف أهوالاً ومصائب وآلاماً مبرحة — مع ذلك لم أسمع مدة اقامتي في السودان أن واحداً من المسجونين سعى الى الانتحار

وأذكر الآن تشاراس نيوفلد الذي قضى بضع سنوات في ذلك السعير السوداني معرضاً للمرض والعسف والاضطهاد فقد كان من المتوقع موت هذا الرجل بين آن وآخر ولكنه بقي على قيد الحياة بواسطة المساعدات التي وصلت اليه بواسطة خادمه الاسود الأمين الذي أحضره معه من مصر والى جانب تلك المساعدة كان الاوربيون المقيمون في أم درمان يقدمون ما يستطيعون من عون الى هذا المسجون الاوروبي البائس .

فضل تشاراس البقاء على قيد الحياة رغم كونه كان راسفاً تحت سلاسل ثقيلة حول رقبته وقدميه ومما نذكره عنه أنه رفض في ليلة من الليالي البقاء في غرفة حجرية وصفها بأنها « آخر مرحلة مؤدية الى نار الجحيم » فجوزى على تعته هذا بالجلد بسياط السودان الموحدة ومع ذلك تحمل آلام الجلد بصبر مدهش فلم يشك لحظة واحدة حتى اضطر الجلادان الى سؤاله في دهشة وذهول « ما الذي يدعوك الى عدم التذمر وما الذي يمنعك عن طلب العفو ؟ » فأجابهما نيوفلد بجرأة غريبة (وقلب حديد) نالت احترام وأعجاب السجانين (هذا التذمر وذلك الطلب الذي يذل يصدران من الآخرين أما أنا فلن أذل نفسي بشيء من ذلك)

بعد أن قضى هذا اليأس ثلاث سنوات في السجن خففت السلاسل التي كان يرسف فيها ثم نقل الى الخرطوم ولم يبق من الاغلال الا ما كان حول الساقين . وعندما وصل الى سجن الخرطوم أمر بتكرير وتنقية ملح البارود المعد لعمل البارود

وكان ذلك التكرير تحت مراقبة واد حامدين الله وفي ذلك الحين تحسنت حالته كثيراً وقد كان يمنح مكافأة شهرية ضئيلة مقابل هذا العمل فكانت تلك المكافأة مساعدة له في الحصول على حاجاته الضرورية للحياة

كان معمل تكرير ملح البارود مجاوراً لبناء الكنيسة التابعة للارسالية الدينية في الخرطوم فساعد ذلك التوفيق زميلنا تشارلس على النجاة من مخالب الضنك والتعب حيث كان مسموحاً له (نيوفلد) بعد الانتهاء من عمل النهار الشاق المؤلم أن يقضي ليلة في حدائق كنيسة الارسالية . وليس من شك في أن أفكاره حينئذ كانت متجهة الى أسرته في انجلترا ولا ريب في أنه كان فيما بينه وبين نفسه يلحن ذلك اليوم الاسود الذي أغراه هواه فيه بترك مصر الى السودان حيث وقع في قبضة الخليفة عبد الله

كان من العسير جداً على هذا الرجل أن يذوق الموت ويلقي حتفه دون إثم ارتكبه وقد يكون من توفيق هذا الرجل في وقت قريب أن يجتمع باصدقائه وأقربائه الذين تاقوا الى رؤيته حراً طليقاً من الاسر المفرع ولئن كان من اليسير وجود العدد الكبير من الاصدقاء . (الذين يريدون مساعدة تشارلس) في أوروبا فان الحقيقة هي أن تخلص هذا الاسير البائس من يد الخليفة العاتي لا يتم الا بعون الله وحده

ان قلبي ليتوجع وايكاد يتمزق حزناً وألماً كلما شرعت في كتابة شيء عما يقاسيه المسجونون في سجن (سد) أم درمان ورغم ذلك سأذكر شيئاً عن الرجل البائس الشيخ خليل الذي أرسل من مصر ومعه رسائل خاصة الى الخليفة عبد الله فيها بيان عن عدد أسماء الاسرى الذين سلموا في واقعة توسكي والذين عوملوا معاملة حسنة لم يكن الخليفة يجهنها كما أنه لم يجهل قرب الافراج عنهم وقد ورد في احدى الرسائل المذكورة طلب من اولى الامر الحرييين في مصر تسلم سيف ومداليات الجنرال غردون للشيخ خليل لان أصحاب الشأن في مصر لم يشكوا في أن الاشياء المذكورة موجودة عند عبد الله

كان يرافق خليلاً هذا شخص مصري اسمه بشاره فبعد أن أطلع سكرتير الخليفة الخاص على الرسائل وقرأها لعبد الله أمر الاخير بعودة بشاره لمصر دون اجابة على

الرسائل أما خليل البائس (وهو مصرى المولد) فقد قيدت يداه ورجلاه بالسلاسل الثقيلة بعد أن اتهمه الخليفة بتهمة الجاسوسية

أسيئت معاملة خليل الى أقصى حدود الاساءة وحرم من الغذاء الكافي فأصبح هزيل الجسم الى حد لم يستطع معه القيام من الارض وقد بالغ معذبه في اهانتة حتى أنهم لم يسمحوا له بما للشرب وأخيراً نفذ قضاء الله وحكم الموت الهاديء في خليل فتلقاه بسرور وهو على ثقة من أن موته أعظم منقذ له من آلامه المبرحة

تتكلم الآن عن بائس آخر اسمه صالح وهو تاجر يهودي من تونس فقد جاء هذا البائس الى كسلا باذن من أبي حرجه فلم يكذبصل اليها (كسلا) حتى صدر أمر الخليفة باعتقاله وترحيله الى أم درمان حيث ظل معذباً في السعير (السجن) لغاية كتابة هذه السطور (عام ١٨٩٧) وهو عبارة عن هيكل عظمى لا أمل له في الحياة الا بمساعدة زملائه ورجال فرقته الذين اضطروا الى اعتناق الدين الاسلامي للتمكن من ايصال كميات قليلة من الطعام الى صالح هذا

بين المسجونين اثنان من العرب العابده اتهمتا بحمل رسائل الى الاوربيين في أم درمان فاعتقلا وماتا في السجن بعد أن هلكا جوعاً فليس بدعاً أن يضطرب الاوريون المقيمون في ام درمان ازاء سوء معاملة الخليفة معهم من ناحية غير مباشرة ولكن من حسن الحظ اتضح أن الرسائل واردة الى رجل قبلى من أقربائه في مصر كان عبد الله كثيراً لميل الى الوشايات وتصديقها ومما تزويه في هذا الصدد أن عسكر أبا كلام شيخ قبيلة جمعه الكبيرة كان مشهوراً بصداقته للخليفة عبد الله ولايه من قبل ولكن تلك الصداقة لم تجده شيئاً عند ما وصل الى أذننى الخليفة أن عسكراً هذا تكلم بشدة ضد الحالة في السودان ففى ذلك الحين أمر عبد الله بالقاء عسكر فى السجن راسفاً في الاغلال الثقيلة تأديباً له وزجراً لغيره . ولم يقب الامر عند هذا الحد بل نفي الى الرجاف وحملت زوجته « التى كانت مشهورة بجمالها الرائع » من بين ذراعي زوجها « اثناء توديعه قبل نفيه » الى دار عبد الله لتكون واحدة من حريمه

سبق فى الفصول السابقة ذكر الشئ الكثير عن الامير السوداني الشهير زكي

طومال وهنا تقول انه عندما صدرت أوامر الخليفة باعتقال هذا الامير عومل معاملة سيئة جداً تدل على الغلظة القاسية والانتقام الشنيع فقد بنيت له غرفة من الطين شبيهة بالقبر وأغلق بابها على من فيها ولم يسمح له بشيء من الطعام على الإطلاق وكل ما من به الخليفة هو مقدار صغير من الماء سلم له من كوة صغيرة في الغرفة الحجرية وقد تمكن زكي طومال الشجاع من البقاء ثلاثة وعشرين يوماً حياً بواسطة الماء الا أن الجوع أنهكه لدرجة الموت ومع ذلك لم يشك طومال لحظة واحدة ولم يطلب عفواً من عبد الله رغم بقائه في ذلك القبر الشنيع . فقد كان زكي طومال من ناحيته شديد الالباء بعيداً عن التذلل ومن الناحية الاخرى كان واثقاً من عبث السعي الى هذا العفو من رجل اشتهر بانتقامه المريع وقساوة قلبه وقد ظل على تلك الحال الى اليوم الرابع والعشرين من سجنه حتى حملة الموت الى مقره الاخير ليرتاح من قساوة معذبيه في السجن وانتقام عبد الله في الخارج

في فجر اليوم الرابع والعشرين سمع بعض الحراس الغلاظ القلوب زفرات الموت من غرفة زكي طومال وعندما سكن الصوت وتحقق أولئك الطغاة من موت الامير أسرعوا لرف البشري الى سيدهم عبد الله فأمر الاخير بحمل جثة الامير (زكي طومال) الى الناحية القريبة من أم درمان وهناك دفن على كومة من الخرق البالية وظهره مقابل مكة (دفن زكي على هذه الصورة يرعى الى تحقيره بابعاد وجهه عن القبلة) فان الخليفة عبد الله لم يكتف بتعذيب غريمه طومال في الحياة بل أراد مواصلة التعذيب والانتقام منه في موته بابعاده عن مكة ليحرمه من السلم والراحة في العالم الثاني . كان عبد الله شديد الخطر على الجميع حتى انه لم يتأخر عن الشك في القاضي احمد الذي يعد اقرب المتصقين به فقد اتهمه بخيائته فأمر الحراس بالقاءه في الغرفة التي ألقوا فيها زكي طومال من قبل وبعد يومين من سجن احمد هذا دخل اليه في غرفته قاضيان بأمر من الخليفة وهناك سألا زميلهما البأس احمد عن المكان الذي خبأ فيه أمواله فأجابهما احمد بجملة : « أخبرا سيدكما عبد الله الخليفة أنني زهدت الدنيا ولا أعرف مكاناً أجد فيه الذهب او الفضة »

تحايل القاضيان كثيراً على زميلهما السابق وسعيا جهدهما في الوصول الى معرفة

المكان الذي يوجد فيه ماله وعندما فشلا عادا أدراجهما مطأطأى الرأسين الى الخليفة وقد كان ذلك الامر كله قبل مغادرتي أم درمان بيضعة أيام . وقد تأكدت عقب رجوعي الى مصر أن القاضي احمد توفى بعد أيام في سجنه على الصورة التي توفى بها زكي طومال

ان المرء يستطيع ملء مجلد كامل بفظائع وقسوة الخليفة ضد المسجونين في السعير (السجن) ولكن من العبث اتعاب القارىء بذكر فظائع وحشية ارتكبت بأمر هذا الظالم المستبد الغليظ القلب عبد الله .

الفصل السابع عشر

وسائل النجاة

كنت أرمي من وراء بقاءى الى جانب الخليفة عبد الله والتصاقى به الى غرض مزدوج الفائدة فقد رغبت في تعرف طباعه من ناحية ومن تعرف أحوال السودان من الناحية الاخرى بطريقة تكاد تكون رسمية أما الخليفة عبد الله نفسه فكان بتقريبه اياي يقصد شيئين متقاربين ويرمى الى فائدتين فقد كان على ثقة من أني الموظف المصري الاجنبى الوحيد الملم بشؤون السودان إلماما كلياً دقيقاً وأني جئت البلاد السودانية ودرستها وأصبحت على معرفة كاملة بلغة التخاطب الداخلية وسأذكر الغرض الثاني بعد قليل .

كان عبد الله على جهل فاضح بالشؤون السياسية وقد ذهب به فكره الى أن خروجي من السودان خطر داهم عليه هو شخصياً لأنى اذا وقعت الى النجاة فمغنى ذلك اني أتمكن بسرعة من اغراء الحكومة المصرية أو أى حكومة أجنبية عن السودان الى دخول تلك البلاد واستقاط نفوذ عبد الله وفي ذلك الحين أتمكن من إيجاد صلة متينة ورابطة وثيقة بين الحكومة الجديدة وبين أفراد وزعماء القبائل الذين يكرهون حكم عبد الله أشد كراهة واذن ينتهى الامر الى انشاء حكومة نظامية في السودان . قلت ان غرض عبد الله الاول من بقاءى هو الماى بشؤون السودان أما الغرض الثاني

يرجع الى نزعة نفسية فقد رغب عبد الله في ارضاء كبريائه باستخدام الرجل الذي كان فيما مضى حاكم اقليم دارفور بأكمله وحاكم قبيلته في استخدام الرجل الذي تمتع بنجاح في هذه السلطة بعد عظمة لعبد الله في عيون السودانيين خصوصاً اذا بقي الرجل المذكور (مؤلف الكتاب) كأسير بين يدي الخليفة ومن المدهش أن عبد الله لم يتأخر لحظة واحدة عن الظهور بهذه العظمة الكاذبة فكان بين آن وآخر يقول رجال القبائل القريبة « انظروا هذا الرجل الذي كان فيما مضى سيدنا وحاكم نييلتنا والذي قاسينا الآلام تحت حكمه الجائر انظروا اليه اليوم تجدوه خادمي وسامع وامري والملتزم تنفيذ ما أشير به اليه في أية لحظة . انظروا الى الرجل الذي انغمس في بحر الشهوات وكان منقاداً وراء تيار المعاصي تجدوه اليوم لا بساجيته القدرة سائراً حافي القدمين فلا ريب اذن في أن الله رؤوف رحيم »

كان عبد الله كثير الحذر والخوف مني ولم يعن كثيراً بغيري من الاسرى لاوريين الذين عاشوا عيشة بسيطة قوامها الاتجار في المواد المختلفة في حي قريب من ميدان سوق أم درمان حيث بنوا غرفاً خاصة لتجارهم ظلوا فيها آمنين لا يعكر صفوهم أي تدخل من الاهالي

كان الاب اوهر والدر نساجا يعيش هو وأهله مما يكسبه من نسج القطن وعاش لاب روزينولي ويوروجنتو (وكلاهما من طائفة الارسالية الدينية المسيحية) يباعين ساعات في الدائرة المركزية للسوق وقد عاشت السيدات الاوريات الى جانب ولتلك الاوريين حتى نجون معهم وقت تدبير الهرب مع استثناء الاخت تريزه جوبجولتي

يتبقى بعد ذلك جوست حويزي أحد الكتاب الاجانب ثم طائفة أخرى من يونانيين وسوريين ومسيحيين والاقباط ويبلغ مجموع اولئك خمسة وعشرين رجلاً نساء تزوجوا وتزوجن من مسيحيين ولدوا في السودان أو مصريين ومصريات

تسمى المنطقة الداخلية لاولئك المسيحيين المسلمين (تطلق على المتناسلين من يبر المسلمين بوجه عام وقد أطلقها اتباع المهدي على كل من لم يدينوا بالاسلام) وقد شغل اولئك بامورهم وانتخبوا من بينهم أميراً ائتمروا بأمره وقد كان

ذلك الرئيس المسيحي مسئولاً لدى الخليفة عن كل مايجرى في دائرته وعن كل شخص غير مسلم في أم درمان واسم الأمير الحالي (في عام ١٨٩٦) نيكولا وهو رجل يوناني يطلق عليه السودانيون اسماً عربياً مماثلاً لاسم الخليفة عبد الله ومهما يكن الامر فلم يكن مسموحاً لاي شخص من اولئك المسيحيين بمغادرة أم درمان وقد كان مفروضاً عليهم أن يضمن الواحد منهم الآخر ومن نتائج ذلك أنه عندما سافر الاب روزينولي صدرت الاوامر بالقاء زميله وضامنه بيبو في السعير (السجن) وقد زادت المراقبة واشتد الاضطهاد على اولئك المنكوبين بعد فرار الاب أوهر والدر . فقد انشأ الخليفة خصيصة مكاناً حصيناً لحجزهم فيه من الناحية الشمالية الشرقية من المسجد الكبير حيث كان مفروضاً عليهم أن يحضروا الصلوات الخمس يومياً وقد كان الخليفة عبد الله داهية في ذلك الامر فانه أمر بأن يذهب الشخص من أولئك (غير المسلمين عامة والاوروبيين بصفة خاصة) مرة في اليوم للمسجد وعين الاحصاء مراقباً يقدم بعد نهاية الصلوات الخمس يومياً تقريراً الى عبد الله يتمكن بواسطته من معرفة التغيب واذ ذاك يرتاح ضميره لانه يثق من بقاء جميع اولئك المحجوبين في ناحيتهم الجديدة

كانت مساكنهم الصغيرة متلاصقة وتبعاً لذلك كان من اليسير جداً اتصال الواحد بالآخر مما خفف عنهم آلام الوحشة والاضطهاد اما أطفال اولئك الاشخاص وأولادهم الصغار فكانوا ملزمين بالبقاء في التكايا السودانية حيث يتعلمون القرآن قد وصفت فيما مضى كيفية سكنى وما أحاط به في الحياة السودانية وبقي على أن أضيف لما تقدم أنه كان مسموحاً لي أن أتكلم مع قلائل من الحرس الخاص الذين كانوا — مثلي — اما تحت الرقابة واما — وهذا خلافي طبعاً — كجواسيس للخليفة يراقبون الاجانب ويكتبون التقارير الوافية عن أقوالهم وحركاتهم ثم يرفعونها كل مساء الى دار الخليفة أما دخول المدينة (ام درمان) فكان غير مسموح به الا في النادر هذا الى أنني منعت منعاً كلياً من زيارة المنازل أو زيارة الناس لبيتى الصغير ومما أرويه عن ميول الخليفة الشخصية أنه كان مولعاً جداً بالساعات الصغيرة وساعات الحائط على اختلاف حجومها وقد وضع علي الخليفة — فيما وضع من مهمات

— مهمة تنظيف الساعات الكبيرة واصلاح ثلاث ساعات للجيب يتناوب حملها وقد تمكنت بواسطة هذه المهمة من زيارة ساعاني ارمنى يدعى ارتين بدعوى أن ساعة من ساعات الحائط فى دار الخليفة تحتاج الى الاصلاح

كان بيت الخليفة عبد الله قائما على مقربة من ميدان سوق أم درمان حيث كنت أقابل بين حين وآخر مع أفراد مخصوصين كنت أرغب رغبة صادقة فى مقابلتهم . والتحدث معهم . أما فيما يختص بموقفى مع ارتين بائع الساعات فلم أكن أثق فيه على الاطلاق وكل مادعانى الى التوجه اليه فى أوقات مختلفة هو نزوعى الى الالتقاء بالأشخاص المعينين ولئن اضطررت الى الكلام معهم فلم يكن ارتين يسمع ما يدور بيننا من حديث .

كان أغلب وقى مقضيا فى الفسحة الكبرى المواجهة لدار الخليفة حيث يتلى القرآن ولم يكن مسموحا على الاطلاق كتابة أى شىء . لان عبد الله كان يرى من العار أن اعمل شيئا أو أنعلم جديدا لم يكن هو يعرف عنه قلبلا ولا كثيرا . ورغم ما أبداه عبد الله من حذر وريية كان يضطر الى دعوتى لاصطحابه فى المسجد الكبير أو فى بعض الرحلات الداخلية الخاصة وكانت وظيفتى معه شبيهة بوظيفة مستشار حاكم الدولة . وازاء أتعابى هذه كلها لم أكن ممن يتناولون مرتبا من الدولة فكنت تبعا لذلك على خفض من العيش فكان طعامى عاديا جدبا يتكون غالبا من العصيدة والبقول الحقةرة وفى يوم أو يومين من الاسبوع كنت أتناول قطعة صغيرة من اللحم بعد شرائها خصيصا من السوق

تأكد عبد الله رغبتى فى الحرية وتطلعى الى الفرار من قيد الاسر ورغم ما بذلته لتحويله عن ذلك الفكر لم أستطع نفى ما فى مخيلته من شكوك وريب وفى الوقت نفسه كان يخشأنى ويتملقنى فقد وهب لى الكثير من العبيد وعرض على الزواج من بنات أسرته واجتهد فى تقديم هدايا كثيرة لى ليحول بينى وبين الفرار بطرق لطيفة ولكنى أصررت على الرفض إباء فزاد ذلك مخاوفه وشكوكه وتأكد انى أتطلع لأول فرصة أتمكن فيها من مغادرة أم درمان الى الخارج وفى ذلك العمل خطر عظيم عليه خاصة وعلى بلاده عامة

بعد سقوط الخرطوم سعى أفراد أسرتي في أوروبا جهدهم للوصول الى معرفة
أخباري الوثيقة ولكنهم تأكدوا أن الظهور بهذا المظهر خطر داهم على أزاء عسف
الخليفة وشكوكه

لم يدخر فون جسر (قنصل النمسا والمجر في القطر المصري) جهداً في استقصاء
أخباري وقد وجد هذا الشخص الكبير المقام تعصيلاً ظاهراً من جانب الضباط
الملحقين بالجيش المصري وغيرهم من الموظفين . ومما أذكره عن أولئك الآخرين
أنهم كانوا الواسطة في وصول الاخبار الي أفراد أسرتي عن طريق حاكم سواكن
عام ١٨٨٨ فاني شخصياً لم أكن استطيع إيصالها الى الضباط لأنني - كما قلت في
الصفحات السابقة - كنت محروماً من الاختلاط بأي شخص أجنبي والتزاور مع
أي موظف رسمي

مما تقدم يقف القارىء على مقدار فزع الخليفة وسوء ظنه وقد زاد ذلك الريب
وصول خطاب من الهرفون روستي (الذي خلف الهرفون جسر في القنصلية النمساوية
في القطر المصري) الى الخليفة يطلب منه فيه التصريح بقبول قسيس يعظ الرعايا
النمساويين المقيمين في السودان . وأظن أن أكبر ما أثر في الخليفة وحول وجهته
ضدي هو ورود خطاب من القنصل النمساوي يستعلم فيه عن الحالة في السودان .
ومن المدهش أن الخليفة عبد الله استطاع كظم غيظه فطلب مني كتابة بيان عن
الموقف الأخير في أم درمان خاصة والسودان عامة . وبطبيعة الحال لم يبال الخليفة
بخطاب الهرفون روستي وكل ما غنى به هو اتهامي بالخيانة من ناحية والكذب من
الناحية الأخرى لأنني كنت أخبرته قبلاً أن جميع الرعايا الاوروبيين في السودان من
الايطاليين مع استثناء الأب أوهروالدر النمساوي فقد جاء طلب القنصل النمساوي
مخطئاً ومكذباً لياني . ومن الحق لم أرم من وراء ادعائي أن الاجانب في أم درمان
جميعهم غير نمساويين الا الى شيء واحد هو الخوف مما قد يحيق بهم من سوء عبد الله
في حالة غضبه على شخصي فقد يخيل اليه في اليوم الذي يريد فيه الاقتصاص مني أن
يهلك جميع الاوروبيين لانمائهم الى الجنسية التي أنتهى اليها في حين آتي كنت أسعى
جهدي لحلمهم على النجاة

كان الخطاب الوارد من الهر روستى ضربة قاضية على جميع تديراني التي قت بها لصالح اخواني . ومع ذلك سميت الى اقناع الخليفة بان الغرض من كتاب روستى هو ضم جميع الاوروبيين المقيمين في السودان تحت الشعار النموى ولكنى عبثاً حاولت اقناعه فقد عمد الى مواجهتى بعد أن كان مكتوماً من قبل ثم أهمنى بالكذب الصريح ومحاولة غشه .

وضع أفراد أسرتى مقداراً من المال تحت تصرف قنصل النمسا الجنرال ليستعمله وقت الحاجة لمساعدتي وقد تمكنوا من ايصال مقادير مالية مختلفة لى بواسطة العرب وذلك بعد التسهيلات الشديدة التى تفضل بها على كثير من الضباط الملحقين بالجيش المصرى مع سعادة الماجور ونجت مدير الادارة الحربية ولا أنسى في هذا الصدد أن أقول للقراء باني في كثير من الاحيان كنت استلم مقادير أقل من المذكورة في الرسائل التي سلمها الى أولئك العرب ولكنى كنت مضطراً الى تقرير حصولي على المبالغ كاملة ومهما يكن الامر فقد كنت شاكراً لمن أرسلوا لى المال بمقدار شكرى لمن أوصلوه الى يدي لان الاخيرين ساعدونا مساعدة كبرى في حمل رسائل وتقارير سرية الى أفراد أسرتى دون وصول الجواسيس اليها

كنت شديد الحيلة في صرف المبالغ فقد اجتهدت في الظهور بمظهر البائس الذى لا يجد ما ينفقه حتى لا تتطرق الريية الى نفوس العسس وحتى لا يقف الخليفة على حقيقة أولئك الاعراب الذين تفضلوا بمساعدتي وتبعاً لذلك عشت أبسط عيشة ودفعت ما وفرته لاصدقائي المعوزين .

وثق أصدقائي المقيمون في القاهرة — بعد أن حرمني الخليفة من أى اتصال بالخارج — أنه من المستحيل عليهم العمل على انتقاذى ولذلك فكروا ملياً في الطريقة التي أتمكن بها عند سnoch الفرصة من الفرار والنجاة من عسف عبد الله . وفي الحق كنت عارفاً من اللحظة الاولى التي وقعت فيها في الاسر أن نجاتي لا تتم الا بواسطة الفرار في الفرصة المناسبة وعلى الرغم من قضاء اثني عشر سنة في عذاب وتحت نير الاضطهاد لم يذهب الامل لحظة واحدة من خاطري فقد كنت على ثقة من الفوز بأمني في النهاية بعد صبري العجيب

قصيت السنين ولم يعلم انسان حقيقة ما في نفسي وما اعترمت تنفيذه ولكني ذكرت عرضاً عرض لابراهيم عدلان وقد وعدني الاخير وعداً صادقاً بانه سينذل أقصى ما في وسعه لاتقاضي

ولكن من سوء الحظ قد وقع غضب الخليفة على ابراهيم عدلان هذا بعد أيام من وعده الشريف فتني من أم درمان وخسرت أنا بذلك النبي صديقاً مخلصاً وحامياً شجاعاً نبيلاً .

عندما مات ابراهيم عدلان أفضيت بسرّي الى شخصين أثق ثقة كلية في أمانتهما وقدرتهما على كتمان السر ورغم كوني على ثقة — بالنسبة الى ميلهما الى من ناحية والى كراهيتهما الشديدة للخليفة من الناحية الاخرى — من رغبتهما الشديدة في تخليصى من قبضة عبد الله لم أوفق في سعيي ولم تصل مفاوضاتى معهما الى نتيجة ولم يكن ذلك لقلة وجود المال الكافى لاتقاضى واستعماله في هروبي وانما يرجع الى خوف ذينك الشخصين من افتضاح أمرهما وظهور اسميهما بعد فرارى وبما أنهما صاحبا عائلتين في السودان فلم يكونا يرتابان في أن العمل الوحيد الذى يعمل به الخليفة اقتصاصاً منهما هو نفيهما ثم حمل زوجة كل منهما الى دار حرم عبد الله ثم تشريد أولاد كل من الرجلين وهذا بلا ريب قصاص فظيع وعقاب لا تحتمله النفس .

فى الوقت نفسه لم يكن أفراد أسرتي ساكتين بل كانوا يدبرون كل الوسائل الممكنة لاتقاضي ودعاهم جهم اياى الى بذل كل ما يستطيعون من عون وتعضيد . وبما أنهم كانوا على جهل كلي بما يجري فى السودان وعاجزين عجزاً مطلقاً عن مد أيدى المساعدة من فينا الى في أم درمان لم تكن أمامهم وسيلة سوى دفع قيم مالية تستخدم لحسابى عند قنصل النمسا فى مصر وقد كانت تصدر الى الاخير تعليمات من وزير خارجية النمسا باستعمال الاموال المذكورة على أحسن صورة ممكنة لاتقاضي وانه لمن الواجب على أن أذكر بالثناء البارون هدلفون اجيرج (سفير النمسا المفوض فى احدى دول اوروبا الآن عام ١٨٩٥ — والذى كان فيما مضى قنصلاً للنمسا فى مصر) فقد سعى جهده لاتقاضي فى الفرصة الملائمة وبطبيعة الحال لم يكن من الحكمة التوصل لمساعدتي بواسطة أى شخص فأمر الهروب خطير يستدعى الاستناد الى

الوثوق منهم ثقة تامة ولذلك عمد القنصل النمساوى الى اختيار أفراد مؤتمنين يسمون لى من جانب موظفى الحكومة فانتدب القنصل لهذا الغرض الكولونل شيفر بك وبعد مدة غير كبيرة استعان بالملاجور ونجت الذى أظهر فى ظروف كثيرة عطفاً كبيراً ولا ريب فى أنى مدين بحريتي لكل من الملاجور ونجت والبارون هول فبدونهما لم يكن ميسوراً الحصول على أشخاص أمناء من العرب يوصلون الى المقادير المختلفة من المال وسأظل طول حياتى شاكراً لدينك الرجلين الكبيرين جهودهما المتواصلة فى سبيل نجاح مساعهما وتسهيل أمر الفرار على شخصى العاجز امام الخليفة الشديد السطوة . ومع أن الجميع فشلوا فى مساعيهم وبدأ منهم لمساعدتي ما أدخل الريبة فى قلب الخليفة وفى قلوب جواسيسه المنتشرين حوله فاني لا أزال أذكر تلك المهارة الفائقة التى بدت من جانبي الرجلين الفاضلين الاخيرين حتى أن عبد الله لم يدر فى خلده حولهما أى شك

فى الايام الاولى من شهر فبراير عام ١٨٩٢ وصل الى أم درمان من مصر الشيخ بكر ابو زيبه رئيس فرقة جمال دقلة وقد كان هذا الرجل من العرب العابدة فلم تكد نطأ قدماه أرض السودان حتى احضر امام الخليفة وهناك قال لمولاه انه فر من مصر وقدم عن طريق اسوان طالباً عفو الخليفة والسماح له بالاقامة فى بربر وقد سهل له مهمته هذه جملة خطابات توصية الى زكي عثمان أمير بربر ولم يكد هذا الرجل يمر فى ساحة المسجد الكبير ويلتقي بي حتى أسر لى فى أذني « انى أتيت لمساعدتك فاجتهد فى مقابلتي » فأجبت « ان المقابلة تكون غداً بعد صلاة المغرب فى هذا المسجد » وبعد النهاية من جوابي اختفى عن نظرى وعلى الرغم من وثوقي فى النجاة وارتياح ضميرى الى انى سأنجو يوماً من ذلك العش فاني لم أكن شديد الايمان بذلك القول الاخير لاني اختبرت أقوال السودانين والعرب فوجدتهما فى غالبيتها وعوداً كاذبة وأقوالاً لا ترمى لغير تبرير موقف قائلها وقت وقوفه أمامى وتبعاً لذلك قضيت اليوم التالى كما أقضي كل يوم عادى فلم أفكر فى المقابلة أو نتيجتها لاني لم أكن آمل تحقيقها وفى حين حدوثها لم يكن يذهب بالى الى أن نجائي ستتحقق بعدها مباشرة

بعد الانتهاء من صلاة المغرب في اليوم التالي مر بكار في طريقه الى الخارج
 بباب المسجد الذي تقابلنا فيه اليوم السابق . فتبعته بمحذر شديد ثم دخلنا معاً الى القسم
 المحجوب عن الانظار من بناء المسجد وعندما غابت عنا عيون الناس وبعدت عن
 مجلسنا آذان السامعين سلمنى بكار صندوقاً من الصفيح يبدو من رآئحته انه يحتوي
 على كمية من البن وقد قال لى صاحبى العربي « لهذا الصندوق قاع مزدوج فافتحه
 واقرأ الاوراق الموجودة فى آخر القاع الثانى وسأقابلك هنا غداً فى الباب نفسه »
 أخفيت الصندوق تحت عباءتي ثم رجعت الى مكانى وكان مقدراً لى أن أتناول
 العشاء فى تلك الليلة مع الخليفة فارتجف قلبي عندما سمعت تلك الدعوة لاني كنت
 أحمل صندوقاً كبير الحجم الى حدى بحيث يمكن ظهوره تحت ملابسي بكيفية بارزة
 ومن سوء الترتيب أنى وضعت أمام الذى كان يحدد فى طول وقت العشاء . ولكن
 من حسن حظى — الى جانب ذلك — أن الخليفة كان شديد التعب طول يومه فدار كلامه
 حول مواضيع عامة وهذا كله لا يمنع استمرار ريبته وعدم تردده فى انزال العقاب
 الصارم بي وقت سnoch الفرصة . الا أنى لم أتردد فى كل مرة أقابله فيها فى اظهار
 ولائى واخلاصى له وبطبيعة الحال كررت ذلك فى ليلة العشاء . ومن الغريب أنى
 استطعت بعد أخذ قطع صغيرة من اللحم وكمية من القردة المسلوقة ادعاء المرض
 فأذن لى الخليفة بالانصراف الى حيث أقضي ليلتى كل يوم . فأسرعت الى المنزل
 وهناك أشعلت المصباح الزيتى الصغير وفتحت الصندوق بمديتى فوجدت ورقة
 صغيرة كتب عليها بالفرنسية الكلمات الآتية :

« بكار واد أبو زيبه رجل مخلص امين »

الامضاء

(الكولونيل شيفر)

جعلنا (أنا وأحمد) نتساءل عما أصاب الرجال المرسلين لا تقاذنا وأغلب ما أنجبه
 اليه ظن كل منا هو أن الدراويش قابلوهم قبضوا عليهم بعد أن شكوا فى أمرهم
 وارتابوا . ومهما يكن الامر فقد وصلنا الى حيث كنا ممتلئين مخاوف وآلام مبرحة
 وعند ما فارقت احمد عند ساحة الاستعراض طلبت منه أن يخبرني فى المساء عما يحدث
 وفى الوقت نفسه أكدت له أنى مستعد لمحاولة الفرار فى أية لحظة

لم يكد يبدو السحر حتى وصلت الى كوخى الذى تركته منذ ساعات قليلة وأظن أنه من الخير أن أترك للقارىء تصور شـعورى وحالى بدلا من السعي الى وصفها فهذا الوصف مما لا أستطيعه ومن حسن الحظ انى وصلت قبل قدوم أحد الضباط (واسمه عبد الكريم) برسالة من الخليفة يسألني فيها عن سبب تغيبى عن صلاة الفجر فأجيبته بانى كنت مريضا وفى الحق كانت ملامحى كافية لاغراء الضابط وقوعي فى قبضة المرض الموجه

عبثا انتظرت الاخبار من احمد فى ذلك المساء ولم أعلم منه الا بعد يومين عن العرب الذين كانوا معينين لاتقاذى فقد رأى أولئك أنه من العسير جدا تخلصى من الاسر ومن المجازفة الخطيرة التقدم لاتقاذى فعمدوا الى الرجوع من حيث أتوا وعدم الوفاء بوعدهم . وإذن عجزنا عن تنفيذ خطتنا وقد حمدنا الله حمداً عظيما ازاء منه علينا بالرجوع الى أما كنا دون مراقبة أحد ودون وقوف الخليفة وجواسيسه على سر تعييننا فى الساعات القلائل المذكورة سالفا .

بعد أن رجعت سالما لمكانى فى أم درمان كتبت الى صديقى فى مصر شارحا لهم كل ما وقع لى فلم يقنطا واستمرا فى تدبير وسائل المساعدة وهنا اتجهت أنظارهما الى الاب أوهر ولدر الذي — عند ما كان فى مسينا زار أفراد أسرتى وأخذ منهم أقراصا من الاثير تقوى الانسان على احتمال السفر الطويل وتطرد النوم عن المرء . وقد جهز الاقراص المذكورة أوتو كارشيارى وبعد اعدادها وصلت لى كاملة آمنة وقد وضعت تلك الاقراص فى زجاجة صغيرة تمكنت من دفنها بعناية تحت التراب فى بقعة لا يعرفها أحد غيرى

أصبحت واثقا الثقة كلها فى عبد الرحمن واد هرون الذى أرسلته الى مصر برسالة الى البارون هدر ليعين له (عبد الرحمن) الوسائل التى يراها نافعة ومثمرة فى طريق فرارى . وقد تم للمرة الثانية اتفاق بين السفارة النمساوية فى مصر وبين هذا التاجر — وقد تدخل فى هذا الاتفاق الماجور ونجت وملحم بك شقير ونعوم افدى شقير — على أن يأخذ عبد الرحمن ألف جنيه تعطى المكافأة (١٠٠٠ جنيه) لعبد الرحمن فى حالة واحدة هي وصولى الى القطر المصري سالما وقد سلمت

السفارة النمساوية هذا الرجل مائتي جنيه لاعداد الاشياء اللازمة قبل الشروع في الفرار .
في ذلك الوقت عين الماجور ونجت حاكما لسواكن وقد خشي عدم نجاح
عبد الرحمن فأجري اتفاقا شبيها بالسالف مع رجل عربي اسمه الشيخ كزار وكان
المتفق عليه معه السعي الى الفرار بي عن طريق طوكر أو كسلا .

في يوم من الايام سلمني تاجر في أم درمان (قدم ذلك التاجر من سواكن)
ورقة كتب عليها ما يأتي :

« مرسل اليكم الشيخ كزار الذي سيسلمك بعض ابر الخياطة كدليل على أن
الذي يكلمك هو الشيخ وتأكد أنه رجل أمين وشجاع فتق فيه ثقة تامة وتقبل
أصدق التحيات من ونجت »
الامضاء : (أوهر ولدر)

عرفت بعد ذلك بقليل من أحد أقرباء عبد الرحمن واد هرون أن الاخير وصل
الى بربر من مصر وأنه بدأ يجرى المعدات اللازمة لفراري ولكنه اعتزم — في سبيل
ابعاد الريب والشكوك عني — عدم العودة الى أم درمان فكان هذا القرار من
جانبه سبب كدر لي .

بدأ اليوم الاول من شهر يناير عام ١٨٩٥ بعد أن قضيت سنوات شدة واضطهاد
الى جانب عبد الله المستبد الظالم فهل يمر ذلك العام كما مر أسلافه وهل تأمل في
خير جديد نحصل عليه في عامنا الجديد ؟

على أية حال كنت في مستهل ذلك العام شديد الثقة وقد جال بخاطري هاتف
يناديني بقرب الافراج عني من ذلك الاسر فكان قلبي يحدثني بأن أصدقائي
المخلصين الكثيرين في الخارج سيوقعون لامحالة الى اقاذي وانهم سيكسرون أغلال
الاسر ويمكنوني بفضلهم وكرمهم من مشاهدة أفراد أسرتي مرة أخرى على الأقل
قبل موتي وأتي سأنعم بالعودة الى الوطن ومشاهدة رفاق الصبا وأما كن سروري
القديم .

في ليلة من ليالى النصف الاول من شهر يناير عام ١٨٩٥ مر بي في الشارع
شخص لم تقع عليه عيناى من قبل وقد أشار لي هذا الرجل اشارة فهمت منها أنه يقصد
سيرى حيث يسير فخشيت أن يكون جاسوسا فأظهرت له علامة التذمر والاستياء

فأجاني بعد ذلك « أنى الرجل الذى يحمل الابن الصغيرة » فلم أكد اسمع ذلك حتى عمى البشر والسرور فهدت الرجل الى زاوية مظلمة صغيرة مجاورة لكوخى وهناك رجوته أن يسرع فى شرح مهمته لى . فبدأ بتقديم ثلاث إبر صغيرة وورقة صغيرة ثم قال لى بعد ذلك « ان الفرار مستحيل فى الوقت الحالى » . وأضاف الى ذلك قوله « قد أتيت بعد أن اعتزمت عزماً أ كيدا حملك معي الى كسلا ولكن الفرار الى تلك الناحية أصبح فى الوقت الحالى عسيراً بعد انشاء محطات حرية فى كل من الفاشر وأسوبرى وخور رجب والعطيرة المتصلة بعضها ببعض اتصالاً مباشراً الى كسلا » وزاد على ذلك قوله بان أحد جماله قد مات وأنه خسر كثيراً من ماله بالنظر الى كساد الشئون التجارية واذن ليست لديه وسائل كافية لا تقاذى فى الوقت الحالى وتبعاً لذلك طلب منى أن أعطيه خطاباً للماجور ونجت أسأله فيه تسليمه (الرجل المذكور) مقداراً جديداً من المال وقد وعدني هذا الشخص وعداً أكداً بأنه سيرجع اليّ فى بحر شهرين

أما انا شخصياً فقد وثقت أن الرجل لن يسمح بتعريض حياته للخطر فى سبيل اتقاذى وبما أنه أخبرني بعزمه الاكيد على السفر وعدم تمكنه من التأخير طلبت منه بالحاح أن يقابلني فى المسجد الكبير مساء اليوم التالى . وعندئذ اقترقنا فرجعت الى مكاني العادى عند باب الخليفة .

أما الورقة التى سلمها الى الرجل من سواكن فتحتوى على توصية ومدح فيه (الرجل) من الاب اوهر ولدر وقد أجبت على هذه الورقة اجابة مختصرة شرحت فيها كل ما وقع لى وعند ما تقابلنا فى الليلة التالية سلمت شيخنا هذا خطابى فأسرع فى ضمه الى جيبه أملاً منه أن فيه ما يضمن له الحصول على مقدار جديد من المال حسب طلبه . وفى الحق كنت شديد الفزع كثير القنوط وعلى هذه الحالة عدت الى منزلى حيث مررت فجأة بمحمد ابن عم صديقى عبدالرحمن . وكأنا قدرت الاتفاقات أن يسير الى جانبي فى تلك اللحظة حيث همس فى اذني « نحن على استعداد » وأضاف الى ذلك « اشترينا الجمال واحضرنا المرشدين فى الطريق والوقت المعد لنجاتك هو الربع الاخير من القمر فى الشهر القادم . فكن مستعداً » ولم يصف الى

ذلك شيئاً . وقد شعرت هذه المرة شعوراً صادقاً بأنه من الواجب الابتعاد عن اليأس الذى يتخلل الامل في قترات مختلفة .

قبل أن ينتهى شهر يناير من عام ١٨٩٥ وصل الى أم درمان حسين واد محمود مزوداً بتعليمات وتوصيات البارون هيدلر والماجور ونجت وقد أخبرني هذا الرجل العربي الجديد أنه على أهبة الاستعداد لحمل على الفرار وقد رجاني حسين هذا أن اكتب لاصحاب الشأن في مصر بحقيقة ما عمله (حسين) وأن يحمل ما أكتبه الى مصر أحد أشقاء حسين أثناء رحيله للقطر المصري . وبما اني كنت مقيداً باتفاقي مع عبد الرحمن اضطررت الى الانتظار للوقوف على ما يعمل له لعله يوفق الى النجاح ففي حالة فشل مساعيه (عبد الرحمن) عولت على الاستناد الى حسين هذا . وحتى لا أصدم الاخير — بدلا من تقديم الشكر له على الاقل — أخبرته بأنني في الوقت الحالي أرى صحتي غير قادرة على موالاة رحلة كبيرة وانى سأخبره بعزمي النهائي في آخر شهر فبراير . وفي الوقت نفسه أعطيته خطاباً لاصدقائي في مصر ذكرت لهم عامة ولهيدلر خاصة بأنني عولت على الفرار مع عبد الرحمن متمنياً في سعي هذا توفيقاً تاماً . وفي حالة فشلي — وقد دعوت الله الرحمن أن يحول دون هذا الفشل — لا أجد غير (حسين) وسيلة لفرارى . وانى لا أكم القارىء حقيقة ما دار في نفسى بعد أن كثر عار فوسرى والواقفون على رغبتى فقد خشيت أن يفتضح السر عند الخليفة وإذ ذاك تنزل علي صواعق عسفه وغضبه فاني لم أكن أتردد لحظة واحدة في الثقة بان الخليفة في حالة رية جزئية وشك بسيط في مسعاى سيقدمني الى أشق صنوف الموت بعد أن يلقينى في السعير (السجن) وبطبيعة الحال كان عبد الله يتلمس أى ظرف للفتك بى لانه كان فيما بينه وبين نفسه يخافنى كثيراً :

أخبرني محمد يوم الاحد ١٧ فبراير سنة ١٨٩٥ في كايانه القليلة أن الجال المعدة للفرار ستصل في اليوم التالي على أن تستريح من تعبها يومين وفي ليل ٢٠ فبراير نتم مشروعا الخطير وزاد على ذلك أنه في مساء الثلاثاء ١٩ فبراير سيشير الي إشارة أفهم منها أن كل شىء قد انتهى على أحسن صورة وأدركت أنا سنقوم بالرحلة الطويلة الشاقة التى نحتاج الى صبر طويل وعزم ثابت .

ظلمات انتظر بأمل وخوف فالأمل يدفعني اليه ما قضيته من أعوام طوال في عيش مرير قد ينتهي بعد يومين الى حربة مطلقة وأما الخوف فما قد يعرضنا في سبيلنا وعلى أية حال كنت شديد الشوق الى مساء الثلاثاء حتى جاء ذلك الليل والتقيت بمحمد علي باب المسجد الكبير حيث همس في أذني بسرعة داعيا الى الاستعداد للسفر ثم افترقنا هلى أن تتقابل الليلة القادمة

اني أعترف للقراء أنى قضيت القسم الاكبر من تلك الليلة في حالة اضطراب شديد فكنت بين آن وآخر أقول « هل يفشل ذلك النذير كسابقه ؟ » وما زلت أردد القول « هل يعرض سبيلنا حادث غير منظور يقضى على كل مالمدي من آمال ؟ » وازاء ذلك الاضطراب الفكرى لم أستطع النوم لحظة واحدة حتى بدا الفجر فمن شدة التعب اغرقت في النوم العميق ساعتين أو ثلاث ساعات تمنيت بعدها أن أكون في نشاط يمكنني من الابتداء في رحلتى الخطيرة

حان صبح اليوم التالي الذى كان معداً لعملنا الخطير فبدأت في تنفيذ المشروع بالحيلة الوحيدة المعقولة وهى ادعاء المرض فوقفت لدى باب الخليفة وهناك ظهرت بمظهر الضعيف المريض وطلبت من رئيس ضباط حرس عبد الله السماح لي بالتغيب عن صلاة الفجر فى يومنا هذا بعد أن أخبرت هذا الضابط المذكور أنى تناولت مقداراً من الشاي والتمر الهندي لتخفيف ما بي من ألم على أن أبقى هادئاً فى منزلي فى اليوم التالي . وقد حمدت الله لاني تمكنت من الحصول على الاذن بالتغيب عن الصلاة وزيادة على ذلك وعد عبد الكريم بأنه سيعتذر عنى لدى الخليفة فى حالة سؤال الاخير عن تغيبى ولم أكن فى شك من أن الخليفة عند ما لا يرانى فى صلاة الفجر سيسأل عنى بطريقة ما كرهة يريد بواسطتها الوقوف على حقيقة عملي والتثبت من وجودى فى المنزل الا أنه سيدعى طلب الاستفسار عن صحتي بارسال من يرانى من قبله واذن فالمسألة خطيرة ومهما يكن الامر فلم تكن امامى أية وسيلة خلاف هذه للاعتذار عن الامتناع عن صلاة الفجر

قبل غروب شمس ذلك اليوم جمعت خدي وبعد أن أقسم أولئك على الاحتفاظ بالسرو على عدم ذكر ما أقوله لهم لاي شخص آخر أخبرتهم أن شقيق الرجل

الذى أحضر لي رسائل وتقوداً مالية وساعات صغيرة من أقربائي منذ سبع سنوات قد وصل أخيراً بأشياء أخرى جديدة وبما أنه وصل بدون علم الخليفة فقد اضطرت الى عدم افشاء سر مجيئه الاخير حتى لا نحوم حوله أية شبهة بدون وجه حق وعلاوة على الكلمات السابقة قلت لخدمي إني اعتزمت زيارة الرجل المذكور في تلك الليلة لاني اعتزمت الافضاء اليه باقوال يذكرها لأقربائي بعد عودته الى مصر ومقابلة قنصل النمسا في القطر المصري وللأسراع في تنفيذ الرغبة وابتعاد الرجل عن عيون الرقباء فضلت الافضاء اليه بما عندي في أقرب ساعة ممكنة من الليل. وبطبيعة الحال صدق الخدم أقوالي لانهم اعتادوا في السنوات الطويلة التي قضوها معي سماع الأقوال والانباء الصادقة مني وعلاوة على ذلك طمع أولئك الخدم في الحصول على أشياء من الطرائف التي أحضرها الرجل معه من الخارج . واذن اضطروا الى الاحتفاظ بما سمعوه وعدم اذاعة سر ذلك الرجل .

في سبيل تنفيذ مشروعي الخطير طلبت من خادمي الامين (احمد) مقابلتي في صباح اليوم التالي في الطرف الشمالى من أم درمان على مقربة من ميدان فير على أن تكون بعثتي مع هذا الخادم في الوقت المحدد . وزدت على ذلك ان نصحت له بعدم الاضطراب أو القلق في حالة تأخيري عن الميعاد لان العمل الذى رغبت في انجازه يقتضى بطبيعة الحال وقتاً كبيراً وعلى أية حال ألححت عليه (احمد) بعدم مغادرة مكان المقابلة حتي أسلمه المال الذى آخذه من الرجل العربى الذى حضر من الخارج وبعد أن يستلمه احمد يوصله الى منزلى ويأخذ مكافأة على ذلك

أما الخدم الآخرون فقد شددت عليهم في الاحتفاظ بالسر والتزام الصمت الكلى لئلا يصينى خطر جسيم من جراء افترساح الامر المكتوم

أفهمت كلا من خدامي على حدة أنه في حالة استفسار أحد الضباط عنى من أيهم (الخدم) يكون جوابه على الضابط بأنني قضيت ليلة شاقة جداً اضطرت ازاءها الى مغادرة فراشي (المؤلف) ليلا في صحبة خادمي احمد لسماع نصيحة طيبة من شخص لا يعرف أحد مقره . ولكن الذى يعرفه جميعنا (الخدم) هو ذهابه الى شخص خبير بالمرض ولم يوصف الادواء الناجمة

رغبت بعد كل ذلك التضييل أن أسبك حيلتي وأحسن تمثيل روايتي الخيالية فافهمت خدمي باني « مضطر للحصول على مقدار كبير من المال في صباح اليوم التالي فلا حاجة بي الى قسم كبير مما معي لذلك أرى أن أحسن وأفضل مكان يفرق فيه ما معي هو أيدي خدمي الامناء » وحققت القول بالفعل فنفخت كلا منهم ببعض ريبالات وكل ما رميت اليه من تضليلي هو تأجيل الميعاد الذي يذاع فيه خبر فراري فقد كنت على ثقة من أن سر تغيبى سيعرف لا محالة سواء أذكر خدمي حقيقة على أم لم يذكروها ولكني الى جانب ذلك عرفت أن تكتم أولئك الخدم سيؤخر انتشار الخبر بضع ساعات تساعدني في الابتعاد مسافة جديدة عن المكان الذي فررت منه . أما خادمي أحمد فكان ينتظرني في المكان الذي عينته له راكبا بغلتي وأما الخدم الذين اكرت لهم الوعود فعلى انتظار المال الجديد الذي يوزع عليهم بسخاء ١١

ادعيت واختلقت من الاقوال كل ما يستطيع العقل التحايل به على أمثال أولئك الخدم السودانيين ولكني وجدت — الى جانب ما قلته ورتبته — الحاجة ماسة الى حساب تدخل الخليفة واستفساره عنى فادركت أن الخليفة سيسأل عنى فيلقى من خدمي اجابة تدعو الى الريية والشك وحينئذ يأمر الخليفة أحد الخدم للبحث عن احمد وهذا البحث يستغرق زمنا بطبيعة الحال فاذا ما وصلوا اليه ذكر احمد للخليفة حكاية الشخص المنتظر قدومه لتسليم ما هو خاص بي (المؤلف) وتلك العملية الجديدة تستغرق وقتاً آخر يعقبه فشل الباحثين وعندئذ نجسب ينقب عنى العسس والجنود والضباط بعد أن أكون فى الواقع اكتسبت الوقت المساعد للفرار .

بعد أن أدركت ذلك عدت الى افهام خدمي بما ينطقون به عند الخليفة فى

فترات مختلفة

بعد أن أديت صلاة العصر عدت الى منزلي فجمعت خدمي مرة أخرى وشدت عليهم بالاحتفاظ بالسر الهام ثم وعدتهم الوعود الكثيرة بما سأقدمه لهم من هدايا وأموال وبعد ذلك خرجت من عتبة البيت الذى سكنته أكثر من عشر سنين وقبل خروجي توصلت الى الله تعالى أن يحفظنى فى رحلتي الشاقة وأن يحمينى من حياة الاسر والعبودية :

الفصل الثامن عشر

فراري

بعد ثلاث ساعات من غروب الشمس أدينا فريضة صلاة العشاء مع الخليفة في المسجد الكبير وبعد ذلك عاد (عبدالله) الى مخدعه في بيته الخاص ثم مرت ساعة لم يحدث فيها أى تدخل من أى جانب في سير الامور سيرها العادى وفي نهاية تلك الساعة ذهب سيدى ومولاى الخليفة عبدالله الى فراشه ولم أكد أثق من ابتعاد الخليفة عن حر كاتي حتي حملت الفروة النظيفة التي تعودت استعمالها في الصلوات الخمس يومياً ثم ارتديت معطفا صوفياً لوقايتي من البرد ثم سرت في طريق المسجد الى الناحية الشمالية من أم درمان . ولكنى سمعت صوتاً خفيفاً فخشيت وقوف من يعوق فراري الا أنى تبينت الصوت بعد ذلك فعرفت أنه صادر من محمد الذى عينته الظروف الحسنة واسطة لفرارى .

عند ذلك الصوت وقفت فوجدت الى جانب محمد الهادى، الصامت حاراً معداً لركوبى فامتطيت الدابة وأسهرت في مسيرى الخطير في ذلك الليل البهيم . ومن أحسن ما أذكره من دلائل توفيقى في هروبنى الاخير أن الريح الباردة الشمالية اشتدت الى حد اضطر معه كل الآدميين الى الانزواء في بيوتهم الصغيرة اتقاء خطر البرودة القارصة .

سرنا في طريقنا (انا ومحمد) فلم نصادف من الناس أحداً حتى وصلنا الى الطرف الاخير من أم درمان وفي قسم من ذلك الطرف وجدنا بيتاً صغيراً مخرباً قائماً على زاوية من الطريق الشمالية ومن تلك الدار الصغيرة خرج رجل عربى ومن ورائه جمل معد للسفر فلم تكد تقع عيننا الرجل على حتى بادرنى بقوله « سيعينك ذلك الجمل في رحلتك وسأرشدك في الطريق الى مصر »

قال لى محمد بعد ذلك : « اسم هذا الدليل زكى بلال وسيسير معك أولاً الى الجبال المعدة لاجتياز الصحراء بالراكبين فى بقعة خاصة فاسرع تلق النجاة وانى

شخصياً آتني لك سفراً سعيداً واسأل لك من الله الوقاية والامن « ذكر زكي بضع كلمات للجمل دعتة (الجمل) الى البروك على الارض فامتطي (زكي) صهونه ودعاني الى الجلوس على جزه من السرج ورائه مباشرة لعدم وجود جملين في تلك اللحظة وبعد ساعة من رحلتنا وصلنا الى بقعة اختبأ فيها بعض الجمل تحت الاشجار الصغيرة وعلى أية حال كان كل شيء على استعداد تام وكنت أنا شخصياً خاضعاً لأي أمر يصدر لي من زكي مرشدي في تلك السبيل الخطيرة واذن سمعت كلامه عندما أشار عليّ بركوب جمل خاص

قلت لزكي قبل متابعة رحلتنا « هل أعطاك محمد الدواء » فاجابني (زكي) لم استلم شيئاً . وأي دواء تعني ؟ فأجبت بان الدواء الذي أعنيه هو ما يسمونه أقراص الأثير التي تمكن المسافر من مطاردة النوم وتمنحه قوة على مواصلة السفر الطويل الشاق .

ضحك زكي بعد ذلك وقال لي « النوم !! النوم لا تفكر في هذا الموضوع فان النوم لا يجد الى عيني سبيلاً وان الله من فوقنا رحيم قد ير بمكنتنا من مطاردة النوم دون الاستعانة بدواء انساني »

لم أجد جواباً علي ذلك سوى قولي « لقد أصبت أيها الصديق كبدا الصواب واني مشترك معك في الدعاء الى الله بمد العون الاعلى »

واصلنا السير في طريق شمالية وقد كان من الممكن أن تسرع بنا الجمال في طريقنا الا ان أمرين حالاً دون ذلك هما شدة مافى الليل من حلوة وبرودة من ناحية وانتشار أعشاب الحلفا وشجر الميموسا في طريقنا من الناحية الاخرى . وعلى أية حال لم يقف بنا جملانا طول الليل وظللنا ندعو الله أن يمن علينا بالسلامة حتى أشرق نور الصباح البهيج فوجدنا أننا (أنا وزكي) عند أول وادي بشره حيث يجد المسافر وادياً ممتداً الى ملا يقل عرضه عن ثلاثة أميال . وتلك الناحية مزروعة بيزور الدخنة من فصل الشتاء حيث يجد أفراد قبيلة الجعليين الساكنون على شاطئ النيل رياً كافياً من مطر السماء

انضم الينا بعد أن غادرنا طرف أم درمان الشرقي قائد آخر صغير السن اسمه

حامد بن حسين واذن وصلت الى وادي بشره فتمكنت من ضوء الصباح من مشاهدة زكي بلال فاذا به شاب صغير السن مسترسل اللحية والى جواره حامد بن حسين وهو شاب في مقتبل العمر . عندما وقفت الجمال الثلاثة صباحا سألت الرجلين قائلا « من أية قبيلة أنتم ؟ »

فاجابا متضامنين « نحن من جبال جيليف أيها السيد ولتكن واثقا أن ارادة الله وحدها هي التي تساعدنا على ارتياحك الينا »

طال الحديث بيننا نحن الثلاثة بعد أن اطمأنت الى ذينك الرفيقين وانتهز أكبر المرشدين سنا ما لقيه في من صراحة وبساطة فقال لي « الى أى مدى بعدنا عن أعدائنا وبعدهم من الزمن نصل الى الجهة التي يفضل فيها أعداؤنا عن الوصول الينا . »

أجبت على الفور « سيبحث عنى رجال الخليفة بعد الانتهاء من صلاة الفجر ولكن ثق أنهم سيدأون أولا بالشك في فرارى ثم يعقب ذلك البحث عن الجمال التي يركبها الجنود للبحث عنى وكل ذلك يستلزم وقتا فثق أن لدينا ما لا يقل عن أربع عشرة ساعة »

فرد على حامد قائلا « ليس هذا بالشيء الكثير جداً ولكن اذا ساعدنا الله وقوى جمالنا في مسيرها فان لدينا إذ ذاك أملا قويا في قطع شوط بعيد أمين . »

اضطرت عندئذ الى القاء السؤال الآتي على حامد « هل لاتعرف قوة جمالنا على السير وهل لم تختبرها قبلا ؟ » فوجلت عند ما أجبني قائلا « انى في الحق لا أعرف عن تلك الجمال الثلاثة شيئا لانا اشتريناها على عجل في الوقت الذي سمعنا فيه خبر رغبتك في الفرار ولكن الذى ثق منه هو أن الذى اشترينا منهم الجمال قوم مشهورون بامانتهم من ناحية وبمتانة جماهم من الناحية الاخرى »

ومهما يكن من شيء فقد تابعتنا فرارنا بأسرع ما نستطيع وقد عدونا بالجمال عدوا لانتصروا في الارض سرعة لحيو ان كتلك التي قام بها جمالنا الامناء على أنافى الحق أشقنا على تلك المخلوقات غير الناطقة لما انتابها من شدة وتعب ومما خفف الامر انفساط الارض وسهولة تربتها رغم ما نخللها من اكوام وحفر وبعض التلال الحجرية الصغيرة

ويمكنني التصريح دون مبالغة أنا والينا العدو دون وقوف الى ظهر يومنا ذاك حيث ناداني مرشدى فجأة قائلاً . « قف حالا !! ولنبرك جمالنا في تلك اللحظة ولنكن سريعين في عملنا هذا »

خضعت للامر فوقفنا وبركت الجمال . إلا أني دهشت جداً وتولاني الفرع لوقوف الجمال في حين أني اشاهد الجمال وجوادين في مسافة بعيدة ولم أكن اشك في ان الاعداء قادمون للاقتضاض على وعلى المرشدين اللذين معي . فأعددت مسدسي (من طراز رمنجتون) للدفاع عن نفسي وعن معي وقت الهجوم وعند ذلك قلت لمن معي « اذا كنا الآن مكشوفين أمام عيون اعدائنا فلنسر في متابعة الهروب بهدوء ونظام لان بروك جمالنا ووقوفنا متجاورين مما يبعث الشكوك والريب الى اولئك الجنود الذين يتعقبوننا واذن في أية طريق هم سائرون ؟ »

أجابني حامد بن حسين « انك على حق في كل ماتقول اما الطريق التي يسرون فيها فهي الشمالية الغربية »

تقظنا بعد ذلك من غفلتنا وغيرنا طريق سيرنا فجعلناها الشمالية الشرقية وكنا مطمئنين كثيراً وواثقين بأنا سرنا غير منظورين من اولئك المراقبين . ولكننا فرعنا جداً عند ماشاهدنا على بعد ألفي متر تقريباً أحد الجنود التابعين للخليفة مسرعاً امتطاء جواده ومتجها الى ناحيتنا

قلت لحامد بعد ذلك « اخبرك يا حامد باني ساسير جنباً مع زكي فهل تستطيع ايقاف ذلك الرجل القادم الينا واجابته عما يليه من أسئلة؟ وعلى أية حال فاطلب منك أن تمنعه » لم يكذبصل حامد الينا حتى قال بصوت مرتفع « أشكر الله فضله شكراً جزيلاً على نجاتك فان الرجل الذي كان يتعقبنا صديق خاص لي اسمه الشيخ موزال وقد كان سائراً في طريقه الى دقله ليحضر كيات من البلح الى أم درمان وقد استفسر مني الرجل عن سبب مرافقتي للرجل المصري الابيض صاحب العينين الشبهتين بعيني الصفر . »

عندما انتهى حامد من كلامه أجبته (المؤلف) على الفور « ماذا كان جوابك علي سؤال ذلك الشيخ ؟ »

فقال حامد بأنه طلب من ذلك الشيخ بصفته صديقاً مخلصاً له أن يحتفظ بالسر وأعطاه في سبيل ذلك عشرين ريالاً من عملة ماريه تريبزه ثم أردف ذلك بقوله لي « نحن العرب مبالغون كثيراً الى اقتناء المال فلم يكده يحصل مني صديق على ذلك المبلغ حتى أقسم لي قسماً غليظاً بأنه لن يفشي سرنا بحال من الاحوال وأنه سيمسك لسانه عن الكلام في حالة التقاء متعقبينا به » أما في ما يختص برفاق صاحبي الشيخ فمن الغباوة بدرجة لا يميزون معها بين الابيض والاسود ولا يعرفون الفرق بين العربي السوداني والاوربي الابيض ما دام المطلوب تمييزهم مقنعي الوجوه . هذا الى أن الوقوف مع أولئك مكن زكي ومكنى (المؤلف) من قطع مسافة بعيدة عن الاقطار عندما غربت الشمس تجاوزنا تلال هويجي ثم نزلنا عن جبالنا للاستراحة في الحلاء وبقينا هناك نحواً من ساعة وتلك الناحية التي عسكرنا فيها تبعد مسير يوم غربي شاطئ النيل ولم نكن في راحتنا الصغيرة نرمي الى اراحة اجسامنا بل كنا أولاً وأخيراً نقصد استراحة جبالنا صاحبة الفضل في حملنا الى حيث نتمتع بالحرية . وأظن أنه لم يكن ميسوراً لنا الاستمرار في العدو بعد أن والينا احدى وعشرين ساعة دون انقطاع منذ غادرنا طرف أم درمان الشمالى . ولم نأكل طول يومنا وكل ما تمكننا من تغذية اجسامنا به هو قليل من الماء لكل من الثلاثة العاديين

في تلك الساعة التي ارتحنا فيها وأرحنا جبالنا كنا شديدي التعب ولكننا على الرغم من ذلك أكلنا بلذّة وشهية مفتوحة مقداراً من العيش القفار وكية من البلح . بعد أن أكلنا قال لى مرشدى حامد « لنقدم الاكل لجبالنا وبعد ذلك نوالى السير السريع أما أنت فاظنك في أشد حالات التعب »

أجبتة بسرعة « لست أشعر بشيء من ذلك التعب الذى تعبته لانا في أوروبا بعد الوقت من ذهب فاذا كنت في صغرى تعلمت ذلك فانى أزيد عليه في حالتي هذه بان الوقت حياة كاملة فلنسرع جداً في عملنا »

تولانا الجزع عندما رفض كل من الجبال الثلاثة تناول شيء من الاكل لانا قدرنا في الحال أن الجبال لن تستطيع السير وأن المانع لها من الاكل هو شدة ما انتابها من تعب الاجهاد في العدو وعلى أية حال عمدنا في تلك اللحظة بعد أخذ

مشورة حامد الى ايقاد نار قليلة الكية فوق مقدار كبير من الخشب المحروق وصبنا على الخشب والنار جزءاً من الراتينج

بعد الانتهاء من تلك العملية وضع حامد الخشب والنار فوق قطعة خشبية مستطيلة ومر بها حول الجمال ذا كرا بعض كلمات لم أفهم منها شيئاً
تساءلت عندئذ بشيء من الدهشة ماذا تصنع يا حامد فأجابني « اني أخشى جداً أن يكون فقهاء وقضاة الخليفة عبد الله قد رقوا جمالنا بما يعرقل سيرنا وينجح مقاصد الخليفة وهذا الخوف يدفعني الى استعمال الترياق العربي الذي يفسد سم الحاسدين »

أما ذلك القول فلم يجد مكاناً في خاطري بالطبع وكل ما أجبت به عليه هو « اني أخشى أن تكون الجمال من الفئة الثانية في السوق وأخشى الى جانب ذلك أن تكون قد تعبت وينبغي أن يترك قسط آخر من الراحة لها عسى أن تتقوى وتنهض بعد ذلك »

انتظرنا نصف ساعة في مكاننا ظناً بأن الجمال ستأكل بعد ذلك ولكنها امتنعت عن تناول أي طعام فخشنا ضياع الوقت ويمكن اعدائنا من الوصول اليها فاضطررنا الى اعداد جمالنا للركوب وبالفعل قمنا على ظهور جمالنا المواصلة العدو . أما الجمال فامتنعت عن الجري وكل ما سمحت لنا به هو سير عادي جداً فالنزمنا مطاوعة الجمال في رغبتها وبقينا في سيرنا البطيء هذا حتى وجدنا أنفسنا وقت شروق الشمس عند الارض المرتفعة شمال غربي مئمة

شعرنا عندئذ بضعف الجمال وتضاؤل قوتها فولد ذلك في نفوسنا جزعاً مستمراً وأصبح من المؤكد لدينا أن الجمال لن تستطيع الوصول الى المكان الذي نريد الانتهاء اليه . - وهذا المكان هو الواقع على مسير يوم شمالي بربر في طرف الصحراء - حيث اقتضي الاتفاق السابق تغيير الجمال

عند ما أقبل الظهر أرحنا جمالنا في ظل شجرة باسقة واتفقنا على السير الى ناحية جيليف - الواقعة على مسير ما يقرب من يوم في الطريق الشمالية الغربية - حيث

أظل متخبثا في التلال غير المسكونة وغير المطروقة حتى يتمكن مرشداي زكي وحامد من احضار جمال صالحة لاتمام الرحلة

عند غروب الشمس كانت الجمال صالحة للسير السريع بعد أن ارتاحت قسطا وافراً من الزمن فركبنا الجمال ذاتها ووصلنا في فجر اليوم التالي الى سفح جبل جيليف حيث لا ساكن من بني آدم على الاطلاق

شكرنا الله فضله عند ما بلغنا تلك البقعة ثم نزلنا عن جمالنا وسقناها أمامنا في رحلة شاقة سرنا فيها على الاقدام مايقرب من ثلاث ساعات في واد لا تتخلله غير الصخور المربعة المنظر

ينتسب مرشداي زكي بن بلال وحامد بن حسين الى قبيلة كبايش فجيل جيليف معروف لديهما حيث ولدا الى جواره فهما اذن على معرفة تامة بكل ممر في ذلك الجبل فاستحسن رفيقاي في تلك البقعة خلع السروج عن الجمال ووضعها على صخرة بجانبنا .

قال لي حامد بن حسين عند مابلغ ثلاثتنا هذه الصخرة « لقد وصلنا الى وطننا ولا ريب في أن الوطن يحمي ابنه الذي يلوذ به فاطمئن أيها الضيف وكن واثقا أنه لن يصيبك أي أذى مادمت في أرضنا . فاسترح هادئا ولازم تلك البقعة حيث لا يشاهدك متعقب أو مراقب خارجي . وها هي على بعد أقل من مائة متر عين الماء الشهيرة المتفجرة بين الصخور فسأذهب اليها بالجمال لاسقيها منها وسيحضر لك زكي قرية صغيرة مملوءة من ماء تلك العين وفوق ذلك سأخفي الجمال في مكان أمين بحيث لن يستطيع الجن ذاته الوصول اليها والى جمالنا واذن فلننتظر هنا حتى انتهى من التفكير فيما سنتبعه بعد ذلك »

بقيت وحدي ولا أكنم القاري، حقيقة اضطرابي ووجلتي في ذلك الفقر الموحش وعلى أبة حال استسلمت الى المقادير ودعوت الله أن ينقذني ففكرت في السير السريع الى الحدود المصرية وأخذت أفكر وتتساورني الهواجس من كل ناحية وبقيت على تلك الحال ساعتين كاملتين حاء بعد انهما صديقي زكي بن بلال حاملا قرية الماء على كتفه ولم يكد يصل الي في وحشتي حتى ناداني قائلا :

« ذق طعم ماء وطني العزيز تلقه قويا خالصا هنيئا للشاربين ولشوق أيها الضيف العزيز أن وطني الذي حملك سالما سيودعك سالما حتى تصل الى الارض الامينة حراً وتأكّد أن كل شيء سيجرى في أحسن صورة بعون الله ولطفه وأن النهاية ستبدد جميع ماحاق بك من آلام ومصائب لا في تلك الرحلة فحسب بل في السنوات الماضية الطوال التي قضيتها أسيراً في أم درمان »

شربت مقداراً قليلاً من الماء فوجدته شياً جداً مصداقاً لقول زكي الذي أعجبنى منه حبه الشديد لوطنه رغم ماهو الوطن فيه من فقر ووحشة على النازحين اليه قلت لزكي « اني على ثقة من الفوز ولكنني أخشى التأخير فأجابني على الفور « معاهشي » كل شيء بإرادة الله وعسي أن يبعث الله لنا الخير في هذا التأخير واذن فلننتظر حامد بن حسين صابرين واثقين في لطف الله

وصل الينا حامد بعد مرور بضع دقائق على ظهر اليوم المذكور وبعد مجيئه تناولنا نحن الثلاثة حامد زكي وأنا طعامنا البسيط العادي المكون من الخبز والتمر وبينما نتناول طعامنا استصوب زكي ركوب جملة والوصول الى الاصدقاء الواقفين على سر نجاتي على أن تستغرق تلك الرحلة يومين متواليين يتمكن زكي بواسطتهما من الحصول على جمال جدد .

قال لي زكي قبل رحيله سأركب الجمل بشارن لانه أقوى الجمال الثلاثة ولم يصب بعد بالكلال الذي يحول دون مواصلة الرحلة الجديدة . وهانحن في مساء السبت فساءصل رحلتى طول الليل وسحابة يوم الاحد حتى اذا أحياني الله الى صباح يوم الاثنين وصلت الى البقعة التي اتفقت مع أصدقائي على الالتقاء فيها . وقد اضطر الى البقاء هناك يوماً أو يومين في حالة عدم وجود جمال مستعدة لمواصلة الفرار وعلى أية حال — مالم يعقني مانع قهرى جداً — سأرجع الى مكان هذا — الذي انا فيه الآن — يوم الخميس أو يوم الجمعة على أكثر تقدير

أجبت صاحبي زكي بن بلال قائلاً أرى الخير في تأجيل المواعيد المذكورة وتأكد انا في انتظارك هنا لغاية يوم السبت أما اذا وصلت الينا قبل ذلك فلا مانع وعلينا أن نضاعف الشكر لله في تلك الحال ولكن الشيء الوحيد الذي نرغب دائماً

في أن تذكره هو أن مصيرنا بين يديك بعد اذن الله فلا تمهل في شيء على الإطلاق وأطلب اليك الى جانب ذلك أن تكون حذراً أشد الحذر في احضار الجبال بحيث تنتقي أجودها وأقدرها علي مواصلة السبر حتي لا يصيبنا في المرة الجديدة ما أصابنا في سابقتها .

وضع زكي يده في يدي بعد سماع اقوالى وودعنى قائلاً « ثق في حفظنا الحسن ثم اعتمد على نيتى الحسنة واخلاصى الشديد »

فاجبته شاكراً وقلت له « الله وحده قادر على أن يحميك ويرحمك الينا عاجلاً في سلم وعافية » . وضع زكي بعد ثذ قليلاً من التمر في قطعة من القماش لياً كل وقت جوعه أثناء رحلته القصيرة ثم حمل سرج الجمل على ظهره ثم وصف له حامد المكان الذى اختبأ فيه الجمل بشارن الذى استعان به صاحبنا زكي في سبره وقبل عدوه شدد علينا في أن نضل افكار الناس — اذا وجد أناس في ذلك القفر — عنه وما هي الا دقائق حتي اختفى زكي عن أنظارنا . ثم عمدنا بعد ذلك الي ابعاد الاحجار الصغيرة عن الارض التى قررنا قضاء ليلتنا نائمين عليها حامد وانا وقد وقفنا في عملنا هذا توفيقاً عظيماً .

بقينا حامد وانا صامتين فترة طويلة شغل فيها كل منا بالنظر الى الطبيعة والتفكير فيما راق له أن يفكر فيه وبينما أجول ببصرى في ذلك القفر الواسع قال لى حامد « عندى اقتراح أود عرضه عليك ويتلخص ذلك الاقتراح في أن لى قريبا اسمه ابراهيم باشا له النفوذ الكلى على منطقتنا الجبلية هذه بصفته شيخنا ولهذا الشيخ منزل في سفح التل على مسافة أربع ساعات من مكاننا الذى نحن فيه الآن ولئن كنا الى الآن محجوبين عن انظار الأدميين فمن الخير أن نعلم شيخنا ابراهيم بوجودنا حتى يكون على بينة ويدلى الينا بما يراه ملائماً لنا في عزلتنا هذه وسأذكر له موقفنا بالضبط بدون ذكر اسمك وهو مضطر اديبا على الأقل — بما لى عليه من حق النسب — أن يؤوينى ويجدلى ولك مكانا أميناً وينصح لنا بالمغادرة في الوقت المناسب وذلك في حالة تمكن دارس الأثر ومتعقبه من اقتفاء خطواتنا عند سفح التل — وهذا بعيد جداً - فاذا وافقت على رأبى فانى اسير اليه في جنح الليل حتى أراه

وأنا في أمن من عيون المراقبين وبعد مقابلته أرجع اليك قبل صباح اليوم التالي «
لا اكتم القاري، حقيقة ما جال في خاطري من سرور يداخله شيء من الخوف وعلى
أية حال أجبتة بالموافقة قائلا له « ان المشروع حسن وبحسن بك أن تحمل معك
عشرين ريالاً تقدمها هدية لصاحب المنزل ولا أزيدك توصية في الامتناع عن ذكر
ذلك لاحد كائنا من كان . »

تركني حامد عند غروب الشمس فبقيت وحدي هدفاً للأفكار المتضاربة
والهواجس المختلفة فتذكرت أفراد أسرتي وأصدقائي العديدين « في أوروبا ومصر »
وذكرت بصفة خاصة أصدقائي العرب والسودانيين الذين لم يحل اختلافهم في الجنسية
والدين دون اعترافي لهم بالشكر الخاص وتقديرى ما قاموا به في سبيل راحتي ونجاتي
وانى لن أنسى جهاد أولئك الأصدقاء، الذين لم يرهبهم رجوعهم بعد نجاتي الى حيث
يقاضيه أعدائي ويحاسبونهم حساباً عسيراً . تذكرت في عزلي القصيرة هذه أعز
من لى في الدنيا وأقصد بهن وبهم شقيقتي وأصدقائي المقربين وكنت أسأل الله في
كل لحظة أن يمن عليّ بنعمة العودة الى وطني العزيز وما زلت عليّ حالتى هذه حتى
غلب عليّ النوم فالقيت بجسمي الضعيف على الأرض المتربة ولم أستيقظ من نومي
الليد - رغم خشونة الأرض التي نمت عليها - الا قبل الفجر وبعد قليل من صحوى
سمعت صوت قدمين فتأكدت أن مرشدى حامداً هو القادم وبالفعل وصل حامد
وقال لى « تسير الامور في أحسن أحوالها فان نسيبى الشيخ ابراهيم يرحب بضيفه
الذى لا يعرفه ويسأل له الوقاية وعون الله فلتتدرع ايها الصديق بالصبر لان هذا
كل ما تملكه الآن ولعله خير ما يملك الانسان في محنته »

جلس حامد بعد عودته من منزل الشيخ ابراهيم على حجرين كبيرين قائمى اللون
بحيث أصبح من العسير ايجاد فارق في اللون بين بشرته والصخر الذي يحمله . أما
غرض حامد الاساسى من جلسته هذه فهو مراقبة الناس بطريقة تبعد أنظارهم عنه
بقى حامد في مكانه هذا وأما أنا فجلست على الأرض الى جواره مستظلاً
بشجرة ممتدة الفروع تصادف وجودها بين الصخور السوداء ولم يكن لنا حديث في
تلك الفترة سوى ماضى وحاضر البلاد الصحراوية التي ظللنا وقد سعى حامد جهده

في شرح حالة وطنه الذي كان يذكروه بالاعجاب ويعطف عليه عطف المحلص للارض
التي ولد فيها

بعد أن مرّ وقت الظهر بساعات قلائل سمعت من الخلف وقع أقدام فادرت
وجهي الى ناحية الصوت فرأيت على بعد مائة وخمسين ياردة رجلا يتسلق المنحدر
المقابل لمكان جلوسنا عاملا على وضع فروة مستطيلة في يده على حزم من ذلك
المنحدر وفي الوقت نفسه شاهدته وهو يضع عمامته على رأسه وقد أدركت في الحال
— بعد التيقن من الجهة التي كان قادما منها — أنه يقصد الوصول الينا من ناحية
وأنه رآنا من الناحية الاخرى

كنت في حالة اضطراب فبادرني حامد بقوله « مهما يكن الامر فان القادم أحد
أبناء وطني فقد سمعت صوته ووقع نظري على سحته وعلى أية حال فاني أفضل التقدم
اليه والتكلم معه فهل توافق على رأيي هذا ؟ » فاجبته « لا ريب في أني معضدك في
كل ما تراه ملائما لنا في تلك الحال فاسرع لمقابلته واذا اقتضي الحال تقديم شيء
من المال لا تتأخر عن ذلك »

ترك رفيقي حامد مقعده الصخري وسار الى الرجل بخطى سريعة متلاحقة ثم
وصل الى قمة التل واختفي عن بصري ولم تمر بعد ذلك بضع دقائق حتى شاهدتهما
كليهما (حامد والرجل الآخر) قادمين الى مكاني بثغرين باسمين وقبل أن يصل
حامد إلي قال بأعلى صوته وهو في حالة بشر واغتياب « انا موقنان سعيدا الحظ
فالرجل واحد من أنسابي الاقربين لان والدته ابنة خالة والدتي »

أقبل الرجل نحوي وقدم يده للسلام علي فصاحته مغتبطا ثم قال لي عندما جلس
على الحجر المجاور لمكاني « السلام عليكم أيها الصديق ولتكن واثقا أنك لن تصاب
بأذى من ناحيتي »

أعطيت هذا الصديق السوداني الجديد كمية من البلح وطلبت منه في رفق وأدب
أن يذوق هذا الطعام البسيط الذي أعاننا علي الجوع في رحلتنا الشاقة ثم سأله بعد
ذلك عن اسمه فاجابني قائلا « يدعوني الناس على واد فيض وأظن أنه من الوفاء لك
أن أخبرك الحق »

أسرعت بعد ذلك في استيضاح الحقيقة فاجابني بمتى الصراحة « لم أكن متجها الى الخير في تصرفي معك ولولا الالتقاء بقريبي لكان الشر لاحقاً بك لاجمالة وتفصيل ذلك اني غيرت الارض التي كانت ترعى فيها ماشيتي فوصلت منذ أيام قلائل الى سفح التلال التي تراها الآن منحدره الى الجنوب وبعد ذلك انجبت الى الشقوق القائمة بين الصخور عساني أجد ماء وفيراً تقياً أشرب منه كما ترنوى منه جمالي وبقية ماشيتي لان الماء الذي كان لدينا قبل ذلك غير كاف لمن يعيش الاسابيع والشهور مع عدد غير قليل من الماشية . ولم أك دأصل الى تلك الشقوق حتى شاهدت آثار خطوات جل فتعقبت الأثر وبعد مسافة مئات من الياردات وجدت آثار قديمي رجل أبيض مبتدئة من مكان بعيد عن الانظار فتحققت أن رجلاً غريباً دخل تلك الارض واختبأ بين صخورها رغبة في الفرار دون شعور المراقبين بمروره فعدت أدراجي مصمماً على العودة ليلاً ومعي بعض رفاقي لنسهل عليك رحلتك الباقية بالانقضاء عليك واراحتك من الدنيا وما فيها من تعب ومشقة فالحمد لله الذي حال دون أمام عملي الاجرامي حيث أرسل الي ابن خالتي — حامد الذي أفهمني الامر كله في وضوح النهار وأكرر الشكر لله لاني لقيت في الصباح فلو أن ذلك كان ليلاً لما عرفت حامداً ولا تنهى الامر شر انتهاء »

أنصت حامد لكل ما قاله ابن خالته باهتمام وسكون وبعد الانتهاء قال - حامد - « سأخبرك يا علي واد فيض قصة صغيرة فانصت ! كان والدي منذ سنوات طويلة وقت أن كنت شاباً صغير السن وایام حكم الأتراك لهذه الجبال — شيخ المنطقة التي نحن فيها وكان المحتكمون اليه من الرعايا كثيرى العدد . وفي ليلة من ایالی ذلك العهد وصل الى بيت أبي رجل هارب طلب منه الامان وقد كان هذا الرجل مطارداً من جنود الحكومة لانه اتهم بالصوصية والاعتداء على حياة بعض التجار فتمكنت الحكومة من أسر زوجاته أما هو فوجد عضداً قوياً ونصيراً أميناً حيث أظهره أبي واحتفظ بالسر

مرت بعد ذلك الحادث سنوات انتقل في خلالها والدي الى منطقة بربر فتمكن بعد دفع المال وتقديم ضمانات متنوعة من اصدار العفو عن هذا الرجل المطاردي الذي

لم يستطع منهموه ايجاد جريمة معينة يحاكم بمقتضي ارتكابها ولم يكتف والدى بذلك بل ذهب الى الجهات المختصة وقدم نفسه كفالة عن زوجات ذلك الرجل وبذلك حصل على أمر ثان باطلاق سراح زوجاته بعد أن قاسين في السجن الكثير من الآلام والاعتاب وبعد كل ذلك يسرني أن أخبرك بأن الرجل المذكور اسمه فيض « بينما يتابع حامد أقواله قاطعه على واد فيض قائلا « وأضيف الى اقوالك بأن الرجل المذكور هو ابي الذي ولدني ورباني » ثم تغيرت ملامح وجهه واستمر في قوله « ولدت في زمن متأخر وسمعت هذه القصة يا حامد من والدى العزيرة قبل موتها وازاء ذكر تلك الوالدة الطيبة أطلب من الله الرحمة لها . وبعد وفاة والدى قال لى شقيقي الاكبر ان خير ما أعمله فى الحياة هو القيام بالجميل نحو ابن الرجل الذى أدى جميلا لوالدى واذن فانا مدين لك بالشكر يا حامد حتى أوفى ما على أبي نحو ابيك فثق أنى حاميك وحامي من معك بغض النظر عما تقومون به من خير أو شر لاني أذكر شيئا واحداً هو اني مدين لك بالجميل فاتبعنى حتى ارشدك الى أحسن مكان أمين تختبئ فيه مع صديقك الابيض »

رجعنا بعد ذلك جنوبا الى ناحية التلول مسافة لا تقل عن ألفي ياردة ثم انتهينا الى بقعة شبيهة بالكهف تتخللها انواع صخرية تحجب من وراءها عن الانظار ولا ريب أن البقعة المذكورة كافية لاختفاء اثنين بالغين من ضخامة الجسم . ما بلغا .

اخذ على واد فيض يسدى الينا نصائحہ وتعليماته بعد ذلك فقال « عندما يحين المساء أحضرا امتعتكما الى هذا المكان بالرغم من عدم وجود ما يدعو الى الخوف فى أية ناحية مجاورة لان التلول التى امامنا بعيدة عن اقدام الآدميين الا أن الخذر الشديد يدعو كما عندما يحين الليل أن تختارا بقعة آمنة هادئة لمساء لتقضيا ليلتكما عليها بعيدين حتى عن رقابة الجن وقد تدعوني أمانتى الشديدة لكما الى القول بأن من المستحيل أن تكونا واثقين الثقة كلها فى أن بعض الانظار لم تقع عليكما وأن بعض الناس ما اعترزوا ما كنت معتزما تنفيذه قبل ملاقات حامد وأعنى بذلك انتهاز فرصة ظلام الليل للاقتضاض عليكما . »

بعد أن انتهى على من قوله الصادر عن اخلاص شديد قال « لقد أطلت فى

حديثي وقضيت وقتاً طويلاً بعيداً عن مكاني فأسطر إلى العودة لتسقط الأخبار واستماع ما قد يدور حولكما من نبأ على أن أعود اليكما غداً في ساعة من ساعات الليل المظلمة وستعرفاتي بصوت خفيف يشبه الصغير فإلى الوداع حتى ألقاكم في خير غداً»
أصغينا إلى نصيحة علي واد فيض فاخترنا مكاناً للنوم وفي فجر اليوم التالي قبل شروق الشمس عدنا إلى كهفنا ثم صعد حامد بن حسين قبل الظهر إلى قمة أحد التلّول لمراقبة الناس وكان عمله هذا شبيهاً بالصابط الذي يقف في أعلى القلعة لمشاهدة طلائع العدو . ظل حامد ساعات في مكانه هذا ولم يأت إلى المغارة إلا عند ما أحس بالجوع الشديد وقد قدر لنا أن ينتهي ما معنا من خبز في ذلك اليوم فلم يبق في جرابنا سوى مقدار من البلح

بعد أن غربت الشمس بساعتين سمعنا صوتاً خفيفاً أشبه بالصغير فتأكدنا أن صاحب الصوت هو علي واد فيض وقد تحقق ظننا لحسن الحظ حيث وفي صاحبنا وعده ووصل إلينا في الميعاد المضروب من قبل . لم يكن علي وفيّاً في وعده فحسب بل كريماً أيضاً حيث أحضر لنا في عزلتنا هذه كمية كبيرة من اللبن في قربة من جلد الغزال (اعتاد العرب السودانيون دبح جلود الغزالان الصغيرة واعدادها وأني لبن) وإلى جانب ذلك مقدار من الخبز المصنوع من الذرة

قال لنا علي عند ما وصل إلينا وبعد أن سلم علينا « قلت لزوجتي إني خارج لمقابلة ركب الحجيج السائر إلى أم درمان لزيارة قبر المهدي ولي الرغبة في اظهار شيء من الكرم العربي لأولئك المسافرين في رحلتهم الشاقة وفي الحق لم يمنعني عن ذكر الحقيقة لها إلا خوفي من انتشار الخبر لأن إمرأتي ثائرة »

ابتسمت في وجه علي وقلت له « يظهر أن الأمر واحد في جميع البلاد فإن الكثيرين من الرجال في بلادنا الأوربية يشكون من تقل الحديث بواسطة زوجاتهم » فارتاح كل من حامد وعلي إلى قولي هذا وبعد الانتهاء قال علي « جيت الوادي الضيق وسرت إلى مجالس الكثيرين من العشائر ليلة أمس وصباح اليوم فلم أسمع ما يخيفكم فكلاً وأشرباً مرتاحين مسرورين لأنني على ثقة تامة في حظكم الحسن »

قبل أكل الخبز الشبيه بالكعك وشرب اللبن قدمنا الشكر لعلّنا نأخذ هديته الثمينة ثم طلبت منه بعد ذلك أن يرجع الى بيته حتى لا يثير الريب والشكوك في نفوس أبناء عشيرته بعد تغيبه الطويل عنهم ثم أسررت الى حامد أن يمنح عليا خمسة ريالات قبل رجوعه الى بيته .

عند ما استأذن صاحبنا علي في الانصراف قلت له « نود أن نراك دائماً أيها المخلص الوفي ولكن الخير في أن ترتاح في بيتك وأن تباعد عما يثير أى شك لان ذهابك وإيابك يثيران الريبة بين رجال قبيلتك وقد تترك خطواتك آثراً بارزاً على الرمال يستطيع بواسطته متعقبونا أن يهتدوا الى مكان اختبائنا هذا ولا نطلب منك العودة إلا في حالة سماع أخبار غير سارة تستدعي هروبنا الى مكان جديد واذن فالوداع من أخ يشكر لك جزيلاً ما قدمته له من ولاء وإخلاص »

سار حامد بن حسين بعد ذلك مع صديقه علي واد فيض بضع دقائق وبعد رجوعه قال لي « رفض على قبول الريالات الخمسة رفضاً باتاً ولم أستطع التغلب عليه واقناعه بقبول الهدية البسيطة إلا بعد أن أكدت له بان رفض المبلغ يكدر خاطرك — المؤلف — »

بعد أن سافر علي الى بيته وعاد حامد الى الكهف قضينا (حامد وأنا) فترة صغيرة في الكلام ثم سرنا الى مكان النوم الهادئ حيث قضينا ليلتنا الى صباح اليوم التالي دون أن يعكر صفو النائم قلق أو اضطراب ، وعند اشراق الشمس عدت الى الكهف وسار حامد الى قمة التل لمراقبة الناس كما عمل في اليوم السالف . ومما أذكره عن ذلك اليوم أنه مر ساكناً دون وقوع أى حادث مزعج ولكنى أذكر الى جانب ذلك أنه كان طويلاً علينا حتى خيل لنا أن ساعاته أطول من الساعات اليومية العادية . فكانت كل ساعة من ساعاته يوماً كاملاً حيث مرت الافكار المتعاقبة وأخذت أذكر سنى الأسر وحوادث العسف والاضطهاد وفي الحق كنت صبوراً جداً على ذلك المصنوس وسواء أصبحت أم لم أصبر فلم يكن أمامي ما يعزيني في نكباتي وما يفرج عني بليتي سوى اعتقادي الراسخ في لطف الله وفضله وتقني في قرب نمتي بحرية دائمة صحيحة هي تلك التي خلق الناس ليتمتعوا بها في الحياة .

قبل انتهاء كمية الماء التي في قربتنا ذهب حامد الى الشقوق القائمة بين الصخور المجاورة ليملاً القربة وفي الوقت نفسه فكر في احضار الماء للجملين اللذين أنهكهما التعب من قبل والا كل الردى. الآن لانهما لم يجدا من الطعام سوى أوراق الاشجار والاجمات. قال لي حامد قبل ذهابه للشقوق « سأرجع بعد اربع ساعات قريباً فالتزم السكون والهدوء في كنفك واذا ظهر في مدة غيابي القصيرة أى مخلوق آدمي - واسأل الله ألا يظهر في تلك الفترة أحد - فاخبره أن حامد واد شيخ حسين قادم بعد قليل من الزمن لان الشخص الذي يظهر سيكون من أبناء وطني بلا جدال فان الشخص الغريب يخشى المجئ الى ناحيتنا ومهما يكن الامر فلا تخض مع الشخص - الذى يظهر لك - فى الحديث وأول ما أحذرك منه هو سفك الدماء. فلا ترق دم أحد مهما ارتبت فيه وانتظر حتى أعود اليك »

أجبتة على الفور « سأنفذ نصيحتك مهما تكن الحال وعلى أى حال فانا واثق انك ستجدنى في هدوء وأمن عند ما ترجع لي »

بعد أن غاب حامد عنى بضع ساعات عاد وقربته مملوءة بالماء. ثم قال لي « لقد سرني وجود الجمال في حالة أحسن بكثير من الحالة التي كانت عليها وقت وصولنا الى ناحيتنا وعلى الاقل هي في راحة كافية » وبعد ذلك أظهر لي انه في جوع شديد ولم يكتم حاله حيث قال لي « اعطني كمية من البلح لاني جوعان وسأضطر الى العودة لقمة التل لمراقبة الناس »

مر ما تبقى من يومنا في هدوء وأمن ولكنه كان بطيئاً علينا كيومنا السابق وعند ما جن الليل سحب كل منا شخصه الى مكان النوم وبعد أن تحادثنا بصوت خافت جداً بعد أن دعونا الله أن يبقى لنا نعمة الصبر نام كل منا ملء جفنيه حتى صباح اليوم التالي: ذهب حامد صباح الخميس الى مكان المراقبة المعروف وقيل الظهر شاهده نازلاً بسرعة من قمة التل فأسرعت الى تجهيز بندقيتى.

قبل وصوله اليّ سأله عن الخبر فأجابني « اني أشاهد رجلاً متجهاً بسرعة الى مكاننا الاول الذى كنا فيه قبل مجئى. علي واد فيض فلا بد أن يكون هناك شئ مهم فانتظر في مكانك لاني سأذهب لملاقاة ذلك الرجل على أن أرجع اليك بعد ذلك »

جلست في مكاني وانتظرت مدة خيل الي - رغم قصرها - أنها الابد الطويل
ثم رفعت بصرى بحذر فاذا بي أشاهد رجلين من مسافة بعيدة قاصدين مكاني .
وقد تمكنت عيناى من تقرير أن القادمين هما حامد بن حسين وزكي بن بلال .
فخرجت من مغارتي وحينذاك أسرع زكي قائلا بأعلى صوته « السلام عليكم ياسيدى
قابتهج بالا لانك ستسمع ما يرضيك ويسرك » وبعد أن سلم علي يدأ بيد قال
« حضرت ومي جملان جديدان كاملا القوة وقد خباتهما في مكان أمين مجاور
لبقعتنا هذه وسأرجع الآن لاحتضارهما »

لم تمض ساعة حتى أحضر زكي الجملين . فقلت له بسرور كلى « انك سريع
جدا فى عملك العظيم فأخبرنى قصتك منذ غادرتنا »

أجابنى زكي « غادرتك مساء السبت الفائت فركبت جملى طول الليل وسحابة
اليوم التالي - الاحد - وقد كان جملى بشارن موفقا فى سيره السريع رغم وعودة
الارض وفي صباح الاثنين وصلت الى أصدقائي وفي الحال غنى أولئك الاصحاب
باحضار الجملين اللذين تراهما الآن ولبعد المسافة لم تتمكن من الحصول على الجملين
قبل صباح الثلاثاء. فغادرت المكان وقت الظهر وسرت سيرا بطيئا فى عودتي حتى
لا أتعب الجملين وتأكدا أنا نستطيع الآن مباشرة رحلتنا . وقد سهوت أن أخبرك
بأن أصدقائي بعد أن تكلموا ممي ذهبوا الى الخيمة القائمة على رأس الصحراء
لاعطاء التعليمات لرجال مخصوصين للاستعداد وقت الطلب وقد أخبرتهم باننا قد
نصل اليهم مساء الجمعة أو بعد غروب الشمس يوم السبت على أقصى تقدير »

سألت زكي بن بلال بعد ذلك « هل أحضرت معك خبزا ؟ فاننا لا نملك
من الطعام سوى كمية من البلح » فأجابني « اني شديد الاسف لنسيان ذلك الامر
الحيوى وقد يرجع ذلك الى عجلتى الشديدة » فهونت عليه الامر عند ما شاهدته
مطأطأ الرأس وقلت : « لا أهمية للخبز لانا نستطيع اتمام رحلتنا القصيرة هذه
حتى دون الاستعانة بشيء من البلح »

قال حامد لزكي « أسرج الجمل الخفيف اللون ثم اذهب مع صديقنا وأخينا
الى الصخرة العميقة واسق الجمل ماء. ثم انتظرني هناك وأما أنا فسأهل السرج على

ظهرى وأسبر ورا. جلى الذى يستطيع بعد راحته أن يقطع المسافة القصيرة الباقية لغاية تلك الصخرة ولكن أرى من الخير ألا تذهب مباشرة الى عين الماء بل عليك ان تختفى فى بقعة مجاورة حتى تصل اليها فمن المخاطرة أن تسير مباشرة الى مكان الماء لانا لسنا موقنين بان المكان غير مطروق بأقدام الرعاة ففى الارض جمال كثيرة تحتاج الى الماء »

سرت مع زكي وفى يدي قيادة احد الجملين قاصداً معه (زكي) الصخرة التي تنبسط منها المياه ثم اختبأت فى مكان أرشدنى اليه رفيقى .

قبل غروب الشمس بساعتين حضر حامد وزكي بثلاثة جمال ارتوت قبل حضورها وحمل كل من الصديقين قرية مملوءة بالماء وحال وصولهما ركب ثلاثتنا الجمال الثلاثة وسرنا فى طريق شرقية شمالية معرجين الى الناحية الشرقية مخترقين التلال التى كانت فيما مضى وعرة جداً وعسيرا تسلقها ولم يكدر بخي الليل سدوله حتى وصلنا الى المستوى الفسيح بعيدين عن أنظار الناس . واصلنا رحلتنا طول الليل بدون وقوف وكان سيرنا على الجمال بطيئاً شبيها بالسير العادي وعندما بدأ نور الفجر بشرنا حامد بأننا قطعنا ما يقرب من نصف المسافة فى طريقنا الوعرة وفى رحلتنا الخطيرة .

أضاف حامد الى ذلك « انا اليوم فى أخطر وأدق أيام رحلتنا لانا أصبحنا مجاورين لشاطئ النيل وسنضطر الى اجتياز مراع تابعة لقبائل النهر فنسأل الله اللطيف بعباده أن يصل بنا الى غرضنا دون وقوع عيون المراقبين علينا »

فى طول رحلتنا هذه لم يتغير منظر البلاد الخالية الصحراوية الا فى القليل النادر الذى نجد فيه بقاعاً من الاعشاب يتخللها بعض أكبات الميموسا . أما الارض فى غالبيتها فرملية تنتشر الاحجار فى بعض نواحيها .

سرنا فى رحلتنا الاخيرة دون وقوف فى الطريق ولم يكن لدينا من الطعام سوى التمر الذى أكلناه على ظهور جمالنا وعندما بلغت الشمس سمت الرأس شاهدنا قطعاً من الغنم يقوده بعض الرعاة فاضطررنا الى تحويل خط سيرنا حتى لا يرونا وعند ما شعرنا أنهم شاهدونا أسرع زكي بن بلال بجمله اليهم ليلتقط الانباء ويهدد

أن قابلهم رجع إلينا فطمأننا بأنهم لا يعرفون شيئاً عنا وعن هروبنا من أم درمان .
تابعنا السير فشاهدنا آثار خطوات جمال وماشية وحمير فخشينا وقوعنا في قبضة
المتعقبين ولكننا حمدنا الله لأن الناس لم يظهروا في ذلك الوقت وبعد قليل من رحلتنا
وصلنا إلى جزء منبسطة فسيح من الأرض مرة أخرى

قال لي حامد « هل تشاهد البقعة الرمادية اللون القائمة على مئات من الiardات
أمام خط سيرنا ؟ تلك طريق القوافل من بربر إلى وادي حمير ودار شيفية فإذا ما
جئنا تلك البقعة بعيدين عن الانظار فليس بعد ذلك ما يخيفنا لأن كل ما بين تلك
البقعة والنهر عبارة عن أرض حجرية لا أثر للأقدام فيها ولا شيء من النبات أو
الأعشاب بين جهاتها واذن هي بعيدة عن أقدام الآدميين . وعلى أية حال من
الواجب عليك أن تنصت لكل تعليماتي من الآن وأولها سير الجمال يبطء حتى إذا
ما قطعت جمالنا خمسمائة خطوة أو يزيد وصلنا إلى مكان الأنر وبعدئذ نتحول في
الطريق المؤدية إلى بربر سائرين بضع دقائق . ثم نغير سيرنا مرة أخرى إلى الجهة
الشرقية . »

بعد أن انتهى حامد من ذلك القول سكت سكوت الموافقة ثم قال لي « هل ترى
تلك الراية الصخرية الواقعة على بعد ثلاثة أميال تقريباً ؟ هناك سنجد مكاناً أميناً
هو الوحيد الذي نستطيع عنده تضليل متعقبينا بحيث لا يقفون على أي أثر
لا قدما »

أصغينا إلى تعاليم وأوامر حامد فاجئنا طريق القوافل التي لا يجتازها الناس
إلا في القليل وأكبر امتياز لها اختفاء آثار العابرين . وعلى أية حال تقابلنا في
المكان المعين

ابتسم حامد في النهاية وقال لي « حث الجمال على المسير ولا تستغن عن أقصى
مساعدة ممكنة من تلك الجمال الامينة لانا الآن في شديد الحاجة إلى خدمتها . ومهما
يكن الأمر فقد انتهى كل شيء . على خير ووفقنا الله توفيقاً عظيماً »

منذ غادرنا أم درمان لم أشاهد ابتسامة واحدة في وجه حامد قبل هذه الأخيرة
فأدركت في الحال أننا ننجونا من الخطر بمحاذاتنا شاطئ النهر

واصلنا السير وكل منا يضرب جملة الشد يد التعب بدون رحمة حتي تركنا صفا من التلال الى يميننا ووصلنا الى قرابة .

أما قرابة هذه فعبارة عن نجد رملي التربة مغطاة أرضه بحجارة سوداء تختلف في حجومها من القطعة المائلة لقبضة الرجل الى القطعة المائلة لرأسه ومما يمتاز به تلك الحجارة في الارض المذكورة أنها قائمة في صفوف منتظمة يخيل لمن يشاهدها أن أفراداً عنوا برصفها على ذلك النسق البديع والى جانب الحجارة توجد صخور فردية يبتعد كل منها عن الآخر مسافة تكاد تكون واحدة في جميع الصخور . ولا شك في أن الجمال تعجز عن السير بسرعة في مثل ذلك الخط الحجري الصخري وذلك مما يساعدنا في خطتنا ومما نعهده توفيقاً جديداً لنا بعثه الله لتسهيل نجاتنا .

قبل أن تقرب الشمس ظهر لنا من بعيد ذلك النيل السعيد بمياهه العذبة فكان موقعه بين الاراضي المتجاورة شبيهاً بالخط الفضي اللامع وسط البقعة المعدنية بما فيها من ألوان قائمة وخضراء ورملية .

تدرجنا من أعلى النجد في طريق ملتوية يزيد بها وعورة ظلام الليل وما زلنا في سيرنا البطيء على الجمال حتي وصلنا الى واد قائم بين تلال حجرية . وبعد وصولنا وقفنا لراحة جمالنا التي أنزلنا السرج عنها وكنا راغبين في السير على الاقدام ما يقرب من ساعتين حتى نصل الى شاطئ النهر .

جلس حامد وزكي على الارض بعد انزال السروج عن الجمال الثلاثة وأخذوا في عملية أكل البالح بذمة وأمانة وبينما هما يأكلان قال لي معاً « قربنا الى الغابة التي سعينا اليها منذ فكرنا في الهروب فانتظر هنا مع الجمال الثلاثة لانا (حامد وزكي) سنذهب الى بقعة مجاورة للنهر نعرفها جيداً وفي تلك البقعة ستلتقي باصدقائك الذين سيسهلون لك بقية رحلة النجاة . تركني الصديقان وبقيت وحدي متأملاً في المستقبل وقد مرت أمام مخيلتي في تلك الاثناء صور أفراد أسرتي وصورة مجسمة لوطنى العزيز وبعد أن تعبت من التفكير انطرحت بجسمي المنهوك القوى على الارض فتمت ولم استيقظ الا قبل نصف الليل فلم أجد أحداً من الصديقين (حامد وزكي) فداخلتى الوسوس وتأكدت أن عدم حضورهما سيحول دون عبوري النهر في الفرصة

الملائمة ليلا . وعلى أي حال صبرت حتى سمعت قبل الفجر بساعتين وقع أقدام فتبينت القادم فعرفت أنه حامد .

سألت حامداً عن الاخبار في حالة فزع وقلق فأجابني بما جلب لي اليأس قائلاً « لا شيء ، مطلقاً فانا لم تتمكن من العثور على أصدقائك في المكان المعين فرجعت اليك لانك لا تستطيع البقاء هنا بمفردك بعد بزوغ الفجر لانك قريب جداً من مساكن الآدميين فليس بدعاً أن تقع عليك أنظار الرقباء . ولذلك عدت بعد أن تركت صديقي زكي للبحث عن أصدقائك الجدد الذين سيسهلون لك مهمتك الجديدة النيلية فاحمل القرية المائية وجراب البلع على كتفك لأنى من التعب بمكان لا أستطيع معه حمل شيء . أكثر من جسمي الذي تحمله قدمي واعلم أنه يتحتم علينا الرجوع الى قرابة حيث تظل هناك الى انتصاف النهار مختفياً بين الاحجار والصخور

أصغيت الى أوامر حامد ونفذتها فوصلت الى النجد بعد مسير ساعة مع حامد وبعد أن سرنا مسافة أخرى في الظلام وقف حامد فجأة وقال لي « قرب هنا واصنع حلقة من الاحجار كذلك التي يصنعها رعاة الجمال في الشتاء لوقاية أنفسهم من البرد الشديد وبعد الانتهاء من صنع تلك الحلقة نم في جوانبها الداخلية واني مسرور لانك متين في صنعها الآن حتى أنك تكاد تكون عربياً كأنك واحد منا نحن عرب السودان وأكد آني سأحضر اليك في المساء لارى الحال التي أنت عليها وأما الآن فسأرجع الى الجمال . فلا تخف ولا ترتب في أي شخص قد يراك لأن رجال الناحية التي أنت فيها يعرفونني جيداً فإذا سألتني أحدهم أي سؤال أجبت به باني حضرت من شيفيه لمشاهدة بعض المقيمين هنا . ومن حسن حظي وجود بعض أقارب لي في هذه الناحية »

رجع حامد الى الجمال وبقيت أنا وحدي في بقعة منعزلة مخيفة النظر أقمت الدائرة الحجرية وكان ارتفاعها نصف متر ولم أجعل في الداخل مكاناً لغير جسمي وقرني وبندقتي فلم يكذب شتد وضوح النهار حتى انسحبت الى مغارتي الصغيرة وحفرت في أرضها الرملية بقعة عميقة تمكنت فيها من القاء ظهري ومد جسمي بحيث لم يرني أحد وفي ذلك الوقت تدفقت الي رأسي ذكريات الماضي وآمال

المستقبل وفكرت بصفة خاصة في الماضي القريب حيث غضب الخليفة عبد الله وقيمته الشديدة عليّ بعد هروبي ولم يخفف عني الفزع في ذلك التصور سوى مرور صور أحبائي وأقربائي بمخيلتي في الوقت نفسه . وما زلت أعلل النفس بالآمال والاماني رغم اشتداد العقبات وخطورة الموقف ولكني بعد ذلك وجهت فساءلت نفسي عن التعبير الذي حدا بي الى مظهر الخوف الجديد وعن الداعي الى عدم تمسكي بمبدأ الصبر ومهما يكن الامر فاني كنت في أشد أوقات الخطر بعيداً عن الاستسلام الكلي للقنوط كما كنت منذ غادرت أم درمان واثقافي حظي الحسن وتوفيق الله إياي الا أن ذلك لم يمنع شعوري اليوم شعوراً خاصاً بالخوف وقد يرجع ذلك الى الشبه القائم بين مغاربي الصغيرة هذه وبين القبر الذي قد يضمني في القريب العاجل . أعود فاقول ان القبر مصير كل حي وأن الناس بالعين من أعمارهم ما بلغوا سيصلون الى القبور التي ضمت آبائهم وأجدادهم من قبل . فسواء أطل عمر الانسان أم قصر فانه لن يصل في النهاية الى غير تلك الحفرة الضيقة واذن سأموت كما مات الناس ويموتون ولكن الصعوبة في شيء واحد اذا مات هنا وذلك موتى منبوذاً مهجوراً غير مودع أعزائي وأقربائي فيا ساكن السماء ومسير الفلك الدوار لا تتخل عني وكن رحماً بعبدك في ذلك القفر الموحش . فارحم اللهم عبدك الاثيم ولا تعاقبنني على ذنوبي فقد طلبت الغفران من جلالك وأنت الواسع الغفران . اللهم ارحمني ! والطف بي واسمح لي بمشاهدة أصدقائي وأعزائي والرجوع الى وطني العزيز مرة أخرى قبل موتى ! »

بعد أن ناجيت الماضي وذكرت آمال المستقبل انزمت الصمت مرة أخرى وفي نهاية الامر فكرت في الامر — على الرغم من تأخير صاحبي — فانهيت الى أن الذي اتقذني في بداية رحلة النجاة قادر على انقاذي في الختام

مرت بمخيلتي الآمال فذكرت أنني سأعبر النهر هذه الليلة ثم أجتاز الطريق وأصل الى الصحراء غداً وفي مدى يومين أو ثلاثة سأجتاز كل خطر وأصبح في أمن كل بحيث استطيع الاسراع بملاقاة من تمنيت السنين الطوال ان حظي بهم في خير بعد أن انهيت من ذلك التفكير ابتسمت مرة أخرى ابتسامة مملوءة بالثقة والامل من عطف الله وعونه ثم مسكت معطني الصغير ولففت به وجهي حتى أقي

نفسي من حرارة الشمس ومن أنظار المراقبين . ثم بقيت منتظراً ما يقدره لي ربي وأنا على ثقة تامة في الخير . بعد مرور الظهر بقليل سمعت صوتاً خفيفاً رفعت رأسي ونظرت من خلال الأحجار المترامية فصدق ظني حيث عرفت أن القادم هو حامد الذي أقبل إلى بابتسامة الصديق المخلص قائلاً لي « أسعد حالاً وأبشر فقد وجدنا الأصدقاء المعينين لمراقبتك » فطرت فرحاً عند ما سمعت هذا القول وتيقنت أن نجم سعدى قد تجلى في الأفق مرة أخرى

عند ما أقبل حامد جلس خارج الكومة الحجرية ثم قال « تستطيع أن تفرج عن نفسك الآن وتخرج من مغارتك الضيقة هذه لاني عينت لك مراقبين في الجهات المجاورة ينقلون إلينا كل ما يحدث حولنا . فلا تخش شيئاً لأن صاحبنا زكي وجد الرفاق الجدد الثلاثة وقد حضر الآن واحد منهم إلينا ليعرف مكان إقامتنا وهم جميعاً على استعداد وسيحضرون إلينا ماء ولكني أحذرك أشد الحذر وأنصح لك بالابتعاد عن كل ما يريب لأن هروبك من أم درمان أصبح معروفاً في المنطقة التي نحن فيها . فتعال معي الآن أو انتظر حتي يحين الليل وعلى أي حال فأنا ذاهب الآن فهل تستطيع معرفة الطريق بمفردك ؟ وهل ترغب في عودتي إليك لاخذك معي ؟ »

فأجبت « لا داعي الى عودتك مرة أخرى لاني أعرف الطريق وسألتقي بك في المساء »

عند ما غربت الشمس حملت بندقيتي وقربة الماء على ظهري وترك البقعة التي مرت بمخيلتي فيها تذكريات مؤلمة وآمال كبار . وعندما وصلت الى الرفاق الجدد وجدت اثنين منهم فرأيتهما غريبين غنى رغم بقائي السنين الطوال في السودان بين أبنائها .

حياتي ذاك الرجلان وقالوا لي « قد أرسلنا إليك صديقك أحمد واد عبد الله ونحن من قبيلة جهاب وسنسير بك الى النهر حيث يصل إلينا أحمد واد عبد الله نفسه لمساعدتك في اجتياز النهر وستكون الجمال على انتظارنا في الشاطئ . الثاني من النهر لتعبر بنا النهر والآن فلتودع صديقك القديمين لأن مهمتهما قد انتهت » . سلمت

بعد ذلك على صديقي المخلصين الحميمين حامد وزكى وشكرت لهما اخلاصهما بكلمات خارجة من أعماق القلب ثم قلت لهما « أودعكما وكلى ثقة فى الالتقاء بكما فى وقت سعيد هو وقت السلم والامن »

أخذنا (أنا والرفيقان الجديدان) جملين وتركنا الثالث للصديقين القديمين فارتقيت الى ظهر الجمل وركب خلفي أحد الصديقين الجديدين .

سألت هذا الجديد « ما اسمك ؟ » فأجابني قائلا « يدعونى الناس باسم محمد وأما اسم صديقي فاسحاق » سأله بعدئذ « هل تجتاز معى الصحراء يا محمد ؟ » فأجابنى بقوله « لا ياسيدى فهناك من كافوا بتلك المهمة وعلى أية حال فالخير فى أن يسير الجمل سيرا بطيئا ويحسن بك أن تغطى وجهك على الرغم من الظلام الشديد . فقد وردت الاوامر من بربر من ثلاثة أيام بمراقبة الطرق مراقبة دقيقة ووضعت الطرقات المائتة تحت مراقبة شديدة أخرى ومهما يكن الامر فلا خوف عليك من بلدنا »

بعد أن سرنا بجملينا مايقرب من ساعتين فى طريق شرقية شمالية بالحدارشرقي وصلنا الى النهر . وتمكننا قبل نزول النهر من سماع أصوات الآلات المائتة وكلام وضعك العبيد وزوجاتهم .

عندما وصلنا الى كومة صغيرة من أوراق الاشجار همس محمد فى أذنى « ادع الجمل للبروك يبطء ورفق حتى لا يصدر منه صوت يلفت الانظار »

برك الجملان على الارض ولم يصدر منهما صوت على الإطلاق وقد تركني الاثنان على أن يعودا مع أحمد فبقيت منفرداً فى الظلام الحالك واستمرت على ذلك نحواً من ساعة وأخيراً رأيت أربعة رجال قادمين . فأسرع أطولهم نحوي وضمنى الى صدره وعانقنى طويلا قائلاً لي فى صوت خافت « أنا أخوك أحمد عبدالله من قبيلة جهباب وأول ما أطلبه منك هو أن تصدق قولى وهو أنك بحمد الله ناج من كل خطر وأما أننا يا محمد ويا اسحاق فاخلينا السرجين عن ظهرى الجمين فى رفق وتؤدة ولا تسمعا أحداً من الناس صوتاً ثم انفخا القربتين الفارغتين واربطاهماحول رقبتى الجمين ثم اعبرا النهر من شاطئه فى نقط ومواضع مختلفة ثم انتظرا أوامري غداً على مقربة من دار « مقاتلة الثيران »

التفت الى احمد واد عبدالله بعد ذلك قائلاً « اتبعنى » وحمل احمد سرجاً وحمل الرجل الرابع سرجاً آخر ثم سارا فتبعتهما وبعد بضع دقائق وصلنا الى شاطئ نهر النيل المقدس حيث وجدنا في ركن صغير قارباً صغيراً يكفى بالجهد لحملنا وقد صنع أصدقائى الجدد هذا القارب بأيديهم .

نزلنا الى حافة النهر وركبنا القارب الصغير الذى ألقع بنا الى حيث يريد بنا الله وقد استغرقت عملية عبور المجرى أكثر من ساعة وعند ما وصل الى الشاطئ . الثانى صعدنا الى الارض ورجع أحد الرفاق بالقارب الصغير ثم صنع في قاع (القارب) ثقباً واسعاً ففرق (القارب) والغرض من ذلك هو اخفاء كل أثر لعبورنا النهر .

أما نحن فسرنا على الناحية البرية ما يقرب من نصف ساعة وعند ما وصلنا الى بقعة خاصة طلب منى احمد عبدالله انتظاره لانه ذهب لاحضار طبق مملوء بالابن ومقدار من الخبز

قال لي احمد بعد عودته بالطعام « كل واشرب ولا تفكر فى شيء . فقد اجتزنا الخطر وأقسم لك بالله وبنينا أنك ناج وأن الله سيمتلك بملاقاة أحبائك جميعاً » كنت عازماً ومفكراً أن تم رحلتك الليلية ولكن أرى الوقت متأخراً جداً فالخير فى بقائك هنا الى مساء الغد وعلاوة على ذلك فانا مضطرون الى أن نسقى الجمال غداً وبما أنا قريبان هنا من مساكن الناس فسيسير بك ابن أختى (ابراهيم على) الى مكان بعيد نوعاً لا تصل اليك فيه عيون الرقباء . فانتظرني هناك وسأحضر لك دابة تركبها اما اذا كنت شاعراً بالقوة على قطع المسافة على قدميك فانى استغنى عن احضار الدابة » فاجبته على الفور « انى قوي ولا ريب فى انى قادر على المشي فأين ابراهيم على ؟ »

أجابني احمد « هو الى جوارنا وسيكون مرشدك فى الصحراء المقفرة » كنا حقاً في ليلة مظلمة يزيد بها ظلاماً ما في مخيالي من وساوس أصرح بأنها ليست مرعبة كما كانت الحل قبل اجتياز النهر . والآن فلنترك الوسوس لنرجع الى ما حدث فى الرحلة فأقول إن ابراهيم ذهب أولاً بقربة فارغة فى يده سائراً فى طريق القوافل الموازية للنهر الى أبي حمد وقد تبعت صاحبي الجديد هذا وبعد أن

سرنا ما يقرب من ثلاثة أميال انجليزية نزل ابراهيم الى النهر وملأ القربة ثم غير خط السير بعد ذلك متجها الى الطريق البرية . اما السير فكان شاقا جداً لان الحجارة الضخمة التي غطت التلال وقامت حوالها عاقت سيرنا السريع أما عن شخصي فكنت كاليائس في سيره أتخبط مرة نحو اليمين في ذلك الحجر وأنسكع أخرى نحو اليسار في ذلك التل كأنما أنا في أقبح حالات السكر وما زلنا في حالنا هذه حتى وصلنا الى حفرة في الارض فأمرني ابراهيم بالوقوف عندها حيث قال لي بعد صمته الطويل « هذه هي البقعة التي عينها لي خالي فانتظر هنا هادئاً وفي مساء الغد سأحضر الجملين لمواصلة الرحلة وسأترك لك الخبز والماء فأودعك الآن لاني مضطر الى القيام بجميع معداتي وأرجو ان ألقاك في خير غداً » اذن بقيت وحدي مرة أخرى لارافقتي سوى ضوء الشمس واختلاف الافكار ولكني على أية حال كنت محتملاً ولم يكن الليل بساعاته القليلة الباقية وصباح اليوم التالي بالشئ الكثير غير المحتمل لابي نجوت من الخطر بعد عبور النهر واقتربت من الوصول الى أحبائي ووطني . غربت شمس يومنا الجديد وبعد غروبها بساعة سمعت صوت سير حيوانات مسرعة نحوى فنظرت بدقة واذا بي أجد أحمد عبد الله وفي صحبته رجلان علي حمارين . أقبل أحمد مسرعاً نحوى وضمني الى صدره مبتسماً ثم قال « الشكر لله الذي نجاك وينجيك وأما الرجلان اللذان معي فهما شقيقاي وقد حضرا معي ليسألا لك السلامة »

حيث الرجلين الجديدين تحية اخلاص ثم أدت وجهي الى أحمد وقلت له « ولكني لأفهم حقيقة ما جرى وأدرك من شكركم المتكرر لله آتي نجوت من خطر عظيم » فأجبنى أحمد بالطبع لم تعرف ما نم ولم تسمع عن الخطر العظيم الذي نجوت منه . باعجوبة فاصغ الى أحدثك ملياً ! منذ ثلاثة أيام علم زكي عثمان أمير بربر — ولا نعرف المصدر الذي علم منه — أن الحامية المصرية في مورات حصلت على امدادات جديدة كبيرة الاهمية وعظيمة الأثروغبة في مهاجمة القوة المهدية في أبي حمد فاضطر زكي عثمان الى ارسال مدد يدفع غارات المصريين وبالفعل قام اليوم من بربر ستون فارساً وثلاثمائة يادة ومروا بمساكننا ولا شك أنك تعرف المحاربين أنهم يسمون

الانصار وهم في مجموعهم ضخام الاجسام مقترسون أقرب الى الوحوش — في الفتك بالناس — منهم الى الآدميين

أثناء مرور اولئك كنا نجهز لك قسما من خروف ذبحناه ليكون زادا لك في الطريق فدهش الجنود عند مارأوا ما نقوم بتجهيزه وبعد أن ارتابوا في عملنا تفرقوا ونهبوا منا ما نهبوه وقد كنت حقا شديد الخذر من ناحيتهم وشديد الخوف على ما قد ينتابك من عسفهم اذا سادفوك في طريقهم ولكنى أحمد الله الآن لانهم اجتازوا الطريق الى أبي حمد ولتصحبهم لعنة الله وليصبحنا نصره وعونه فلجلاله الشكر الدائم ازاء حمايته لنا »

صحت بعد ذلك فترة هي فترة الدهول بعد نجاتي من ذلك الهول المروع ثم سجدت في خشوع كامل للخالق الصمد الذى نجاتي من ذلك الخطر العظيم بعد اذ لم نكن نتوقعه

علمت بعد ذلك أن الجنرال كتشير بأشار رئيس أركان حرب الجيش المصرى وصل الى وادى حلفا للقيام بالمناورات المعتادة وأن الضابط ماتشل بك قاد الاورطة السودانية الثانية عشرة ومائتين من الهجاة الى حلفا من كورسكو عن طريق مورات وهذا سبب الاشاعة عن تقوية حامية مورات وعن الهجوم المزعوم على أبي حمد

قال أحمد بعد ذلك ستتأخر الجمال قليلا لاني أمرت بأسراجها في داخل الحدود اثناء محبيء الدراويش خوفا من أن يستعملها الآخرون — اذا راوها — في نقل الذخيرة وبعض الحقايب العسكرية فاذا كنت شاعرا بالرغبة في البقاء هنا الى صباح الغد فاني موافقك على عملك لانا نستطيع بذلك الحصول على جمال مملوءة بالقوة . فاجبته على الفور (انى لا أرغب في أي تأخير وافضل في جميع الاحوال القيام بالرحلة حالا فان تأخير المدد والحاجة الى جمال كاملة القوة لا يحولان دون الاسراع في الرحيل وعلي اية حال فاني مملوء ثقة بان الجمال ستصل الينا سريعا

قبل منتصف الليل وصلت الينا ثلاثة جمال صحبة اثنين قدمهما لى أحمد عبد الله قائلاني (هذان مرشداك الجديدان ابراهيم على (ابن اخى) ويعقوب حسن

أحد اقربائى الاخضاء. وسيسير بك هذان الى الشيخ حامد فضاي زعيم عرب الاعراب الخاضعين للحكومة المصرية وهذا الاخير سيعينك فى الوصول الى اسوان)

بعد ذلك ملأنا قرب الماء وواصلنا رحلتنا . وعند البدء فى الرحيل قال لى أحمد ابن عبد الله (ارجوك أن تتجاوز عن التقصير فى أمام معدات الرحلة فان الخطأ ليس من ناحيتى واثن حرمت من الاكل الطيب فليدك من البلح والخبز ما يكفى لمقاومة غائلة الجوع)

ركبنا الجمال ثلاث ساعات ونصف ساعة فى طريق شرقية شمالية نحو الجانب الشرقى وكان ذلك قبل اشراق الشمس وعند ما بزغ نور الفجر وجدنا أنفسنا فى الجهة الشرقية من وادى الحمير (سعى باسم الحمير البرية التى تسكنه ويكاد هذا الوادى يخلو من النبات)

تقدمنا فى سيرنا فدلّت الطلائع على أننا فى صحراء حيث شاهدنا الرمال الممتدة فى كل ناحية وبقايا التلال فى بعض الجوانب ولم نجد على الاطلاق شجرة أو شيئاً من الزرع الاخضر . وبعد أن سرنا على تلك الحال يومين كاملين — دون استراحة على وجه عام — وصلنا الى تلال نوراني التى كانت محنة فيما مضى بقبائل عرب بشارن. يمتد هذا الوادى فى اتجاه شمالى شرقى فى معظم جهاته وتتخلله منحدرات وعرة تقوم على جوانبها أشجار الميموسا وفى تل جانبي من تلك التلال توجد أشجار مسماة باسم التل العام « نورانيه »

حلق ابراهيم على ناظريه من أعلى الجبل فتفقد الوادى فرآه خلوا من الناس فنصح لنا بدخوله فدخلناه ثم أسرعنا فى ادوا. جمالنا بالما. العذب وملء قربنا الثلاث اما البئر فنازلة فى قاع الوادى ما يقرب من عشرين قدماً ومنجهة الى ناحية مركزية على بعد خمس وعشرين ياردة والنزول الى عمق البئر بواسطة مدرجات حجرية صلبة وبما أن الآبار فى السودان أما كن اجتماع الناس فضلنا ترك البئر والذهاب الى مكان فى داخل الوادى فتركناها (البئر) وواصلنا سيرنا الى الداخل مدة لا تقل عن ثلاث ساعات مجتازين تلال نوراني

كان الفرق عظيماً بين المرشدين القدماء والجدد فالسابقون كانوا ممتلئين شجاعة

واخلاصا وعلى استعداد لتضحية حياتهم في سبيل اتقاذ حياتى أما اللاحقون فعلى
التقيض من ذلك لانهم كانوا دائما يتدمرون من عملهم الذى ينجيل لى أن احمد
عبد الله أجبرهم عليه احباراً ولم يتأخروا عن اظهار غضبهم لانهم لا ينامون النوم
الكافى ولا يأكلون الا كل الجيد . واني أذكر جيداً أن اهمال ابراهيم على ويعقوب
حسن أدى الى اضاءة حذائي وصندوق خاص لى فى الطريق وقد سبب لى ضياع
حذائي تعباً كثيراً فى المستقبل

وصلنا فى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالى — الخميس — الى احراش
أبي حمد وقد فضلت البقاء مختبئاً عن الانظار هناك على الرغم من عداء سكانه عداءاً
شديداً لاتباع المهدي

ذكرت قبلاً أن أحمد عبد الله أمر ابراهيم على ويعقوب حسن بالوصول لى الى
الشيخ حامد فضاي ولكنى أضيف الى ذلك أن هذا الرأى لم يرق فى أعينهما
جاء لى هذان الرجلان عصرأ وذكر لى المخاطر التى تهددهما بغيابهما اياماً
كثيرة عن قبيلتهما وبما أنه اصبح من المؤكد جدا وقوف الخليفة على خبر فراري
وعلى قسم من الطريق التى اجتزتها لم يكن لدى شك فى أنه سيستجوب الكثيرين
ممن يرتاب فى مساعدتهم لى فى الفرار خصوصا من قبيلة اولئك الجدد لانماثها فى
الصداقة الى الحكومة المصرية واذن ليس الخطر واقعاً على هذين الرجلين فحسب بل
على صديقى المخلص أحمد عبد الله ايضا . واخيراً اتفق رأيهما على الذهاب الى شخص
يعرفه كلاهما وبواسطة هذا الشخص اتابع رحلتى بأمان

تأكدت بعد ذلك أن الخير فى جوع هذين الرجلين لان بقائهما معى مضطرين
خائفين — فضلا عن عدم اخلاصهما الشديد فى مهمتهما — قد يعرضنى لخطر جسيم
واذن قبلت بسرور طلب الرجلين وانى لا أخفى عن القراء حقيقة كراهتى الشديدة
لهما لانهما كانا مجردين عن الاخلاص غير مباشرين بما قد يصيننى من شر ما دام
واثقين من نجاتهما وحدهما. ازا. ذلك طلبت منهما الاسراع فى الذهاب الى المكان
الجديد حتى يرجعا الى قبيلتهما ولا غرابة بعد ذلك أن يكون ابتعادهما عنى فوزاً
جديدا لى ومصدر راحة تامة وهدوء فكري

عند غروب الشمس حضر الرجل الجديد وهو من قبيلة عرب امرات واسمه حامد جرهوش البالغ من العمر حوالى خمسين عاما . وعند ما حياني حامد هذا قال لى « يسعى كل رجل الى مصلحته الخاصة فرشدك — ابراهيم ويعقوب اللذان أعرفهما معرفة تامة — برغبان فى أن أدلك على الطريق من مكاننا هذا الى اسوان وتأكد أنى مستعد للقيام بذلك ولكنى أريد الوقوف على ما سأحصل عليه ازاء هذا العمل الشاق » فأجبتة على الفور « سأعطيك يوم وصولنا الى اسوان مائة وعشرين ريالاً من عملة مارية ترينه علاوة على هدية خاصة أقدمها تبعاً لما تقوم لى به فى هذه الرحلة الجديدة »

قدم لى حامد بعد ذلك يده وقال لى « انى مرتاح الى ذلك وأتقبل المهمة فان الله ونبينا شاهدان على صدق ما أقول . وأما عن وعدك فاني أعرف عنصرك وأثق أن الرجل الابيض لا يكذب وإذر سأسير بك الى عشيرتك فى طرق جبلية غير مطروقة بأقدام الآدميين ولا يعرفها من مخلوقات الله سوى الطير الذى يخلق فى المعمور دون أن ينقل أسرار الناس الى الناس فاستعد للرحيل لانا سنواصل عملنا باذن الله بعد غروب الشمس »

اخترت أقوى الجمال الثلاثة لمواصلة الرحلة وأخذت قريتين مملوءتين بالماء . واتقسم الاكبر من البلح وكية من الذرة وعند ما خيم الليل وصل حامد الى المكان المعد لابتداء السفر . أما ابن حامد فسار راكباً الجمل الوحيد الذى يملكه للبحث عن غلال فى روابطاب القرية من النهر وتبعاً لذلك اضطر حامد لمراقبة ابنه سائراً على قدميه ولم يساعده على عمله الشاق هذا سوى ارادته الصادقة وقدميه القويتين . أما ابراهيم ويعقوب فعاد الى قبيلتهما وبطبيعة الحال لم أودعهما وداع الحزن ولم أذكر لهما فى معرض الشكر سوى كلمات قلائل لانى أكرر ما قلته قبلاً عن سرورى العظيم لا بتعادهما عنى .

بعد أن واصلنا سيرنا يومين احتزنا فى أثنائهما تلالاً صخرية . وصلنا فى صباح الاحد الى بئر صغيرة تكاد تحون خالية من الماء واسمها « شوف العين » وعلى الرغم

من ظهور ابتعاد القادمين اليها بقيت تبعاً لرغبة مرشدى في مكان يبعد ساعة عن هذه النقطة

كان طعامنا عبارة عن التمر وكية من الخبز صنعناها بايدينا وأقصد بذلك أن هذا الخبز كان لوقايتنا من الهلاك جوعاً فإن أى مخبز أوردنى يعرض للخطر العام اذا وجد بين جدرانها رغيف من الارغفة التي نعملها لانها في مجموعها كريهة في منظرها وطعمها . فطريقة صنع الخبز التي قام بها مرشدى هي جمع كمية من الحجارة حجم كل واحدة منها لا يزيد عن حجم بيضة الفرخة وبعد تكوينها يضع عليها أفراداً صغيرة من الخشب ثم يعجن الذرة في الماء ويضع في آنية خشبية ثم يشعل النار في الحطب والحجارة الصغيرة بواسطة حك الصوفان على حجر الصوان

بعد اشتعال النار في الحطب ينزع حامد الجمر من الحجارة الملتهبة ليضع عليه العجين وبعد ذلك يرد الجمر الى الحجارة . وبعد أن ينتهى من ذلك التقلب النارى يضرب العجين بالعصا الصغيرة حتى يزيل ما فيه من الرماد وآثار الحجارة الصغيرة هذا هو الخبز الذى تأكله فان لم تكن مدفوعين الى أكله بلذة النظر اليه فليس أقل من أن يدفعنا الى تناوله جوعنا الشديد

بعد أن ارتحنا قليلاً على مقربة من البئر واصلنا السير بضع ساعات حتى اتينا الى المنحدرات الاولى لجبال عتايي الممتدة بين البحر الاحمر ونهر النيل والتي يسكنها في ناحيتها الجنوبية عرب بشارن وأمران وفي ناحيتها الشمالية قبيلة العباددة تتفرع من بعض تلك النواحي الخالية من النبات أودية مملوءة بالغابات يسكنها رعاة الجمال التابعون للقبائل السالفة الذكر

اجتزنا بعد ذلك وادياً قريباً غير مطروق وواصلنا رحلتنا دون راحة لأنى كنت شديد الرغبة في مشاهدة أعزائي في أقرب وقت ممكن أضمن في نهايته السلامة من أخطار رحلتنا المتعبة المفزعة ورغم كوننا ناجين من كل خطر لانا تركنا الحدود المهدية وصرنا على الاراضي المصرية رغم ذلك أصر مرشدى على البقاء بعيدين عن عيون الرقباء والناظرين كاثنين من كانوا لانه خاف من أن تقع علينا عيون بعض التجار الذين يتعاملون مع السودان

وبما ان منزله قائم على الحدود وانه كان مضطراً — لاسباب مختلفة — الى الذهاب لبربر فمن الواجب على أن أقدر خدمته لي — في موقفه الخطير هذا — حق قدرها .

وفي الحق لم أجد بين من شاهدت في السودان رجلاً أقوى عزيمة وأسمى روحاً من صديقي الأخير هذا على الرغم من ضعف جسمه . ولا ريب في أن الطعام غير النظامي والسير المتواصل في كثير من الاحايين أثر آثراً سيئاً في صحة هذا المتقدم في السن . وعلاوة على ذلك شعر صاحبي حامد بالبرد الشديد الذي أوقعه أخيراً في حباتل المرض فاضطرت اشفاقاً عليه أن أعطيه عباءتي لتدفئته وأبقيت لنفسي المعطف الصغير والحزام الصوفي الكبير وقد وصلت في الرغبة في سرعة الوصول الى اسوان حذراً دفعني الى أن أعطيه جلي وأسير على قدي العارية فوق الاحجار أربعة أيام (سبب سيري عاري القدم هو اضاءة حذائي كما قلت قبلاً بواسطة ابراهيم ويعقوب) ولا ريب ان هذه الفترة أشق مراحل من الوجهة الصحية

خيل الينا قبل الوصول الى اسوان بأيام قلائل أن الجمل يتأمر علينا في اللحظة الأخيرة وليس ذلك غريباً فقد أتعبه المسير المتواصل دون راحة الا في النادر وعلاوة على ذلك أصيب في مقدم القدم بجرح زاد واتسع عند ما اصطدم الجمل بحجر مدبب فاضطرت الى أن أقطع جزءاً من حزامي لالف به بطن القدم والجزء المجروح من الجمل على أن أغير هذه اللقاقة كل أربع وعشرين ساعة وقد تعلمت ذلك من رعاة الجمال من دارفور وكل ما بيني وبينهم من خلاف أنهم يستعملون الجلد بدل الصوف آخر الامر قدر الله اللطيف بعباده أن ننزل في صباح السبت ١٦ مارس من أعلى منحدرات طريقنا فنشاهد نهر النيل السعيد ومدينة اسوان الممتدة على شاطئه وبطبيعة الحال أقر بالعجز الكلي عن وصف السرور الذي ملأ قلبي بعد الشكر لله ازاء النجاة والشعور بتحرير من العبودية فقد انتهت آلامي وقضى الله على مصائبي ونجوت حقاً من أيدي البرابرة الشديدي التعصب ووقعت عيناى أول مرة على مساكن شعب متمدين يخضع للقانون والنظام ويأتمر بحكامه بأوامر العدالة فحسب واتجه — ساعة وصولي الى اسوان — قلبي الطروب الى عرش الله الاسمى شاكراً

لحلاله حمايته وبعينه المرشدة . قوبلت بأعظم مظاهر الترحيب من معسكرات الضباط الانجليز الخاضعين لصاحب السمو الخديو وفي مساكن الضباط المصريين الذين لم يعلموا الا عند ما التقوا بى أنباء رحلتى المدهشة وقد تسابق كل من أولئك الضباط المصريين الكرام فى التفريج عن كربى القديم وفى جالب السرور الذى ينسبني آلامى ونكباتى السابقة . كان المحافظ العسكري فى ذلك الحين فى اسوان الكولونل هنتر باشا وكبار ضباطه الذين أذكركم فى هذه اللحظة هم البكاشيون جاكسون وسدنى وماتشليك ووطسون وقد قدم كل منهم أقصى ما يستطيع من مجاملة صادقة فشكرت لكل من أعماق قلبى ودعوت لهم بالخير وقبل تغيير ملابسى بملابس جديدة من التى قدمها لى أولئك الضباط طلب منى صديقى البكاشى ووطسون السماح له بأخذ صورتي — ووطسون هذا من أدق الرسامين — فقبلت طلبه مع الشكر .

أما عن صديقى حامد جر هوش فقد دفعت له — بواسطة بطرس بك سر كيس صديقى القديم ووكيل قنصلية إنجلترا فى اسوان — مائة وعشرين ريالاً من عملة مارية بربره وقدمت لحامد علاوة على ذلك هدية مالية وبعض الملابس والاسلحة وفوق هذا وذاك قدم له هنتر باشا عشرة جنيهات انجليزية تذكراً لوصولى سالماً الى اسوان وبعد ذلك ودعنى وداع الاخلاص وعاد الى قبيلته مسروراً مبتهجاً .

بعد قليل من وصولى الى اسوان وردت لى تفرافات التهاني أولها من الماجور لويس بك بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن معسكر وادى حلفا . وثانيها من رئيس الوكالة السياسية النمساوية فى مصر وهو البارون هولرفون أجيرج الذى تعب كثيراً فى سبيل اتقاذى . ثم من صديقى المخلص الماجور ونجت بك .

أول من حياني من أبناء وطني تحية شخصية هو البارون فكتور هيرنج ثم أولاده وقد كانوا جميعاً فى ذهبيتهم فى النيل .

صادف وصولى يوم قيام إحدى باخر البريد فاغتتمت الفرصة وتمكنت بمساعدة

ذى الشأن فى اسوان من مواصلة رحلتى بعد ظهر اليوم المذكور (١٦ مارس)

رافقتى جميع الضباط الانجليز والمصريين الى الباخرة ووقعت الفرقة العسكرية

السودانية النشيد النمساوى الوطنى على موسيقاها فذرفت عيناى الدموع حينئذ الى

الوطن العزيز ثم دخلت السفينة فارتفع المهتاف من جميع الركاب على اختلاف جنسياتهم فشكرت لهم جزيلاً ثم شكرت للضباط المقيمين في اسوان عنايتهم بي واخلاصهم لى . وفي الحق لم أكن مستحقاً كل ذلك التكريم وهذه الحفاوة ولم أجد — مع شعورى بالاحجل الشديد — سوى تقديم الشكر والدعاء للجميع بالخير .

كان معى في سفرى ماتشل بك قائد الفرقة السودانية الثانية عشرة والذي كانت مناوراته من وادي حلفا الى كورسكو عن طريق مورات سببا فى أكل الطعام المعد لى عند ما وقع عليه الجنود السودانيون وسبباً فى تغيير خط سيرى

عند ما وصلت مساء الاحد الى الاقصر تجلى عطف الاوريين المسافرين معى مرة أخرى وهنا تلقيت عن طريق البارون هولر تلغرافاً من شقيقائى العزيزات صادراً من عاصمة وطنى العزيز (فينا) فما أبهج تلك الساعة التى قرأت فيها تلغرافاً عليه امضاء باسماء شقيقائى العزيزات وعنوان فينا العزيزة .

فى الساعة الخامسة من مساء الاثنين وصلنا الى جرجا أقصى محطة جنوبية للسكك الحديدية المصرية ومنها ركبت القطار الى مصر حيث وصلت الساعة السادسة من صباح الثلاثاء ١٩ مارس

على الرغم من تلك الساعة المبكرة جداً فى الصباح وجدت على المحطة البارون هولر فون ايمرج وجميع موظفى السفارة النمساوية والقنصل النمساوى الدكتور كارل وترفون جورا كوشى وهناك أيضاً وجدت صديقى العزيز ونجى بك الذى لا أستطيع فى كلماتى القليلة هذه أن أعبر عن شكركى له . والى جانب اولئك شاهدت مراسل « التيمس » والاب روزنبولى وآخرين غيره ومع اولئك فونوغرافى يأخذ الصور المختلفة .

بعد أن صرفنا بضع دقائق فى تبادل التحيات سرنا الى السفارة النمساوية حيث بقيت مدة طويلة ضيفاً عند الرجل الطيب الشديد الاخلاص البارون هولر الذى قام بمجهود عظيم فى سبيل حررتى والذى لم يكن عمله ناجماً عن واجبه بصفته ممثل النمسا فى الحكومة المصرية ولكن كان صادراً عن عاطفة حية مشقة على شخص أصيب بالاسر المفزع

عند ما وصلت الى السفارة وجدت الغرف الخاصة مزينة باعلام وطني العزيز ومملوءة بالازهار والورد وقد كتب على باب السفارة « نحية صادقة للضيف الكريم » في ذات اليوم الذي وصلت فيه الى مصر تسلمت تلفرافات التهئة - بنجاني - من أفراد أسرني وأصدقائي ورقائني في المدرسة قديما ومن صحف عديدة في اوربا بصفة عامة والنمسا بصفة خاصة . واني لأنسى العطف العظيم الذي تفضل به على صاحب السمو الملكي الدوق ولهم أف ورتمبرج وصاحب السمو البرنس لويس استر هازي وقد كان كلاهما في حملة بوسنه عندما كنت أحارب مع فرقتي العسكرية ولا ريب في أني سأذكر دائما كلمات التشجيع التي نادى بها ذاك الرجلان العظيمان إزاء مصائبي الاولى وكلمات التهئة بعد الفرار من مقر الخليفة عبد الله المشهور بطغيانه .

بعد عودتي الى مصر بقليل تشرفت بمقابلة حضرة صاحب السمو خديو مصر الذي أنعم على برتبه الباشوية . دخلت السودان منذ ستة عشر عاما ككلازم أول في الجيش النمساوي وعند ما عينت حاكما لدارفور منحت من الحرية المصرية لقب أميرال أما الآن فرقيت الى درجة اللواء حسب نظام الجيش المصري

بعد أيام قلائل من تلك المقابلة السامية كنت واقفا في شرفة السفارة متطلعا الى جمال حديقتها في فصل الربيع فشاهدت طيرا مائيا أليفا الى جانب الاعشاب فتذكرت في الحال طير فالزرفين التابع لاسكانيانوفا توريدا الكائنة في روسيا الجنوبية ففي الحال دخلت غرفتي وكتبت له بيانا كاملا عن طير الكركي الذي أطلقه في عام ١٨٩٢ والذي قتل في دارشيفيه وفي الحق كنت مسرورا جدا بكتابة خطاب تفصيلي الى صاحب الاصلى لذلك الطير وما هي الا فترة صغيرة حتي ورد لي من فالزرفين رد على خطابي يشكرني فيه جزيلا ما ذكرته عنه ويدعوني لزيارته ولكني لسوء الحظ لم أتمكن من القيام بتلك الزيارة النفيسة لأنني ارتبطت بمواعيد كثيرة جداً حالت دون قبول الدعوة الجديدة

كثرت الدعوات الرسمية والخصوصية وتعددت الزيارات بحيث لم استطع القيام بعمل رسمي جدي قبل مرور بضعة أسابيع

كان أول عمل لي بطبيعة الحال كتابة تقرير رسمي مفصل أرفعه لرؤسائي الحريين وبعد ذلك بفترة بدأت في كتابة قصة حياتي في الاعوام الستة العشرة الاخيرة
أما صديقي القديم وزميلي في الاسر الاب أوهر ولدر الخطيب الديني في سواكن فقد انتهز أول فرصة وحضر خصيصا الي مصر لتحتني وفي الحق كان اجتماعا سبب سرور جديد لا أستطيع وصفه وقد شعرت براحة كلية لاني تمكنت شخصيا من تقديم شكرى الجزيل لهذا الصديق المخلص إزاء ما أبداه نحوي من مساعدة وتأيد.
اني أشعر بثقل في رأسي ودوران قد يعقبه الاغما. كلما أتذكر الحالة الماضية وأقارنها بالحالية وكلما أسرد حوادث مدة اثنتي عشرة سنة قضيتها أسيرا في أقصى حالات الاسر. وإزاء ذلك كله لم أستجمع قوى تفكيري قبل مرور فترة غير قصيرة الآن أشعر بأنى رجل من شعب متمدن ورجال مسلمين قترجع أفكارى الى البرابرة المتعصين الذين عشت معهم زمنا طويلا قاسيت فيه الآلام وواجهت المخاطر ثم أعود فأذكر رفاقي الذين لا يزالون تحت الاسر الممض وأتقي نظرة أسي على الامم الواقعة في حبال الاسر . فله أجزل الشكر على فضله العظيم حيث نجاني من الخطر الفادح وأوصلنى بالسلامة الي شعب هادي. أمين

الفصل التاسع عشر

الختام

بعد أن قضيت أكثر من ستة عشر عاما — من بينها اثنتا عشر عاما في الاسر الشنيع - في افريقيا منقطع الصلة عن العالم المتمددين قدر لي حظي السعيد أن أعود الى اوربا الا انه من الواجب عليّ أن أقول بأن تغيراً عظيماً في سبيل العمران حدث في افريقيا في هذه المدة فكثير من المناطق التي خاطر فيها أمثال المحرمين لفتجستون واسيك وجرانت ويكر وستانلي وكرون وبراز وجنكر وشونيفورت وهواب ولينز ومثات غيرهم بأرواحهم العزيزة في سبيل البحث عنها أصبحت (المناطق) قابلة الآن للنهوض المتمشي مع المدنية. في كثير من المناطق التي قاسى فيها المكتشفون قبلاً كثيراً من المخاطر توجد الآن قوى ومحطات عسكرية تساعد على نشر الامن وتسهيل التجارة التي تعد أهم عناصر التقدم في الجمات المذكورة .

لئن أطلعنا الى الدول صواحب الشأن في تلك المناطق فانا نجد في الشرق ايطاليا وانجلترا والمانيا وفي الغرب الكنفو (باجيكا) وفرنسا وانجلترا وتسعي كل من تلك الدول سعياً حثيثاً في زيادة النفوذ في جهات مختلفة وترمين جميعاً الى وضع الايدي على افريقيا الوسطي وقد بدأ رجال القبائل المتوحشة — الذين يعتبرون أقرب الى الحيوان منهم الى الانسان — يدركون حاجياتهم الضرورية وأن هناك أناساً ذوي مراتب سامية في أنفسهم ويرجع ذلك الى المقدار الذي حصلوا عليه من المدنية والتقدم ولا شك عندي في أن الممالك الاسلامية الصغيرة الشمالية كوادى بورنو وفلاتا سيدرك زعماءها حاجتهم للتعاون مع الدول العظمى في سبيل الاحتفاظ بحكمهم الوراثي

ذكرت المناطق السابقة ولم أشر الى الآن بشيء للبقعة التي قضيت فيها أكثر من عشر سنين ورغبت في ذلك منحصرة في تخصيص الذكر والكلام عند ورود اسم السودان بين المناطق الافريقية .

والآن أقول بانا نجد في الناحية المتوسطة من أفريقيا بين الاراضى المذكورة أخيراً وحيال القوي الاوربية الباسطة نفوذها في الشمال والجنوب والغرب نجد في تلك الناحية السودان المصري الذى يخضع اليوم لحكم الخليفة عبد الله واشياع المهدي وهم أشد الحكم قساوة واكثرهم ظلماً للراعايا .

ان الاوربي كائنا من كان لن يستطيع اجتياز ذلك السودان كزائر أو عامل وأقصى ما يحدث لذلك الاوربي لا يختلف عن أدنى ما يصينه سوى اختلاف جزئى لا يؤثر شيئاً في النفس التي اعتادت الحرية والتي خلقها الله في جسم الانسان لتشعر بسعادة الحياة الهادئة البعيدة عن العنف والمظالم من ناحية الحاكم صاحب الامر . وللإيجاز أقول بان أقصى ما يصيب الاوربي في السودان هو الموت وأدنى ما ينتابه هو البقاء طول حياته أو أغلبها أسيراً مغلوباً على أمره . قد لا يجد في الحقيقة فرقاً بين الموت وبين تلك الحالة المؤلمة ولكنى عن شخصي أجد اختلافاً ظاهراً هو تمتعى بالنجاة والحياة الحرة قبل موئى الطبيعي الهادى .

اذن يتعرض الاوربي السائر لتلك البلاد البعيدة عن المدنية والامتدة جنوباً على طول النيل الى الرجاف وشرقا الى غربى كسلا على مقربة من وادى - للموت السريع أو لعيش مرير تحيط به مظالم المستبدين

لم يكن السودان تحت حكم مصر على مثل ما أصف من شدة على الاوربيين ولم نكن نحن الغربيين نتضرع من أمثال تلك المظالم فما هى الا عشر سنوات منذ وقع السودان في قبضة المهديين حتى شاهدنا المظالم تترى والعنف يتوالى وانه لمن الحق أن أصرح بان السودان ظل اكثر من سبعين سنة — منذ دخله محمد على — تحت حكم مصر والمصريين فكان من ذلك العهد الطويل مفتوحاً للجميع ومستعداً لقبول كل جديد تأتى به المدنية ويدعو اليه العمران

تحت حكم المصريين انتشر التجار المصريون والاجانب على السواء في مدن السودان الرئيسية وفي الخرطوم ذاتها كان للدول الاوربية العظمى ممثلون محترمون من الجميع وقد كان الاجانب من جميع الدول الاوربية متمتعين بحق الدخول الى السودان والخروج منه وهم في كل من تينك الحائتين على آتم ما يتمنون من أمن

وهدوء وسلم. والى جانب ذلك سهلت المواصلات بين السودان وأبعد الممالك الاوربية بواسطة الرسائل التلغرافية والبريدية المنظمة

ان أعظم ما تمتع به السودان أثناء الحكم المصرى الطويل هو قيام كل فرد بشعائره الدينية وبنشر العلوم حسبما يوحى اليه ضميره فكنت ترى مساجد المسلمين وكنائس المسيحيين فى أماكن قريبة يقصدها أبناءها بمطلق الحرية وفى هدوء واطمئنان كما كنت ترى مدارس المسيحيين الاوريين منتشرة لتعليم العلوم الحديثة لا فرق فى ذلك بين الفلسفية منها والدينية والعلمية المحضة . كانت المناطق السودانية مقطوعة بقبائل مختلفة وكان العداء فى كثير من الاحيان شديداً بين رجال القبائل ولكن حزم الحكومة المصرية أدى الى نشر السلم بين السودانين على وجه عام سواء أكانوا فى ذلك راضين أم مرغمين

جاء دور المهديين فانقلب الحسن الى سىء وأصبحت الحال المهدية الجديدة غير الحال المصرية الاولى فانتشر الجزع والاضطراب فى البلاد السودانية وقد أبنت فى الفصول السابقة مقدار طمع وسوء ادارة الموظفين الجدد مما وصل بالبلاد الى حد أصبح ميسوراً معه نشوب الثورة

سعت جهدى فى الفصول السابقة الى شرح ما قام به محمد احمد لاستغلال الموقف والظهور بين القبائل المتقاتلة فقد أيقن ذلك الرجل أن السبيل الوحيدة التي توفق بين أولئك المتخاصمين هي سبيل الدين فادعى أنه المهدي المرسل من الله تعالى لتحرير البلاد من النير الاجنبى ولاحياء الدين فكان ذلك العمل من جانب المهدي سبباً رئيسياً فى ايجاد خلة التعصب الدينى الذميمة الذى زاد سوء الحالة فى الاثنتي عشرة سنة الاخيرة ودعا الى تدمير لامن الاجانب فحسب بل من السودانين أيضاً الذين وقعوا فى حبال الفوضى والظلم

كان من المستحيل نجاح الثورة بدون التعصب هذا الى أنا وقفنا به (التعصب) أمام حالة حرجية هي حالة الحرب والجهاد بين المختلفين فى الدين ومن الغريب فى امر ذلك السودان أنا لم نجد حالة توارن بين التعصب الممقوت والتسامح الحميد فكنا قريبين فى حالتنا من القرون الوسطى أو ما هو أبعد أمداً

سميت — عندما ذكرت حياتي وأعمالي في الفصول الأولى وعندما وقفت أمام
نذير التصعب الديني — إلى السير بخطي متثدة في سبيل تعقب الأسباب الرئيسية
التي دعت إلى الحالة لحاضرة ولئن قررنا حقاً أن الحالة تغيرت عما كانت عليه في
زمن المهدي وأوائل حكم الخليفة عبدالله فانا نذكر إلى جانب ذلك أن الموقف
لا يزال خطيراً وهو في حاجة إلى الأيدي العاملة بنشاط بعد معرفة الحقائق والتفصيل
حتى يتمكن أصحاب الشأن من معرفة السبل التي يتحتم عليهم عبورها للاحتفاظ بالمدينة
ونشر ألية العدل في ذلك الفضاء الواسع من الأمة التي هوت إلى حالة مكربة مؤلمة
لا نستطيع وصفها بعد أن ضعف فيها المستويان الرئيسيان لبقاء الأمم وهما الخلق
والدين. وإلى جانب ذلك نذكر ما يطعم إليه الجميع سواء في ذلك الوطنيون
والأجانب. من عدل شامل وطمانينة محققة.

إن أول من ما يتبادر إلى ذهن المفكر في شؤون السودان بعد قيام حكم المهديين
هو مصير المدينة الناشئة الجديدة التي وجدت في سني حكم المصريين منذ عهد محمد علي
فليس من شك في أن تغيير الحال وحلول الفوضى محل النظام يولدان في العقل
شعوراً صادقاً باقتضاء كل أثر ظهر للمدينة في السودان قبل المهديين وهذا ما حدث
بأفعل فقد اندثرت معالم المدينة رغم طراوتها وحدثها والسبب الرئيسي في اندثارها
هو انتقال الحكم إلى أولئك المستبدن الجهلة بل أذهب إلى أكثر من ذلك فأقول
إن سبب ضياع المدينة راجع إلى ظهور نفوذ أولئك الهمجيين الذين أسسوا على
اتقاض الحكومة السودانية المصرية السياسية نظاماً جديداً كان إلى حد ما متبعياً
خطوات النظام الماضي في العرض ولكنه خالفه في الجوهر فبدلاً من الحق والعدالة
والاخلاق في حكومة العهد المصري نجد الظلم والباطل البربري والتعبد من نظم
الاخلاق في حكومة المهديين وأتباعهم. وأنه لمن الواجب على أن أقرر للقراء
— غير مدفوع في ذلك بنزعة الثأر لنفسى مما قاست من ويلات ولكني مدفوع
بوازع الضمير رغبة في تحرير الحقيقة كلها — باني لن أستطيع ذكر أمة ظلت في
حياة المدينة أكثر من نصف قرن ثم هبطت إلى الدرك الأسفل من الهمجية غير
السودان.

لتفكر لحظة واحدة في تلك القوة الجديدة التي برزت بروز الشر ودعت الى الفوضى في ربوع السودان مما اعتبرها الاوربيون بحق عقبة كأداء في سبيل المدنية الناهضة . ونذيراً بفشل المساعي الكبرى التي بذلوها في السنوات الاخيرة في الكثير من جهات تلك القارة الافريقية الفسيحة.

سعت في الفصول الاولى الى تبيان آثر المهدي عندما صاح في الناس أول صيحة وعندما ظهر نفوذه الواسع في السودان فقد كان هذا الرجل سيد السودان الحقيقي فلم يكن يصدر أمراً حتي يسرع الاتباع لتليته وهم على استعداد لتفديته بالقلوب والارواح . كما آتي ذكرت التعصب الدميم اللعين الذي أوجده المهدي في حياته ثم أردفت ذلك بشرح تضاؤل ذلك التعصب بعد موته (المهدي) حيث حل محل القوة الدينية نفوذ جديد للخليفة عبدالله كان يتذرع فيه بالدين تذرعا اسمياً ولكنه في الحقيقة كان مدفوعاً بنزعة الظلم التي وجدت بين جنبيه منذ عرف الفارق بين الخير والشر . ولم تكن القسوة قاصرة على الخليفة عبدالله ولكنها تعدته الى عرب القبائل الغربية فقد حل أولئك محل الجنود المصريين فأهلكوا الزرع والنسل وحكموا السكان المنكودي الحظ بقضيب من حديد فذاق أولئك السودانيون كل مرارة وابتلاهم الله بشر أولئك الجدد المستبدين مما جعلهم يذكرون ليل نهار فضائل الحكم المصري ثم دفعهم أكثر من ذلك الى التذمر المنذر بالثورة والتطلع الى حكومة تمنحهم الهدوء والسلم .

انه لمن التطويل غير المحمود بل من التكرار الملل الموجه للنفس أن أعود لذكر الفظائع التي ارتكبها الخليفة عبد الله وأتباعه في سبيل احتفاظهم بمرا كزهم الدينية والحكومية ولكن من واجبي هنا أن أذكر لقرائي أن خمسة وسبعين في المائة — على أقل تقدير — من مجموع السكان في السودان ماتوا إما بالحرب وإما بالجوع وإما بالامراض الوبائية الفتاكة فيبقى لنا بعد ذلك أقل من خمسة وعشرين في المائة ليسوا في حقيقتهم أحسن حالا وأفضل عيشاً من الرقيق .

تذكرني كلمة الرقيق الاخيرة بذلك الطغيان البادي في تجارته في السودان ولئن كان الرقيق في بادىء أمره مقصوراً على العبيد فإنه — بعد امتداد نفوذ عبد الله —

يضم الى دائرته العدد الكبير من مسيحي الاحباش والسوريين والاقباط
والمصريين المسلمين

ان القدم الواسع من السودان الذى يحكمه الخليفة عبد الله اليوم قد تغير فى نظامه
عن الحكم المصرى ولكنه تغير لا يشرف صاحبه فقد أصبحت المناطق الخصبة المثرية
الآهلة بالسكان صحراء مقفرة يخاف الناس ولوجها . فانك اليوم تجد السهول الكبرى
التي وطئها أقدام قبائل العرب الغربية شبيهة بالصحارى لا يظهر فيها من المخلوقات
غير الوحوش الضارية أما مواطن الآدميين على شاطئ النيل فاصبحت مقطوعة
بيد القبائل المرتحلة بعد أن طرد أولئك أصحاب البلاد الاولين أو استبقوهم لاشي .
سوي تغليح الارض واستثمارها لخير الاسياد الجدد .

حرم السكان الاصليون من جميع وسائل الدفاع عن النفس وأصبحوا - بعد
مانزل بهم من جور وعسف - في حالة فقدوا معها كل أمل فى الحصول على العطف
من ناحية أولئك الاسياد الجدد . فضعفت أو تلاشت فيهم قوة المقاومة واذن
فالباقون من السكان الحاصلين على المساحات الضيقة المشرقة على النهر ليسوا أفضل
من العبيد فى غير حالة واحدة هي حين تعريضهم للبيع فى سوق الرقيق

ما الذى يستطيع أولئك البائسون المنكوبون عمله لمهاجمة أسيادهم الجدد الاقوياء ؟
إنهم أمام أحد أمرين فاما التسليم والبقاء فى عيش الذل . وإما الاعتراض وفى تلك
الحالة يلاقون آجالهم بحد السيف

انه لمن المغالاة والجنون المطبق أن يفكر أحد فى أن المغلوبين على أمرهم فى
عهد الخليفة عبد الله يستطيعون انهاء حالتهم المزرية بثورة داخلية لانهم لا يملكون
شيئا من معدات الدفاع أمام قوة الحكومة الظالمة واذن لا بد من وصول العون والمدد
من الخارج الى أولئك المنكوبين . وعلى السكان المحليين أن يتحققوا أن الخير فى
الثبات وعدم التقهر بعد ظهور حكومة عادلة جديدة لان ظهور أى دليل من دلائل
الضعف والمقاومة لروح المدنية الجديدة سيضر التقدم المقصود ضررا بليغا

انه لمن الواجب على السودانين - فى سبيل الاحتفاظ بتقدمهم المنشود والابتعاد

عن مصائب العسف والمظالم - أن يعتقدوا أن قوة الخليفة في ضعف مستمر لان ذلك الضعف أعظم مساعد لارتفاع كلمة الحق ورجوع عصر المدنية

عندئذ يستطيع السودانيون الوثوق في القوي الجديدة الخارجية التي ستساعدهم في تحطيم قيود العسف والتطويح بالامبراطورية المهديّة الجائزة

اني أطلب من القارىء أن يتمهل في الحكم على ضياع نفوذ المهدي وعبد الله ومن والاهما فقد يتصور البعض مما سبق أن ذلك النفوذ الشديد سيؤول قريبا ولكنى أعود فأؤكد أنه غير قابل للاندساس في حد ذاته ولكنه عرضة لذلك التدهور بمؤثر خارجي فحسب على أن ذلك يستغرق زمنا غير قليل

أحيل قراء الكتاب الى الفصول الاخيرة السالفة ليعرفوا مقدار ما اتخذ عبد الله في سبيل الاحتفاظ بقوته الداخلية طول حياته حيال أعدائه الداخليين فليس غريبا أن يظل ذلك الاعتقاد راسخا في فكر الخليفة وقابلا للتصديق عند الجميع مادام عبد الله في أمن من أي اعتداء خارجي وتدخل أجنبي . واذن من المؤكد أن هذا الرجل سيظل صاحب السلطان طول حياته . أما بعد موته فمن المحتمل بل من المؤكد أيضا أن انقلابا عظيما سيحدث في ربوع السودان وأن انفجارا هائلا سيتولد بعد الضغط الطويل

وأقرب ما يتبادر الى الذهن هو أن ذلك الانقلاب ينتهي الى خلع الاسرة التي غني عبد الله منذ تولى بخلافة المهديين بتأسيس حكمها الثابت ولكنى لا أستطيع التأكد بان ذلك التغيير سيقرب السودان الى مصادر المدنية اكثر مما هي الآن اذا عرفنا ذلك وجب علينا أن نقرر أن الخير لا يتم للسودان الا بواسطة مساعدة خارجية . ومهما يكن من شيء فان الغرض السابق قد لا يتفق اتفاقا رقيقا مع مقتضيات الحال في السودان اليوم

ان الذين يرغبون في دراسة حالة السودان الحاضرة ملزمون قبل أي اعتبار آخر أن يدركوا بان السودان اليوم ليس هو ذلك السودان في أيام اسماعيل باشا عند ما تجلت المدنية بواسطة نفوذ الحكومة المصرية في الوقت الذي كانت فيه البقاع والامم المختلفة المجاورة للنفوذ المصري اما في درك الهمجية واما عابدة للاوثان حيث

لم يستطع الاوربي ضمان النجاة لنفسه اذا اجتاز احداها علاوة على أن جميع الاوربيين لم يكونوا معروفين ولم تكن حتى دولة واحدة من القارة الاوربية معروفة لدى الامم المذكورة كما أن العرب لم يظهروا في غير القليل النادر

كان السودان اذن زهرة تلك البقاع والتميز عن جميع ماجاوره بماله من مدنية ونهوض وكان ذلك كله في العهد المصري ولكنى أقول .. كما قلت قبلا — ان الحمجية تطرقت الى جوانبه عند مجاء عهد المهديين

كان السودان على مقدار مذكور من المدنية والنهوض فأصبح منكودا متخبطاً في طرقات الجهالة والظلم بعد أن أقيمت مقاليد الحكم فيه الى قوة همجية وحشية تكره النفوذين الاوربي والعماني على حد سواء .

تلك هي الامة التي تعترض الطريق من النشور المركزية القائمة على وادى النيل الى البحر الابيض المتوسط كما أنها الامة التي تضع طابعها على المناطق التي كانت في وقت من الاوقات متمتعة بالهدوء والسلم وقابلة لكل مصدر من مصادر التجارة والمدنية والنهوض وانه لمن المحزن أن نذكر تدهور السودان وظهور ذلك الاضمحلال جلياً لان المناطق التي كانت منحة قبلاً أخذت تنهض وتقوى في حين نرى السودان متدهوراً .

أصبح من السهل وجود التبادل بين المناطق السالفة الذكر وبين العالم الخارجي وتدفق سبل التجارة بحيث لا يعترضه معترض كما كانت الحال قبلاً . فأصبح كل أجنبي آمناً على حياته من الخطر في حالة اجتياز أية منطقة وذلك بفضل حماية الحكومة الاوربية ويكاد يكون أحسن ما أذكره عن تلك المناطق أن العناصر الحمجية القائمة فيها أصبحت افرادها يدركون أن الخطأ والجهل كل الجهل في مقاومة تيار المدنية وان الخير كله في التمتع بظل النهوض الحديث

لنتقل فترة من التعميم الى التخصيص ونسأل عن حقيقة الموقف الحالي في السودان فنقول ان النفوذ المصري في الشرق السوداني يسير سيراً بطيئاً جداً لاسترداد ما كان له من اراض في الجهات المجاورة لسواكن وطوكر أما في الجنوب

الشرقي فقد استولى الايطاليون على كسلا وأجبروا المهديين على إقامة خط دفاع قوي في الشاطئ الغربي من نهر عطبرة

نسير مسافة الى الجنوب فلا نجد في الوقت الحالي رغبة بين الاحباش في تغيير ما بينهم وبين الدراويش من علاقات قديمة . أما في المناطق الجبلية التابعة لفازغلو والنيل الازرق فقد جاهر السكان بعدائهم للخليفة ورغبتهم في الابتعاد عن طاعته . نتجه جنوبا مسافة طويلة أخرى الى منابع النيل فنجد حركة جديدة للنفوذ الانجليزي وليس ذلك غريبا ففي تلك الجهات استطاع استيك وجرنل ويكي تخليد اسمائهم واسم أمتهم الانجليزية بما قاموا به من اكتشافات مجيدة كما أنهم اكتسبوا حب الاهالي بما بذلوه من مجهود ضد الرقيق وتجارتهم . ولا شك أن هذه الجهات ستصل قبل مرور وقت طويل بشاطئ النيل بواسطة سكة حديدية لا تساعد على فتح الجهات التي تجتازها فحسب بل ستساعد على ايجاد مخرج لتجارة الخط الاستوائي الجنوبي وما جاوره من الجهات واذن للنفوذ الانجليزي أثر ظاهر هنا بعد ذلك نذكر ولاية الكنفو الحرة التي تمكنت في السنوات القلائل الاخيرة — بفضل ما بذلته من مجهود عظيم — من ضم مقدار كبير عن الاراضي الى نفوذها

كان النفوذ الجديد لولاية الكنفو الحرة عظيما فلم يقتصر على مسيو مواوبانجي بل تعداه الى مناطق كثيرة من مديرية بحر الغزال وفي خط الاستواء حتى أن تلك الآلة تمكنت من التقدم الى المكان المجاور لنفوذ الدراويش في الرجاف الكائنة على وادي النيل

فما وراء ذلك النفوذ نجد على مقربة من أوبانجي العليا مساعي الفرنسيين وأحلامهم حيث يسعون السعى المتواصل في سبيل تحقيق آمالهم في تلك الناحية كما حققوها في جهات مختلفة من القارة الافريقية . اذا ذهبنا بعيداً الى الشمال الغربي وجدنا نفوذ الخليفة في المناظر القائمة هناك معدداً بعدد القبائل المختلفة التي سيصبح أفرادها قريبا أو بعد زمن طويل خاضعين بمحض إرادتهم للنفوذ الاوربي الممتد الى داخل افريقيا من الناحيتين الغربية والشمالية

أما في النهاية الشمالية فستقيم القوة المصرية التي بدأ الخليفة عبدالله يدرك خطرها

ويثق أنها، القوة المصرية، ستكون أول من يتقدم للتدخل في شئون امبراطوريته المضطربة المزعزعة الاركان

من ذلك البيان الموجز نطلع على الموقف الحالى—من الناحية الدفاعية الهجومية— للمهدى في السودان فانه كامل العدة ومتين الشهرة في داخل أملاكه ومناطق نفوذه ولكنه مهدد من جميع الجوانب الخارجية وهو ازاء ذلك التهديد لا يملك ما يدفع به غارة المحتاجين لان الشعب الذى يحكمه لا يخلص له بطبيعة الحال وقت الخطر والسبب في ذلك معروف لدى القارىء وهو الرغبة في التخلص من جور عبدالله بآية وسيلة وعندى قليل من الشك في أن امبراطورية الخليفة ستحطم ويتقلص ظلها قبل هجوم قوي أية دولة متمدينة

إذا ما الذى يجب عمله ؟

هل تصبح مصر مرة أخرى الحاكمة الفعلية الحقيقية للبلاد التى كانت مصر سيدتها الشرعية وما لكتها قبل حكم المهديين ؟

هل تدرك وتفهم جيداً كل مملكة من الممالك المتمدينة — السائرة مجردة عن الهوى الى شواطيء النيل الصالحة للملاحة — أن الواجب يقضى عليها بعدم محاولة قطع أو مقاومة مصدر حياة مصر النائية بتحويل منافع الماء الراوية الى الاراضى التى تحصل عليها كل منهن ؟

هل تسعى الممالك المتمدينة سعياً شريفاً في كل ما يعملنه وتفكر كل على حدة في أن الفضيلة تقتضي التجرد عن الهوى وعدم تعريض مصالح مصر للخطر ؟ هل نرضى كل مملكة رضا المحلص الشريف بعدم التقدم لسفك الدماء وانفاق الاموال في سبيل غير مشروعة كل ما فيها مكسب لا يبحى، إلا من اعتداء غير مشروع ؟

هل تدرك كل دولة أنه من غير اللائق أن تتدخل في شئون مصر وحقوقها

— حل في دائرة السياستين العملية والتدريبية وقد لا يكون من عملي

فيها ومناقشتها والافصاح عن غوامضها .

ان كل ما أرمي اليه هو الافضاء بآرائى المجردة عن الهوى والتى يدفعنى الى

تقريرها وازع من ضميري يذكري دائماً بأهمية وفائدة قيمة السودان لمصر وأناى
أصرح بمناصري لذلك الرأى ودفاعى عنه بكل مالى من قوة .

ان الاسباب التى دفعت محمد علي الى امتلاك السودان منذ ثلاثة أرباع قرن
(نذكر القارىء المصرى بأن سلاطين باشا كتب مؤلفه الذى ترجمه فى عام ١٨٩٥)
كانت ولا تزال وستبقى وجهة جداً ويكفى تلخيص ذلك فى أن النيل حياة مصر .
فالواجب إذن قائم فى حفظ وادي النيل من أى اعتداء واذن يجب على
المسؤولين أن ينظروا بعين اليقظة والحذر الى أى تقدم من جانب دولة أو دول
أجنبية الى طريق النيل العظيم لان الامر الذى لاربية فيه ولا جدال هو أن انشاء
مستعمرات على شواطئ النيل أمر عظيم الخطورة لان الدولة المستعمرة فى تلك
الناحية قد تغلب مصالحها الشخصية ومطامعها الجديدة على مصالح مصر وسعادة
المصريين وتقدمهم ورخائهم .

أذكر من الصفحات الاخيرة من كتابي فى الفصل الاخير اني أشرت فى
مواضع متفرقة من مؤلفى الى الاهمية العظمى التى لبحر الغزال وقد لا يكون من
التكرار ذكر ما لذلك الاقليم السودانى العظيم من أهمية وماله من شأن بالنسبة
للسودان على وجه عام .

ان ذلك الاقليم (بحر الغزال) أخصب أقاليم السودان ومساحته فى مجموعها
من أكبر المساحات المنتجة وأعظم ما يمتساز به بحر الغزال أنه يستمد ماء ريه من
مجموعة جداول ومجار مائية على أنه فى كثير من نواحيه مغطى بالجبال والغابات التى
تأوي اليها الافئال . أما الوديان الواطئة فخاضعة لحكم الفيضان

ان خصوبة تربة بحر الغزال تعد من الخيرات النادرة فى السودان فمن السهل
الحصول منها على كميات كبرى من القطن والمطاط . هذا الى كثرة ما فى البلاد من
أغنام وماشية .

أما عدد السكان فاستطيع تقديره بما يتراوح بين خمسة
والكثيرون من أولئك يصلحون لحمل السلاح الا أن العداوات المستمرة بين
القبائل المختلفة تحول دون أى اتفاق عام بين السكان وذلك أكبر مساعد للدولة

الاجنبية على التقدم للاقليم الكبير المذكور والحصول على نفوذ ظاهر فيه وإنشاء قوة حرية داخلية فيه منحازة الى جانب تلك الدولة فمن السهل بطبيعة الحال اتحاد قوة موالية في منطقة عرفت باشتداد الشحنة بين أفرادها وتنافر رجال قبائلها المختلفين كل ذلك مما يغري القوة الاجنبية الى التقدم ولكنى أعود فأذكر التقدم المجرد عن الهوي وعساني أكون مغاليا في توقع مثل ذلك العمل من أية دولة لا ترمي لغير شيء واحد هو مد نفوذها وتوسيع سلطاتها

كانت مشراع الرق ميناء بحر الغزل منذ ظهر حكم المصريين في السودان وقد اعتادت البواخر الصاعدة من الخرطوم اجتياز تلك الميناء في قترات دورية كل عام ولكنها في بعض الاحيان كانت تعطل في طريقها لما يعترضها من الاعشاب العائمة التي كانت بين آن وآخر تسد طريق النيل الاعلى . عند الناحية الجنوبية من فاشودة مباشرة يخرج النيل من بقعة يظن أنها كانت مقر بحيرة قديمة . تعترض ذلك السير الفسيح البطيء مجار مختلفة لجداول وأنهار وفي كثير من الاحيان تقف السدود في طريق السير السريع فكان المسافرون في كثير من الاحيان مضطرين الى قطع هذه السدود العشبية بالسيوف والفؤوس . ومما يذكر في هذا الصدد أن بعثة السر صموئيل بيكر تأخرت عاما كاملا عن انهاء مهمتها بسبب اعتراض تلك السدود (البعثة المذكورة استغرقت ما يقرب من أربعة أعوام من ١٨٧٠ الى ١٨٧٤)

بالاطلاع على ما تقدم نجد مركز بحر الغزال من الوجهتين الجغرافية والحرية — مع مقارنته بمراكز باقي أقاليم السودان — عظيم الاهمية واذا فوجد أية قوة أجنبية في السودان لا تنتظر لغير مصالحها الشخصية ونزعاتها الاستعمارية أو بمعنى آخر لايهمها بقاء المصالح المصرية في السودان سيجعل بقاءها (القوة الاجنبية) في مركز ممتاز يعرض مصر للخطر بل أذهب الى أكثر من ذلك فأقول إن ذلك البقاء سيحول دون تحقيق رغبة المصريين في استرداد أقاليمهم الاولى التي فقدوها في السودان وفي حالة رجوع مصر الى السودان مع بقاء تلك القوة الاجنبية سيكون نفوذ مصر في خطر دائم . والسبب الرئيسي في كل ذلك هو أن القوة الخارجية التي — تدخل بحر الغزال أو تسيطر عليه ستكون صاحبة النفوذ المطلق هناك وسيظل تحت يديها

كل مورد من موارد الخير في ذلك الاقليم العظيم الذي يعد من وجهة الرجال والمواد أكبر وأعظم أقسام وادي النيل

تكلمت كثيراً في الصفحات السابقة عن كل ما أعرفه عن حر كات ومطامع الاوربيين في هذا الصدد واني لا أستبعد أن أية محاولة حرية من جانب دولة أوربية في سبيل الوصول الى النيل عن طريق مشراع الرق أو بحر الحر أو بحر العرب ستلقى اعتراضاً كبيراً من جانب المهديين ولكن في الوقت نفسه أقرر أنه اذا حدث مثل ذلك الاعتراض وقابله نشاط من جانب القوة الاوربية الجديدة فالنتيجة المحتملة جداً هي ضياع مناطق المهديين من أيديهم

لو أن الخليفة عبد الله على علم بان الاوروبيين « البيض » الموجودين في بحر الغزال أقوى كثيراً مما يتصور وأكثراً عدداً وأعظم تدريباً مما يعرف عنهم بواسطة التقارير غير المضبوطة التي تقدم اليه بين آن وآخر — لو أنه علي علم بذلك لما تردد في مهاجمتهم قبل استفحال الخطر وفي تلك الحال يكون مضطراً الى ارسال مدد من جيوشه من أم درمان . وهذا العمل صعب وغير ميسور التنفيذ لان احتياطي جنوده يكاد يكون معدوداً ومنحصراً في تقوية مواضع الخطر من عطبرة مقابل كسلا وفي مديريه دنقلة . هذا البيان الموجز يوضح لنا ضعف قوة الخليفة ويثبت ما أشرت اليه سابقاً عن عدم تمكن عبد الله من أي وقوف في وجه اعتداء خارجي ولا ريب أن مثل ذلك النفوذ معرض للضياع ومهدد بالتلاشي خصوصاً اذا ذكرنا الى جانبه العداء الشديد الموجه من سكان البلاد الداخلية لحاكمهم عبد الله

نعود الآن عودة سطحية الى الموقف الدرويشي في دارفور وكردوفان فنذكر قبل كل شيء أن القوة الحالية للامير محمود لا تعدى بضعة آلاف من حاملي البنادق والضاربين بالرماح واولئك على قلتهم ليسوا في بقعة واحدة ولكنهم موزعون في مخامر الفاشر . أما محمود نفسه فيقيم في الفاشر مع القسم الاكبر من تلك القوة على أنه في مناورشات دائمة مع قبائل دارحجر ومسالت وتاما ويني حسين وحوتر وقبائل أخرى في منطقتي كيكيه وكلسكول .

لم يوفق الامير محمود توفيقاً متواصلاً في عمله وقد يرجع ذلك — الى حد ما —

قلة عدد المقاتلين معه أمام أعدائه الكثيرين ومهما يكن من شيء فاني أذكر لتقرير الوقائع أن أحد كبار مساعدي محمود الحريين واسمه فضل الله قد قتل أخيراً في معركة هجومية وهزم جنوده المحاربون معه (وعددهم ستائة) في معركة حامية مع القبائل المعادية الثائرة . واني أذكر جيداً أن الأوامر صدرت — في الوقت الذي غادرت فيه أم درمان — الى الأمير محمود بإرسال قوة لتأديب الثوار من الفاشر والظاهر أن هذه القوة نجحت نجاحاً جزئياً عوض شيئاً من الخسارة السالفة المذكورة التي مني بها الدراويش .

قد يحسن بي أن أذكر كلمة سطحية عن القبائل المذكورة المعادية لنفوذ المهدي فأقول إنها من الوجهة الظاهرية الصورية مستقلة أي أن استقلالها اسمي ولكنها في الواقع تدين بشيء من الطاعة الى سلطنة واداي . وأفراد القبائل المذكورة يعدون في الوقت نفسه على شيء كثير من الولاء لاصحاب النفوذ في سلطنة واداي وإذا من الخطأ الواضح أن يعتقد معتقد — كما شاع بين الكثيرين من الأوربيين وغيرهم في السودان وخارجه — أن أولئك الثائرين كانوا عاملين تحت قيادة راجح الزير . لأن هذا الزعيم السوداني (راجح) شديد العداء لواداي ولن يسمح بأن يكون المؤتمرون بأمره على شيء — ولو قليل جداً — من الولاء لواداي . وعلاوة على ذلك فإن نفوذ راجح هذا لا يمتد في مسافته الى الناحية الشرقية والمعروف والمحقق أنه (نفوذه) قائم في الاقسام الواقعة الى جنوبي وغربي بحيرة تشاد .

على تلك الحال كانت الشؤون جارية في تلك المناطق الجنوبية والغربية عندما غادرت السودان . ولم أكد أصل الى البيئة المتمدنة حتى قرأت في الصحف تقارير وأنباء غريبة ومتناقضة في بعض المواضع عن الحال في الاقاليم المذكورة

تكلمت كثيراً عن احتمال تقلص ظل الامبراطورية المهدية وتلاشي نفوذها في الوقت الذي تتقدم فيه دولة متمدنة الى قلب السودان ولكنني بخبرني الواسعة في السنين التي قضيتها في قلب النفوذ الدراويشي أقدم بمحض الاخلاص بكلمة تحذير الى الامة التي قضيت السنين الطوال في الاشادة بذكرها وطلب التقدم المستمر

لها وبمعنى آخر أريد التقدم بالنصيحة الى الامة التي دعوت لها بحياة ناهضة سعيدة
ازاء تجديد عهد السودان المصري .

انى اذكر لها فى ايجاز كلى أن المد والجزر لن ينتظرا انسانا كما أنها فى بعض
الاحيان لن يتركا فرصة البقاء لانسان

أريد فى ختام مؤلفي أن أكون أكثر صراحة فأقول إن مصر التي تطلعت
وتتطلع الى استرداد ما فقدته فى السودان من يدى الخليفة قد تقف فى سبيلها أمة
أخرى لا تكتفى باستخلاص المناطق من يدى الخليفة بل تعد الى عرقلة المساعي
المصرية والى إدخال وسائل الرى الهندسية فى الجهات التي تستمد منها مصر حياتها
المائية وفي ذلك خطر جسيم على مصر لان الدولة الجديدة صاحبة الوسائل الهندسية
ستنظر الى خيرها أولا فتهدد مصر تهديداً ظاهراً . واذاً — وهذا أخف الضررين
وأهون الشرين — ستحرم الدولة الجديدة صاحبة الحق القديم من خيارات التجارة
الواسعة التي كانت — تحت ادارة طيبة فى السودان — مصدر ثراء ونهوض
للقطر المصري صاحب الحق الشرعى ولكل أقاليم النيل المنضوية تحت لواء مصر

بهذه الكلمات القليلة الصادرة عن اخلاص شديد نحو الامة التي عدت اليها
بعد اثني عشر عاما من سنى الاسر الشديدة على النفس — أتقدم فى ختام مؤلفي
الى مصر ولكي قبل الختام أشير الى حادثة واحدة قد تساعد على رد ما فقدته مصر
من حيث الامل فى الاسترداد . عندما أجبرت فى شهر ديسمبر عام ١٨٨٣ على
الخضوع والتسليم لرجال المهدي كنت معترزا بسيف نفيس من سيوف الوطن النحساوي
وقد حفرت عليه بحروف عربية اسمى كاملا غير منقوص فى تفاصيله ولكنى حرمت
مع الاسف حق حمل ذلك السيف وبالتالي وقع بين أيدي رجال المهدي وبطبيعة
الحال لم أفكر لحظة واحدة فى استرداد ذلك السيف العزيز ولكنى عندما ذهبت
الى لندن فى شهر أغسطس عام ١٨٩٥ لحضور المؤتمر الجغرافى تسلمت هذا السيف
بواسطة المستر جون كوك أحد رؤساء شركة كوك وكان ذلك فى مكتبه فى لدجسيت
سركس . وقد ظهر لي أن المستر جون كوك اشترى ذلك السيف من وطني فى
الاقصر عام ١٨٩٠ عند ما كان ماراً بباخرته فى شاطئ النيل عند اسوان . فقد

شفق المستر جون باقتناء السيف لوجود الاسم العربي المحفور عليه وبعد قليل من شرائه تمكن بواسطة صديق الماجور ونجت من الوقوف على صاحب الاسم المحفور وهو بطبيعة الحال اسمي .

ونخيل لي أن المهدي قدم سني هدية لأحد أتباعه الذين اشتركوا في الغارة على مصر تحت قيادة النجومي في عام ١٨٨٩ وأنه عند ما تغلب الجنرال سرفرنسيس جرنفيل على النجومي في توسكي وقع حامل سلاحه بين المقتولين أو الأسرى وبعد ذلك أخذ أحد أفراد توسكي ذلك السلاح ثم سار به إلى مصر ووجد بحكم الصدفة في الأقصر أثناء مرور المستر جون كوك الذي تمكن من ابتياعه كأثر عربي . ان قد السلاح في مجاهل دارفور ثم الحصول عليه في قلب لندن أمر مدهش جداً وهو فوق المصادقات العادية . واذن لا قنوط ولا يأس فقد ترجع الأقاليم التي فقدت إلى يدي صاحبها القديم رجوعاً لم يكن يخطر على بال

عشت في خلال الأعوام الستة عشرة الأخيرة عيشة مدهشة لا يكاد يتصورها العقل وقد سعت جهدي في اثباتها إلى الحصول على اختبارات واسعة من أبسط عيشة في أيامي العادية البعيدة عن مظاهرها كلفة

شرحت لقرائي في الفصول السابقة كل ما حدث لي على أبسط صورة ولست أرمي من وراء ذلك إلى توليد الاهتمام والشعور بالخطر في قلوب المهتمين بالأسارى الأوربيين في السودان فحسب ولكنني قصدت أكثر من ذلك أن تكون لتفاصيل أهمية كبرى عند ما يجد وقت العمل وعند ما يبحث العاملون بحثاً جدياً في خلاص المغلوبين على أمرهم وعند ما يسمح الله باستخدام معلوماتي ومجهوداتي في سبيل إيادة الظلم الدرويشي وإزالة حكم سيدي الجائر وعدوى عبدالله الذي سيظل أعدائي طول الحياة التي أحيانا في الدنيا

بعد أن يزول ذلك العهد الجائر أدعو إلى تأسيس الحكومة العادلة التي تمنيت كثيراً ظهورها في السودان فبذلك يزول الظلم ويحل العدل والهدوء في إقليم كبير محتاج إلى المدنية الهادئة

